التراث الأثري في سورية

الواقع والآفاق

الدكتور سلطان محيسن

قسم الآثار

كلية الآداب

جامعة دمشق

مقدمة:

- **نشوء وتطور البحث الأثري في سورية**
  - ١- مرحلة ما قبل الاستقلال
  - ٢- مرحلة ما بعد الاستقلال
- **طبيعة التراث الأثري ومناهج البحث فيه**
  - ١- طبيعة التراث الأثـــري
  - ٢- مناهج البحث في التراث الأثـــري
    - أ- المسح الأثري
    - ب- التنقيب الأثري
    - ت- تأريخ المكتشفات الأثرية
  - ٣- مدارس الآثـــار

المكانة التاريخية والحضارية للتراث الأثري السوري

مقدمة

الآثار كلمة غدت متداولة على الألسن، وكل يفهمها حسب موقعه، يرى فيها البعض مجرد خرب ترمز للماضي البائد والمتخلف، ويعتقد آخرون أنها الطريقة إلى الحصول على المال والتحف والكنوز، ويظن غيرهم أن الآثار مهنة الفضوليين، وهواية المغامرين محبي اقتحام المغاور والمقابر. وهناك فريق يعتبر الآثار دليل تاريخ وحضارة البشر، وهي تمثل ذاكرة وماضي الأسلاف وأنها أداة التقدم الثقافي والاجتماعي. في الحقيقة إن الآثار فيها شيء من كل ذلك ، لكنها، وقبل كل شيء، بحث علمي دقيق حول أصل الإنسان والحضارة، وهي اختصاص يستخدم أحدث الوسائل والتقانات المخبرية والأرضية والفضائية التي تدرس أدق التفاصيل المتعلقة بحياة القدماء من كل جوانبها.

الآثار ثروة ثقافية وعلمية وتربوية واقتصادية ورأس مال وطني لا يضاهى. وكم هي محظوظة البلدان التي تمتلك مثل هذه الثروة. لم يعد خافياً على أحد بأن سورية تحتل مركز الصدارة بين الدول التراثية، فهي البلد الأهم والأغنى بالآثار العائدة إلى كل الحضارات والعصور. كانت سورية المهد الأول والأقدم للخطوات الكبرى التي حققتها البشرية عبر مسيرة امتدت مئات الآلاف من السنين، ظهر فيها الإنسان الأول منذ أكثر من مليون سنة خلت، وتحققت على أرضها انجازات عظمية في أكثر من مجال. هنا بدأت الزراعة والاستقرار، وتدجين الحيوانات، وصناعة الفخار والمعادن، وابتكار الكتابة والأبجدية، وممارسة التجارة والعمارة والفنون والمعتقدات وسن الأنظمة والقوانين وبناء الدول والمؤسسات. وفي سورية أشيدت أول المعابد والقصور والقلاع والمسارح والملاعب والحمامات والجسور والطرقات والأقنية والسدود والمكتبات والمدارس والمشافي والكنائس والجوامع وغيرها، وفيها مواقع أثرية ومدن تاريخية

وأوابد لا مثيل لها، دلت عليها ماري وإبلا وأوغاريت وتدمر وأفاميا وبصرى وقلاع حلب ودمشق وصلاح الدين والحصن، وغير ذلك من الشواهد التي تركها القدماء من سومريين وأكاديين وبابليين وآشوريين وكنعانيين وآراميين وفينيقيين ويونان وروممان وعرب ومسلمين.

ظهر في سورية رجال ونساء عظام، قادة وأباطرة وملكات، علماء ومفكرون وباباوات، حكموا روما أكبر إمبراطورية في عصرها، وعلى أرضها تعاقبت شعوب وحضارات كانت مثالاً للتعايش والتسامح والإبداع، وقد شكلت جسراً وصل، عبر طريق الحرير وغيره، مختلف أرجاء المعمورة، فكانت، وبحق، ملتقى الأمم والحضارات ومخزن التاريخ والوطن الثاني لكل إنسان متمدن على وجه الأرض.

بالرغم من كل ما هو مكشوف ومعروف، فإن سورية لا زالت تخبئ الكثير، وهي لم تقل كلمتها الأخيرة، ولم تبح بكل أسرارها بعد، لكنها تعزز، بعد كل كشف جديد، مكانتها التاريخية الفريدة.

من جانب آخر، يشهد العالم اهتماماً متصاعداً بالآثار، وتولي الدول والشعوب عناية خاصة بتراثها الأثري مطوِّرة طرق التعامل معه وتوظيفه السليم. وسورية بظروفها الراهنة وتراثها الهائل والفريد أحوج ما تكون إلى وقفة متأنية حول آثارها، وقفة تستذكر الماضي وتحلل الحاضر وتحدد آفاق المستقبل. تراثنا الأثري ثروة إستراتيجية نملكها اليوم وغداً، وهو ليس فقط مبعث اعتزاز، ودليل هوية وانتماء ومادة علمية وثقافية وتربوية، بل إنه أيضاً مصدر ريع اقتصادي يحقق ازدهارنا، ويعزز صمودنا.

آثارنا كفيلة بدحض الافتراءات حول حقوق تاريخية مزعومة للآخرين في أرضنا، وهي ضمانة الانتصار في معركتنا الثقافية والحضارية التي لا تقل ضراوة وأهمية عن معركتنا السياسية والعسكرية.

تحققت في سورية خطوات لا تنكر في مجال الآثار لكنها بقيت أقل من المطلوب، فالرؤية لازالت مشوشة والسياسات غير واضحة وقصيرة المدى، والإمكانيات ضعيفة، والدور الوطني محدود، والاختراقات مستمرة والأخطار من كل حجم ونوع متصاعدة. لابد من كلمة مخلصة وموقف صادق يحدد واقع وآفاق تراثنا الأثري ويفتح الطريق كي يأخذ هذا التراث وضعه الطبيعي في الداخل والخارج، موقف يؤكد إخلاصنا لوطننا ولمستقبل أجيالنا، ويبرهن على نضوجنا، أسوة بالآخرين، ويدفع عنا تهم الفساد والتخلف.

أردنا لهذا البحث المكثف أن يقدم إضاءات على هذا الطريق، مستفيدين من تجربة غنية ومعبرة، وسنوات طويلة قضيناها في خدمة سورية وتراثها الأثري العظيم (١).

أولاً : نشوء وتطور البحث الأثري في سورية

١- مرحلة ما قبل الاستقلال:

ارتبط نشوء علم الآثار في المشرق العربي القديم بعصر النهضة في أوروبة والبحث عن الجذور الدينية والأماكن المقدسة المرتبطة باليهودية والمسيحية وفق معلومات العهدين، القديم والجديد (٢)، على هذه الخلفية التوراتية الحالمة بالأرض الموعودة انطلقت، بعد أن فَسَحتِ الإمبراطورية العثمانية المجال، إلى الشرق رحلات الحجاج والسياح. تلتها حملات بعض المستكشفين والدارسين، مثل الدانماركي كارستن نيبور (F. C. Niebuhr) في منتصف القرن الثامن عشر، والسويسري لودفيك بوركهارت (J. L. Burkhardt) في مطلع القرن التاسع عشر (٣)، ثم بدأت في منتصف القرن التاسع عشر مرحلة الآثاريين الأوائل، وجلهم في حينه من السياسيين والعسكريين ورجال الدين، وأهمهم الفرنسي أميل بوتا (P. E. Botta) الذي نقب في نينوى، ودورشاروكن، والإنكليزي هنري ليارد (A. H. Layard) الذي نقب في كلخو وبابل في العراق.

أطلقت هذه التنقيبات حماساً دينياً غربياً كبيراً، استغل توافق بعض المكتشفات مع معلومات دينية وتوراتية متداولة، وأطلق حملة ترحيل كميات ضخمة من الآثار الرافدية إلى اللوفر (Louvre) والمتحف البريطاني (British Museum)، ليبدأ سباق فرنسي-بريطاني محموم للحصول على أكبر وأفضل قدر من الآثار، بأسرع وأقل التكاليف، مما ألحق بالآثار الرافدية أضراراً جسيمة (٤).

بنفس الوقت بدأ التعامل الغربي مع الآثار السورية، فكانت الأعمال الأولى للفرنسيين أرنست رينان (E. Renan) في الساحل السوري، ومليكيور دو فوغه (M. de Vogué) في سورية الوسطى، والأمريكي هوارد بتلر (H. Buttler) في شمال سورية، والإنكليزي روبرت وود (R. Wood) في تدمر، وغيرهم.

مهدت هذه الأعمال لبدء التنقيب الأثري الفعلي في سورية، وهي لازالت في ظل الحكم العثماني، في مطلع القرن العشرين. وكان أهمها تنقيبات الألماني ماكس فون أوبنهايم (M. von Oppenheim) في موقع تل حلف، جوزن القديمة، في حوض الخابور، والإنكليزيين ديفيد هوغارث (D. G. Hogarth) وليونارد وولي (L. Woolley) في كركميش قرب جرابلس، بينما نقب الألماني تيودور ڤيچاند (T. Weigand) في تدمر (٥).

أخذت الآثار السورية في عهد الانتداب الفرنسي منحاً جديداً، فهي وإن لم تعد منسية، كما كانت أيام العثمانيين، إلا أنها ارتبطت آنئذٍ، بشكل منهجي ومبرمج، بالسياسات الثقافية الفرنسية الخارجية، وغدت أحد أهم ركائز هذه السياسات كما صرح بذلك الفرنسيون أنفسهم، وجسدوه ممارسة وتطبيقاً، وبإشراف مباشر من الجنرال غورو (Gouraud) الذي كان خلف جميع الأنشطة التي جرت في هذا المجال، بما فيه إصدار مجلة Syria وإنشاء المعهد الفرنسي بدمشق، وإقامة المؤتمرات والندوات والمعارض وغيرها.

فقد عقد الفرنسيون أول مؤتمر عن الآثار السورية في مرسيليا عام ١٩١٩، وافتتحوا بنفس العام المتحف الوطني في المدرسة العادلية بدمشق، وسارعوا لإنشاء أول مديرية للآثار في سورية ولبنان، أسميت، بداية، مديرية الآثار والفنون الجميلة، ثم اقتصر الاسم على مديرية الآثار فقط. أوكلوا إدارتها لجوزيف شامونارد (J. Chamonard)، ثم تولاها عام ١٩٢٠ جان شارل فيرلو (J.-Ch. Virolleaud). تزامن ذلك مع سن قوانين جديدة غير القوانين العثمانية السابقة. ونظمت أعمال مسح وتنقيب طالت العديد من المواقع، مثل تدمر وحلب وأفاميا، كما أقام متحف اللوفر عام ١٩٢٣ أول معرض عن الآثار السورية، تلاه عام ١٩٢٦ عقد مؤتمر عالمي عن هذه الآثار، كان الأهم من نوعه في حينه (٦).

تولى عام ١٩٢٩ هنري سيريغ (H. Seyrig) إدارة الآثار السورية-اللبنانية، فاتسعت أعمال التنقيب وظهرت البعثات الأثرية الدائمة (Missions Permanentes) وعلى رأسها بعثة تل الحريري (ماري) ورأس الشمرا (أوغاريت) حيث أتت مكتشفات أثرية ونصوص كتابية أكدت المكانة الحضارية المتميزة لسورية القديمة (٧)، كما بدأت أعمال تنقيب في مواقع أرسلان طاش (حداتو) وتل أحمر (بيت عديني) في الجزيرة، وتل المشرفة (قطنا) قرب حمص.

وسمح الفرنسيون لأول مرة لبعثات غير فرنسية بالعمل في سورية، فكانت تنقيبات دانماركية في حماة، وبلجيكية في أفاميا، وإنكليزية في الجزيرة السورية، وأمريكية في منطقة العمق (٨).

افتتح عام ١٩٣٦ المتحف الوطني في مقره الحالي بدمشق، وأعيد عرضه على أساس زمني (كرونولوجي)، بعد أن كان تنظيمه السابق يعتمد المناطق الجغرافية، وتم التركيز في البناء الجديد على المرحلة الكلاسيكية التي أعارها الفرنسيون اهتماماً خاصاً، لارتباطها بالوجود اليوناني-الروماني في الشرق، بينما عرضت الآثار ما قبل

الكلاسيكية في متحف حلب، دون أن تعار الآثار الإسلامية أي اهتمام. كما صدر قانون جديد سمح باقتسام الآثار مع البعثات المنقبة التي حصلت (خاصة الفرنسية) على الكثير من المكتشفات في الوقت الذي منعت فيه دول أخرى (العراق ومصر) إخراج الآثار من بلادها، وبقي هذا القانون الأساس الذي استندت إليه قوانين الآثار في سورية ولبنان لاحقاً.

إثر تصاعد النشاط الأثري تم ، عام ١٩٣٨، فصل مديرية الآثار السورية عن اللبنانية، وإحداث مديريتين مستقلتين، وإتباعهما لوزارة التربية في البلدين، وبقي سيريغ على رأس الآثار السورية، بينما أوكلت إلى موريس دونان (M. Dunand) إدارة الآثار اللبنانية، ثم ترأس دونان، عام ١٩٤١، مديرية الآثار السورية.

تزامن ذلك مع اشتداد نضال القوى الوطنية السورية المطالبة بالاستقلال واتساع الكره الشعبي للفرنسيين. فغادر كثيرون منهم البلاد، وتخلى دونان، عام ١٩٤٥، عن منصبه كآخر فرنسي على رأس الآثار السورية، ودخلت مرحلة انتقالية، ١٩٤٥-١٩٤٦، أوكلت إدارة الآثار فيها للأمريكي فرانك برون (F. Brown) مدير بعثة تنقيب دورا أوروبوس، قبل أن يخلفه الأمير جعفر الحسني المدير السوري الأول للآثار بعد الاستقلال (٩).

واضح من هذا العرض الموجز بأن فرنسا كانت خلف ظهور العمل الأثري في سورية، بحثاً وإدارة وتنظيماً، وهي التي هيمنت على كل القرارات ذات الصلة بالآثار، منطلقة من سياسة ثقافية مارستها، ليس فقط في سورية، ولكن في دول أخرى في المنطقة، وبخاصة لبنان ومصر والعراق وإيران، وهي سياسة روجت للحضارات الكلاسيكية ذات الجذور التوراتية-المسيحية بامتداداتها الصليبية في العصور الوسطى، تاركة في الظل الآثار الإسلامية. كما نقل الفرنسيون إلى متاحفهم ما استطاعوا من المكتشفات الأثرية السورية، بينها الرقم الكتابية والقطع ذات القيمة العلمية والفنية

المتميزة، والتي شكلت أهم مقتنيات متحف اللوفر وقاعدة بناء مؤسساتهم المختصة بالآثار، وحققت لهم مردوداً علمياً وثقافياً ومادياً هاماً. لقد جعل الفرنسيون من الآثار إحدى أهم ركائز بنائهم السياسي والاستخباراتي والتبشيري أيضاً، فكان قرار الآثار بيد مندوبيهم الساميين وجيشهم ووزارة خارجيتهم مؤسسيين لما أصبح يعرف بالمدرسة الاستعمارية في الآثار «Colonial Archaeology» التي تداخلت أهدافها الدينية العنصرية مع العلمية والمادية والاقتصادية، وشكلت سمة النشاط الفرنسي في حقل الآثار على امتداد القرنين الماضيين، مع أنهم لم يكونوا الوحيدين في هذا المجال، فقد شاركهم، ومنذ البداية، الإنكليز، ثم انضم إليهم الأمريكان والألمان.

إن المدرسة الاستعمارية في الآثار، وإن غابت بمفهومها السياسي، بعد أن تحررت دول المنطقة، لكن امتداداتها العلمية والثقافية وتداعياتها الفكرية لا زالت مستمرة، وإن بدرجات وصيغ متفاوتة في الكثير من البلدان (١٠).

لقد احتكرت فرنسا العمل الأثري في سورية أيام الانتداب، وأبعدت ما أمكن من البعثات الغربية الأخرى، من إنكليزية أو ألمانية أو روسية، وأعاقت عملها بشتى الوسائل الإدارية وغيرها وصولاً إلى كيل اتهامات خطيرة لبعضها، كما حصل مع البارون ماكس فون اوبنهايم (١١).

بالرغم من اقتناع الفرنسيين بجلائهم عن البلاد لكنهم حرصوا بشتى الوسائل على ترسيخ نفوذهم في الآثار التي فاوضوا القوى الوطنية فيها على إعطائهم حق تعيين مديرها العام بعد الجلاء، وكانوا حريصين على أن تولى الأمور إلى محليين يحافظون على المصالح الفرنسية، دون الاهتمام بإعداد كوادر وطنية قد تأخذ مكانهم أو دوراً إلى جانبهم، مع أن تعهدات الانتداب كانت الالتزام بمساعدة سورية في بناء مؤسساتها الوطنية وكوادرها المحلية. وهذا ما تم فعلاً في عدة قطاعات، كالصحة والتعليم

والأمن إلا أن قطاع الآثار بقي حكراً كاملاً للفرنسيين لا دور فيه للسوريين من أي نوع كان، اللهم إلا الخدمات.

كل ذلك لا يعني بأن لا نقر بالجوانب الإيجابية للدور الفرنسي في إنشاء مؤسسة الآثار السورية والتعريف بتاريخ سورية وحضارتها القديمة من خلال أعمال ضخمة أنجزوها في مجال التنقيب والترميم والمتاحف والمخابر والمكتبات والمؤتمرات والمعارض والمنشورات وما إليها، وإن كان ذلك قد تم من خلال رؤية عنصرية- استعمارية، وعلى حساب الشخصية الوطنية والحضارية لبلدان المنطقة وشعوبها، بل إن فرنسا حرصت على تثبيت نفوذها في الآثار حتى في الدول التي لم تكن تحت انتدابها مباشرة، مثل مصر والعراق وفلسطين وغيرها، حيث ترك الانتداب البريطاني للفرنسيين حرية الحركة الواسعة في مجال الآثار في تلك البلدان بما في ذلك إدارتها مباشرة (١٢).

٢- مرحلة ما بعد الاستقلال:

لم تكن باستطاعة الأمير جعفر الحسني، أول مدير للآثار في العهد الوطني، إحداث تغيير يذكر في طبيعة المرحلة الانتدابية السابقة، فبقيت معظم الأنشطة بيد البعثات الأجنبية، الفرنسية بخاصة، وضمن التوجه المعروف، لكنها كانت خطوة سياسية وإدارية مهمة نحو بناء مؤسسة أثرية مستقلة واكبت بعض الأنشطة مثل إنشاء المتحف الوطني في مكانه الراهن، وإعادة بناء كنيس دورا أوروبوس والمدفن التدمري، وواجهة قصر الحير الغربي، في هذا المتحف، مع القيام بأعمال تنقيب بسيطة في بعض المناطق الجنوبية (١٣).

الخطوة التالية تجسدت في تعيين سليم عادل عبد الحق مديرا عاما للآثار عام ١٩٥٠، وما رافقها من إنجازات ملحوظة على أكثر من صعيد، فقد توسع المتحف الوطني بعد أن أضيف إليه قسم الآثار الإسلامية، المنسية سابقاً، وافتتح متحف التقاليد الشعبية في

قصر العظم ومتاحف أخرى في حلب وحماة وطرطوس وتدمر، وبدأت أعمال تنقيب وترميم وطنية في تدمر وبصرى وأفاميا وقلعة سمعان وقلعة الحصن وصلاح الدين وغيرها، وظهرت مجلة الحوليات الأثرية، وأنجزت المؤتمرات والندوات والمعارض وصدر قانون، وهيكلية جديدة، للآثار وفتح طريق التعاون مع المنظمات العالمية، وبخاصة اليونيسكو، إضافة إلى البدء بإعداد كوادر وطنية وغير ذلك من الخطوات التي أبرزت الطابع الوطني للآثار أكثر من أي وقت مضى، دون أن يعني ذلك الخروج الفعلي عن الأطر العامة للإرث الانتدابي السابق (١٤).

بعد ثورة الثامن من آذار، بدأت مرحلة جديدة في الآثار السورية، أخذت فيها بعين الاعتبار، وللمرة الأولى، أهمية الآثار في التوظيف القومي والإيديولوجي على خلفية الوحدة الحضارية للوطن العربي منذ أقدم العصور. لكن هذا التوجه بقي نظرياً دون تجسيد فعلي أو تبني من قبل الآثاريين أنفسهم أو الذين تناوبوا على إدارة الآثار منذ ذلك الوقت وحتى بداية التسعينات الماضية. وهو زمن أنجزت خلاله مشاريع كثيرة في المتاحف والترميم والمعارض، كما حصلت حملات تنقيب كبرى، بخاصة حملات الإنقاذ، إثر بناء السدود على الفرات، وأتت مكتشفات مبهرة من كل مكان وزمان، في الكوم وإيلا وتل موزان وتل بيدر وغيرها، كما سجلت مدن سورية على قائمة التراث العالمي، دمشق وحلب وبصرى وتدمر، وغير ذلك، من الأنشطة التي على أهميتها فهي لم تحصل في إطار سياسة ثابتة ورؤية بعيدة، إنما كانت إنجازات ظرفية مبعثرة مقترنة بمناسبات معينة؛ فكان الأداء على العموم دون المستوى المطلوب وبقي الضعف واضحاً في أكثر من نقطة، واستمر الجزء الأهم من البحث الأثري بيد البعثات الأجنبية، الفرنسية على رأسها، التي بقي بعضها يعمل في مناطق جغرافية واسعة، مسحاً وتنقيباً، لمئات المواقع الأثرية.

كل هذا، وغيره، دفع وزيرة الثقافة، في حينه، الدكتورة نجاح العطـار، ذات الحس الثقافي والوطني العميق، لندبي مديراً عاماً للآثار في عام ١٩٩٣. لا أريد هنا الدخول في تفاصيل إدارتي ولا تقويمها، تاركاً ذلك للأخريين وللوقت والمكان المناسبين، لكنني أؤكد بأن الإرث كان ثقيلاً وأنني سعيت مخلصاً لتحمل المسؤولية، واستطعنا رسم سياسات جديدة تأخذ بعين الاعتبار الأول مصالحنا الوطنية والتراثية. وحصلت إنجازات ملموسة على أكثر من صعيد، لكن يبدو أننا لم نكن جاهزين بعد لاستيعاب مثل هذه السياسات وإنجاحها، فعدت أدراجي إلى ملاكي الأصلي في جامعة دمشق، لتسير الأمور في اتجاهات أخرى سيقول الزمن رأيه فيها (١٥).

ثانياً : طبيعة التراث الأثري ومناهج البحث فيه:

١- طبيعة التراث الأثري:

التراث (Heritage) نوعان، تراث مادي وآخر غير مادي. وتعتبر الآثار المنقولة منها والثابتة، أهم شواهد التراث المادي، أي التراث الأثري (Archaeological Heritage) الذي يشمل كل ما تركته المجتمعات القديمة من بقايا ملموسة تدل على أنشطتها الاقتصادية والاجتماعية المختلفة، فهو بذلك يضم العمارة والأدوات والفنون وبقايا النباتات والحيوانات القديمة، وكل ما هو ناتج عن تدخل الإنسان، أي التدخل الحضاري المقصود (١٦).

يميز المختصون بين البقايا الطبيعية التي لا دخل للإنسان فيها وبين البقايا الأثرية التي تتشكل بفعل النشاط الإنساني، وفق عملية مركبة ومتباينة ومرتبطة بطبيعة الجهد الذي أنتجها في الزمان والمكان. وتختلف درجة حفظ البقايا الأثرية حسب مادتها ونوعية التربة التي تضمها، والزمن الذي مر عليها. فالبقايا ذات المنشأ العضوي (Organic Material) كالعظم والخشب والجلد والقماش تكون معرضة للاختفاء السريع. والذهب والفضة والرصاص أكثر مقاومة من النحاس والحديد والبرونز. والتربة الحوّارية

تحفظ الآثار بشكل أفضل من التربة الغنية بالأسيد، والمناخ المعتدل أفضل من المناخ المداري، والبيئة الرملية الجافة، والجليدية الباردة تحافظ على ما فيها أكثر من البيئة الرطبة والمالحة، كما تؤمن البحيرات والمستنقعات وسطاً مناسباً لحفظ المواد العضوية، وتساعد البراكين والحرائق، أحياناً، على تقوية المواد القديمة، وبخاصة إذا كانت من الطين.

البقايا غير العضوية (In-organic Material) هي الأكثر مقاومة لكل أنواع التلف والتآكل وفي مختلف الظروف والمناخات. فالمواد المصنوعة من الحجر، الأدوات الحجرية، والأواني الفخارية تبقى سليمة لآلاف السنين، وهي تقدم معلومات غزيرة عن المجتمعات القديمة (١٧).

تنتشر في سورية الشواهد الأثرية من كل نوع وتمثل دلائل مادية على الاستيطان البشري القديم، فالأدوات الحجرية، من عصور ما قبل التاريخ، تتواجد في المغاور والملاجئ الصخرية أو على سطح الأرض المكشوفة مباشرة، ويمكن أن تكون مصدر هذه الأدوات المواقع، المعسكرات السليمة، التي أقامها ذلك الإنسان، أو المخربة نتيجة عوامل شتى، كما في منطقة الكوم في البادية السورية. توجد آثار العصور التاريخية القديمة، عصور البرونز، في بطون التلال الأثرية المتفاوتة في حجومها وأزمنتها وأهميتها، وتعتبر هذه التلال، باسمها العربي المتداول (Tells) من السمات الدالة على الحضارات الشرقية. كشف فيها عن معظم عواصم ومدن الشرق القديم، بما فيها تلك التي أتت من سورية، مثل ماري وإيبلا وأوغاريت. وتعتبر منطقة الجزيرة السورية من أغنى المناطق المحلية والعالمية بهذا النمط من المواقع، التلال، ذات البقايا العمرانية، المصنوعة من اللبن والتراب عموماً، أو حسب طبيعة خامات المنطقة التي تتواجد فيها. إن التجمع الأكبر لآثار العصور الكلاسيكية، الهلنستية والرومانية والبيزنطية، هو في المناطق الغربية من سورية، حيث المواقع ذات العمران الحجري،

مثل أفاميا، لكنها أيضاً تتواجد في البادية، وأهمها تدمر، وعلى الفرات كما دورا أوروبوس.

في سورية منطقتان تراثيتان متميزتان (Zones Archaeologiques) تضمان عدداً كبيراً ومتكاملاً من المستوطنات. المنطقة الأولى، الشمالية، وتعرف باسم المدن الميتة (Dead Cities) ذات الأبنية الحجرية الكلسية الممتدة بين حماة جنوباً وأنطاكية شمالاً، وفيها حوالي /٧٠٠/ موقع، مثل قلعة سمعان والبارا وسرجيلا. المنطقة الثانية، الجنوبية، في حوران وجبل العرب، مواقعها أقل، حوالي /١٠٠/ موقع، أبنيتها حجرية سوداء، بازلتية، مثل بصرى وقنوات وشهبا.

المواقع العائدة للعصر الإسلامي معظمها لا زالت حية ومسكونة أو مستخدمة مثل دمشق وحلب وحماة وحمص. وهناك الأوابد المتنوعة من خانات وحمامات وجوامع ومدارس وقلاع منتشرة من غرب البلاد، صلاح الدين والمرقب، إلى وسطها، قلعة الحصن، وحتى البادية والفرات، الرقة والرحبة وجعبر (١٨).

٢- مناهج البحث في التراث الأثري:

لم تعد أهداف البحث الأثري مقتصرة على دراسة ووصف المواقع واللقى الأثرية، بل اتسعت تلك الأهداف لتشمل دراسة المجتمع القديم بأنشطته المختلفة، وفي إطاره الجغرافي المحيط، بهدف فهم العلاقة والتأثير المتبادل بين الإنسان وبيئته، من حيث التكيّف واستغلال الخامات والفاعلية التقنية، وما إلى ذلك.

يستخدم المختصون، وصولاً لتحقيق الأهداف المطلوبة، وسائلاً وطرقاً عديدة ومتنوعة، حقلية ومخبرية، بعضها عادي وبسيط، بينما يرتبط بعضها الآخر بأعقد وأدق التقانات الحديثة، الموصلة إلى كشف المواقع والآثار، مروراً بتوثيقها وتنقيبها، وانتهاءً بدراستها وتأريخها.

آ- المسح الأثري

أبسط أشكاله وأكثرها شيوعاً هو المسح الأرضي (Ground Survey) سواء المنظم أو العشوائي، الذي يتم بعد جمع الوثائق المتوفرة، من خرائط أو معلومات، عن المنطقة المعنية، ثم تمشيطها، سيراً على الأقدام، لتحديد معالمها الأثرية. ويذكر أن الإنكليزي ماكس مالون (Max Mallowan) كان أول من طبق هذا النوع من المسح في الجزيرة السورية منذ ثلاثينات القرن الماضي (١٩). وهناك المسح الجوي عبر التصوير من الطائرات، أو البوالين الطائرة، وبأوضاع مختلفة (Aerial Photography)، يليه تحديد الظواهر الأثرية على الصور الملتقطة. بدأت هذه الطريقة تأخذ دوراً حيوياً ومتطوراً باستخدام التقانات الرقمية والحاسوب، مع الإشارة بأن أول مسح جوي من هذا النوع قد تم في سورية كان في عام ١٩٢٥ من قبل الأب أنطوان بوادبار (A. Poidebard) للكشف عن خطوط وأبراج الدفاع الرومانية في الصحراء السورية (٢٠).

يتم، أيضاً، الكشف عن المواقع الأثرية باستخدام الصور الجوية الفضائية الملتقطة بواسطة الأقمار الصناعية والاستشعار عن بعد (Satellites and Remote Sensing)، وهي طريقة أعطت نتائج باهرة سواء في المناطق القاحلة أو المشجرة ذات المعالم الغامضة، ويتسع الآن استخدامها بعد أن غدت نفقاتها أقل وتطبقها بعثات أثرية عديدة عاملة في سورية، وبخاصة في مناطق واسعة (٢١).

إلى جانب المسح فوق الأرض هناك المسح داخل الأرض الذي له أيضاً طرق متعددة، أبسطها المجسات (Probes) عبر قضبان حديدية تغرس في بطن التربة لتلمس طبيعة ما فيها من آثار. ويمكن أن تزوَّد هذه المجسات بكاميرات متطورة تلتقط صوراً من داخل الأرض. هناك طريقة الاستشعار الكهربائي (Electrical Resistivity) التي تتم عبر إرسال طاقة تيار كهربائي إلى داخل التربة وقياس، على شاشة خاصة، انعكاس مقاومة هذه التربة للتيار المرسل الذي يعكس طبيعة التربة، فالأحجار أكثر مقاومة من

الطين أو الخشب. وتساعد قراءة اتجاهات هذه المقاومة في تحديد طبيعة البقايا المعمارية بخاصة، الموجودة داخل التربة. أما الطريقة المغناطيسية فهي تعتمد على استخدام جهاز راصد للمعادن (Magnetometer) التي يمكن أن تتواجد في بطن الأرض، وهو جهاز، للأسف، شائع الاستخدام كثيراً من قبل المنقبين السريين ولصوص الآثار، الذين سبقوا في الحصول عليه المؤسسات العلمية المختصة. طريقة أخرى هي الصوتية (Eco-sounding) التي تتم باستخدام المطارق الخشبية المتنوعة الأوزان التي تُضرب بها الأرض، ويُرصد صداها الذي يكون واضحاً إذا كانت التربة أثرية، بينما لا صدى للتربة غير الأثرية. كما ويساعد تحليل عينات من التربة وتحديد مكوناتها في تبيان فيما إذا كانت تضم عناصر استيطان بشري أم لا، وما إلى ذلك من الوسائل التي تتطور باستمرار.

نضيف بأن عمليات المسح الأثري على تنوعها هي، على العموم، مقارنة بالتنقيب، أسهل وأسرع وأقل كلفة، وهي لا تؤذي المواقع الأثرية، ويمكن تكرارها كلما أردنا، وميزتها أنها تقدم معلومات، وإن كانت قليلة، لكنها تغطي مناطق واسعة بينما التنقيب فهو، عكس المسح، دقيق، معقد، طويل ومكلف، ويخرب المواقع، ولا يمكن تكراره، وهو، إن كان يقدم معلومات كثيرة، لكنها تبقى مقتصرة على الموقع الواحد المنقب(٢٢).

كشف المواقع الأثرية ما هو إلا خطوة أولى نحو توثيق هذه المواقع. يكون هذا التوثيق عادياً بشكل عام، ولكن بدأت منذ بعض الوقت محاولات استخدام نظام المعلومات الجغرافي (Geographical Information System GIS) الأكثر شمولية ودقة والذي يقوم على إنشاء قاعدة معلومات رقمية (أرشيف معلوماتي) متكاملة وضخمة عن المنطقة والمواقع الأثرية المدروسة والمنقبة، تخزن وتستخدم معلوماتها كلما دعت الحاجة، موفرة الدقة والفاعلية، ومحققة التواصل عبر الشبكات الرقمية بين الباحثين(٢٣).

ب ـ التنقيب الأثري:

إن الوسيلة الأفضل والأصدق للتعرف على حقيقة أي موقع أثري هي تنقيبه (Excavation) والتنقيب الأثري عملية فنية وعلمية لها أسسها وتقاناتها الدقيقة، وهي تقوم على مبدأ الكشف الأفقي (Horizontal) عن البقايا الأثرية بهدف تحديد انتشارها المكاني، بالتزامن مع الكشف العامودي (Vertical) عن تلك البقايا لتحديد توضع طبقاتها فوق بعضها وتتابعها الزمني. هناك طرق عامة ومتعارف عليها للتنقيب، وهي مستخدمة على نطاق واسع، بغض النظر عن التفاصيل التي قد تفرضها طبيعة العمل. يعتبر الإنكليزي مورتمور ويلير (M. Wheeler) رائد علم التنقيب الأثري، كما مارسه سواء في انكلترا أو في الهند. تعتمد طريقته المسماة "شبكة الصناديق" (Box-grids) على إنجاز حفر على شكل صناديق متجاورة، والهبوط بها من أعلى إلى أسفل أي عبر الكشف الأفقي والعامودي عن الطبقات الأثرية، ورصد ظواهرها وموجوداتها، وتوثيقها، وفق الأبعاد الثلاثية (X.Y.Z) التي تحدد اتجاهاتها وعمقها. كما طبق الإنكليزي فليب باركر (Ph. Barker) طريقة أخرى تعتمد على مبدأ المناطق المفتوحة (Open-Area) عبر كشف مناطق واسعة، وليس مجرد مربعات محددة، وتنقيبها سطحياً، أي أفقياً، وعمقاً، أي عامودياً (٢٤).

في الحقيقة، ليس هنالك من طريقة وحيدة للتنقيب، ويمكن أن تستخدم أكثر من طريقة في الموقع الواحد، نظراً لطبيعة الموقع أو هدف عملية التنقيب. وغالباً ما تنقب التلال الأثرية بطريقة السبر المتدرج (Step-Trenching) الذي يبدأ متسعاً في أعلى التل وينتهي ضيقاً في أسفله، محققاً الكشف عن التوضّع المتتابع للطبقات الأثرية، إضافة إلى عنصر الأمان الذي يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار الأول في كل عملية تنقيب، تحسباً لأية مخاطر قد تكون قاتلة، كما أثبتت التجارب.

يعتبر علم الستراتغرافيا (Stratygraphy)، أي دراسة توضّع الطبقات الأثرية، والجيولوجية، فوق بعضها البعض، العمود الفقري في أية عملية تنقيب في المواقع التي تتضمن أكثر من عصر أو مرحلة. لأن هذه الطبقات هي التي تعكس السيرة الكاملة للاستيطان الإنساني في الموقع على امتداد الزمن، وهي التي تبين طبيعة ومدة هذا الاستيطان أو الهجران، وتبدله عبر الزمن، وهذا ما يجب على الباحث الأثري قراءته بدقة كي لا تختلط العصور أو الحضارات وتضيع الصورة التاريخية الحقيقية للمكان. التنقيب الأثري عملية حساسة تشبه العمليات الجراحية، وهي تخريب، منهجي ومنظم، للموقع الأثري لأن كل ما ينقب لا يمكن أن يستعاد، أي أن الخطأ في التنقيب لا يمكن استدراكه أو إصلاحه. لذلك يجب أن تنفذ هذه العملية بدقة وتوثيق كاملين لكل الظواهر المكتشفة، وأن لا توكل لمن ليس لديه الخبرة الكافية. يحتاج التنقيب لإمكانيات جسدية وذهنية يجب توفرها عند المنقبين، وله متطلبات فنية ومالية، ولابد أن تحكمه علاقات علمية وشخصية سليمة بين المنقبين أنفسهم، وبينهم وبين أفراد المجتمع المحلي والبلد الذي يعملون فيه. غني عن القول بأن النشر العلمي يجب أن يتبع أية عملية تنقيب وضمن مدة زمنية معقولة، تعميماً للفائدة، وتطويراً للتعاون والتواصل بين الباحثين، على اختلاف مناطقهم.

ج ـ تأريخ المكتشفات الأثرية:

لا تستطيع الذاكرة البشرية توثيق الماضي واستيعابه دون تحديده زمنياً، وعليه فإن علم التأريخ، أو الكرونولوجيا (Chronology) هو أحد ركائز البحث الأثري والتاريخي. هناك نوعان من التأريخ: الأول نسبي، والثاني مطلق.

التأريخ النسبي (Relative Chronology) يعتمد على استخدام الطرق التي تعطي إطاراً زمنياً عاماً عن الظاهرة المدروسة. تعتبر الطريقة الستراتغرافية، أي تتابع الطبقات الأثرية، من أهم وسائل التأريخ النسبي، انطلاقاً من مبدأ أن الطبقات الأدنى، في

الموقع المعني، هي أقدم من الطبقات الأعلى، التي ترسبت فوقها في زمن لاحق، ما لم يكن قد حصل تشوش في التوضّع الطبيعي لتلك الطبقات بسبب عوامل طبيعية أو بشرية. تشكل القطع والمكتشفات الأثرية وسيلة أخرى في التأريخ النسبي، فلهذه القطع الأثرية أنماط (Typology) وأشكال معينة، وهي قد نفذت وفق تقانات (Technology) محددة، ويمكن من خلال تحديد نمط وتقنية القطع الأثرية المكتشفة، وبخاصة الأسلحة والأدوات الحجرية والفخارية، التعرُّف على عمرها النسبي.

تلعب الدراسات المناخية والجيولوجية، أي الدراسات الجيومورفولوجية المتعلقة بالزمن الرابع (Quaternary) دوراً رئيساً في مجال التأريخ النسبي، لأن التبدلات المناخية بين الباردة والحارة تنعكس على الأرض بشكل ترسبات جيولوجية، تأخذ شكل مصاطب (Terraces) في وديان الأنهار وشواطئ (Shores) على السواحل، وتكون هذه المصاطب والشواطئ متدرجة في ارتفاعها وفي بعدها عن مياه النهر أو البحر. أقدمها هو أعلاها وأبعدها عن مستوى الماء وأحدثها هو أدناها وأقربها إلى الماء. فالآثار التي تكتشف ضمن هذه الترسبات تكون عادة من نفس عمرها، مع الأخذ بعين الاعتبار بأن عوامل الحت والجرف تسبب انتقال آثار أقدم إلى طبقات أحدث، ولكن ليس العكس، أي في النهاية يُحدَّد عمر الطبقة من خلال الأثر الأحدث المتواجد فيها.

لقد تطورت هذه الطريقة، واستكملت دقتها من خلال دراسة الصدف في أعماق البحار (Deep-Sea Cores) وتحديد التبدلات المناخية بدقة أكبر عبر دراسة تحول عناصر الأوكسجين، شديدة الحساسية المناخية (Oxygen Isotope) المتواجدة في تلك الأصداف.

يساعد علم البالنتولوجيا (Palaeonthology) أي دراسة بقايا النباتات (Flore, Pollen) والحيوانات (Fauna) على التعرف على العمر النسبي للطبقات التي تتواجد فيها تلك البقايا.

أخيراً، هناك طرق أخرى من التأريخ النسبي، وإن كانت أقل استخداماً، مثل طريقة التسلسل (Seriation) التي ترصد تكرار أنواع معينة من الآثار واستمرارها في مراحل معينة، أو دراسة تبدلات اللغة (Language) عبر الزمن، أو التحولات الجينية ضمن الجماعات البشرية (Genetic Dating) أو غيرها (٢٥).

يفضل الآثاريون الحصول على تواريخ دقيقة ومحددة بالسنوات، وهم يستخدمون وصولاً إلى ذلك طرق التأريخ المطلق (Absolute Chronology). أول وأبسط هذه الطرق هي دراسة التقاويم الزمنية (Calendars) التي وضعها القدماء، من مصريين ورافديين ويونان ورومان وغيرهم، وأرخوا فيها لحكامهم وسلالاتهم وأحداثهم. مع أن هذه الطريقة لا زالت واسعة الاستخدام، في دراسة المجتمعات التي عرفت التدوين والكتابة، لكن محاذيرها أيضاً كثيرة، وترافقها صعوبات في دقة تحديد تسلسل الحكام والأحداث التي غالباً ما تكون مبعثرة أو متناقضة بين كشف وآخر.

التطبيق الأهم للتأريخ المطلق يتم من خلال الطرق المخبرية الدقيقة، الجيوفيزيائية، وغيرها، وهي كثيرة ومتنوعة، وتعتمد على طبيعة العينات التي يوفرها الموقع المدروس وزمنه. أهم وأكثر هذه الطرق انتشاراً هي طريقة الفحم المشع (Radiocarbon) المعروفة منذ خمسينات القرن الماضي والمستخدمة في تأريخ البقايا العضوية، من نباتات أو حيوانات أو إنسان، عبر رصد تحول عنصر الفحم المشع (C14) المتواجد في تلك البقايا إلى فحم عادي (C12) وذلك وفق وتيرة زمنية يمكن قياسها، تبدأ بعد موت الجسم الحي مباشرة. قدمت هذه الطريقة خدمات كبرى لعلم الآثار، وتم بفضلها تدقيق وتصحيح الكثير من الظواهر الحضارية عبر الزمن، وهي

تؤرخ عينات يمكن أن يصل عمرها حتى /٥٠/ ألف سنة خلت، كما استخدمت على نطاق واسع جداً في سورية أيضاً. تستخدم حالياً، إلى جانب هذه الطريقة، الطريقة الشجرية (Dendrochronology) بهدف ضبط وتدقيق نتائج طريقة الفحم المشع، وهي تعتمد على حساب دوائر نمو الأشجار الذي يحصل بمعدل دائرة واحدة كل سنة ويمكن أن تستخدم الطريقة الشجرية لوحدها في تأريخ الأشجار التي قد يصل عمرها إلى /١٠/ آلاف سنة، كما في شمال أوروبة حيث الأشجار المعمِّرة.

أما طريقة اليورانيوم/ثوريوم (Uranium/Thorium) فهي أيضاً تعتمد مبدأ قياس تحول اليورانيوم المشع (U238) إلى ثوريوم عادي (Th230) وتستخدم في تأريخ العينات الحجرية، وبخاصة صخور الترافرتين (Travertine)، بقايا الينابيع القديمة، حيث أقام الناس على مر الزمن، ويمكن أن تغطي المواقع التي يصل عمرها حتى /٥٠٠،٠٠٠/ سنة خلت.

على نفس المبدأ الإشعاعي، تعمل طريقة البوتاسيوم/آرغون (Potassium/Argon) التي ترصد تحول البوتاسيوم المشع (K40) إلى ارغون عادي (A40)، وتستخدم في تأريخ الصخور البركانية من المواقع الأثرية التي يمكن أن يصل عمرها حتى /٥/ مليون سنة خلت، كما هي المواقع الأفريقية الباكرة.

هناك طرق أخرى نكتفي بالإشارة إليها، وهي الطريقة الحرارية (Thermoluminescene)، والانشطارية (Fission-Track)، والمغناطيسية (Magnetic)، والبصرية (Optical)، والارتداد الالكتروني (ESR)، وهدرجة الأوبسيديان (Obsidian Hydration) وغيرها.

أخيراً تجدر الإشارة إلى أن جميع طرق التأريخ النسبي ليست دقيقة، لكنها فضفاضة ويشوبها الحذر، ويجب تدقيقها باستخدام الطرق المطلقة التي تخضع بدورها أيضاً

لنسبة معينة من الخطأ، حسب طبيعة العينة وعمرها، وهي نسبة تزداد كلما كانت العينة أقدم (٢٦).

٣- مدارس الآثار:

الآثار دراسة تخصصية لها منطلقاتها وأهدافها في التعرف على الماضي بكل مظاهره، لكن الباحثين يتباينون في توجهاتهم وفي طبيعة الأسئلة التي يودون الإجابة عنها حول ذلك الماضي، وهم يختلفون في كيفية البحث عن الأجوبة، وتقييم النتائج التي يحصلون عليها، تمهيداً لإعادة تركيب الصورة الأصدق عن الموضوع المطروح، والحصول على المعلومات الصحيحة عن المجتمعات المدروسة. وعليه فقد نشأت في ميادين البحث الأثري مدارس آثارية (Archaeological Schools) لكل منها منطلقاتها وأدواتها وأولوياتها في البحث والتقرير. المدرسة الأقدم والأوسع انتشاراً هي المدرسة التقليدية (Traditional Archaeology) التي تمثل النهج الذي سارت عليه الأبحاث الأثرية منذ انطلاقتها الأولى وحتى اليوم. تعتمد مدرسة الآثار التقليدية المنهج الاستدلالي (Induction) الذي يقوم على وصف المكتشفات الأثرية، كما تظهر، سعياً إلى تحديد هوية وطبيعة المجتمعات المرتبطة بتلك المكتشفات، وبالتالي التعرف على تاريخها القديم. أي أنها مدرسة وصفية تاريخية تستقصي حصول الظاهرة التاريخية وتطورها وانتشارها واختفائها عبر الزمان والمكان، تمهيداً لإعادة إنتاج الصورة المتكاملة للشعوب القديمة. فنشوء الزراعة مثلاً، وهي خطوة حضارية كبرى في التاريخ الإنساني، يستدل عليه من خلال جمع المعطيات عن زمان ومكان وآلية هذا النشوء، دون الذهاب إلى ما هو أبعد والسؤال عن الدوافع والظروف التي أدت إليه. ودون البحث عن سبب حصول هذه الخطوة الحضارية في ذلك الزمان والمكان وليس في غيرهما (٢٧).

بدأت منذ الستينات من القرن الماضي مدرسة أخرى عرفت باسم "الآثار الجديدة (New Archaeology) انتقدت منهج المدرسة التقليدية واعتبرته قاصراً، لا يقود إلى استنتاجات صحيحة. اعتمدت هذه المدرسة منهج الاستقراء (Deduction) بدل منهج الاستدلال المعتمد في المدرسة التقليدية. إن المنهج الاستقرائي لا يقف عند حدود الوصف التاريخي للماضي، بل يتخطى ذلك إلى محاولة تفسير هذا الماضي وفق فلسفة علمية محددة تقوم على مبدأ طرح فرضيات (Hypothesis) معينة تتعلق بحياة المجتمعات القديمة، ثم جمع أكبر قدر ممكن من المعلومات والمعطيات وفحصها بهدف التحقق من صحة الفرضيات المطروحة أو عدمها، وذلك قياساً على مناهج البحث في العلوم الطبيعية. المطلوب، وفق هذه المدرسة، ليس الجواب عن سؤال أين ومتى وكيف حصلت هذه الظاهرة، أو تلك، كالزراعة مثلاً، وإنما الجواب عن سؤال لماذا حصلت الظاهرة المعينة، مثل لماذا ظهرت الزراعة في بلاد الشام وفي الآلف الثامن ق.م، وليس في وادي النيل أو غيره أو في زمن آخر. ينطلق أنصار المدرسة الجديدة من أن علم الآثار تحكمه أنظمة وقوانين ثابتة وطبيعية، كما علوم الفيزياء والكيمياء، ومن هنا أطلق عليها أيضاً اسم "الآثار الطبيعية" (Processual Archaeology). وهم يقولون بأن الظواهر التاريخية التي تبدو منفصلة عن بعضها هي في الواقع مترابطة جدلياً وموضوعياً، وان مهمة الباحث في الآثار هي إدراك عناصر هذا الترابط وتفسيره، استناداً إلى ما أمكن من المعطيات. لذلك هم أدخلوا الحاسوب وعلى نطاق واسع في معالجة كميات هائلة من المعلومات، الأثرية والبيئية والاقتصادية وغيرها، التي جمعت من المواقع المدروسة، وخرجوا بنتائج ذات طابع مادي، اقتصادي-وظيفي، أكثر منها نتائج روحية-فكرية أو اجتماعية، عن حياة الشعوب القديمة المدروسة (٢٨).

تبلورت في الثمانينات من القرن الماضي مدرسة ثالثة أسميت "ما بعد الآثار الطبيعية" (Post-processual Archaeology)، عارضت منهج الآثار الطبيعية، ورفضت التركيز فقط على الجوانب الاقتصادية والوظيفية المادية، وإهمال الجوانب الرمزية والفكرية الاجتماعية في الحضارات القديمة. لم تقبل هذه المدرسة بمبدأ الموضوعية المطلقة في علم الآثار، وربطه بقوانين العلوم الطبيعية، كالفيزياء والكيمياء، التي لا تنطبق على الإنسان والعلوم الإنسانية. هكذا أعطى هذا المنهج الاهتمام الأول للجوانب الروحية والفكرية مؤكداً بأن الفهم الصحيح للمجتمعات القديمة والتعرف على حقيقتها لا يتم إلا من خلال معرفة أفكارها ومعتقداتها التي جسدتها إبداعاتها الفنية والروحية، ذات الدلالات الرمزية، لأن البقايا المادية، الأثرية، هي المنطلق لفهم الفكر والايدولوجيا التي حكمت تلك المجتمعات، ونظمت إنتاجها المادي المرتبط بأفكارها غير المادية. في المحصلة تهدف هذه المدرسة إلى الدخول إلى العقل البشري (Archaeology of Mind) ومعرفة ماذا يدور فيه، وهي تطبق منهجاً يمكن أن نسميه "التفكير المتسلسل" أي دراسة ترابط الرموز والأفكار مع المعطيات المادية (Cognitive – Processual Approach) ودراسة تطور الفكر الإنساني والعقل والدماغ واللغة، وهو منهج يلتقي مع منهج الدراسات الانتروبولوجية التي تنفي الموضوعية المطلقة في دراسات العلوم الإنسانية، بما فيها علم الآثار (٢٩).

هناك أيضاً مدرسة الآثار الماركسية (Marxist Archaeology) التي اعتمدت نظريات ماركس وأنجلز في التفسير المادي للتاريخ، ودور البنى التحية، الاقتصاد، في تشكل البنى الفوقية، الأفكار، والايدولوجيا، وهي تنطلق من حتمية الصراع الطبقي، وترى أن التغير في المجتمع يحصل نتيجة التضارب بين قوى الإنتاج المادية وبين علاقات الإنتاج الاجتماعية، متبنية مبدأ التطور التاريخي للمجتمعات من مرحلة الاقتصاد المشاعي فالإقطاعي فالرأسمالي.

ازدهرت هذه المدرسة بخاصة أثناء المرحلة السوفييتية، ولكن تبناها آخرون منذ ثلاثينات القرن الماضي، وخرجوا بنظريات الثورات المتتالية في التاريخ الإنساني، أولها الثورة الزراعية (Neolithic Revolution) المرتبطة بنشوء الزراعة في الألف الثامن ق.م، ثم الثورة العمرانية (Urban Revolution) التي تميزت بنشوء المدن الأولى في الألف الرابع ق.م. (٣٠).

بالرغم من انهيار الأنظمة الشيوعية، فلا زال لهذه المدرسة أنصار، في الغرب، أكثر منهم في الشرق، حيث ظهرت مدرسة الآثار الماركسية الجديدة (Neo-Marxist Archaeology) التي تختلف عن المدرسة الماركسية التقليدية في كونها تؤكد على أهمية البنى الفوقية للمجتمع، أي الأفكار، ولا تعتبرها مجرد انعكاس للبنية التحية، الاقتصاد، وإنما ترى تأثيراً متبادلاً بين هاتين البنيتين، أي أنها تلحظ دوراً للإيديولوجيا في دراسة المجتمعات القديمة، وهي طوَّرت هذا الدور من خلال تبني النظرية البنيوية (Structuralism) التي تقول بأن البنى الفكرية والمعتقدات هي التي تكمن خلف سلوك الناس وتصرفاتهم، وتضيف بأن التعرف على هذه البنى هو الذي يمكننا من فهم وتفسير المكتشفات الأثرية (٣١).

أخيراً، تجدر الإشارة إلى نهج بدأ يتبلور في السنوات الأخيرة، هو ليس مدرسة بالمفهوم الذي تناولناه سابقاً، وإنما طريقة في دراسة الماضي تركز على الجانب الاجتماعي للآثار (Social Archaeology) وتعتبر أن العامل الاجتماعي هو الذي يحدد زمان ومكان الأحداث التاريخية، التي تظهر على شكل مكتشفات أثرية، وهو نهج يتجاوز مجرد البحث التخصصي في الآثار ليتناول جوانب لها علاقة بالثقافة، والمعرفة، والهوية، والسياسة، وبالتالي يتقاطع مع علوم الانتروبولوجيا والاجتماع والفلسفة. هناك من يقول بأن هذا النهج هو الذي سوف يحدد مسار الأبحاث الأثرية في القرن الواحد والعشرين (٣٢).

إن كل هذه المدارس، وإن تباينت فهي تتداخل وتتقاطع ولا تفصل بينها حدود صارمة. هذا ما جعل العاملين في حقل الآثار على مختلف مشاربهم أكثر قرباً وتواصلاً مع بعض. بالنتيجة فإن المدارس المختلفة قد أغنت علم الآثار وكانت مصدر قوته وتطوره، وأبرزت أهمية الجوانب النظرية كمنطلق للأعمال الحقلية وضابط لمكانها وزمانها وأهدافها ونتائجها. كما فتحت هذه المدارس أبواب اختصاص الآثار على العلوم الإنسانية الأخرى، وبخاصة الانتروبولوجيا، مما أخرجه من دائرته التخصصية الضيقة، وجعله أقرب إلى عقول الناس واهتماماتهم العلمية والثقافية.

الحواشي والملاحظات

١- أنجز هذا البحث أثناء إيفادي بمهمة بحث علمي، في الفترة الواقعة بين ١/٢-١/٥/٢٠٠٩، فالشكر الجزيل لجامعة دمشق، وجامعة كوبنهاغن–معهد الدراسات الحضارية، للمساعدة وتقديم جميع متطلبات البحث.

٢- نظراً لطبيعة هذا البحث الشمولية والمكثفة، لا يمكن ذكر المراجع والأبحاث الهائلة التي صدرت بهذا الخصوص، فاكتفينا بذكر ما هو أساسي حديث، الذي يتضمن بدوره تفاصيل مراجع أخرى.

٣- انظر: Searight S. and Waqstaff M. (eds) 2001 الذي يتحدث عن مغامرات الرحالة الأوائل في الشرق، وأدوارهم التبشيرية الدينية.

- حول الحالة التي سادت في بريطانيا، بحثاً وتعلقاً، بالجذور الدينية للبريطانيين، والتي وصفها الباحثون بنوع من "الهوس الديني" الذي ارتبط بالأرض المقدسة، فلسطين والقدس بخاصة، وكأنها أصبحت تعيش في مخيلتهم أكثر من بلادهم الأصلية. انظر:

- Bar-Yosef E. 2005:Pp. 1-17 & 295-301.

٤- راجع:

- Finkel I. L., and Seymour N. J. 2008, Pp. 34-53
- Bernhardson M. T. 2005, Pp. 19-163.
- Margueron J.-C. 1991, Pp. 25-48.

٥- حول الأبحاث الأثرية الأولى في سورية يمكن مراجعة:

- Matthiae P. 1981, Pp. 3-30.
- Buccellati-Kelly M. 1997, Pp. 42-47

محيسن سلطان : ١٩٨٩

٦- من أكثر المؤلفات شمولية، وأفضلها توثيقاً، التي عالجت الأبحاث الأثرية الفرنسية في الشرق الأوسط، بكل خلفياتها العلمية والسياسية وغيرها، في الفترة الواقعة بين منتصف القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين؛ هو كتاب الفرنسية نيكول شوفاليه. انظر:

- Chevalier N. 2003

وبخاصة الصفحات 320-283 المتعلقة بسورية، بشكل عام، والصفحات 288 و284 و302 التي تتحدث عن الاهتمام الكبير الذي أولاه الجنرال غورو للآثار السورية، ووقوفه خلف جميع المبادرات الفرنسية الأولى في هذه المجال، وهو ما تابعه جميع المندوبين الساميين الفرنسيين لاحقاً. كما أنجزت ماتيلد غيلان مؤلفاً خصصته للآثار السورية في مرحلة الانتداب. انظر:

- Gelin M. 2002.

٧- أدار بعثة ماري اندريه بارو (A. Parrot) بينما ترأس بعثة أوغاريت كلود شيفر (C. Scheaffer)، وأتت من الموقعين اكتشافات تجاوزت كل التوقعات، بقايا معمارية وقطع أثرية ورقم كتابية...، درست ونشرت في العديد من المجلات، وبخاصة مجلتي Syria، والحوليات الأثرية العربية السورية، مع الإشارة إلى تباين وجهات نظر الباحثين حول بعض تلك المكتشفات، وبخاصة ماري وعلاقتها بالتوراة.

٨- راجع الحاشية رقم /٥/ ومراجعها.

٩- راجع الحاشية رقم /٦/ ومراجعها، وبخاصة Gelin M. 2002.

١٠- يرتبط علم الآثار الاستعماري بمرحلة الاستشراق التي طالت أيضاً التراث الأثري في الشرق الأوسط، المنطقة العربية، ودرسته ونشرته وقدمته، من وجهة

نظر غربية، على خلفية دينية وقومية، أنكرت علاقة هذا التراث بسكان البلاد الحاليين، وربطته بالتوراة والتاريخ القديم لليهود والحضارات الكلاسيكية اليونانية والرومانية، مما أعطى علم الآثار في الشرق الأوسط، طابعاً عنصرياً ودينياً، لازالت ذيوله قائمة حتى الآن. وهذا ما أشار إليه ادوار سعيد في كتابه الاستشراق. انظر:

- Said E. 1991, Pp. 123-148.

- Meskell L. 1998, Z Bahrani, بحث Pp. 159-174.

- كما تناولت دراسة حديثة وشاملة علم الآثار الاستعماري في مختلف المناطق العالمية. انظر:

- Dias-Andreu M. 2007, Pp. 278-313

كما دُرس الموضوع في مؤلف سابق. راجع:

- Trigger B. G. 2003.

وبخاصة الصفحات 78-71 المتعلقة بالشرق الأوسط. ومؤلفات عديدة أخرى.

١١- أثارت النجاحات العلمية والاجتماعية التي حققها أوبنهايم في الجزيرة السورية غيرة وحفيظة الفرنسيين، آثاريين وسياسيين، الذين حاولوا التخلص منه بأي ثمن، واتهموه بإقامة علاقات تجسسية ومالية مع البدو المحليين، وطوقوه من كل اتجاه، وشبهوه بلورنس العرب (E. Lawrance) عالم الآثار الإنكليزي الذي لعب دوراً غامضاً، علمياً–سياسياً–استخباراتياً، أثناء الحرب العالمية الأولى والثورة العربية الكبرى. انظر: الحاشية رقم (٦) Chevalier N. 2003، الصفحات 314-319.

١٢- فيما يتعلق بحرص الفرنسيين على التمسك بنفوذهم في الآثار حتى في البلدان التي لم تكن خاضعة لانتدابهم، وإنما للانتداب الإنكليزي، بما في ذلك تعيين مدراء آثار فرنسيين في تلك البلدان، وعلى رأسها مصر، وسورية طبعاً. انظر:

- Gelin M. 2002, P. 78.
- Goode J.-F. 2007, P. 90.

وحول تمنّع الفرنسيين عن تدريب أية كوادر سورية في الآثار، خلافاً لما هو وارد في واجباتهم الانتدابية. انظر:

- Chevalier N. 2003, Pp. 289-290.

١٣- بدأ جعفر الحسني حياته المهنية، عام ١٩٢٠، أميناً للمتحف العربي الذي أسسه المجمع العلمي العربي، برعاية السلطة الانتدابية، في المدرسة العادلية بدمشق. درس الآثار في مدرسة اللوفر، حيث حصل على شهادته عام ١٩٢٤، وأصبح عام ١٩٢٨ محافظاً لمتحف، ثم عُين، عام ١٩٤٧، أول مدير سوري للآثار بعد الاستقلال. انظر العطري عبد الغني ٢٠٠٠، ص. ١٦١-١٦٥.

١٤- درس سليم عادل عبد الحق الآثار في فرنسا، وعمل أميناً لمتحف الوطني قبل أن يصبح مديراً عاماً للآثار، وهو بحق مؤسس مديرية الآثار السورية، فقد كان عالماً وإدارياً، عرّف بالآثار السورية، ودافع عنها، واحتل مكانة محترمة في الداخل والخارج. انظر:

- Abdulhak A. and S 2008, Pp. 299-306.

١٥- من المبكر الكتابة حول هذه المرحلة قبل مضي بعض الوقت والاطلاع على أرشيف مديرية الآثار والجهات الأخرى ذات العلاقة، داخلياً وخارجياً. لقد تناوب على إدارة الآثار في المرحلة المذكورة كل من: توفيق سليمان (١٩٦٥-١٩٦٧)، عبد الحميد دركل (١٩٦٧-١٩٧١)، عفيف بهنسي (١٩٧٢-١٩٨٨)، علي أبو

عساف (١٩٨٨-١٩٩٣)، ثم سلطان محيسن (١٩٩٣-٢٠٠٠). أما المدراء الذين أتوا بعد ذلك فهم خارج نطاق هذا البحث.

١٦- تستخدم تعابير ومصطلحات مختلفة للتراث، فهو بالإنكليزية (Legacy) وبالفرنسية (Patrimonie)، وبالإنكليزية والفرنسية (Heritage)، وذلك للدلالة على التراث الثقافي بمعناه التاريخي والحضاري الإيجابي، إذ يمكن أن يكون للتراث، الإرث، (Heritage) أيضاً المعنى السلبي، فمعسكرات الاعتقال النازية مثلاً هي إرث سيء ... انظر:

Howard P. 2003, Pp. 1-13.

١٧- يعتبر مؤلف كولن رينفرو وبول بان من أهم المراجع العالمية حول علم الآثار من حيث النشوء والمناهج والنظريات والممارسة والمكتشفات في مختلف المناطق. انظر:

- Renfrew C & Bahn P. 2008

وبخاصة الصفحات 51-72، المتعلقة بحفظ البقايا الأثرية.

وهناك مؤلف جماعي، تحرير كريس سكار، وهو شامل أيضاً، لكنه يركز أكثر على الجوانب التاريخية والحضارية للمكتشفات الأثرية، مع القليل من التفاصيل حول المناهج والتقانات. انظر:

Scarre C. 2005 (ed), Pp. 19-43 (مقدمة لـ سكار)

١٨- للحصول على معلومات موجزة، مبسطة، ودقيقة علمياً عن أهم المواقع الأثرية في سورية يمكن مراجعة:

- Burns R. 1994.
- Ball W. 1994.

١٩- عالم الآثار الإنكليزي مالوان، هو زوج الكاتبة البوليسية آغاثا كريستي (A. Christie) التي شاركته التنقيب في الجزيرة، واستلهمت بعض أعمالها من تلك المشاركة، وبخاصة روايتها "جريمة في قطار الشرق السريع" (Murder in the Orient Express)، وهو كان يعمل في العراق ثم تركه بعد صدور قانون الآثار الذي منع نقل الآثار خارجاً. حول أعماله الباكرة في سورية، انظر:

- Mallowan M. E. L. 1936.

٢٠- معظم الصور الجوية الأولى كانت لأهداف عسكرية، لكنها بنفس الوقت ساهمت في التعرف على المواقع الأثرية، وأصبحت من متطلبات البحث الأثري لاحقاً. انظر:

- Poidebard A. 1934.

٢١- انظر:

- Nordiquian L. Salles J.-F. 2000, Pp. 131-123.

٢٢- راجع:

- Renfrew C & Bahn P. 2008, Pp. 73-106

- للمزيد راجع:

- Clark A. 1996.

٢٣- مر على استخدام نظام المعلومات الجغرافي GIS في الآثار حوالي العشر سنوات، وهو حقق نتائج هامة في تخزين واستخدام المعلومات، وهناك سعي مشترك بين الآثاريين ومختصي التقانة لتطوير هذا البرنامج بما يساعد على تفسير وتحليل المعلومات الحقلية والمخبرية المتعلقة بالمواقع الأثرية المدروسة وتسجيلها. انظر:

- Marchetti N & Thuesen I. 2008 (eds), Cattani M, بحث Pp. 155-157.

- للمزيد راجع:

- Conolly J. L. M. 2006.
- Wheatley D. E. & Grilling M. 2002.

٢٤- تعتبر تنقيبات مورتمور ويلر ومؤلفاته من المراجع الأساسية في التنقيب الأثري بالرغم مما طرأ على الأمر من تطورات، انظر:

- Wheeler M. 1954

فيما شكلت مؤلفات باركر خطوة جديدة ونوعية في هذا الاتجاه. انظر:

- Barker P. 1993, Pp 1-30

- للمزيد راجع:

- Roskams S. 2006
- Renfrew C. & Bahn P. 2008, Pp. 107-120.

٢٥- انظر:

- Renfrew C. & Bahn P. 2008, Pp. 121-132.

- للمزيد راجع:

- Biers W. R. 1993.

٢٦- يبذل علماء الفيزياء جهوداً كبيرة في تطوير طرق التأريخ الحديثة وإحكام دقتها، وقد حققوا نتائج باهرة على هذا الصعيد. انظر:

- Witten A. J. 2006, Pp. 299-317 and 73-116.

- حول طرق التأريخ المطلقة على مختلف أشكالها، راجع:

- Renfrew C. & Bahn P. 2008, Pp. 133-165.

٢٧- كان بروس تريغر صاحب أول مؤلف شامل حول تاريخ علم الآثار وتطور مناهجه ومدارسه، مع تركيز واضح على المنطلقات النظرية لهذا العلم منذ القرون الوسطى وحتى اليوم. راجع:

- Trigger B. G. 2008

- الصفحات 166–313 المتعلقة بمدرسة الآثار التقليدية.

- للمزيد راجع:

- Scarre C. 2005 (ed),

- الصفحات 24–43 مقدمة لـ .Scarre C

٢٨- الأمريكي لويس بينفورد وزوجته والإنكليزي ديفيد كلارك هم المؤسسون الأوائل لمدرسة الآثار الحديثة (New Archaeology) وقد حددوا منطلقات هذه المدرسة ومناهجها في مؤلفين أساسيين. راجع:

- Binford S. R. & L. R. Binford 1968(eds).
- Clarke D. L. 1978.

٢٩- الإنكليزي يان هودر هو مؤسس هذه المدرسة التي شرحها ودافع عنها في أكثر من مؤلف، واكتسبت تأييداً متصاعداً، بخاصة من الجيل الجديد للآثاريين. انظر:

- Hodder I. & Hutson S. 2003, Pp. 206-235.

- Hodder I. 2001 (ed), Pp. 98-121, بحث Mithen S.

- Fagan B. 1998, Pp. 1-24.

٣٠- الإنكليزي غوردن شايلد هو مؤسس ومنظر هذه المدرسة التي تبناها في جميع مؤلفاته الغزيرة. انظر:

- Childe V. G. 1965.

- للمزيد راجع

- Renfrew C. & Bahn P. 2008, Pp. 478-490.
- Dolukhanov P. 1994, Pp. 202-259.
- Mc-Guire R. H. 1992

٣١- الأمريكي مارك ليون هو أحد أهم مؤسس هذه المدرسة. انظر:

- Leon M. P. 2005.

٣٢- يتبنى هذا النهج النظرية الاجتماعية، وتعتبر الأمريكية لين ميسكل من أحد أهم أنصاره، ولها مؤلفات هامة في هذا الحقل، انصبت بخاصة على الآثار المصرية القديمة ومحاولة دراسة العلاقات والواقع الاجتماعي لقدماء المصريين مع إبراز تأثير الواقع المادي الاقتصادي على البنية الاجتماعية القديمة. انظر:

- Meskell L. and Preucel R. W. 2007 (eds), Pp. 1-22 Knowledges.

أبحاث :

- Hodder I, Trigger B
- Patterson T., Joyce R., Gamble C. Gittin E. , Pp. 23-118

- في نهج مشابه بدأ تبلور تيار جديد يركز على قضايا محددّة اجتماعية، اقتصادية مثل الصراع الاجتماعي على خلفية التملك، ودور المرأة في التاريخ القديم (Gender Archaeology) والعلاقات الزوجية والجنسية القديمة... الخ. انظر:

- Thomas J. 2000 (ed).مقدمة, Pp. 1-18.

- أبحاث:

- Johnson M.
- Binder B.
- Mc-Guire R., Pearson M. P., Strum. S. S. and Latour B. Pp. 199-277.

المراجع الأجنبية:

- Abdulhak A. and S. 2008, Salim Abdulhak, de la Direction des Antiquités Syriennes à la Direction du Patrimoine Mondial. In, Pionniers et Protagonistes de l'Archéologie Syrienne, 1860-1960. Ministère de la Culture-DGAM, Pp. 299-306.
- Akazawa T. and Muhesen S. 2002 (ed), Neanderthals Burial: Excavations of Dederiyeh Cave. Afrin, Syria. SIR. Kyoto - Japan.
- Akkermans P. M. M. G. and Schwartz G. M. 2003, The Archaeolology of Syria. Cambridge University Press.
- Aurenche O. and Kozlowski S. 1999, La Naissance du Néolithique au Proche-Orient, Errance, Paris.
- Au pays de Baal et d'Astarte. 1983, Paris, Catalogue.
- Ball W. 1994, Syria a Historical and Architectural Guide. Essex. England.
- Barker P. 1993, Techniques of Archaeological Excavation, London: Routledge.
- Bar-Yousef E. 2005, The Holly Land in English Culture, 1799-1917. Claredon Press. Oxford.
- Bernhardsson M. T. 2005, Reclaiming the Plundered Past. University of Texas Press.
- Biers W. R. 1993, Art Artifact and Chronology in Classical Archaeology. London: Routledge.
- Binford S. R. and L. R. Binford 1968 (eds), New Perspectives in Archaeology. Chicago Aldine Press.
- Buccellati-Kelly M. 1997, Archaeology in Syria. In : The Oxford Encyclopedia of Archaeology in the Near East (OEANE). Meyers E. M. (ed), Vol. 1, Pp. 42-47, Oxford University Press.
- Buccellati G. and Kelly-Buccellati M. 1998, Mozan III, Urkesh and the Hurrians, Malibu. L. A.
- Burns R. 1994, Monuments of Syria, London: Tauris.

- Butcher K. 2003, Roman Syria and the Near East. The British Museum Press.
- Butterlin P. 2003, Le Temps Proto-Urbain de Mésopotamie. CNRS, Paris.
- Canivet P. and Rey-Coquais J. P. 1992, La Syrie de Byzance à l'Islam. Damas IFAPO.
- Cauvin J. 1994, Naissance de Divinité, Naissance de l'Agriculture. CNRS Paris.
- Charpin D. and Ziegler N. 2003, Mari et le Proche-Orient à l'Epoque Amorite. NABU. 6. Paris.
- Chevalier N. 2003, La Recherche Archéologique Française au Moyen-Orient, 1842-1947. ERC. Paris.
- Childe V. G. 1965, Man Makes Himself. London: Watts.
- Clark A. 1996, Seeing Beneath the Soil: Prospecting Methods in Archaeology. London: Routledge.
- Clarke D. L. 1978, Analytical Archaeology. London: Methuen.
- Conolly J. L. M, 2006, Geographical Information System in Archaeology. Cambridge University Press, Cambridge.
- Dentzer J.-M. 1985-1986 (ed), Hauran I: Recherches Archéologiques sur La Syrie du Sud à l'Epoque Hellénistique et Romaine. 2 Vols. Paris.
- Dentzer J.-M. and Orthman W. 1989 (eds), Archéologie et Histoire de la Syrie II: La Syrie de l'Epoque Achéminide à l'Avénement de l'Islam. Saarbrucken.
- Diaz-Andreu M. 2007, A World History of Nineteenth-Century Archaeology, Nationalism, Colonialism and Past. Oxford University Press.
- Dolukhanov P. 1994, Environment Ethnicity in the Ancient Near East Avebury.
- From Ebla To Damascus, 1985, Washington DC. Catalogue.
- Fagan B. 1998, People of the Earth, N. Y. Longman.
- Finkel I. L. and Seymour N. J. 2008, Babylon, Myth and Reality. British Museum.
- Gelin M. 2002, L'Archéologie en Syrie et au Liban à l'Epoque du Mandat 1919-1946. Librairie Orientaliste. Paris.

- Goode J. F. 2007, Negotiating the past, Archaeology, Nationalism and Diplomacy in the Middle East 1919-1941. University of Texas Press.
- Graber O. 1984, La Formation de l'Art Islamique. Flammarion, Paris.
- Hodder I. 2001, (ed), Archaeological Theory Today. Polity Press Cambridge.
- Hodder I. and Hutson S. 2003, Reading the Past. Cambridge University Press.
- Hours F. 1992, Le Paléolithique et l'EpipaléOlithique de la Syrie et du Liban. Beyrouth, Dar el-Machreq.
- Howard P. 2003, Heritage, Management, Interpretation, Identity. London: Continuum.
- Kennedy H. 2006 (ed), Muslim Military Architecture in Greater Syria. Leiden: Brill.
- Leon M. P. 2005, The Archaeology of Liberty in an American Capital: Excavations in Annapolis. Berkley, University of California Press.
- Lipiski E. 2000,The Aramaens, Leuven, Peeters.
- Mallowan M. E. L. 1936, Excavations at Chagar Bazar and an Archaeological Survey of the Habur Region of North Syria 1934-35. Iraq: 3, P: 1-85.
- Marchetti N. and Thuesen I. 2008 (eds), ARCHAIA, Case Studies on Research Planning, Characterization, Conservation and Management of Archaeological Sties. BAR. I. S. 1877.
- Margueron J.-C. 1991, Les Mésopotamiens, Tom. 1, A. Colin, Paris.
- Margueron J.-C. 2004, Mari, Métropole de l'Euphrate. Picard. ERC. Paris.
- Matthiae P. 1981, Ebla, An Empire Rediscovered. Garden City N.Y. Doubleday.
- Matthiae P. 1995, Au Origine de la Syrie. Ebla Retrouvé. Gallimard, Paris.
- Mc-Guire R. H. 1992, A Marxist Archaeology. San Diego. CA. Academic Press.
- Meskell L. 1998 (ed), Archaeology Under Fire, Nationalism, Politics and Heritage in the Eastern Mediterranean and Middle East. London: Routlrdge.
- Meskell L. and Preucel R. W. 2007 (eds), Companion to Social Archaeology, Blackwell Publishing.

- Nordiquian L. & Salles J.-F. 2000, Au Origine de l'Archéologie Aérienne. MUSJ, 45.
- Poidebard A. 1934, La Trace de Rome dans le Désert de Syrie, Paris.
- Renfrew C. and Bahn P. 2008, Archaeology: Theories, Methods and Practice. London: Thames and Hudson.
- Rey-Coquais J.-P. 1987, La Syrie Romaine de Pompée à Dioclétien: Journal of Roman Studies. 68.
- Roskams S. 2001, Excavation. Cambridge University Press.
- Said E. 1991, Orientalism. Penguin Books.
- Scarre C. 2005 (eds), The Human Past. London: Thames and Hudson.
- Schlumberger D. 1970, L'Orient Hellénisé. Paris.
- Searight S. and Wagstaff M. 2001 (eds), Travelers in the Levant , Durham: Astene.
- Syria: Land of Civilizations, 1999, Montreal (Catalogue).
- Syrie, Mémoire er Civilisation. 1993, Paris (catalogue).
- Tate G. 1992, Les Campagnes de la Syrie du Nord du IIème au VIIème Siècle. BAH. Vol. 133, Paris.
- Thomas J. 2000 (ed), Interpretive Archaeology, a Reader, Leicester University Press. N. Y. London.
- Trigger B. G. 2003, Artifacts and Ideas: Essays in Archaeology. New Brunswich. N.Y. Transaction Publisher.
- Trigger B. G. 2008, A history of Archaeological Thoughts. Cambridge University Press.
- Wheatley D. E. and Gilling M. 2002, Spatial Technology and Archaeology: The Archaeological Application of GIS: Taylor and Francis.
- Whealer M. 1954, Archaeology From the Earth. Oxford University Press. Penguin Books.
- Witten A. J. 2006, Geophysics and Archaeology. London: Equinox.

المراجع العربية

- عطري عبد الغني، ٢٠٠٠، **حديث العبقريات**. دار البشائر، دمشق.
- محيسن سلطان، ١٩٨٩، **آثار الوطن العربي القديم، الآثار الشرقية**، جامعة دمشق.
- محيسن سلطان، ١٩٩٥، **الصيادون الأوائل**. دار الأبجدية، دمشق.
- محيسن سلطان، ١٩٩٦، **المزارعون الأوائل**. دار الأبجدية، دمشق.
- محيسن سلطان، ٢٠٠٦، **عصور ما قبل التاريخ**. جامعة دمشق.

نصوص المعاهدات والعلاقات الدولية في محفوظات إبلا

الدكتور عماد سمير

جامعة دمشق

يهدف هذا البحث إلى التعريف بمجموعة من نصوص المعاهدات والعلاقات الخارجية في محفوظات إبلا، موضوعها علاقات مملكة إبلا السياسية مع الممالك المجاورة ومع المجموعات القبلية، وذلك في إطار صراعها مع مملكة ماري في زمن المحفوظات (القرن الرابع والعشرين ق.م). فقد كانت ماري أقوى مملكة نافست إبلا ونازعتها السيادة على مناطق شمال سورية والفرات الأوسط. وحاول كل طرف منهما الحصول على مراكز نفوذ جديدة على حساب الطرف الآخر إما بالتحالف أو بالحرب.

تتألف هذه المجموعة من واحد وعشرين نصاً تتضمن معاهدات ورسائل وتقارير مختلفة نُشِرت عام ٢٠٠٣ في المجلد الثالث عشر من سلسلة ARET[١]= (Archivi Reali Di Ebla, Testi) "محفوظات إبلا الملكية: نصوص") بعنوان: " Testi di cancellaria. I rapporti con le città" "نصوص السفارات: العلاقات مع المدن"، حيث قام العالم اللغوي الإيطالي بيليو فرونزارولي (Pelio Fronzaroli) بتقديم ترجمة لهذه النصوص أرفقها بدراسات وتعليقات لغوية وتاريخية وفهارس.

تعد هذه النصوص مصدراً مهماً للدراسات المتعلقة بتاريخ إبلا وامتداد نفوذها وعلاقاتها السياسية مع الممالك المجاورة والمجموعات القبلية وتوثق، كما ذكرنا آنفاً، التنافس الذي كان قائماً مع مملكة ماري. كذلك فإن هذه النصوص، والتي استخدمت اللغة الإبلوية بكثرة في كتابتها، تقدم للباحثين المهتمين بدراسة لغة إبلا المادة النصّية اللازمة لمعرفة بنية هذه اللغة وقواعدها وتصنيفها.

حاولت في هذا البحث ترجمة بعض هذه نصوص إلى العربية وتلخيص محتوى بعضها الآخر وذلك بالعودة مباشرة إلى النص الأصلي. وقد رتبتها بما يتفق مع ترتيبها في المجلد الثالث عشر من سلسلة ARET وذلك لتسهيل العودة إلى أصولها وصور ألواحها في المجلد المذكور.

حول تأريخ النصوص:

عثر على النصوص موضوع البحث ضمن غرفة المحفوظات الرئيسة (L. ٢٧٦٩) في القصر الملكي في إبلا على طول الجدارين الشمالي والشرقي لغرفة المحفوظات، وتغطي من الناحية الزمنية حقبة المحفوظات (نحو ٢٤٠٠ ق.م) التي تقدر بنحو خمسين عاماً انتهت بدمار إبلا وحرق القصر الملكي ربما على أيدي أحد حكام ماري أو أكاد. أي أن هذه النصوص تعود لعصر ملوك إبلا الثلاثة في زمن المحفوظات وهم[٢]: **إغريش خلب** (تؤرخ معاهدة إبلا مع أبارسال في عصره: النص رقم ٥) وكان تير وزيره. والملك **إركب دامو** (تؤرخ معظم النصوص في عصره) في البداية كان أرّوكوم وزيره ثم تسلّم إبريوم مهام الإدارة، والملك **إشأر دامو** آخر ملوك إبلا في عصر المحفوظات وقد بقي إبريوم وزيراً له لفترة قصيرة ثم خلفه ابنه إبي زيكير (تؤرخ النصوص:٩، ١٣، ١٤ في عصره)، وقد بقي في منصبه حتى دمار القصر الملكي.

مصادر النصوص:

إن مصادر نصوص المعاهدات والعلاقات الخارجية متنوعة فبعض نسخها الأصلية كتب في مدينة إبلا والبعض الآخر وصل إلى إبلا من الخارج، منها رسائل من مدن أخرى حملها رسل هذه المدن إلى إبلا ومنها نسخ عن وثائق حصل عليها التجار أو المبعوثون التابعون لإبلا وجلبوها معهم إلى مدينتهم: فهناك نصان من مدينة ماري (تل الحريري) (النصان ١ و٢)، ونص واحد من مانوّات (Manuwat) (النص رقم ١٠) ونص واحد من إبعل Ib al (رقم ١١)، وهناك نصان كتبا اعتماداً على وثائق صادرة عن مناطق أخرى: من إبعل (النص ١٣) ومن حدّو addu (النص رقم ١٩). وهناك نص واحد يجمع عدداً من الوثائق الخارجية المتعددة المصادر (رقم ١٤).

صياغة النصوص:

١- **المعاهدات:** لا يمكن الحديث عن نمط واحد اتبعه الكتبة في صياغة نصوص الاتفاقيات فنجد مثلا أن بنود الاتفاقيات أدرجت أحياناً مباشرة من دون مقدمة (النص رقم ٦). أو كتِبت بصيغة رسالة (النصان ١٠-١٢). وأحياناً وضع لِلوح الاتفاقية عنوان محدد كما هو الحال في النصين ٢٠-٢١ حيث عُنون كل منهما بعبارة "لوح تقديم الزيت"، إلا أن هذه العبارة وضعت في خاتمة (كولوفون) النص رقم ٢١ وليس في بدايته. أما بنود معاهدة إبلا مع أبارسال (النص رقم ٥) فقد سردت بنص واحد طويل سُبِق بتسجيل مجموعتين من المدن التابعة لملك إبلا وينتهي النص بعبارات اللعنة على الذي ينقض العهد. ويورد تنظيمان ملكيان (النصان ٧-٨) متعلقان بإقطاع أراضي بعض بنود اتفاق تم بين إبلا وإيمار. ووردت بنود اتفاق في نص واحد شعائري من دون مقدمة محفوظ

بنسختين (النصان ١٦-١٧). وهناك تمرين مدرسي يورد بعض بنود معاهدة بين إبلا وأرمي Armi (النص رقم ١٨).

٢- **الرسائل:** أما الرسائل فقد صيغت وفقاً لنمط واحد حيث تبدأ كل رسالة بعبارة: *en-ma* "هكذا (يقول)" ثم يليها اسم المرسِل ثم اسم المرسَل إليه، ثم نص الرسالة وتنتهي بخاتمة. هناك رسالتان ملكيتان من هذا النوع (النصان: ٢ و٤) ورسالة من موظف (النص رقم ٣).

٣- **ملفات العلاقات الخارجية:** وتعد بمثابة أضابير تخصّ العلاقات الدولية لمدن وقبائل معينة، الهدف منها إطلاع الرسل والمبعوثين في إبلا على العلاقات الخارجية للممالك المحيطة بهم، منها النص رقم ١ الذي يتعلق بملك ماري الذي كان عليه القيام بزيارة المعبد وتقديم الهدايا قبل الانطلاق برحلة أو حملة، والنص رقم ١٢ الذي يسجل الرسائل التي تبادلها زعماء قبائل إبعل مع ملك منوّات (Manuwat). أما النص رقم ١٣ فيروي تفاصيل حملة قام بها ابن يكّاه–ليم (dumu-nita *I-ga-li-im*) والذي أصبح زعيماً من زعماء إبعل وذلك بالتحالف مع ماري على حساب إبلا. ويسرد النص رقم ١٤ أحداث رحلات وتنقّلات لتجار في منطقة دو (Du^{ki}) الواقعة تحت نفوذ مملكة ماري وأحياناً تحت نفوذ ناجار (تل براك). ويروي النص رقم ١٥ أحداث رحلات تجارية لتجار من إبلا في مناطق خاضعة لنفوذ مملكة ماري. أما النص رقم ١٩ فيورد تفاصيل عقد التحالف ما بين ماري وحدّو (بالمقطعية À'-du). وعلى أي حال فإن هذه النصوص لم تخضع لنمط واحد في الصياغة إلا أن ثلاثة منها فقط (١٣-١٤-١٥) حملت عنوان: dub lú *ù-šu-rí* أي " "لوح التعليم (الخاص بـــ) ....."

وفيما يلي ترجمة وعرض لمحتوى هذه النصوص:

النص رقم (١)

وهو نص طويل صادر عن مدينة ماري ويخصّ جانباً من العلاقات الخارجية لمملكة ماري وعلاقة ملكها بالمعبد وبالقبائل. يتألف النص من اثني عشر عموداً على الوجه وأحد عشر عموداً في الخلف وأبعاده ١٤٠×١٤٩× ٣٣ مـم. إلا أن هنـاك أجـزاء مفقودة من النص على الوجه الخلفي.

يذكر النص في بدايته (المقطع الأول) أنه يتوجّب على ملك ماري (الذي لم يـذكر اسمه في النص) وقبل انطلاقه في حملة عسكرية (أو رحلة) أن يذهب إلى المعبد وأن يقدم الشعير المغربل، وذلك بهدف الحصول على التأييد والدعم الإلهي مـن الأفعـى (مجموعة كواكب) ومن إله الشمس. كذلك ينبغي على الملك أن يحضر أوعية الجعة والزيت، لكنه لم يفعل (المقطع الثاني).

يحضر حنّا–داجان *En-na-*^{d}*Da-gan* (وهو صاحب التقرير المشهور، انظر الـنص رقم ٤) أمام الملك (المقطع ٣) فيأمره الملك بالتوجه إلى المعبد (المقطـع ٦). إلا أن حنّا–داجان يشير على الملك بعدم تقديم الشعير قائلاً:

(٨) *me-ne-iš* šu-mu-‹‹tak$_4$›› *na-da-ma* sikil *na-ba-na-a* ^{lu}šu-mu-‹‹tak$_4$››

"ولماذا عليك تقديم (الشعير) بحرص؟ أنا لن أقدم (الشعير) النقي الذي غربلنا".

يصغي الملك لمشورته ويوافقه الرأي (المقطع رقم ٩)، وعندما وصل ومعـه حنّـا–داجان إلى المعبد لم يكونا قد طحنا وغربلا الشعير المطلوب (المقطع ١١). وعنـدما دخلا على الكاهن والكاهنة لطلب الوحي (المقطع ١٣) لم يقدما المنسوجات الكتانيـة ولا الشعير المنقّي (المقطع ١٤) وسجدا أمام الكاهن (*a-bi*$_2$ dingir-dingir-dingir) وأمام الكاهنة(ama dinigir-dingir-dingir) (المقطع ١٥). لقـد أنّبتهمـا الكاهنـة

وطلبت منهما تقديم فدية لأنهما لم يحضرا الهدايا والتقدمات المطلوبة من الطعام والشراب (المقاطع ١٠–٢٠). بناء على ذلك أمر الملك مستشاره حنّا–داجان بجلب الأضحية إلى المعبد من أجل طقس التطهير وفقط عند إحضارها يكون له أن يحضر من جديد أمام الكاهن (المقاطع من ٢١–٢٦). بعد ذلك سألت الكاهنة الملك: "لماذا أتيت إلى هنا؟" (المقطع ٢٨) فيجيبها بأنه إنما يريد أن يستخيرها ويستخير الكاهن فيما يخص علاقته برجال القبيلة قائلاً:

(٣١)"*me-li-ga*-A *ma-(l)a-ki ba-a a-na-za-ab ne-sa-a ba-a (l)a a-za-ab*"

"أرشداني (في) قراري: أهنا أنتظر الناس، (أم) هنا لا أنتظر(هم)؟".

بدأت الكاهنة باستقراء الوحي للملك وكان جوابها أنّ عليه انتظار سماع كلمات الكاهن الذي سينقل كلمات الوحي. ثم تبيّن الكاهنة للملك أنّ الآلهة لا تأمر بإهماله تبديل الناس (المقطع ٣٩). أما الكاهن فيؤكد للملك أن عليه إطاعة الوحي والسير في تنفيذ قراراته (المقطع ٤٣) ولن يُسمح له القيام بأي تحرك قبل أن يجلب الشعير المغربل إلى المعبد (٤٧). إلا أن الكاهنة تخبر الكاهن أن على رجال العشيرة (*li-im*) أن يفعلوا ذلك (مقطع ٤٩). يقرر الملك بالمقابل أن يغيّر قراره (بتبديل الناس؟) ولكن بشرط أن يقوم الناس بأداء قسم الولاء والتحالف مرفقين ذلك بتقديم ضريبة من الفضة (مقاطع ٤٨–٥٥). وفعلا يقوم الأعيان بأداء القسم وإرسال الفضة (٥٥–٥٤). ويقوم الملك في نهاية النص برحلته (المقطع ٦٥).

يتبين من النص أن حنّا داجان كان مستشاراً مقرباً لملك ماري إلى جانب دوره كقائد عسكري وربما كانت مكانته توازي مكانة موظفي (وزراء) إبلا الكبار (أرّوكوم، إبريوم، إبي زيكير) . لذلك يرجح أن يكون نيزي (*Nizi*) هو ملك ماري المذكور

بلقبه في النص دون اسمه، وذلك في عصر إغريش خلب ملك إبلا. وقد تمكن من تسلم العرش بعد نيزي ربما لأنه كان ينتمي للأسرة الحاكمة في ماري وحصل على جزية دفعتها له إبلا وسجلت في نصوص إبلا كهدية[٣].

يبدو أن النص الأصلي كتب في ماري ثم نسخ من قبل الكتبة في إبلا حيث يشار في النص إلى ملك ماري بالصيغة السومرية إن (EN) المستخدمة في إبلا أما في ماري فكان يشار إلى الملك بلقب لوجال (LUGAL) وهو اللقب الذي استخدم في هذا النص فقط لمرة واحدة (المقطع ٣٨). في حين أن هناك دلائل بعضها لغوي وبعضها الآخر كتابي تظهر أن النص الأصلي إنما دون في مدينة ماري.

النص رقم (٢)

ويضمّ رسالة موجهة من إركب-دامو ملك إبلا إلى ملك كابلول (Kablul)[٤] وذلك بمناسبة عقد التحالف بين المملكتين وقد أرّخت الرسالة بالعام الذي تم فيه الاحتفال بتقديم القرابين عند مسلة الملك المتوفى إغريش-خلب *Ig-rí-iš- a-lab*، لذلك يرجح أنها كتبت في بداية عصر الملك إركب-دامو *Ir-kab-Da-mu*.

تبعاً لهذا النص كان على ملك كابلول البرهنة على ولائه لملك إبلا بتقديم الجزية المسجلة في النص وذلك بعد أداء القسم.

بالنسبة لمدينة كابلول فقد ذكرت في معاهدة إبلا مع أبارسال والتي تؤرخ في عصر الملك إغريش خلب والموظف الكبير (الوزير تير *Tir*) وكانت تابعة لإبلا. إلا أنها أصبحت مستقلة بعد ذلك، ووفقاً لهذا النص كان على ملكها الآن أداء القسم وتقديم جزية مناسبة دليل ولائه لملك إبلا.

وفيما يلي نص هذه الرسالة:

الترجمة	السطر	العمود

			(١)	(١)
الوجه	I	١	*[en]-ma*	هكذا (قال)
		٢.	[*Ìr*]*-kab-Da-mu*	إركب–دامو
		٣.	en	ملك
		٤.	*I b -la*[ki]	إبلا
		٥.	[’$a_{٥}$]-*na*	إلى
	II	١.	en	ملك
		٢.	*[Ka]b-*$lu_{٥}$*-ul*	كابلول
			(٢)	(٢)
		٣.	in $u_{٤}$	في يوم
		٤.	nam-$ku_{٥}$	القسم
		٥.	[١ GIŠ]- $šu_{٤}$ [kù-gi]	جفنة واحدة من الذهب
	III	١.	[GÁ×LÁ] ‹n› gín DILMUN	بقيمة....... مثقال دلموني
		٢.	dam- gàr	التاجر
		٣.	en	إلى ملك
		٤.	*Ib-la*[ki]	إيلا
		٥.	ì-na-sum	أعطى.
			(٣)	(٣)
الخلف	I	١.	١ níg-bànda $NU_{١١}$-za	مزهرية واحدة مغطاة
		٢.	kù-gi šà $bar_{٦}$:kù	بورق الذهب وداخلها مصنوع من الفضة
		٣.	GÁ×LÁ ‹n› gín-[DILMUN]	بقيمة .... مثقال دلموني

	٤.	[.......]	[التاجر]
II	١.	ì -na-sum	أعطى.
		(٤)	(٤)
	٢.	DIŠ mu	(في) سنة
	٣.	nídba	تقديم الهبات
	٤.	na- rú	عند مسلة
	٥.	*Ig-[ri-iš]- a - lab*ₓ	إغريش-خلب
	٦	[en]	ملك
III	١.	[*ib*]-‹*la*›^{ki}	إيلا،
	٢.	[*ìr*]-*kab*-[*A*]*r*	إركب-حار
	٣.	mu-túm	(هذه التحف) كجزية
	٤.	[١] mu	لسنة واحدة
	٥.	[ì-na-sum]	أعطى.

من المحتمل أن إركب-حار المذكور في نهاية النص هو نفسه ملك كابلول وربما كان اسم التاجر الذي قدم هذه الأعطيات بتكليف من ملك كابلول.

النص رقم (٣)

ويضم الرسالة المشهورة والتي وجهها أحد الموظفين الكبار في إبلا إلى موظف آخر في خمازي *amazi* (٥)، والتي تؤرخ في عصر الملك إركب-دامو(*Irkab-Damu*) الذي ذكر بالاسم في نص الرسالة. وهي شاهد على محاولة ملك إبلا إقامة تحالف مع ملك خمازي بهدف احتواء نفوذ مملكة ماري المتصاعد.

لا يمكن حتى الآن تحديد موقع خمازي بدقة، تلك المملكة التي ورد ذكرها مرارا في النصوص المسمارية في بلاد الرافدين ويعتقد، بناء على ذلك، أنها كانت عاصمة منطقة سوبارتو إلى الشرق من نهر دجلة.

وفيما يلي ترجمة هذه الرسالة:

(١) هكذا (قال) إبّوبو، المشرف على بيت الملك، لناظر بوابة (القصر):

(٢) أنت حليفـ(ـي= أخي) وأنا حليفـ(ـك = أخوك).

(٣) أياً كانت الرغبة الخارجة من فم التحالف (= الأخوة) أنا سوف ألبّيـ(ـها) وأنت لبيت الرغبة (التي يمليها التحالف).

(٤) لقد أرسلتَ بغالاً جيدة.

(٥) أنت حليفـ(ـي) وأنا حليفـ(ـك) .

(٦) عشر (قطع أثاث) من خشب البقس (و)عجلتين من خشب البقس أعطى إبّوبو إلى ناظر البوابة.

(٧) إركب–دامو ملك إبلا حليف (= أخ) لزيزي ملك خمازي.

(٨) زيزي ملك خمازي حليف (= أخ) لإركب دامو ملك إبلا.

(٩) وهكذا (قال) تيرا–إل الكاتب:

(١٠) أعطيتُ (هذا) اللوح إلى ناظر بوابة زيزي.

يلاحظ في هذا النص وفي نصوص العلاقات الدولية بشكل عام استخدام الجذر "أخ" للدلالة على التحالف وقد ورد في النصوص بالصيغ التالية:

-تُأخَّو وتعني "أنت تحالف" وكتبت بالشكل *du-a- u* (النص ١٩: المقطع ٢٨).

-أُخوتَّم وتعني "التحالف، الإخوة" وكتبت بالشكل *u-wa-du* -u_2 (النص ١٩: ٣١).

النص رقم (٤)

وهو التقرير المشهور الذي أرسله حنّا-داجان (*enna-Dagan*) ملك ماري إلى ملك إبلا وقد درس هذا النص مسبقا لعدة مرات[٦].

يبدو أن حنّا داجان ملك ماري قام بإرسال هذا التقرير إلى ملك إبلا (الذي لم يذكر اسمه في النص ولكن من المرجح أن يكون الملك إركب-دامو الذي يؤرخ التقرير على الأغلب في بداية حكمه) ليؤكد تفوق مدينة ماري على إبلا والذي تعزز في عصر ملك ماري إبلول-إيل Ib-lul-Il وقد اضطرت بعده إبلا إلى دفع جزية كبيرة لملك ماري. فالهدف هو إخافة ملك إبلا لذلك يسجل هذه التقرير سلسلة من الانتصارات التي حققها ملوك ماري في منطقة الفرات الأوسط كان آخرهم الملك إبلول-إيل الذي وصل إلى منطقة كركميش ناشراً الرعب والدمار[٧].

أما مناسبة إعداد التقرير فقد ذكرت في المقطع الثالث والعشرين من النص وهي:

"*ma-da-a in* ì-giš kalam-*tim* kalam-*tim* šu-du[٨]"

"بمناسبة (تقديم) الزيت من البلاد التي خضعت (لماري)".

النص رقم (٥)

وهو نص معاهدة إبلا مع أبارسال (Abarsal)[٩] والتي تؤرخ في عصر الملك إغريش-خلب وقد نشرت هذه المعاهدة كذلك عدة مرات قبل الآن[١٠].

يمكن تقسيم النص إلى الفقرات التالية:

(١) مقدمة وتضم قائمة بالمدن والحصون الواقعة تحت سيطرة ملك إبلا وتلك الواقعة تحت سيطرة ملك أبارسال (المقاطع ١-١٩).

(٢) بنود خاصة بالعقوبات القضائية المترتبة على هؤلاء الذين يهينون الملك أو الآلهة أو البلد. فإن كان الفاعل من كبار الموظفين فينبغي على كل طرف تسليم الموظف التابع إلى الطرف الآخر وعليه معاقبة الموظف التابع له بالموت. الموظفون من الدرجات الدنيا لهم أن يفدوا أنفسهم فدية مادية (٥٠ رأساً من الغنم). وبالنسبة لآمري الحصون فتصادر أملاكهم. وبالنتيجة فان النزاع يرد إلى ملك إبلا للفصل فيه (٢٠-٢٨).

(٣) بنود خاصة بالإمداد بالماء للقوافل ولمربي الأبقار من قبل ملك أباراسال (٢٩-٣٢).

(٤) بنود خاصة بإرسال المبالغ المحصّلة من العمليات التجارية. المرجع الرئيس في ذلك الوزير تير *Tir*. وفي حال غيابه يكون الملك نفسه هو المرجع. في حال كانت العملية التجارية محدودة فيرسل التعويض إلى الموظفين الفرعيين (٣٣-٣٥).

(٥) بنود تتعلق بالمسافرين الغرباء في المناطق الخاضعة لأبارسال ووجوب إعلام إبلا بنياتهم العدائية تجاهها (٣٦-٤١).

(٦) بنود تتعلق بممارسة التجارة. بموجبها تكون التجارة النهرية من حق إبلا. وهي التي تسمح لأبارسال باستخدام موانئ الفرات. وضمنت البنود حرية الحركة والتنقل للتجار من كلا الطرفين (٤٢-٤٥).

(٧) بنود تتعلق بالطقوس الدينية التي ينبغي على أبارسال أداءها سنوياً لآلهة إبلا (٤٦).

(٨) بنود تتعلق بفدية الدم وبطقس التطهير وذلك في حالة القتل غير المتعمّد (٤٧-٤٩).

(٩) بنود خاصة بالاحتيال في المعاملات التجارية وبثمن فدية شخص بشروط ذليلة وبالجزية المتوجّب على القرى دفعها (٥٠-٥٦).

(١٠) بنود خاصة بالمواطنين الإبلاويين المقيمين في المناطق الخاضعة لأبارسال (٥٧-٦٣).

(١١) بنود خاصة بفدية الرجل العامل بخدمة الملك (المقطع رقم ١ على الوجه الخلفي).

(١٢) بنود خاصة ببضائع التجار الإبلاويين الذين يموتون في المناطق الخاضعة لأبارسال (٢-٤ على الوجه الخلفي)

(١٣) لعنات ضد أعداء إبلا: "كل الذين يعملون بنيّة سيئة فليرَ إله الشمس والإله حدد والإله كاكّاب عملهم وليبددوا كلماتهم. وعن قوافلهم التي تخرج في رحلة فليُمْنع ماء الشرب والمأوى (المقطع رقم 5 على الوجه الخلفي).

النص رقم (٦)

كتب النص على لوح صغير نسبياً (أبعاده ٨٩×٥٥×٣٠ مم) يتألف من خمس كسرات وهناك أجزاء كبيرة مفقودة.

يضم النص بعض فقرات معاهدة عقدها ملك إبلا مع ينحر–خلـــب *(En-ar- a- lab$_x$)* ملك مدينة بورمان *(Burman)* التي يعتقد أنها تقع في مناطق أعالي الفرات(١١). تضمن المعاهدة لملك بورمان حق اللجوء والاحتماء وطلب المساعدة من ملك إبلا في حال تمرد أو عصيان ابنه ضده. يبدو من خلال النص أن ملك بورمان كان قد تزوّج من أميرة إبلوية وهو ما يشير إلى استخدام الزواج السياسي للمحافظة على ولاء المدن الأخرى. يبدو كذلك أن إبلا حاولت أن تبقى محايدة في الصراع القائم بين الأب وابنه. وفيما يلي ترجمة للفقرات المهمة في النص:

(المقطع رقم ١): "إذا قام طوبي–دامو *(Du-bi-Da-mu)* بقتل (حرفياً *a-da-ba-a* "يذبح") أناس تابعين لينحر–خلـــب ليومين أو ثلاثة أيام، فإن لأبي طوبي–دامو أن يهرب إلى ملك إبلا وسيكون ملك بورمان هناك بين حلفائه."

(المقطع رقم ٢): "وإذا قام ينخر–خلب بقتل أعوان طوبي–دامو، على الأب أن يترك المتمردين أن يفرّوا إلى ملك إبلا.

(المقطع رقم ٣): "أي شخص كان هاربا من جهة ينخر–خلب وإن كان أبوه فانه يجد ملاذاً عند ملك إبلا.

(المقطع رقم ٣ على الوجه الخلفي) "وبما يخص الاحتفاظ بأخت ملك إبلا، فإنه على ينخر–خلب أن يجهز ما يطلبه ملك إبلا.

(المقطع رقم ٤ على الوجه الخلفي) ....من الناس المقيمين لديه، ينحر–خلب لا يقتل أحدا من دون موافقة ملك إبلا.

النص رقم (٧)

يخصّ هذا النص والنص الذي يليه (رقم ٨) تمليك تيشاليم (*Ti-še₃-Li-im*) ملكة إيمار أراضٍ من مناطق إربيش (*ìr-péš*ki) وجورّبال (*gú-ra-bal*ki) وذلك من قبل إركب دامو ملك إبلا. وهذان النصان هما جزء من مجموعة من النصوص تشكل ملفاً واحداً يخصّ تيشاليم ويتضمّن حسابات إقطاعات، وإحصاء لمواش وممتلكات أخرى وقوائم بأسماء أشخاص(١٢).

يرد اسم تيشاليم ملكة إيمار في عدد من الرقم التي تؤرخ بعصري ملكي إبلا إركب-دامو وإشار-دامو. ويعتقد أنها تنتمي للأسرة الحاكمة في إبلا، وقد تزوجت من ملك إيمار روصي-دامو وأصبحت ملكة هناك وفيما بعد أصبحت أُماً للملك في إيمار(١٣)

يسرد النص بعض بنود الاتفاق الذي تم بين الطرفين (إيمار وإبلا) فيما يخص هذه الأراضي والناس المقيمين عليها. وفيما يلي ترجمة لفقراته:

(١) كل الأراضي المشتراة في إربيش وجورّبال والتي أعطى إركب دامو إلى تيشاليم، أصبحت ملكا لتيشاليم.

(٢) وبالتالي (واعتباراً من هذا اليوم) فقد أُعطيت (هذه الأراضي) وفقا للاتفاق.

(٣) إذا تعهد مالك الأرض بتوريد مؤن الناس فعليه أن يفعل ذلك.

(٤) ومن ثم، وفيما يتعلق بالناس من إيمار المرتبطين بتيشاليم فقد منحوا درجة عليا من الملك (و) لهم أن يقيموا في إيمار(١٤).

(٥) ومن ثم وفيما يتعلق بالقرى التي بيد تيشاليم، فان مبعوث الملك التاجر يمكنه مغادرتـــ(ـــها).

(٦)ومن ثم، وفيما يتعلق بالقرى التي بيد الملك، فإن مبعوث تيشاليم التاجر يمكنه مغادرتـــ(ـــها).

(٧) إذاً الملك منح الأراضي، (و) أجاز نقل الناس (التي عليها إلى) يدي تيشاليم.

هذا ويشير المقطعان الخامس والسادس إلى ضمان حرية تنقل التجار بين إبلا وإيمار.

النص رقم (٨)

TM.٧٥.G.١٩٨٦+٣٢٢١+٤٥٤٤

وهو كسابقه يعد من نصوص التنظيمات الملكية، فهو يؤكد تمليك تيشاليم لمناطق في إربيش وجورّبال ويضع بعض المواد التنظيمية المتعلقة بهذا التمليك وبأوضاع الناس المقيمين في بعض القرى التابعة لتيشاليم أو لملك إيمار روصي دامو:

(١) كل الأراضي المشتراة في إربيش وجورّبال التي أعطى إركب-دامو إلى تيشاليم أصبحت ملكا ليشاليم.

(٢) ومن ثم إذا أعطت تيشاليم الثمن إلى [الملك] فلإيمار حق الانتفاع (بالأراضي التي) أصبحت ملكا لتيشاليم.

(٣) ومن (ثم) فإن (الأراضي) المكتسبة من قبل إيمار [بمناسبة] الأضحية؟ (في) جورّبال ......أصبحت ملكا ليشاليم.

(٤) وبالنسبة لشأن خَبرا (*Hab*$_2$-*ra*$_2$^{ki}) وشأن ..مو (×-×-*mu*^{ki})، التلة التابعة لخرازو (*u-ra-zu*^{ki}) فقد سُلّم القرار إلى تيشاليم .

(٥) اناس تيشاليم المقيمين في زابيخادو وكذلك اناس الملك في زابخادو لهم حق الانتفاع بالأراضي.

(٦) وأخو-نعِم، بسبب ذهابه، (عليه) أن يُسكن الناس في [زابخاد]و، في بيوته وفي أراضيه.

(٧) من درداو (*Dar-da-u*₃ki) تخرج كاهنة الإلهة إشخارا ..... حِمل؟ كل ما يملك.

(٨) وبالتالي (في منطقة....؟) التابعة لتتني (*Daš-ne*) سوف يقيم روصي-دامو.

(٩) هكذا (قال) الملك:

(١٠) الناس التابعون لتيشاليم والمقيمون في قرى الملك يبقون بأمان.

(١١) والناس التابعون لروصي-دامو (ملك إيمار) والمقيمون في قرى تيشاليم يبقون (هناك) طالما كان ذلك ملائما لهم (بالإبلوية *Šikinsuma*).

النص رقم (٩)

ويضم مجموعة من الوثائق المتعلقة بالمدن الواقعة إلى الشمال من مدينة حما (’À-maki)[١٥] يؤكد سيطرة المدينة على المقاطعات الواقعة بجوارها. ويؤرخ هذا النص بناء على دراسة الإشارات المسمارية المستخدمة في كتابته بنهاية عصر ملك إبلا إركب-دامو وبداية عصر الملك إشأر-دامو.

يتألف النص من ثلاثة أقسام:

القسم الأول (المقاطع رقم ١-٤) يتعلق بتقسيم الغنائم التي تم الاستيلاء عليها بعد السيطرة على مدينة شيدارين (*Si-da-ri*₂*-in*ki) منها أعداد كبيرة من رؤوس الأغنام والأبقار وجرار الزيت.

أما القسم الثاني (المقاطع ٥-٢٥) فيتعلق بتسجيل مجموعة من الحصص السنوية التي أرسلت ثلاثة موظفين هم طوبي ($Du\text{-}bi_{2}$) ووانا (*Wa-na*) وروصي-بو ($Ru_{13}\text{-}zi\text{-}Bu_{3}$) بمناسبات متعددة منها ما ورد في زمن الحصاد (المقطع ١٥) أو بمناسبة السفر والتجول في منطقة حما (المقاطع ١٦-١٧) أو في حالة ضعف المحاصيل (المقاطع ١٨-١٩). ذكر طوبي في بعض النصوص بين السادة (lugal-lugal)[١٦] الذين قاموا بتوريدات كبيرة إلى القصر الملكي في إبلا. وقد عُرِّف في هذا النص بأنه عمدة (ugula) حما وأباتوم (في المقطع الثاني عشر من النص) وذلك نتيجة لمشاركته في الحملة التي قادها الوزير إبريوم ضد شيدارين. أما وانا فهو معروف من خلال النصوص الإدارية بأنه المشرف على إسطبلات الوزير إبريوم[١٧] (ugula bir_{3}-BAR×AN). أما روصي-بو فلم يذكر خارج هذا النص لذلك يصعب تحديد وظيفته بدقة.

وفي القسم الثالث (٢٦-٦٣) سردت نصوص أربع رسائل أرسلت من حما وأباتوم. وفيما يلي ترجمة هذه الرسائل:

الرسالة الأولى (المقاطع ٢٦-٢٨): وهي رسالة من قرى حما وأباتوم وتبين أن منازل الموظفين الثلاثة من إبلا قد أصبحت جاهزة.

(٢٦) هكذا (قالت) قرى حما وأباتوم:

(٢٧) بالقرب منا تم بناء منازل طوبي ووانا وروصي-بو.

(٢٨) البومة والحمامة تتأوهان بقوة عند بيتكم.

الرسالة الثانية (المقاطع ٢٩-٣٥): رسالة من قرى حما. وتتضمن دعوة كل من وانا وروصي-بو بمناسبة عودتها وتصف الإعدادات المتخذة للحفل المرتقب:

(٢٩) هكذا (قالت) قرى حما:

(٣٠) لعلهم يعلمون الآن بعودة وانا وروصي-بو

(٣١) وستستقبلهم الحمامة الصغيرة.

(٣٢) ومن أجل الطعام البومة والحمامة ستجهزان نفسيهما.

(٣٣) وسوف يذبح سكان الخيام الأغنام بوفرة

(٣٤) وستكون الخراف متوفرة

(٣٥) وسوف نجهز المخيم بشكل منفصل.

الرسالة الثالثة (٣٦-٥٧): وهي رسالة من عمدة حما وتتحدث عن حروب إبريوم والاتفاق ما بين طوبي وحما.

(٣٦) هكذا (قال عمدة) حما:

(٣٧) ها أنا أتفقد العمل في القطاع

(٣٨) لماذا أرسلنا إمداداتنا إلى ماني؟

(٣٩) وإلى أباتيمو وماني (التابعة لــ) إكدورا باتجاه مدينتها في منطقة إيلا وضعنا المخيم

(٤٠) بسبب الخشب اللازم لــ(صنع) اللبن احتجزنا

(٤١) (إلا) أننا دفعنا (ثمنها)

(٤٢) وفدينا أنفسنا.

(٤٣) الآن [....](ضد) إيلا لن تقوم بحملة.

(٤٤) الآن وبسبب جزية (ملكي) مانوّات قام الملوك الثلاثة بحملة[١٨].

(٤٥) بيتنا عاد إلى طوبي

(٤٦) [و] حمل الخبر [بموت] ملك (شيدارين إلى) طوبي وهو الذي (كُلّف بالتوجه) إلى شيدارين من قبل إبريوم (من أجل) الحصول على إمدادادتنا من مخازن حبوبنا.

(٤٧) [وعندما ذهب] في الحملة ضد خالشوم(*al-sum*^{ki})، أرمي سيطرت على لمّي (*Lam-mi*^{ki}).

(٤٨) و(عندما) غيرت قوتّان (*Gu*$_{٢}$*-da-an*^{ki}) عهدها (قسمها) [....] فتح أباراريجا (*A*$_{٣}$*-ba-ra-ri*$_{٣}$*-a-ga*^{ki}).

(٤٩) والناس الخاصون ببوابتها فدوا أنفسهم بتقسيم البضائع بين قطاعين

(٥٠) الناس من إرإب (*Ir-i-ib*$_{٢}$^{ki}) ذهبوا إلى صابروم (*Za-ba-rum*$_{٢}$).

(٥١) وأعلنوا من هناك ولاءهم

(٥٢) والمال المتوفر من مور وأونوبو حملناه إلى جينأو (*Gi-NE-ù*^{ki}).

(٥٣) والناس (من) إبلا كانوا يرغبون بالإقامة في جينأو (*Gi-NE-ù*^{ki})، وهم الذين كانوا في نيشا (*NE-sa*^{ki}).

(٥٤) ولم يسمحوا لطوبي بالإقامة بينما كانت محاصرة،

(٥٥) ولم يرغبوا بتسليم رجالها.

(٥٦) وفتحها.

(٥٧) وأسر سكانها.

الرسالة الرابعة (٥٨–٣٦): وهي رسالة من حاكم حما تتضمن وعداً بأن بيته (ويقصد مدينته) سوف يعطي نحاساً وسوف يتقاسم الخمر والعسل والإمدادات للحملة العسكرية وسيمضي بيته دائما في احترام (ملك إبلا).

النص رقم (١٠)

ويضمّ رسالة موجهة من حنا–دامو (بالمقطعية *En-na-Da-mu*) ملك منوّات[١٩] (*Ma-nu-wa-ad*) إلى ملك مدينة ماري يؤكد فيها تحالفه معه ويذكره بالمبادئ التي تحالف الطرفان على أساسها. وقد ورد اسم حنّا–دامو ملك منوّات في وثائق إدارية من إبلا مؤرخة بعصر الملك إركب–دامو وهذا ما يرجح تأريخ الرسالة في بداية عصر هذا الملك، وذلك عندما كانت ماري مازالت تمارس نفوذاً قوياً على مناطق الفرات الواقعة إلى الشمال منها.

لم يحدد موقع منوّات حتى الآن ولكن الشواهد النصية ترجح وقوعها على الفرات في منطقة ليست بعيدة عن ماري (انظر الخارطة).

يتألف النص من أربعة أقسام: القسم الأول (المقطع ١–٣) يؤكد فيه ملك منوّات التزامه بأداء قسم التحالف. القسم الثاني (المقاطع ٤–٨) ناقص بشكل كبير. وكان يضم على ما يبدو بعض الفقرات التي تراعي مصالح مانوّات حيث توجب تقديم الأضاحي لآلهة مانوّات. أما القسم الثالث (المقاطع ٩–١٤) فهو تام ويضم فقرات تصب في مصلحة ماري منها:

المقطع ١٠: "(إذا) خازوان (*a-zu-wa-an*ki) وككميوم ونيرار تحركوا ليوم أو يومين باتجاه دابنات (*Da-bi*٢*-na-at*ki) سوف أرسل (الخبر) بسرعة إلى حصون رحق". يبيّن هذا المقطع أن ملك منوّات قد تعهد بمراقبة تحركات المدن المتحالفة مع إبلا في منطقة الفرات وتعهد بإيصال أخبار هذه التحركات بأقصى سرعة.

المقطع ١٢: "**إذا طلبت ماري من منوّات نـزول الحاضـرين بـالقرب منـا إلـى شوران**(٢٠) (***Šu-ra-nu*** ki) **فأنا سوف أنهض**"، ويقصد بذلك أنّ منوّات سوف تقـدم لماري الدعم العسكري عند طلبها ذلك. أما القسم الأخير (المقطع ١٥) فيحدد تبعيـة الحصون الواقعة على المناطق الحدودية بين الطرفين: "**مناطق منوّات هـي لملـك منوّات، حصون رحق**(٢١) (***Ra-à -ag*** ki) **تكون لملك ماري**".

النص رقم (١١)

جمعت في هذا النص وثائق تتناول العلاقات ما بين قبائل إبعل ومنوّات وبعض حلفاء إبلا. أولى هذه الوثائق (المقاطع ١-٤) رسالة من شيوخ إبعـل(٢٢) (بالمقطعيـة *-Ib* al_6 ki) إلى ملك منّوات. يلاحظ أن هذه الرسالة لم تبدأ بالكلمة ***en-ma*** "هكذا" وهـي الكلمة التي عادة ما تفتتح بها الرسائل، ويلاحظ أيضا استخدام اللّقب السومري ماخ-ماخ (ma -ma) للدلالة على شيوخ إبعل (المقطع ١). وعادة ما يطلق عليهم فـي النصوص الإدارية اللقب السومري إن (en) وأحياناً لقب أوغولا (ugula).

يذكر شيوخ عشائر إبعل في رسالتهم (المقاطع ٢-٤) خبر ذهاب أربعـة أشـخاص وثلاثة ملوك من بينهم ملك إبلا لتقديم هبات الزيت التي سلمت إلى أمراء إبعل الذين بدورهم قدموها في شوران.

أما الوثيقة الثانية فهي قائمة اسمية (المقطع رقم ٥) لرسل أربعة مذن انطلقـوا فـي رحلة أولى (du ١).

الوثيقة الثالثة هي رسالة أخرى (المقاطع ٦-٧) موجهة من ملك مانوّات إلى مبعوث يكّاه-ليم (*I-ga-Li-im*) وهو أحد شيوخ إبعل الستة المعروفين في نصوص إبلا. إلا أن النص في هذا الموضع غير كامل ويصعب فهمه.

الوثيقة الرابعة تضم بيان رسول يكّاه-ليم بخصوص رحلة ثانية وثالثة (المقطع ٨-١٠):

(٨) بيان (eme-*ma*) مبعوث يكّاه-ليم:

(٩) بالتأكيد (بمناسبة) القسم وضع ملك مانوّات فأساً نحاسياً وفأساً أنا و(هذه) الفؤوس هي للإله حدّا: الرحلة <الثانية>.

(١٠)إلا أن ملك إبلا لم يضع فأساً نحاسياً ولم يرسل ملك منوّات نيادولو (NI-*a-du-lu*)، ولم يرسل أتي-أمو (*A-ti-A-mu*) أداتي (*A-da-a-ti*): الرحلة الثالثة.

يبدو من هذه الفقرة أن منوّات وإبعل كانتا في هذا العصر من حلفاء إبلا.

أما المقاطع الأخيرة من النص (المقاطع ١١-١٨) فتورد محاورة بين رسول مانوّات وعمدة كارامو[٢٣] (*Ga₂-ra-mu*ki) وذلك بخصوص انضمام فرع قبلي ربما من إبعل للتحالف مع إبلا وقد أشير إليه في النص بعبارة دامو (Damu) وهي مشتقة من "دم" وتعني "عائلة".

(١١)هكذا (قال) أبي-أسو (*A-bi₂-a-su*) مبعوث ملك منوّات إلى حن-شادو عمدة كارامو:

(١٢)لقد أقسم كل من الملك (أي ملك منوّات) و (الناس من) دامو (لملك إبلا).

(١٣)هكذا (أجاب) حن-شادو:

(١٤)لماذا أنت هنا؟ أموظف إبعل أنت؟

(١٥)(فـ)أوضح أبي-أسو (قائلاً):

(١٦)(لقد قدّم) ملك إبعل الموافقة (إلى) الناس من دامو.

(١٧)(فــ) أجاب حن-شادو:

(١٨)لماذا؟ إن فأسيك (اللذين قدمت إلى) إلهك (من أجل) الناس (من) دامــو ليــسا بجيدين.

يؤرخ هذا النص في عصر الملك إشأر-دامو آخر ملوك إبلا حيث كانت إبلا متحالفة مع قبائل إبعل وهو أحدث من النص ١٣ الذي يؤرخ في بداية عصر إشــأر-دامــو وتحديدا سنة وفاة الملك إركب-دامو. وفي ذلك الحين كانت إبعل متحالفة مع مملكــة ماري (انظر النص رقم ١٣).

النص رقم (١٢)

صيغ هذا النص على شكل رسالة سجّل فيها خبر التعاهد وتبادل القسم بين شخص ذو منصب رفيع واسمه يريق-إيل (*I-rí-ig*-NI) مع عمدة مورو (*ru*$_{١٢}$*:Mu*^{ki}) الذي لم يذكر اسمه في النص. ويذكر النص العقوبات المترتبة على من يقوم بالحنث باليمين. وهذا النص هو دليل على استخدام القسم nam-ku$_{٥}$ (قسم التحالف) لضمان ولاء الموظفين الكبار إلى جانب استخدامه عند التحالف بين المدن والمجموعات القبلية.

يؤرخ هذا النص في نهاية عصر الوزير أرّوكوم وبداية عصر الوزير إبريوم الــذي يظهر في النص كقاض بين الطرفين في حال الحنث باليمين.

يبدأ النص بالمقدمة المعهودة في الرسائل: *en-ma I-rí-ig*-NI *si-in ru*$_{١٢}$*:Mu*^{ki} "هكذا (قال) يريق-إيل إلى مورو". ثم يسمي الأشخاص الذين ذهبوا لأداء القسم، ويوكــل هؤلاء إبريوم للفصل بينهم في حال الحنث باليمين:

(٣) *su-ma* inim ul *al*$_{٦}$ *I-ri*$_{٢}$*-ig*-NI *ru*$_{١٢}$:*Mu*^{ki} du$_{١١}$ *wa* nam-ku$_{٥}$ *I-ri*$_{٢}$*-ig*-NI *wa* ***ru***$_{١٢}$:*Mu*^{ki} *aš*$_{٢}$*-da-ma Ib-ri*$_{٢}$*-um ni-si* ul šu-mu-‹‹tak$_{٤}$››

"إذا نطقت مورو بكلمة سوء نحو إيريق-إيل، عندما يكونا قد أقسما، في هذه الحالة فإن إبريوم يفصل في أمر الحنث باليمين"

ويبيّن النص العقوبات المترتّبة على ذلك حيث ينبغي على مورو دفع فضتها وثيرانها وأغنامها وبغالها لإيريق-إيل وفي المقابل فإن إيريق-إيل يفقد نحاسه وثيرانه وأغنامه وبغله وأولاده وتكون كلها لمورو.

النص رقم (١٣)

عُنْون النص في المقطع الأول بعبارة: "لوح التعليم الخاص بإبعل" (dub *ù- Ib-al*$_{٦}$^{ki}). وهو يشترك مع النصين الرابع عشر والخامس عشر بنفس العنوان: " dub *ù-su-ri*". يبدو أن هذه الألواح إنما كتبت لغرض إعداد وإطلاع الرسل والتجار على تعقيدات العلاقات الدولية في عصرهم مما يفيدهم في حياتهم العملية.

يورد النص تفاصيل فتوحات عسكرية لأمير من إبعل هو ابن يكّاه-ليم قام بها وأخوته بالاشتراك مع مملكة ماري، مستغلاً فترةً من الضعف مرّت بها إيلا ليقوم بضم مناطق كانت خاضعة لها. ويظهر النص التحالف الذي كان قائماً بين إبعل وماري وذلك قبل أن تتحالف إبعل مع إيلا كما هو مبين في النص الحادي عشر.

يؤرخ هذا النص بنهاية عصر إركب-دامو وبداية عصر إشأر-دامو كما هو موضح في متنه **(المقطع الثاني)**: **"DIŠ mu ug$_{٧}$ en *Ìr-kab-da-mu*"** **(سنة وفاة إركب-دامو)**.

يذكر النص (في المقطع الثاني) أن ابن يكّاه–ليم قد أصبح زعيماً أو ملكا EN على المناطق التي خضعت له (المقطع الثاني: سنة وفاة إركب دامو، أصبح ابن يكّاه ليم بن إنجار ملكاً).

أما مراحل الحملة فيمكن تلخيصها بما يلي:

بعد أن يسجل النص قيام ابن يكّاه ليم بتقديم الزيت المعطر (المقطع رقم ٤) مباركة للتحالف، يذكر حدث اجتماع ابن يكّاه ليم وأخوته للمشاركة بالحملة العسكرية المنطلقة من ماري (المقطع ٥) ثم توجههم لحصار شادابان وأثناء ذلك استولوا على مكان اسمه دامات وعلى خراف ملكها واحتجزوها في إلويوم (المقطع ٦). ويذكر في المقطع (٧) أن خبر اتفاق زعماء إبعل الثلاثة وهم أيكّاه ليم وأبا–إيل وابن بوغادا وذلك أمام الإله كاميش في مكان اسمه شتابان. وهناك نظّموا أمر تموين الحملة المؤلفة من ثلاثمائة جندي بالشعير (المقطع ٨)، ثم استولوا على خارباتوم (تل رفعت) واسروا حراس البوابة (المقطع ٩) واستولوا على البوابة (المقطع ١٠) وجمعوا الحراب عندها (المقطع ١٣). ثم صعدوا الجبل (المقطع ١٢)، وعندما استولوا على كرامان (في حوض العاصي) تقابل (جيش) إبلا (بجيش) ماري (المقطع ١٣). وسار الإبلويون جهة ماري وأرسلوا الرسل (للإشراف على) صيانة قنوات الماء (المقطع ١٤). ولكن جيش إبعل استولى، على ما يبدو، على مخازن المؤن (المقطع ١٥). ولم يرسل حلفاء إبلا: نيرار ومانوّات وكاكام (*Gakam*) المعونة (المقطع ١٦). واستولى رجال إبعل على الماء (المقطع ١٧)، وأحكموا سيطرتهم على كرامان (المقطع ١٨). وأرسلوا إلى ماري المؤن التي كانت في كرامان وتتألف من وافر العسل والشعير والناس ومؤن منطقة أبسو ($Ab_{٢}$-zu[ki]) وكلها أصبحت بعهدة رجل من ماري اسمه بن–ليم (*Bi-ne-li-im*) (المقطع ١٩). وبقية غنائم أبسو

مثل الأخشاب ورؤوس الرماح والعسل والخمر وهي المذكورة في المقطع الأخير من النص (المقطع ٢٠) فلا نعلم مصيرها لأن النص يتوقف فجأة عند هذه النقطة وتركت بقية أعمدته على الوجه الخلفي فارغة.

النص رقم (١٤)

يحمل هذا النص العنوان التالي :"dub lú *ù-šu-rí* DU^{ki}" (لوح التعليم الخاص بـ"دو") ويضم بذلك وثائق تتعلق بمنطقة "دو"[٢٤]، منها أخبار رحلات تجارية من وإلى هذه المنطقة المؤلفة من مجموعة من القرى تديرها حكومات منفصلة. يرجح أنها كانت قريبة من توتول (تل البيعة) وكانت عرضة لنفوذ كل من مملكتي ماري وناجار (تل براك).

يظهر في النص (المقطع رقم ٤٠) إشأر–دامو، وهو آخر ملوك إبلا في عصر المحفوظات، سوية مع إبريوم وهذا ما يدعو إلى تأريخ النص في بداية عصر هذا الملك.

يتكون النص من ٢٣ كسرة وقد فقدت منه أجزاء كثيرة مما لا يسمح بترجمته كاملاً.

يصف النص في البداية (المقاطع ٢–٨) رحلة مجموعة من التجار من منطقة باتين *Ba-ti-in*^{ki} (مكان ما إلى الشمال من مدينة حلب) ذهبوا في رحلة تجارية وكان عليهم الاستقرار في منطقة ما بهدف الحصول على جرار جديدة من الزيت. وعندما وصلوا (إلى المكان المقصود وقد فقد الجزء من النص حيث حدد اسم هذا المكان) شاركوا بمراسم دفن شخص اسمه آشوم *A-sum* (ربما كان تاجرا من بورمان) ولم يتسلموا إلا ست جرار من الزيت من أصل تسع.

كان على هؤلاء التجار بعد ذلك التوجه من باتين إلى مكان اسمه إمّاران *Im-ma-ra-an*^{ki} (المقاطع ٩–١٣) وهناك احتجِزوا وسُلِّموا إلى شخص اسمه يبقيدوم *Ib-gi-tum*

من ماري ودفعوا له مقابل حريتهم عشر وزنات من الفضة فأطلقهم. ليلتقوا بعد ذلك بتاجر من نابراراتو *Nap-ra-ra-du*ki (المقاطع ١٤-١٧) حيث سلّموه بعضاً من جرار الزيت وتسلّموا منه عشرين رأساً من الغنم.

ويروي النص (المقاطع ١٨-٢٢) بعد ذلك تفاصيل عن مشاركة تجار من إبلا في مراسم دفن آشوم في مدينة جاء منها شخص اسمه داكادو *Da-ga-du*. ثم عن تجارة رجل من إبلا أراد شراء ثيران في سوق إمّاران (المقاطع ٢٣-٢٧) ولكنه لم يجد فاشترى عوضاً عن ذلك حملان صغيرة ما زالت بحاجة للرضاعة فسلمها لرجل من إن-نه‌كي EN-NEki ليقوم برعايتها.

هناك مقاطع (٣٣-٣٥) تشير إلى شخص من إبلا احتجز من قبل أحد الماريين في منطقة نابراراتو وتم الاستيلاء على أمواله.

أما المقاطع (٣٦-٤١) فتورد محاورة بين رجل من إيمار اسمه تورتي (*Dur-ti*) وعمدة (ugula) منطقة أخرى. ولكن أجزاء كبيرة من النص مفقودة في هذا القسم مما يجعل فهم كل ما ورد في المحاورة من الصعوبة بمكان. يبدو أن الشخص القادم من إيمار كان منحازاً لإبلا في حين أن العمدة يطلب تعويضات من إبلا. يبدو أن العمدة كان مسؤولاً عن قرية تابعة لإيمار ويطلب تعويضاً عن استخدام المراعي في سهول إيمار من جانب رعاة تابعين لإبلا:

(٣٧) *en-ma* ugula uruki (٣٨) níg-sa₁₀ Murguki *Ì-mar*ki *àš-da Ib-la*ki še

"هكذا قال مراقب (أو عمدة) المدينة: إن ثمن (رعي أغنام) إبلا في مروج إيمار ينبغي أن يكون حبوباً" (ARET XIII, P. ١٤٧).

وتسرد المقاطع (٥٢-٥٩) وقائع انطلاق سبعة من التجار من مدينة نابراراتو (Napraratu) إلى قيدَش[٢٥] (*Gi-daš*) الواقعة في منطقة إبلا ثم احتجازهم وإجبارهم على دفع فدية لماري من أجل تحريرهم.

وتورد المقاطع (٦٠-٦٣) نص حوار بين رجل من ناجار وغانية اسمها مانيا (*Ma-ne-a*). الرجل من ناجار يستجوب الغانية حول علاقة نابراراتو بإبلا فتجيب مؤكدة وجود تحالف ما بين الطرفين قائلة:

(٦٢) *en-ma Nap-ra-ra-du*ki (٦٣) *Si-mi-a-Am* al₆-tuš *Ma-ri*ki *I-ti* al₆-tuš *Ib-la*ki aga-kár *ša-da-ga bù-ne-iš ......Nap-ra-ra-du*ki *si-mi-a-Am*

"(٦٢) هكذا (قال) نابراراتو: (٦٣) (عندما) أغار شيمع-عم الذي كان في مقيماً في ماري على يدّين (*I-ti*) من إبلا فوق جبالك، اتجهت نابراراتو ضد شيمع-عم".

أما المقاطع الأخيرة (٦٤-٦٧) فتخبرنا عن إرسال إبريوم لمبعوث إلى نابرارتو لتسليم حاكمها الشخصَ الذي شتم الإله حدد شرط أن يؤدي حاكم نابراراتو القسم، حينذاك يمكنه أن يطلق هذا الشخص في وسط مدينته.

النص رقم (١٥)

عُنونَ هذا النص أيضا بعبارة "dub *ù-šu-rí Ma-ri*ki" (لوح التعليم الخاص بماري)، ويؤرخ النص بزمن الوزير الإبلوي إبي-زيكير حيث ورد اسمه في النص (المقاطع ٥٣-٥٥).

يسجّل النص في المقدمة (المقطع رقم ١) الحصص التي خصصتها ماري لقوافل تجار إبلا الذين ينطلقون من ماري إلى إبلا أو من ماري إلى كيش. ثم يجمع في بقية مقاطعه تقارير عن رحلات لتجار من إبلا إلى مناطق مختلفَة، منها رحلة التاجر بوزوري *Puzur₄-rí* (المقطع ٥) الذي توجه أولا إلى مدينة عين[٢٦] (المقطع ٣) ثم

إلى شاراب (*Sar-ra-bù*^ki^) (المقاطع ٤-٨)، ورحلة المستشار بيلسا-إيـل (Bilza-Il) إلى ماري (المقاطع ٩-١٧) والتاجر يشيروم (*Yiširum*) إلى ماري (المقــاطع ١٨-٣٦)، وأخيرا رحلة الموظف مان-حيو (Man- ayyu) إلى توتول (٣٧-٥٥).

يتضح من النص أنه كان على تجار إبلا الحصول على إذن من موظفي ماري يمكّنهم من ممارسة نشاطاتهم في المناطق الخاضعة لنفوذهم. مع ذلك فإن هــؤلاء التجــار كانت لديهم الشجاعة للقيام بمثل ذلك دون الحصول على الإذن المطلوب وهــذا مــا أشار إليه النص مرارا بعبارة nu" "inim أي "بلا إذن" (المقاطع: ١١، ١٣، ٢٢).

النصان (١٦)-(١٧)

وهما نسختان متطابقتان ومختصرتان عن نص أصلي مفقود(٢٧). والدليل على ذلــك أن كل الفقرات في النص تبدأ بعبارة سو-ما *su-ma* "إذا" باســتثناء المقطــع الأول الذي يبدأ مباشرة بذكر اسم مدينة أرمي (٢٨)(*Armi*^ki^).

يتعلق النص بشعيرة دينية يجب أن تقام في زمن الحرب. حيث يشير النص إلى غرض أو شيء يجب أن يرفع عالياً ويقدم إليه الطعام، يكون هذا الغرض إما مفرداً أو مزدوجاً، ولكنه عِلى الأغلب مزدوج وقد أشير إليه في النص بعبارة AN.AN.DU (وتقرأ أيضاً ^d^an-gub ويقبلها في الأكادية *angubbûm*). من المرجح أن يكون هذا الشيء راية مقدسة حامية تُستدعى أو يُتضرع إليها عند القتال.

يسرد النص شروط تنفيذ شعيرة رفع الأنغوبو من قبل رجال أرمي المنطلقين للحرب:

يصف **المقطع الأول** فترة من السلم كان رجال أرمي حينها موجودين في إبلا وأقاموا دون قتال لذلك لم يرفعوا "الأنغوبو". **في المقطع الثاني** وصف للطقس الديني وقت الحرب حيث يرفعون صور "الأنغوبو" ويقدمون لها الهبات (٢): " ١ *su-ma* šu-ra

٤ "^{d}an-gub íl *wa* šuku والترجمة هي: "**فإذا حدث القتال يرفعون "أنغوبو" واحد ويقدمون له الوجبة لأربع مرات**" ويمضي النص في شرح نقاط أخرى وحالات خاصة تتطلب رفع "الأنغوبو" وتقديم الأعطيات لها. **أما المقطع الأخير** في النص (٥) فيبدو أنه لا علاقة له بما سبقه وهو يتعلق بتقديم الزيت عند طلب إبي زيكير الوزير ذلك وهو الطقس الذي يجيز العهد بين الحلفاء في كل المنطقة.

النص رقم (١٨)

وهو نص صغير(٢٩)، ربما مدرسي، يضم بعض بنود معاهدة عقدت بين إبلا وأرمي.

يقرر المقطع الأول من النص تجديد تقديمات الزيت السنوية على حلفاء إبلا ومن بينهم مدينة أرمي، وكذلك تقديم الطعام لآلهة إبلا (المقطع الثاني). فإذا لم يقوموا بتقديم ذلك إلى أبي البلاد (أي الإله حدد) فإن الرب (أبا البلاد) سوف يقتلهم (*A-bí* $_{7}$*ba'-al* *wa* ug$_{7}$-*sù* kalam-*tim*^{ki} kalam-*tim*^{ki}). أما **المقطع الأخير** فيقرر أنّ على أرمي أن ترسل ما هو مفروض عليها للمشاركة في حملة عسكرية إلى ناجار:

"šu-du$_{8}$ máš-*gú-nu* mè *si-in* du-du *Na-gàr*^{ki} uru^{ki} šu ba$_{4}$-ti"

"عليكم تسليم إمداداتكم الخاصة بالحملة المتوجهة (نحو) ناجار إلى المدينة (أي إبلا)".

النص رقم (١٩)

يسجل هذا النص المفاوضات التي تمت بين مبعوث ماري وملك حدّو (بالمقطعية *'A$_{3}$-du*^{ki}) والتي سبقت التحالف بينهما، حيث يحاول مبعوث ملك ماري التأثير على حدّو لتتخلى عن تحالفها مع إبلا وتتحالف مع ماري.

يؤكد ملك حدّو في البداية تحالفه مع إبلا ولكن بعد ذلك يشتكي من مهاجمة إبلا لإللا (*Il-la*^{ki}) المتحالفة معه. ويبدو في نهاية النص أن مبعوث ملك ماري استطاع التأثير على ملك حدّو الذي أصبح يفضل التحالف مع ماري.

وبالفعل فإن معاهدة إبلا مع أبارسال[٣٠]، والتي تؤرخ بفترة سابقة، تؤكد أن حدّو كانت واقعة تحت نفوذ إبلا. ويبدو أنها قد انتقلت الآن لتتحالف مع ماري.

يظهر **في المقطع الأول** مبعوث ماري وأسمه سوّا–ما–وابار (*su-wa-ma-wa-ba-ar*) في منطقة حدودية هي إللا (*Il-la*^{ki}) ويتوجه إلى حدّو وهناك يقابل شخصين هما سارابو *Sa-ra-bu*$_{٣}$ من حدّو وزارّم (*Zar-rum*$_{٢}$) التابع لساربو وهذان يسألاه: "لماذا أنت مسافر إلى هنا" (*mi-na* du-du) فيجيب: "أنا مسافر من أجل الأخوة (التحالف)" (*en-ma*-sù šeš-*sù-ma*). ويذهب أحدهم ليخبر ملك حدّو الذي يرسل بعثة مؤلفة من ثلاثة أشخاص يلتقون شوّا–ما–وابار في منطقة خوبادو (المقطع ١١). ويقولون له (المقطع ١٣): "خبزا (و) جعة (و) ثيران وخراف جيدة كانت مخصصة لملك إبلا هي الآن لك". وفي المقطعين ١٥ و ١٦ يخاطب ملك حدّو مبعوث ملك ماري قائلاً:

"*an-na wa Ib-la*^{ki} ì-giš GIŠ-sur$_{x}$ *wa* nam-ku$_{5}$ GIŠ-sur$_{x}$ gaba ^{d}KU-*ra wa* gaba ^{d}*'À-da* an-gál"

"أنا وإبلا مرتبطان (بعهد) الزيت وقد أقسمنا على العهد أمام الإله كورا والإله حدّا".

ولكن يبدو أن إبلا قد قامت بنقض هذا العهد بمهاجمتها لمدينة إللا الحليفة لحدّو وقامت بقلع مزروعاتها من الحبوب وساقت خرفانها وثيرانها وقتلت رجالها (المقطع ٢٦). وهنا يسأل مبعوث مدينة ماري ملك حدّو:

(٢٨) *mi-ne-iš du-a- a Ib-la* $_{ki}$ (٢٩) *Ib-la*$_{ki}$ dè:a dam *ba-ru*$_{١٢}$*-a*

"لماذا تتحالف مع إبلا؟! إبلا كاذبة كامرأة".

فيجيب ملك حدّو:

(٣١) *ú- u-wa-du Ib-la*^{ki} nu sa$_{٤}$ (٣٢) *ap ù- u-wa-du Ma-ri*^{ki} sa$_{٦}$ *ne-si-in*

"إن التحالف (الأخوة) مع إبلا ليس جيداً. (على العكس من ذلك) فإن التحالف (الأخوة) مع ماري جيد، نحن موافقون (على التحالف معها).

النص رقم (٢٠)

يورد النص بنود معاهدة عقدت بين إبلا والمارتو بهدف دعم ملك إبلا في حملته العسكرية إلى مناطق البدو الأموريين والوقوف بوجه العمليات العدائية التي تنطلق من هناك بدعم وتحريض من مملكة ماري:

المقطع الأول: يضم عنوان النص وهو:

"dub nídba ì-giš *Mar-tu*^{ki} *wa Ib-la*^{ki}"

"نص تقديم الزيت من قبل مارتو وإبلا".

المقاطع من الثاني حتى السادس: تنظم هذه الفقرات شؤون المراعي التابعة لإبلا وشروط استخدامها من قبل المارتو:

(٢)"١ mu-*ma* nídba ì-giš udu-udu *mar-tu*^{ki} en *Eb-la* á-gá-II "

"في كل عام وفي موسم تقديم الزيت يقتسم ملك إبلا أغنام المارتو".

(٦) "*Ma-ti-lum bù-su-ma* en *Ib-la*^{ki} du$_{١١}$-ga *Mar-tu*^{ki} ú-šim"

يقرر ماتي-إيلوم من أجل أملاك ملك إبلا (من الخراف) على المارتو مناطق الرعي".

المقطعان السابع والثامن يقرران وجوب إيصال المعلومات إلى إبلا بخصوص التحركات المعادية ويبّين النص أن إخفاءها يعد نكثاً للعهد:

(٨) "*su-wa-ma* nu šu mu-tak₄ a-è ì-giš"

"إذا لم ينقلوا (المعلومات) فإن هذا (يعد) خروجا على عهد (الزيت)"

المقطع ٩-١٠-١١

تقرر وجوب إرسال المساعدات لحملة ملك إبلا العسكرية وفي حال عدم قيام المارتو بذلك فإنه يعد أيضاً خروجاً على العهد.

(٩) níg-kas₄ en *Ib-la*[ki] al₆-du₁₁-ga-*sù* KU.TU mè *Ib-la*[ki] KU.TU mè-*sù* KU.TU ì-giš *Ib-la*[ki] KU.TU ì-giš-*sù*

"فيما يتعلق ببعثات ملك إبلا، وطبقا لأمره، رجال حملة إبلا العسكرية (يكونون مماثلين تماما لـــ) رجال حملته (= المارتو) العسكرية" (أي أن على المارتو أن يضعوا رجالهم تحت تصرف ملك إبلا أثناء حملته العسكرية تماماً كأن تكون هذه الحملة حملتهم).

(١٠) *Ib-ma-lik* KU.TU mè *Ib-la*[ki] *si-in Mar-tu*[ki] kéš-da-*sù* ì-na-sum

يعطي (المارتو) لإبملك الرجال من أجل حملة إبلا العسكرية باتجاه المارتو كقواته".

المقاطع من الثاني عشر حتى السادس عشر تقرر على المارتو أموراً متفرقة منها: عدم استلام الثمار المخصصة لملك إبلا. وأمراً يتعلق بتسليم رجال من ماري. وكذلك تسليم بغال ملك إبلا المفقودة وفي حال عدم قيامهم بذلك فإنهم ينكثون العهد، حيث تتكرر في كل مرة العبارة:

"nu ì-na-sum-*sù* a-è ì-giš" (.....إذا لم يعطه (فهذا يعد) مناقضا للعهد).

المقطع الثامن عشر: يقرر وجوب إمداد إبلا بالطعام والشراب ربما أثناء التصادم العسكري بين إبلا وماري في المناطق القريبة من مناطق المارتو.

وينتهي النص في **المقطع التاسع عشر** بإيراد قائمة بأسماء خمسة من مبعوثي المارتو.

النص رقم (٢١)

يضم اللوح نص معاهدة عقدت بين إبلا ودو–لو(٣٢) (*Du-lu*ki). وتظهر بنود الاتفاق تبعية دولو لإبلا حيث تصبّ كلّ البنود في مصلحتها:

المقطع الأول: قائمة بالبضائع التي يتوجب على دولو إيرادها إلى إبلا وفقا للمعاهدة وهي: مينا ونصف من الفضة، ثور سمين، وخروف سمين.

المقطعان الثاني والثالث يقرران على دولو أن ترسل تيساً جبلياً كأعطية وإذا لم ترسله فعليها أن ترسل ما يساويه.

أما المقطعان الرابع والخامس فيسجلان كميّات الطعام المتوجّب على دولو إرسالها إلى إبلا منها: نصف إنتاجها من العسل (làl) وكميات من الحبوب وجرة من النبيذ. وكذلك فإن أخشابها من التربنتين والصنوبر ستكون من حق إبلا.

أما **المقطعان السادس والسابع** فيبينان وجوب مشاركة دولو في الحملات العسكرية الخاصة بإبلا.

المقاطع من الثامن حتى العاشر تقرر على دولو المشاركة بتقديم الأضاحي في الطقوس السنوية.

أما **المقطع الحادي عشر** فيبيّن وجوب إعلام إبلا بالتحركات العدائية ضدها.

وفي المقطع الثاني عشر والأخير وضع **عنوان النص** وهو: نص تقديم الزيت الخاص بدولو وإبلا بمناسبة عقد التحالف بينهما (dub nídba ì-giš *Du-lu*^{ki} *Ib-la*^{ki} GIŠ-ŠUR$_{\times}$)

الخاتمة:

كان هذا البحث محاولة لعرض مضمون نصوص العلاقات الخارجية لمملكة إبلا إلا أن أهمية هذه النصوص تتطلب أبحاثاً أخرى تتناول جوانب أخرى أهمها الجانب اللغوي لهذه النصوص وذلك لأنها كتبت بنسبة كبيرة من المفردات والجمل الإبلوية التي تساعدنا على فهم لغة ولهجات شمال سورية في عصر إبلا وبيان ارتباطها الوثيق باللغة العربية. لقد أفرد فرونزارولي قائمة خاصة بالتفسيرات المحتملة للعديد من هذه المفردات في نهاية المجلد الثالث عشر من سلسلة ARET (الصفحات ٣١٤-٣١٧). وفيما يلي قائمة ببعضها مترجماً إلى العربية:

الكلمة كما وردت مصرفة في النصوص	الترجمة	تركيب المفردات ومصادر الأفعال	اللفظ

أباتوم	*abātum*	هرب	*a-ba-ad*
أبُم	*abum*	أب	*a-bù*
أدِ	*adi*	حتى	*a-ti*
أهلُم	*ahlum*	خيمة	*á-lu*
أخِرُم	*a irum*	الأخير	*$a_{\circ}$- i-rí*
أخُّوُم	*a uwum*	آخى (تحالف)	*du-a- a*
أنا	*ana*	إلى	*$a_{\circ}$-na*
أنأ	*an a*	أنا	*an-na*
أنتَ	*anta*	أنت	*an-da*
أنتَنُ	*antanu*	أنتم	*an-da-nu*
أبطَرْم	*ap arum*	فدية	*ab-dar*
أرخِش	*ar iš*	بسرعة	*ar- i-iš*
أشتَ	*ašta*	هنا، بالقرب من	*áš-da*
أشتِ	*ašti*	هنا، بالقرب من	*áš-ti*
إن	*in*	في	*in*
إركِسُم	*irkisum*	رابط	*ìr-ki-iš*
أُخُواتُم	*u uwātum*	الأخوة (التحالف)	*ù- u-wa-du*
أومَ	*ūma*	أو	*ù-ma*
أورُم	*ūrum*	نور	*ù-ra-a*
عَل	*al*	أعلى، أمام	*al_{6}*

ba-lu	سيد، بعل	ba lum	بَعلُم
ba-lu-tum	سيدة، بعلة	ba l ūtum	بَعلوتُم
ba- a-da-núm	غارة، مباغتة	baġatānu	بَغتَانُ
ba-li	بدون، بلا	Bali	بَلِ
bù-ne	وجه	būnū	بونو
ša	ذو	du	ذُ
ga-ma-lum	تجمّل	gamālum	جَمالُم
à-a-ki	ذهب	halākum	هلاكُم
i-tum	حنطة	i um	حِطُّم
ga-lum	الكل	kalum	كَلُم
du-gi$_4$	ثبّت	kawānum	كَوانُم
gú-bar	مقِياس للحبوب	kubārum	كُبارُم
gu-zi-TÚG	كساء، عباءة	kusītum	كُسيتُم
lu-ma-du	علّم	lamādum	لمادُم
ma-na-ì	يعد، يحسب.	manāwum	مناوُم
i-mu	مات	mawātum	مَواتُم
mi-at	مئة	mi at	مِئَت
na-se$_{11}$	أناس، أشخاص	našum	نَشُم
i-ba-ti-à-an	فتح	patā um	بَتاحُم

بَطارُم	*pa ārum*	افتدى، حرر	*dib-da-ru*[١٢]
قَبارُم	*qabārum*	دفن	*da-ga-bir*[٥]
شَألم	*ša ālum*	سأل	*sa-a-li-iš*
شَحرُم	*ša rum*	ليل	*sa-rí-in*
شَلامُم	*šalāmum*	سلم	*i-si-a-ma*
شَبارُم	*šapārum*	أرسل	*ne-sa-bar*
شِتُّم	*šittum*	سنة	*si-dè*
ثَنيُم	*anīyum*	ثاني	*sa-ne*
طَباخُم	*abā um*	ذبح	*a-da-ba-a*
طابُم	*ābum*	جيد	*da-bù-du*
طَحانُم	*a ānum*	طحن	*a-da-i-in*
وَبالُم	*wabālum*	حمل	*nu-da-bí-an*
وَزانُم	*wazānum*	وزن	*wa-zi-in*
يَداعُم	*yadā um*	عرف	*ù-sa-ti-an*

الهوامش

(١) أصدرت البعثة الإيطالية المنقبة في تل مرديخ من هذه السلسلة اثني عشر مجلداً نشر آخرها عام ٢٠٠٨: ١- **المجلد الأول (ARET I)** باللغة الإيطالية ودرست فيه نصوص إدارية تتعلق بتوزيع المنسوجات / ٢- **المجلد الثاني (ARET II)** بالألمانية ودرست فيه نصوص إدارية متعددة المواضيع ٣- **المجلد الثالث (ARET III)** بالإيطالية. نشر فيه ما مجموعه كسرة من النصوص الإدارية متعددة المواضيع. ٤- **المجلد الرابع (ARET IV)** بالإيطالية. ويضم نصوصا إدارية خاصة بتوزيع المنسوجات. ٥- **المجلد الخامس (ARET V)** بالألمانية. ويضم نصوص التراتيل والتعاويذ وما شابه. ٦- **المجلد السابع (ARET VII)** باللغة الإيطالية. نشرت فيه نصوص إدارية خاصة بتسجيل المعادن والمنسوجات. ٧- **المجلد الثامن (ARET VIII)** بالإنجليزية، ويضم نصوصا إدارية تتعلق بشكل رئيسي بالمنسوجات. ٨- **المجلد التاسع (ARET IX)** بالإيطالية. ويضم نصوصا إدارية تتعلق بالمنتجات الغذائية: خبز، زيت، حبوب، جعة... ٩- **المجلد الحادي عشر (ARET XI)** بالإيطالية. ويضم نصوصاً شعائرية خاصة بالجلوس على العرش. ١٠- **المجلد الثاني عشر (ARET XII)** بالإيطالية، ويضم مجموعة كبيرة من كسرات الألواح الإدارية (١٤١٧ كسرة) متعددة المواضيع. ١١- **المجلد الثالث عشر (ARET XIII)**: بالإيطالية ويضم نصوص العلاقات الخارجية لإبلا (رسائل ومعاهدات وتقارير). ١٢- **المجلد الخامس عشر (ARET XV)** بالإيطالية ويضم ألواح إدارية خاصة بتوزيع المنسوجات من عصر الوزير أرّوكوم .(*Arrukum*)

(٢) اعتماداً على ما نشر حتى الآن من نصوص إبلا أصبح من الممكن وضع جدول زمني يبيّن تتابع ملوك إبلا المذكورين في النصوص وتسلسل وزرائهم وتعاصرهم مع ملوك ماري وبعض ملوك مدن عراقية قديمة. والجدول التالي يظهر ذلك:

	ماري	**أكّاد**	**لاغاش**	**أوروك**	**إبلا**	
					الوزراء	**الملوك**
	إيشتوب إشار					كون دامو
						أدوب دامو
	إيبلول إيل					
٢٤٠٠ ق.م			إنتيمينا		دارميا/تير	إغريش خلب
	نيزي					
	حنا داجان		إناناتوم الثاني		أرّوكوم	إركب دامو
	إكون إيشار		إن إن تارزي		إبريوم	
٢٣٥٠ ق.م	خيدار		لوجالاندا			إشار دامو
	إشغي ماري		أوروأنمجينا	لوجال-	إبي زيكير	
		شروكين				

(٣) A. Archi, M. G. Biga, *A Victory over Mari and the fall of Ebla*, in: Journal of Cuneiform Studies ٥٥ (٢٠٠٣), p. ٢.

(٤) كابلول: مدينة يعتقد أنها تقع إلى الشمال الشرقي من إبلا، انظر:

M. Bonechi, *I nomi geografici dei testi di Ebla*, RGTC ١٢/١, Beiheft zum TAVO, Reihe B. p. ١٣٨.

(٥) نشرت هذه الرسالة مسبقا في:

- G. Pettinato, *RBI (Rivista Biblica. Associazione Biblica Italiana)* ٢٥ (١٩٧٧),

انظر كذلك: مرعي، عيد، إبلا تاريخ وحضارة أقدم مملكة في سورية، ١٩٩٦، ص. ٢٥ وص. ١١٦/٥٤ مع مراجع.

(٦) B. Kienast, *Der Feldzugsbericht des Ennadagan in literaturhistorischer Sicht*, OA ١٩ (١٩٨٠), ٢٤٧-٢٦١. *Zum* Id., *Feldzugsbericht des Ennadagan*, OA ٢٣ (١٩٨٤), ١٩-٣٢.

- L. Viganò, *Enna-Dagan's Letter to the* en *of Ebla*, LA ٣٨ (١٩٨٨), ٢٢٧-٢٤٦.

- D.O. Edzard, *Neue Erwägungen zum Brief des Enna-Dagan* ·· *ı Mari (TM* ٧٥*.G.* ٢٣٦٧*)*, SEb ٤ (١٩٨١), ٨٩-٩٧.

(٧) A. Archi, M. G. Biga, Ibid. p. ١-٤٤.

(٨) أبارسال: من المرجح أنها كانت تقع في المنطقة الواقعة أعالي الفرات (تل أحمر؟). غير أن بعض الباحثين يرى أنها تقع إلى الشرق من إبلا إما في منطقة الخابور وربما على الفرات في المنطقة الواقعة بين إيمار وماري، أو بين إيمار وتوتول ومنهم من يعتقد أنها تقع في تل خويرة قرب الرقة: انظر M. Bonechi المرجع السابق ص. ٨-١٠.

وقد قرأ جيوفاني بتيناتو أسم الموقع خطأ بالشكل A-sùr معتقدا أنه ينطبق على مدينة "آشور" انظر:

-Giovanni Pettinato, *La Città Sepolta, I misteri di Ebla*, Milano ١٩٩٩, p. ٢٨٦

(٩) للاطلاع على الترجمة الكاملة لنص المعاهدة باللغة العربية وعلى الدراسات التي نشرت عن المعاهدة انظر: اسماعيل، فاروق، معاهدة إبلا، مجلة التراث العربي، العدد ١١٠، حزيران ٢٠٠٨.

(١١) Bonechi, Subartu IV, ١ (١٩٩٨), P. ٢٣٤.

(١٢) جمعت هذه النصوص من قبل M. Bonechi في في مقالته :

Lexique et idéologie royal à l'époque proto-syrienne (Les dossiers de la reine d'Imar et de la ville de Halka), MARI ٨, ١٩٩٧, pp. ٥٢٣–٥٢٨

(١٣) M. G. Biga, F. Pomponio, *Elements for a Chronological Division of the Administrative Documentation of Ebla, JCS,* Vol. ٤٢, No. ٢, (١٩٩٠), p. ١٩٩:٤٢.

(١٤) يؤكد الملك في هذا المقطع والمقطع السابق له أن السيطرة على الأشخاص المقيمين في الأراضي المقطعة إلى تيشاليم قد انتقلت إلى تيشاليم نفسها.

(١٥) حما منطقة تقع إلى الشمال أو الشمال الشرقي من إبلا وهي غير مدينة حماه على العاصي. وقد ميزت نصوص إبلا في الكتابة بين المدينتين: *`A-ma*ki (حما) و *`A-ma-du*ki (حمادو)

(١٦) A. Archi, *The "Lords", LUGAL-LUGAL, of Ebla, A Prosopographic Study*, Vicino Oriente ١٢ (٢٠٠٠), pp. ١٩-٥٨.

(١٧) ARET I, p. ٢٥٧: *wa-na*

(١٨) يقصد بالملوك الثلاثة في هذا المقطع ملوك مدن ككميوم وخاسّووان (Hassuwan) ونيرار وهي من المدن التي كانت متحالفة مع إبلا (ARET XIII, p. ١١٢ (٤٤) (حول ككميوم :مرعي، عيد، إبلا تاريخ وحضارة أقدم مملكة في سورية، ١٩٩٦، ٤٣/١١٥)

(١٩) منوّات: وفقا لمحفوظات إبلا كانت مركزاً تجارياً ومحطة على طريق القوافل. من المحتمل أنها كانت تقع في المنطقة ما بين إبلا وإيمار. انظر :

M. Bonechi, *I nomi geografici dei testi di Ebla*, RGTC ١٢/١, Beiheft zum TAVO, Reihe B. p. ٢٣٣.

(٢٠) شوران: على الأرجح في وادي الفرات وكان فيها معبد للإله حدد حيث كان ملك إبلا يجتمع بحلفائه لأداء القسم. انظر:

ARET XIII, p. ١٢٠. ARES II, ٤٤٤.

(٢١) من المعتقد أن تكون على الفرات بالقرب من إيمار M. Bonechi, *I nomi geografici dei testi di Ebla*, RGTC ١٢/١, Beiheft zum TAVO, Reihe B. p. ٢٧٤.

(٢٢) إبعل من المراكز القبلية الواقعة على الأرجح في المنطقة إلى الشرق من حمص غير البعيدة عن قطنة (تل المشرفة) على الطريق الذي يصل وسط سورية بالفرات مرورا بتدمر: M. Bonechi, ibid, pp. ١٨٧-١٨٨

(٢٣) كارامو: ربما في منطقة أعالي الفرات شمال سورية (M. Bonechi, ibid, ١٥٢

(٢٤) ARES II, ٢٠٠-٢٠٠١.

(٢٥) تظهر مقارنة نصوص إبلا وجود موضعين يحملان اسم (*Gi-daš*) ويقدر أن أحدهما يقع إلى الشمال من إبلا والآخر إلى الشمال الشرقي منها. ولكن لا يمكن مطابقتهما مع قادش: M. Bonechi, ibid, p.١٥٤ والتسمية مشتقة من الجذر قدش "مقدس، طاهر".

(٢٦) في النص هي Igiki ولكن الاسم ورد في نصوص أخرى بالشكل الإبلوي *A-nu*ki بمعنى "عين الماء" وهي على الأغلب كانت محطة على الطريق ما بين ماري و حدّو، انظر ARET XIII, p. ١٧٢/٣

(٢٥) نشر النص الأول من قبل إدسارد (D.O. Edzard) عام ١٩٨١ في ARET II ٣٤, PP. ٨٧-٨٨ أما النص الثاني فقد نشر من قبل فرونزاولي في MisEb ٢, pp. ١-٢٦.

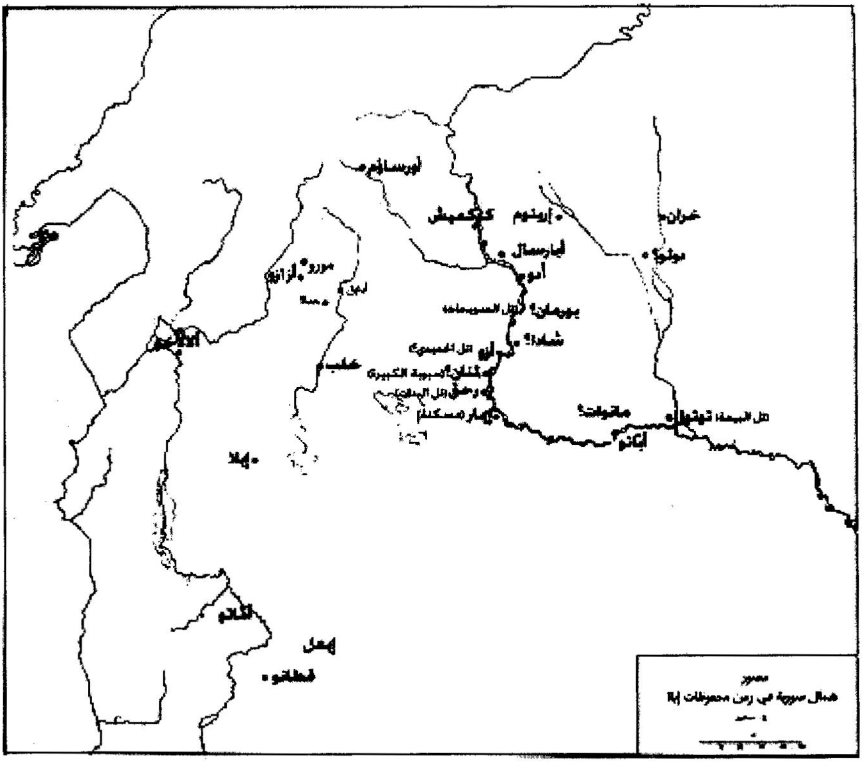
(٢٧) تقع أرمي في مكان ما إلى الشمال الغربي من إبلا أي في منطقة الأمانو (الأمانوس)، انظر ARES II, p. ١٦٨.

(٢٨) نشر بتّيناتو G. Pettinato دراسة أولية لهذا النص في (MEE ٣, ٦٦).

(٢٩) ARET XIII, ٥ (١٧): *'A* ٣*-du*ki *in* šu en *Ib-la*ki

(٣٠) دو-لو تقع على الأرجح شمال إبلا في منطقة البليخ وليست بعيدة عن حرّان. أما قراءة الإشارات بالشكل *gub-lu* ومطابقتها بجبيل فقد ثبت خطؤها. للمزيد انظر:

M. Bonechi, *I nomi geografici dei testi di Ebla*, RGTC ١٢/١, Beiheft zum TAVO, Reihe B. p. ١١٢.

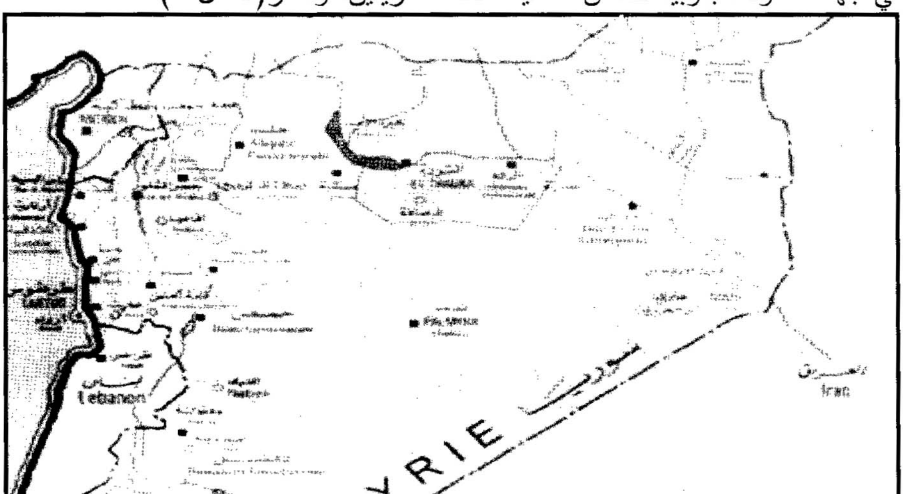


المدن القديمة في محافظة حمص

الدكتور عمار عبد الرحمن

المديرية العامة للآثار والمتاحف

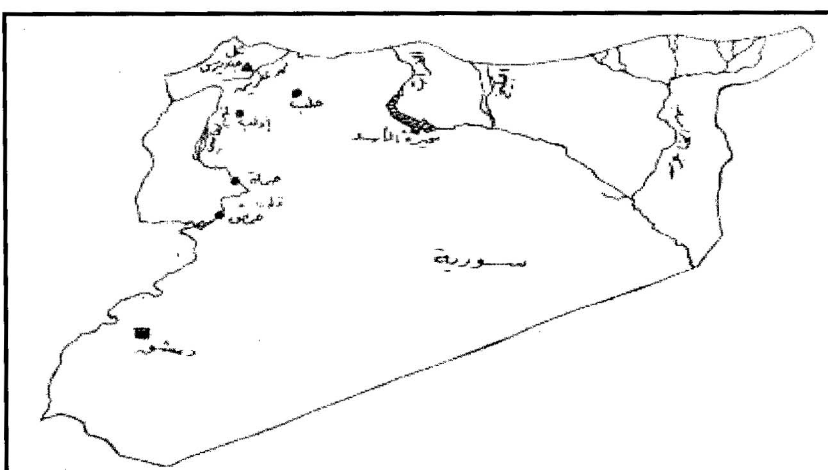
تعدُّ محافظة حمص أكبر محافظات الجمهورية العربية السورية مساحةً، فهي تبلغ ٤٢٢٢٦كم ويبلغ عدد سكانها الآن أكثر من مليون نسمة. تمتد محافظة حمص الإدارية من الغرب حيث تقع الحدود اللبنانية الشمالية لتضم مدينة حمص ومدينة الرستن ولتتجه شرقاً بطريق متعرج حتى الحدود الأردنية العراقية، أما حدها الجنوبي فيبدأ من منطقة جبال لبنان الشرقية وتتجه شرقاً حتى الحدود الأردنية. وأبرز المدن في جهة الحدود الجنوبية حمص: حسيا، صدد، القريتين، وتدمر(الشكل ١).



سوف نأتي في بحثنا هذا على ذكر أهم المدن القديمة في هذه المحافظة والتـــي وردت في النصوص القديمة حتى بداية العصور الكلاسيكية. وســـوف نبتـــدئ بـــأهم معلـــم جغرافي في هذه المحافظة ألا وهو نـهر العاصي.

نـهر العاصي:

ينبع نـهر العاصي من شمال منطقة البقاع في لبنان، ويتابع سيره شمالاً حتـــى مدينـــة حمص ومن ثم مدينة حماه، ويستمر في جريانه باتجاه الشمال-الغربي وعند دخولـــه سهل الغاب يتجه شمالاً، ويستمر هكذا حتى انعطافه الأخير قرب الحدود الـــسورية-التركية حيث ينعطف غرباً ليصب في البحر المتوسط بالقرب من ســـمنداغ (منطقـــة أنطاكية جنوب جبال الأمانوس) (الشكل رقم ٢). وبهذا يكون نـهر العاصي قـــد قطـــع مسافة ٤٥٠كم، وبغزارة ٣٠م٣ بالثانية (كحد وسطي)١، وبهذا يعتبـــر مـــن أغـــزر الأنـهار في غربي سورية. كما أن النهر يفيض بين شهري شباط وحزيران، أما فتـــرة الشح فتمتد بين آب وحتى كانون الأول.



الشكل رقم -٢-

إن الطبيعة الجغرافية للمناطق التي يمر بها نهر العاصي والتي تتمتع باكتفاء ذاتي من الهطولات المطرية، تجعل منه مصدراً احتياطياً للماء وداعماً للزراعة ولكنه لا يلعب دوراً حيوياً ورئيساً في الحياة مثل نهر الفرات عند عبوره للبادية. فهو يمر بمنطقة البقاع ذات معدل هطول مطري مرتفع، كما أنه يمر بسهل الغاب المعروف بأنه يتمتع بثروة مائية كبيرة حتى أنه كان يعرف في النصوص القديمة ببحر نيخي Nihi، كما أن أشور ناصر بال الثاني أطلق عليه اسم البحر A.AB].BA mes]٢. أما النهر نفسه فقد ورد في النصوص المسمارية بعدة أسماء مثل A-ra-an-tul-te وكذلك Ar-an-tu٣. ومن الجبال ذكرت جبال تطل على نهر العاصي يعتقد أنها تقع في القرب من حمص من جهة الغرب وهي يئتورُ (Ja'turu)٤، ويراقُ (Jaraqu)٥ .

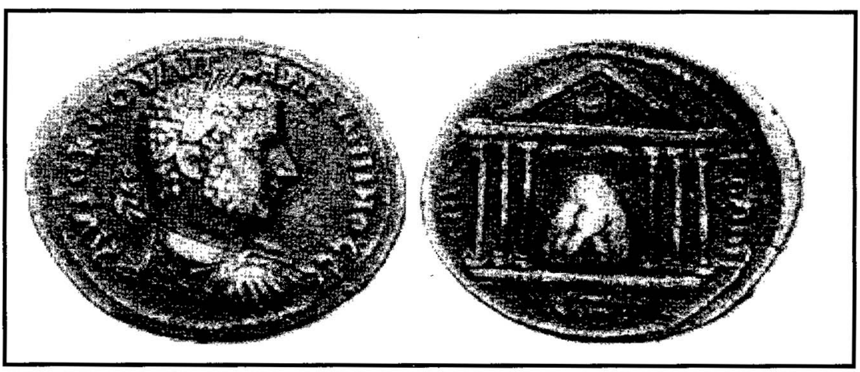
وقد ذكره الرحالة العرب نهر الارنط ويسمى النهر المقلوب لجريه من الجنوب إلى الشمال، ويسمى العاصي لأنه من أغلبِ الأنهر التي تسقي الأرض بغير نواعير.٦

لقد ارتبط نهر العاصي في العصور التاريخية بكثير من الأحداث المهمة، فقد ذكرته النصوص الآشورية أكثر من مرة في حوليات شلمنصر الثالث عام ٨٥٣ق.م عند ذكره للحرب التي جمعت الأمراء المحليين ضده، وأنه عبر العاصي حتى موقع قرقور حيث تمت المواجهة وهزم تحالف الأمراء وجعل من أجسادهم جسراً لعبور النهر، فضلاً عن ذلك نجد أن نهر العاصي قد لعب دوراً سياسياً كونه معلماً جغرافياً، فقد جعله أدد-نيراري الثالث حداً فاصلاً بين أتار شومكي Atar- Sumki أمير أرباد، وأمير حماه زكورُ Zakuru.٧

مدينة حمص:

تقع حمص في وسط سورية، وعلى الطريق الواصل بين دمشق وحلب، وهي تبعد حوالي ١٦٥كم عن دمشق، يمر نهر العاصي غربيها. وهي مركز المحافظة المسماة باسمها.

لا توجد دلائل واضحة على مكان توضع المدينة القديمة، ولكن هناك دلائل من بعض اللقى أنها تعود للألف الثانية٨. خاصة أنها كانت تلعب دوراً مهماً خلال فترة حماه وقطنا وكذلك قادش٩، وربما كان الاسم القديم لها خلال هذه الفترة هو صوبيتِ Supiti، وربما تنقيبات قلعة حمص تثبت هذا مكان هذه المدينة واسمها. أما اسم المدينة خلال الفترة الهلنستية فهو واضح ومعروف بـ إيميسا Emessa وقد ذكرت من قبل مؤرخين كلاسيكيين نذكر منهم بلينوس 10Plinus. وكانت تتبع في زمن سلوقس لمقاطعة أفاميا Apamea ، وكانت مركزاً لعبادة إله الشمس، الإله بعل أو إيل-جابال El-Gabal (الشكل ٣). وقد كانت موطناً لسلالة من الأباطرة الذين حكموا روما وأشهرهم جوليا دومنا. أما في فترة ازدهار تدمر زمن ملكتها زنوبيا، فقد كانت حمص ركناً أساسياً لتلك المملكة، وظلت هكذا حتى هزيمة تدمر من قبل أورليان عام ٢٧١م. وظلت حمص تتمتع بتميزها تحت حكم الرومان، إلى أن أصبحت في عام 636م[١١] تحت لواء الدولة الإسلامية.



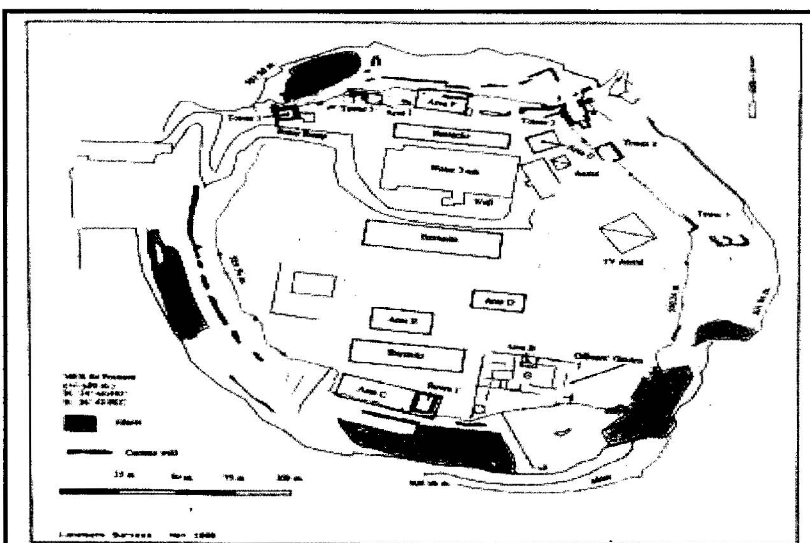
الشكل رقم-٣- نقد يظهر بناء معبد الشمس

قلعة حمص:

تقف قلعة حمص في الجنوب الغربي من المدينة القديمة، قرب بوابة باب مسدود. ويأخذ التل الذي تعلوه القلعة شكلاً دائرياً ويبلغ قطره ٢٧٥م، ويرتفع حوالي ٢٩متر عن مستوى الأرض المجاورة له (الشكل ٤). كان يحيط بالقلعة خندق يعتقد أنه كان يملأ من مياه نهر العاصي الذي يمر غرب مدينة حمص.

قام الفرنسيون ببعض الأسبار السريعة في القلعة إبان فترة الانتداب، وذلك أثناء فترة تواجد كتيبة عسكرية فرنسية عليها. كما قامت السلطات الأثرية في سورية بعد فترة الانتداب الفرنسي ببعض أعمال التحري السريعة ولكن لم تنشر كل هذه الأعمال التي تمت في القلعة.

لم تستكمل أعمال التحري في الموقع إلا من قبل بعثة سورية- انكليزية وذلك في عام ١٩٩٤م وحتى عام ٢٠٠٠م. وقد تم تقسيم التل إلى عدة قطاعات: A B E G ، إضافة إلى أسبار في القطاعات J و F ، وكذلك المنطقة C ١٢(انظر الشكل ٤).



الشكل رقم-٤- المخطط الطبوغرافي لقلعة حمص وتظهر فيه مواضع التنقيبات

دلت النتائج التي خلصت إليها أعمال التحري عن وجود استيطان يعود إلى الألف الثالث ق.م حيث تم العثور على فخار يعود إلى البرونز الباكر "الرابع" ١٣. كما تم ذكر وجود للقى تعود إلى الألف الثاني ق.م١٤ ولكن للآن لم يتم الكشف عن عمارة أو كتابة تعود لهذه الحقبة نظراً لصعوبة تنقيب السويات الأقدم في التل.

أما في العصر الآشوري الحديث فقد ذكرت مملكة صوبا Supiti في مختلف الوثائق المكتوبة وكانت تشير إلى امتداد واسع وعلاقات واسعة مع كل من شمأل Sam,al وسيميرا Simira١٥ ، ويعتقد الكثير من الباحثين أن مركز هذه المملكة هو التل الذي تقوم عليه القلعة حالياً.

قطنا Qatna:

يقع تل المشرفة، وهو الاسم الحديث لمدينة قطنا القديمة، على مسافة ١٨كم إلى الشمال الشرقي من مدينة حمص (انظر الشكل رقم ٢)، وتعتبر هذه المنطقة بمثابة فاصل انتقالي بين السهل الخصيب للعاصي وبين البادية في الداخل.

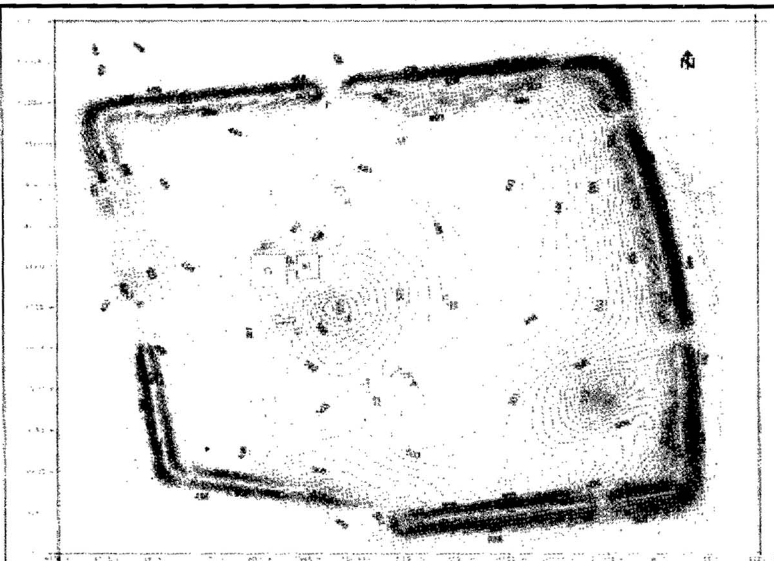
يحيط بهذه المدينة القديمة سور مربع الشكل طول ضلعه حوالي ١كم وله أربع بوابات، واحدة في كل ضلع، وتصل مساحة الموقع إلى ١١٠ هكتار. ويرتفع تلان داخل الأسوار الأول وهو التل الأعلى يقع في مركز المدينة تقريباً (الشكل ٥)، وتحيط به المدينة المنخفضة، أما الثاني فيدعى التل الصغير ويقع بالقرب من البوابة الشمالية. كذلك يوجد ما يسمى بقبة لوط وهو مرتفع في الزاوية الجنوبية الشرقية يشرف على المدينة المنخفضة.

قام بالتنقيب في موقع قطنا الكونت الفرنسي روبير دومينيل دو بواسون Du Mensil du Buisson في الفترة الواقعة بين ١٩٢٤-٢٩م١٦، والذي قام بتنقيب سبعة قطاعات في أنحاء مختلفة من الموقع، والذي في جزء منها على القصر الملكي وبعض الرقم المسمارية التي أكدت أن اسم المدينة القديم هو قطنا Qatanum١٧. والتي عرفت على

أنها واحدة من الممالك الأمورية المهمة مثل يمحاض وماري، والتي جمعتها مصالح سياسية مشتركة في أغلب الأحيان، كما أقامت قطنا في ذلك الوقت خلال حكم ملكها إشخي أدد الكثير من العلاقات التجارية والدبلوماسية مع ممالك بعيدة إلى الشرق مثل المملكة الآشورية القديمة تحت حكم شمشيْ-أدد الأول.

وبعد فترة انقطاع طويلة باشرت بعثة أثرية من المديرية العامة للآثار والمتاحف في سورية الأعمال وذلك اعتباراً من عام ١٩٩٤-٩٨م. وتابعت الأعمال في عام ١٩٩٩م بعثة أثرية سورية- إيطالية- ألمانية مشتركة ومازالت الأعمال مستمرة حتى الآن١٨.

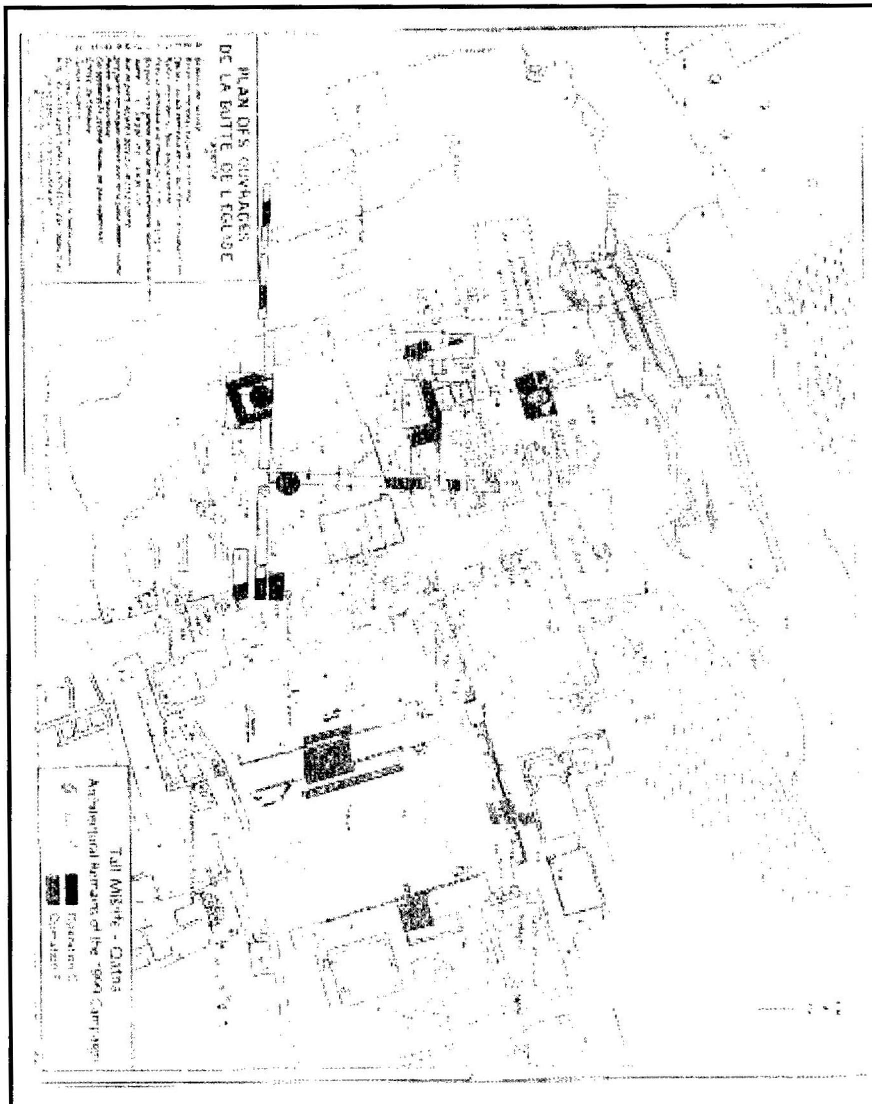
حددت أربعة قطاعات للعمل أولها هو المنطقة D (الأكروبول الرئيس) ، والمنطقة E وهو ما يسمى الأكروبول الصغير، أما المنطقتان F G فتقعان إلى الشمال الغربي من الأكروبول الرئيس حيث كان قد حدد من قبل الكونت دو بواسون موضع القصر وما يسمى معبد نينجال (انظر الشكل ٥).



الشكل 5 مخطط طبغرافي لتل المشرفة

كشفت التنقيبات في المنطقة D عن سويات سكنية تعود إلى فتـــرة البرونـــز الوســـيط (أوائل الألف الثانية ق.م)، كما لوحظ وجود مشاغل ضخمة لإنتاج الفخار١٩، وهـــي فريدة من نوعها من هذه الحقبة.

أما في المنطقتين G H فقد تركزت الأعمال حول ما كان قد بدأ به الكونت دو بواسون والذي حدد بناءين كبيرين هما القصر ومعبد نينجال، والتي بينت أن كل ما ذكره هـــو عبارة عن بناء القصر فقط٢٠. فقد كشف عن قصر ضخم تبلغ أبعـــاده ١٠٠X١٣٥م، وقاعة العرش فيه ذات مساحة ٢١X٤٠م (الشكل ٦). ويعتبر هذا القصر من أكبـــر القصور التي تعود إلى حقبة البرونز الوسيط الأول والثاني، حتى أنه أكبر من قـــصر زيمري ليم في ماري، كما عثر فيه على بعض طبعات الأختام ولوحات جدارية ملونة تمثل سلحفاة وبعض الأشجار، مما يؤكد غنى العمارة والزخرفة فـــي تلـــك الفتـــرة. والجدير بالذكر العثور على حوالي ٦٤رقيماً مسمارياً يعودان إلى سوية أحـــدث مـــن البرونز الوسيط، وهي بداية البرونز الحديث حيث كان ما يزال القصر مأهولاً.



الشكل رقم -٦- مخطط للتنقيبات الفرنسية في موقع المشرفة

كانت تنقيبات المنطقة الأخيرة E واعدة حيث كشف عن قصر صغير يعود إلى نفس الفترة ربما هو مخصص للملكة، كما تم العثور على مجموعة من الرقيمات المسمارية التي لم تنشر بعد.

أما السوية الأحدث في هذه المواقع فقد كانت سوية الحديد والتي تميزت بفقرها في قطنا حيث بدت البيوت ذات عمارة بسيطة ولم يلحظ أية أبنية صناعية وكأن المدينة قد أفل نجمها خلال هذه الفترة٢١.

وما تم استعراضه للآن من سويات أثرية لا يدل على أن أقدم استيطان يعود إلى البرونز الوسيط، بل دلت بعض الأسبار أن الموقع يعود إلى حقبة البرونز الباكر الرابع٢٢، وهي الفترة المعاصرة لممالك هامة مثل إيبلا، ولكن يعتقد أن اسم المدينة القديم في تلك الفترة غير معروف بالنسبة لنا وربما تسمح لنا التنقيبات المستقبلية أن نحدد الاسم القديم.

إن جلَّ ما نعرفه من المعلومات عن قطنا خلال فترة ١٨٠٠-١٦٠٠ ق.م يأتينا من نصوص ماري بشكل أساسي وكذلك من نصوص ألالاخ. وأول ذكر لملك قطنا هو اشخي-أدد٢٣الذي بدأ حكمه في ١٧٧٦-١٧٧٥ ق.م، وهو معاصر لسومو إيبوخ (يمحاض)، شمشي- أدد الأول (آشور)، يسمح- أدد (ماري)، وإشمي- دجن (إيكالاتوم على نهر دجلة). وتناولت نصوص ماري تفاصيل تروي رحلة يسمح-أدد من ماري إلى قطنا٢٤، لطلب ابنة ملك قطنا للزواج بها.

خلف اشخي-أدد ابنه أموت بيل Amutpi`el وقد عاصر كل من الحكام: حمورابي في بابل، ريم-سين Rim-Sin في لارسا، وإبال- بيل الثاني في إشنونا.٢٥ ، وبقي اموت- بيل على عرش قطنا حين سقوط ماري على يد حمورابي. تذكر نصوص ألالاخ السوية VII مملكة قطنا مرتين (ALT 6) زمن ياريم- ليم الثاني، وذلك في سياق المواجهة بين يمحاض وقطنا٢٦.

إن الهجوم الحثي على شمالي سورية في منتصف القرن السابع عشر ق.م، لم يؤثر مباشرة في قطنا، التي لم تعد تذكر في النصوص الحثية المعاصرة.

ذكرت بعض المدن القديمة في النصوص القديمة والتي تشير إلى تواجد جغرافي في منطقة حمص الحالية، فمثلاً عرف من خلال نصوص ماري مدينة نشالا أو نزالا Nasala, Nazala والتي عرّفت حسب بورك Burk على أنها موقع القريتين الحالي إلى الجنوب-الشرقي من حمص على الطريق الواقعة بين دير عطية وتدمر٢٧. وتعتبر نشالا جزءاً من البادية التي تعتبر المكان الرئيس للرعي لممالك قطنا، يمحاض، وماري٢٨. كما كانت القوافل التجارية تمر من ماري إلى تدمر ونشالا، ثم قطنا، . وكانت تتم عمليةَ حمايةٍ لمدن الباديةِ مثل نشالا وتدمر من القبائل التي تحاول اعتراض طرق القوافل ونهبها.

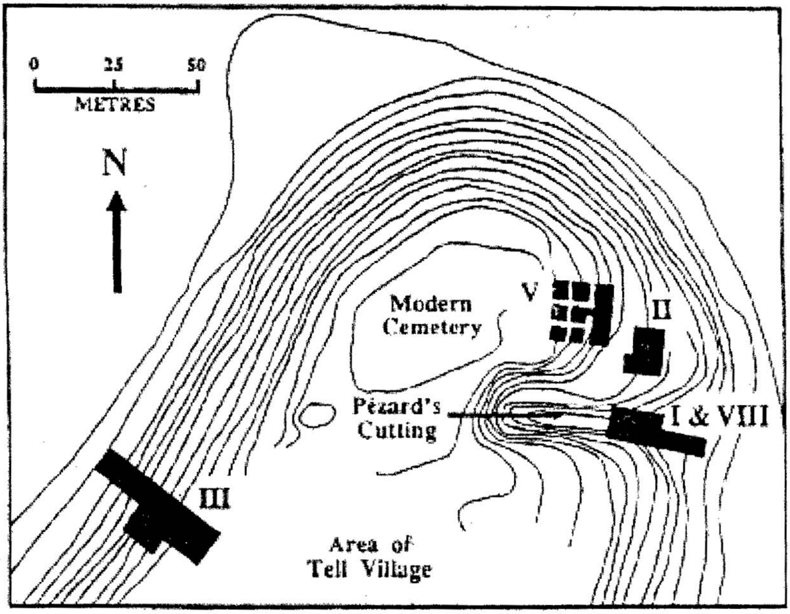
عرفت نشالا لاحقاً في العصر الآشوري الحديث باسم "حصر عينان"٢٩ وما هو معروف عنها أنها كانت تشكل حصناً مهماً حينها.

تدمر Tadmir والتي ورد اسمها بهذه الصيغة في نصوص ماري، وفي سياق مدينة نشالا. و استمر ذكر اسمها في العصور اللاحقة " البرونز الوسيط والأشوري الحديث" بنفس الصيغة٣٠، حتى أنها ما زالت تحتفظ باسمها حتى وقتنا الحاضر.

مريامون، وقد مر ذكرها في الأسفار المصرية التي تبحث عن قادش٣١، واستمر ذكرها في العصر الفينيقي على أنها متاخمة لأملاك أرواد. ويمكن مطابقتها مع موقع مريمين الحالي "في سفح جبل الحلو إلى الغرب من مدينة حمص"، ويعتبر موقعها الجغرافي من أحكم المواقع في وادي العاصي.

أما في العصر البابلي الحديث فقد ذكرت مدينة قادش Qadis والتي حدد مكانها الباحث دوسو Dussaud في موقع تل النبي مند الحالي٣٢. وهي تبعد ثلاثين كيلومتراً جنوب-

غربي حمص، على الضفة اليسرى لنهر العاصي بالقرب من بحيرة قطينة، ويغطي التل مساحة قدرها عشرة هكتارات ويرتفع عن الأرض المجاورة ثلاثين متراً (الشكل ٧).



الشكل رقم -٧- مخطط طبوغرافي لتل النبي مند

نقبت في موقع النبي مند بعثة فرنسية عامي ١٩٢١ و١٩٢٢م بإدارة موريس بيزار، ثم توقف التنقيب حتى بداية الثمانينيات حيث نقبت فيها بعثة انكليزية برئاسة بيتر بار Peter Parr، واستمرت إلى عام ١٩٩٠م.

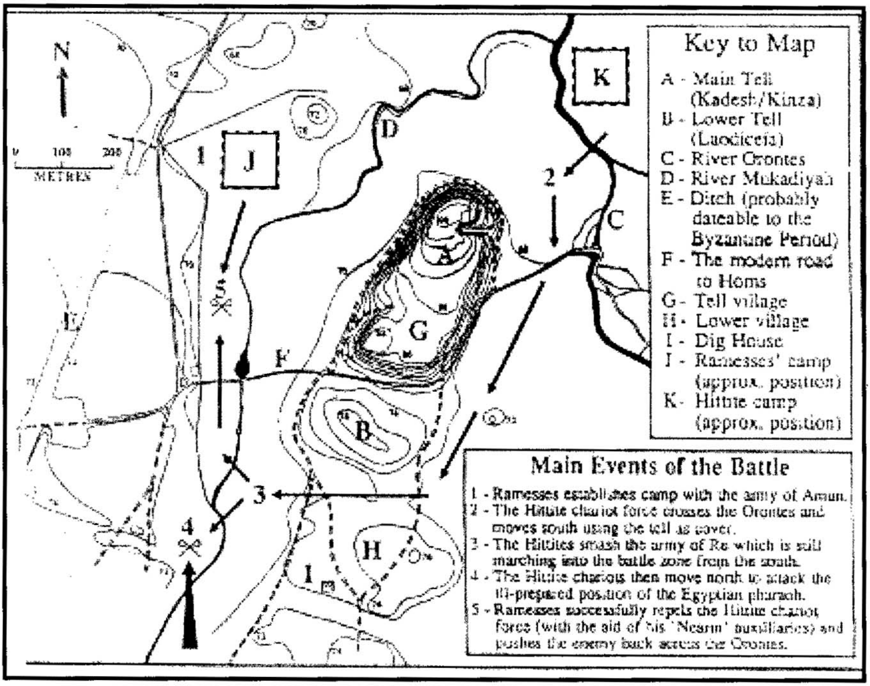
أسفرت عمليات السبر والاستكشاف في هذا الموقع عن استيطان قديم يعود إلى العصر الحجري الحديث الفخاري تمثلت بوجود بقايا بيوت أرضياتها مرصوفة بالجص الأبيض، علاوة على لقى فخارية. وبعد فترة انقطاع في الموقع يعود الاستيطان في فترة البرونز القديم حيث كشف عن استيطان شغل مساحة كبيرة وتميزت عمارة هذه

الفترة بالجدران ذات السماكة الكبيرة، علاوة على لقى مختلفة تميز هذه الفترة. وعثر على آثار استيطان يعود إلى فترة البرونز الحديث. وتميزت عمارته بأنها تحصينية من خلال ما عثر عليه من بقايا معمارية مثل بعض الغرف العائدة لبناء محصن بشكل جيد بجدران سميكة مشابهة لعمارة فترة البرونز القديم، وعثر كذلك على بناء محصن مؤلف من ثلاثة جدران متوازية مربوطة مع بعضها بمونة ملاطية قاسية. ومن أبرز اللقى التي عثر عليها في هذه السوية هو إناء فخاري مصري يعود للأسرة الثامنة عشرة.

آخر استيطان في الموقع قبل العصر الهلنستي يعود للعصر الآرامي حيث عثر على بناء مؤلف من طابقين مبني من اللبن والخشب، وتظهر عليه آثار الحريق.

أعطى موقع قادش الحصين ميزة مكنته من اكتساب مهارة الدفاع عن الموقع وصد العدوان، فقد سيطرت قادش في الألف الثانية ق.م على بقعة من الأرض امتدت من حمص شمالاً حتى سهل البقاع جنوباً. وورد اسم قادش في إحدى النصوص الخمسة المكتشفة في تل النبي مند، وهي عبارة عن رسالة موجهة إلى نيقما–أدو Niqma-Addu أمير قادش٣٣. كما ورد ذكرها في عدة نصوص مثل نصوص تل العمارنة بصيغة قدشا وقدشي، وجيزا وكينزا٣٤. وكذلك في نص من إيمار، كما ذكرت في نصوص آشورية تعود إلى القرن الثامن ق.م، علاوة على الكتابات المصرية القديمة.

تعرف قادش من خلال المصادر المكتوبة على أنها قادت تحالفاً للأمراء المحليين إلى جانب الحثيين ضد الفرعون في مصر، وذلك في عام ١٢٧٥ق.م (الشكل ٨)، وبعد خسارتها في هذه المعركة استطاع المصريون السيطرة عليها ولكن من خلال ملوك محليين، احدهم يدعى دوروشا Durusha ٣٥.



الشكل رقم -٨- مخطط يبين تفاصيل معركة قادش في منطقة تل قادش

وبعدها استمر ذكرها أحياناً ضمن نطاق السيطرة الحثية وأحياناً أخرى ضمن السيطرة المصرية. وقد دمرت قادش خلال غزوات شعوب البحر.

أما في العصر الآشوري الحديث فقد ذكرت مملكة صوبا Supiti في مختلف الوثائق المكتوبة وكانت تشير إلى امتداد واسع وعلاقات واسعة مع كل من شمأل Sam,al وسيميرا Simira٣٦ .

عرف من خلال النصوص البابلية التي دونت أحداث حملات نبوبولاصر (وهي السنة التي بدأت في ١٢-٤-٦٠٥ ق.م)، وهي نفس السنة التي توفى فيها، أن الملك أرسل ابنه نبوخذ نصر بعد انتصاره في كركميش جنوباً ليسيطر على منطقة حماه وحمص،

ووصل فعلاً إلى قادش وربلا Ra-ab-le-e الواقعة على بعد ٣٥كم جنوب-غربي حمص، وهي المركز الرئيس للحامية البابلية في وسط سوريا٣٧.

في عام ٦٠٥ق.م يعتقد أن نبوخذنصر كان في ربلا حينما وصله نبأ وفاة والده نبوبولاصر، والذي قام على الفور بتدابير عاجلة وبادر إلى ترتيب أمور المهمة مثل الأسرى الذين وقعوا في قبضته من أقوام المنطقة، حيث أوكل أمورهم إلى بعض أصدقائه. وحين وصل إلى بابل، وجد الكلدانيين يديرون الشؤون العامة في حين حفظ زعيمهم مقاليد المملكة له. وعند ذلك تسلم جميع السلطات الخاصة بأبيه. وفيما يلي النص كاملاً:

Obverse

(I) a-na šarri be- lí-ia (2) arad- ka (m) (d) šamaš-ah-iddin (3) (amel) rabu ina di-na-ni ina (al)ra-ab-le-e (4) ú-si-ri (?)-ba-a-ni (5) b[i]-ir-ti ene(II)(MEŠ)-ia (6) ina muhhi maşşarti ša (al)ra-ab-l[e]-e (7)un-ta-di-id ma-a (8) [m]eš-li (imer)a-şap-pi (9) [i]na (al)ra-ab-le-e (10) li-ru-ub ma-a meš-lu-ma (11) ina (al)kin-di-si l[i]-ru-ub (12) (m)a-i-ni-ili i-ta- ┌x┐ (13) (amel)tur-ta-nu i- ┌x┐ -..... (14) (amel)mar šip-ri ša ┌x┐ -......... e-gir-tú (15) ša LÚ(?).DUMU(?) ta ni(?) ┌x┐ ..... –a-ni (16) T[A(?)] (al)r[a-ab]-l[e-e]..... (17) na ┌x┐ ┌x┐ ....

Reverse:

(Í) ┌u┐ -........................... (2) meš-[l]i ┌x┐ .... (3) [P]AD. MEŠ NI.MEŠ........ (4) a-n[a] meš-li-ma ┌x┐ ... (5) šum-ma šarru be-lí i[qab-bi] (6) ma-a ša ra-me-ni-š[ú]-n-[u] (7) lil-qi-ú li-ku-lu (8) lil-qi-ú li-ku-lu (9) šarru be-lí ú-da alani(MEŠ) (11) ša (imer) aşap-pu ina lìb-bi (12) ú-še-ri-bu-u-ni (13) qa-n [a(?)]-si mu-da-bi-ṛi (14) šú-nu šum-ma a-na maşşarti (15) ša (imer)a-şap-pi man-nu (16) li-zi-iz šum-ma (17) a-na maşşarti ina pa-ni-ía (18) man-nu li-zi-iz (19) maşşartu ša (al)ra-ab-l[e]-e (20) uš-[š]u-rat šarru

Edge:

(1) be-lí lu ú-da (2) šum-ma šarru bi-lí (3) i-qab-bi

Said:

(1) [ma-a] ┌x┐ me ša LUGAL lu ra-me a(!?)-na-[k]u(?) ina GIŠ.GIGIR-š[U(?)] (2).....[š]a (?) šarru ip-qi-da-ni ┌x┐ ┌x┐ şu (?) [u]r (?)

ويعلق د. ج وايزمن D J Wiseman على ما ورد في النصوص وخاصة الطريقة السريعة التي كانت تصل الأخبار بواسطتها إلى نبوخذ نصر؛ فقد كانت الأخبار خلال العهد البابلي في منطقة ماري على نهر الفرات تصل عن طريق إشارات النار والدخان. وفي زمن سرجون استعملت بلاد آشور إشارات متفق عليها مسبقاً تشكل باستعمال كميات من الاخشاب المقطوعة (آبرو. Abru) والتي توقد عند كل ثلث ميل لتنقل الرسائل من آشور إلى مدى يصل بابل٣٨. ومع ذلك فإن هذا النظام في نقل الأخبار لا يكون محتملاً عبر الصحراء المترامية كما في مثالنا مع ربلا، ولكن على الأرجح أنهم استخدموا حلقات من الرسل سريعي التنقل وهذا هو الأمر الوحيد الذي يمكن من خلاله تبرير المدة القصيرة التي وصلت بها الأخبار.

ونظراً لأهمية هذه المدينة وذكرها في النصوص القديمة، نذكر بدقة المعلومات المتعلقة كما هو وارد في رسائل نمرود٣٩، فهي تذكر في النص رقم ٢٧٦٦ رسالة موجهة من المدعو شمس-أخ-إدن إلى الملك، وقال له: "عندما أحضرت القائد العسكري إلى ربلا ، أوضح لي بما يخص حراسة المواقع، بقوله: أبعث نصف الحيوانات المدربة (على الأغلب هي للنقل مثل الحمير أو البغال) إلى ربلا والنصف الآخر إلى كندسي Kindisi".

يفيدنا هذا النص بمعلومات أولية تشير إلى الأهمية العسكرية ل ربلا، وهذا ليس بجديد فإن الموقع في الألف الأول كان بمثابة حصن عسكري حصين وكانت الحشود العسكرية تتمركز فيه٤٠. وهذا الاهتمام العسكري بالموقع يتضمن الميزات الجغرافية للموقع حيث خصوصية الموقع الجغرافية على تخوم مملكة قوية مثل آشور أو بابل هي من الأهمية بمكان لتكون مجهزة ومحصنة بما تحتاج للصمود والبقاء في وجه الخصوم.

صدد: إحدى المدن القديمة الهامة في الألف الأول ق.م وتقع على بعد ٣٥كم جنوب-شرقي مدينة حمص، وتذكر الروايات القديمة أن برجاً كبيراً٤١ كان بها وتهدم في الفترة العثمانية

مدينة حيسا Hesa :

ورد اسم **حيسا** في النصوص الآشورية الحديثة، على انها محطة بريد في البادية، ففي النص البابلي القديم ABL 414 يرد اسم حيسا على أنها مدينة (محطة) للبريد، وأن قائد كتيبة الجند موجود هناك وحيداً. دعني أجمع ٣٠ عائلة وأضعها في حيسا. يوجد كذلك رجال الحاكم نبو-صَلا Nabu-salla المقيم في حيسا، دعه ينقل مجموعة الحرفيين وأصحاب المهن، إلى مدينة أرجِتي Argite وأن يعطيهم الحقول.٤٢وفيما يلي النص كاملاً:

a-na LUGAL EN-ia

ARAD-ka mEN-liq-bi

lu DI-mu a-na LUGAL EN-ia

URU.he-e-sa É-mar-di-ti-ia

UN.MŠ ina ŠÀ-bi la-áš-šú

LÚ.GAL-kal-li-e: LÚ.GAL-rak-si

ú-di-šú-nu ina ŠÀ-bi la-a i-ha-ri-du

ú-ma-a a-na-ku 30 É.MEŠ

lu-šá-bi-šá ina ŠÀ-bi la-áš-ku-nu

ERIM. MEŠ ša mdPA-şal-la LÚ.GAR-nu

LÚ.DUMU-ki- ⌈it-ki⌉ -te-e i-en

LÚ.ki-şir ina ŠÀ-bi URU.he-e-sa

kam-mu-su lu-še-şi-šú-nu

ina ŠÀ-bi URU.ar-gi-te
u-še-šib-šú-nu A.ŠÀ. MEŠ GIŠ.SAR. MEŠ

li-di- ┌na┐ -áš-šú-nu
šum-ma ma-hi-ir pa-an LUGAL
e-gir-tú ina UGU md PA-şal-la
LÚ.GAR-ni liš-pa-ru-u-ni
i-i-ru LÚ.2-u'm ia-
a-na LÚ.GAL-URU.ME-te
ina ŠÀ-bi la-ap-qid
ù md 30-SUM-na
LÚ.GAL-É ┌ša┐ m 10-ha-ti
ina URU.sa-za-na-a la-ap-qid
ba-si É-mar-[d]i-a-te an-nu-te
i-ha-ri-du [0] LUGAL
i-pa-lu-hu: LÚ.ar-ba-a-a
a-ki ša ti-ma-li šá-šu-me
e-ru-bu ú-şu-u DI-mu a-dan-niš
-ti DUMU m a-me-ri'm a-mi-li-i
ina URU.şu-pi-te ina UGU-hi-ia
a-al-šú'i-tal-ka ṭè-ma-te a-sa-
DI-mu a-dan-niš DUMU m a-me-ri
Ina URU.şu-pi-te ina UGU-hi-ia
a-al-šú'i-tal-ka ṭè-ma-te a-sa-
DI-mu a-dan-niš DUMU m a-šá-pi
š ail-lik-u-ni'a-na KUR.ma-ni
ú-di-ni ṭè-en-šú la-a ni-šá-me

وكما يتضح من الاسم فإن المطابقة مع مدينة حسيا الحالية، وخاصة الموقع الذي شغلته على بعد حوالي ١٨كم من حمص باتجاه دمشق والجنوب.

الفهرس والحواشي

1 Wirth, **Syrien Eine geographische Landeskunde**, 1971, p.110
2 M.P.Streck, **RIA X**, p.131
3 Loc.Cit
4 Simo Parpola, **Neo-Assyrian Toponyms**, (Neukirchen- Vluyn, 1970), p.22.
5 Loc.Cit
6 عيسى أسعد، **تاريخ حمص**، الجزء الأول، ١٩٨٣، المنشورات الجامعة، ص.٥٩.
7 M.P.Streck, RIA X, p.131
8 H TH Bossert, Alt syrien, 1951, Nr.487
9 B Hrouda, RIA IV, p.468
10 Loc.Cit
11 مصطفى طلاس، الندوة الدولية عن "خالد بن الوليد" جامعة البعث، وذلك بمناسبة مرور ١٤قرناً على دخوله بلاد الشام، ١٩٩٩م، ص٣٢.
12 فريد جبور، تقرير أولي عن التنقيبات في قلعة حمص، المديرية العامة للآثار والمتاحف، ١٩٩٩م، ص.٢.
13 Geffrey King, Archaeological Fieldwork at the Citadel of Homs, Syria: 1995-1999. **LEVANT**, vol.34(2002), p.43
14 B. Hrouda, **RIA IV**, p.468-469.
15 Simo Parpola, **Neo-Assyrian Toponyms**, (Neukirchen- Vluyn, 1970), p.22.
16 R Du Mensil du Buisson, Les Ruines de el-Mishrifé. Deuxiéme Campagne de Fouilles 1927, **Syria 9**, 1928, 6-24, 81-89.
17 Piotr Bienkowski & Alan Millard, **Dictionary of the Ancient Near-East** , British Museum, 2000, p.237
18 Ammar Abdul-Rahman, et all, The first season of the Syrio-Italien-German Excavations at Tell Mishrife\Qatna (Syia) in 1999, **OCCIDENT & ORIENT – December 2000,** p35-36.
19 دانيللي موراندي، تنقيب قطنا، **وثائق الآثار السورية ٤**، ٢٠٠٢،مطبعة الصالحاني، ص.٩٠
20 بيتر بفالزنر & ميركو نوفاك، تنقيب قطنا، **الوثائق السورية ٤**، ٢٠٠٢، مطبعة الصالحاني، ص.٦٦.

21 ميشيل مقدسي، ، تنقيب قطنا، **الوثائق السورية ٤**، ٢٠٠٢، مطبعة الـــصالحاني، ص.٨

22 المرجع نفسه، ص.٧.

23 Horst Klengel, **Syria 3000 to 300 B.C. AHandbook of Political History**, Akademie Verlag,Berlin, 1992, p.65

24 ARM II 51

25 D Charpin & J-M Durand, **MARI 4**, 1985, p.306

26 H Klengel, Op.Cit, p.70

27 Brigit Groneberg, **Répertoir Géographique Band 3**, 1980, Wiesbaden, p.175

28H Klengel, Op.Cit, p.٦٧

حو ل هذا الموضوع وذكر نشالا راجع: H Klengel, **Iraq 39** , 1977, 163-169

29 عيسى أسعد، **تاريخ حمص**، الجزء الأول، ١٩٨٣، المنشورات الجامعة، ص.١٥٧

30 B Groneberg, Op.Cit, p.232

31 ، عيسى أسعد، المرجع السابق، ص.٥٥.

32 Ran Zadok, **Répertoir Géographique Band 8**, 1985, Wiesbaden, p.255.

33 Peter J. Parr, The Tell Nebi Mend Project, Archaeology Bulletin ISIS-1990\191, PP.78-85

34 Op.Cit, p.78

35 هورست كلينغل، تاريخ سورية السياسي ٣٠٠٠-٣٠٠ق.م، ترجمة سيف الدين دياب، تدقيق عيد مرعي، ١٩٩٢م، ص.١٧٠

36 Simo Parpola, OpCit, p.s

37 دونالد وايزمن، نبوخذ نصر وبابل (بغداد، ١٩٩٠)، ترجمة نائل حنون، ص.٢٨.

38 المرجع نفسه

39 H.W.F. Saggs, The Nimrud letters, **IRAQ 25, Part VI**, 1963 , pp.79-80.

40 Ibid, p.80.

41 عيسى أسعد، المرجع السابق، ص.١٥٧-١٥٨.

42 Simo Parpola, **Letters from Assyria and the west**, Helsinki uni, 1987, ABL 414.

الرسوم المتبعة في مجالس أولي الأمر (من صدر الإسلام حتى آخر العصر العباسي)

الأستاذ الدكتور بدري محمد فهد

كلية الآداب

جامعة بغداد

معنى الرسم في اللغة الأثر أو بقيته ... ثم استعملت بمعنى الأمر مجازا فقالوا رسم له كذا: أمره به. فارتسم امتثل. يقال: أنا أرتسم مراسمك لا أتخطاها. وجمع الرسم رسوم وصيغة منتهى الجموع مراسم ومراسيم(١).

وشاع استعمال الكلمة منذ أواخر القرن الثالث الهجري وتطور استعمالها فأصبحت كلمة الرسم والمراسم والمراسيم تستعمل للدلالة على معان ثلاثة.(٢)

الأول: مجموعة العادات المتبعة في مقابلة الناس ومعاملتهم وطرق تصرفهم في الحياة وهو بهذا المعنى يقابل ما يعرف بالفرنسية بكلمة اتكيت(Etiquette).

الثاني: مجموع العادات المتبعة للاحتفاء بالعظماء في أمور السياسة وفي مقابلة الملوك وعظماء الدول وهو الذي يعرف بالفرنسية بروتوكول(Protocol).

الثالث: هو الأوامر المكتوبة التي تصدر عن الخلفاء والملوك في تعيين الأمراء والحكام والقضاة وغيرهم من عمال الدولة.

ومن كلمة الرسم جاءتنا كلمة الرسمي، فيقال: اجتماع رسمي وحفلة رسمية أي حكومية وكذلك دائرة المراسم، ورئيس المراسم. وهذه المعاني لم تستعمل قبل القرن الثالث الهجري كما ذكرنا.

ولما كانت الدويلات العربية الإسلامية لاسيما في المشرق متولدة عن الدولة العباسية، فهي امتداد لها في رأي المنظرين، أو في ميدان التطبيق.

أما النوع الثالث من الرسوم فقد أصابه التطوير والتغيير في العصر المملوكي (بمصر والشام) كما يظهره ابن فضل الله العمري والقلقشندي، فأصبحت المراسيم تختلف باختلاف الأوامر الصادرة فبعضها يكتب في ثلثي الورقة ويختلف خطه وصياغته عن المراسيم التي تكتب في نصف الورقة أو ثلثها، كما تختلف في نوع القلم الذي تكتب به هذه المراسيم[٣]. واختلاف الصياغة يتم حسب منزلة الشخص الذي ترسل إليه الأوامر[٤].

وهناك كلمة تشريفات (جمع تشريف) استعملت لتحل محل المرسوم، وقد وردت في أواخر العصر العباسي لتعطي معنى الهدية أو الخلعة أولاً كما جاء في سنة ٦٣٢هـ إذ عملت حفلة في دار الخلافة بمناسبة ختمة الأمير المستعصم بالله (وقد أصبح آخر خليفة عباسي بعد ذلك)، أفيضت فيها الإنعام والهدايا على الخدم والحجاب والأتباع، وأحضر الشيخ المؤدب علي بن محمد النيار - وأكرم، ثم صدر الأمر بحمل (التشريف) إلى داره[٥].

ويبدو أنه قد خصصت للتشريف دار ضمن دار الخلافة سميت بدار التشريفات إلا أنه لم يرد عن اختصاصاتها أو أعمالها شيء ولكن وردت أسماء بعض من عمل فيها، ففي سنة ٦٠٥هـ (نقل عضد الدين أبو الفتوح المبارك بن الوزير عضد الدين محمد

ابن عبد الله بن رئيس الرؤساء إلى صدرية المخزن من إشراف دار التشريفات. وقد شافهه بالولاية نجاح الشرابي – أحد قادة الجيش –. وأجري الاحتفال في دار الخلافة على حسب الرسم)). فالرجل قد نقل إلى مؤسسة المخزن وهي المؤسسة المالية الأولى من مؤسسة دار التشريفات، وأنه تم احتفال بهذه المناسبة وفق العادة المألوفة(٦).

وجاء في حوادث سنة ٦٢٩هـ أن محمد بن العلقمي (الذي أصبح وزيرا فيما بعد) تسلم دار التشريفات، وأمر بالتردد إليها ومشاركة النواب في أعمالهم(٧).

وفي سنة ٦٣٢هـ ولي النظر بدار التشريفات فخر الدين أبو سعد المبارك بن يحيى البغدادي، ثم تولى بعد ذلك ولايات أخرى(٨).

وفي سنة ٦٣٥ رتب شمس الدين أبو طالب عبد العزيز بن محمد مشرفا بدار التشريفات نقلا من الكتابة فيها(٩) وهذا يدل على وجود جملة من الكتاب في هذه المؤسسة.

ثم أصاب المصطلح تغير في مصر منذ العصر المملوكي فكانت كلمة تشريف (وجمعها تشاريف) تدل على نوع من اللباس يرتديه أرباب الوظائف من السلاطين ونوابهم والأمراء والقادة وأرباب الأقلام في الحفلات الرسمية والمناسبات المهمة.

وكانت التشاريف تختلف باختلاف طبقة الموظفين من حيث الألوان والتحلية بالنقوش والترصيع بالمعادن الثمينة أو حمل الأسلحة. واستمرت في مصر حتى قيام الثورة المصرية.

إلا أن الملاحظ أن التشريفة في مصر الحديثة أصبحت مختلفة عما كانت عليه في العصر المملوكي. وكلمة تشريفات جمع تشريف استعملت في أواخر الدولة العثمانية بمعنى البروتوكول(١٠).

وما يهمنا في هذا البحث هو ما كان مستعملا من تلك الرسوم في المجالس العامة أو في مجالس أولياء الأمور فقط، والتي نالت اهتمام الأدباء والمؤرخين والفلاسفة والفقهاء فأوردوا عنها الجمل الحكمية وبثوها في ثنايا كتبهم أو ألفوا عنها الكتب.

المؤلفات حول موضوع الرسوم:

إن هذا الاهتمام الذي أشرت إليه قد امتد عبر زمن طويل جداً. ظهر مع ظهور المؤلفات العربية الأولى. فقد ترجمت عن الهنود والفرس واليونان مؤلفاتٍ ذكرها ابن النديم. هذا فضلا عما كان معروفاً في التراث العربي لذا أورد الأدباء الحِكم والأمثال والنصائح في ثنايا رسائلهم وكتبهم.

صاغ الكثير من الشعراء بعض ما تعارف عليه المجتمع العربي من تلك الرسوم المتبعة في المجالس للحديث أو السمر أو الطعام. ثم ظهرت مؤلفات المنظّرين في هذا الموضوع من مؤرخين وأدباء وفلاسفة وفقهاء بشكل رسائل مستقلة أو كتب قائمة بذاتها تحث الجلساء في مجالس أولياء الأمور من الخلفاء والسلاطين والأمراء والولاة والوزراء على الالتزام بأدب السلوك وتخير الكلام الجيد واللفظ المختصر المعبر. كما أن بعضها كان مخصصا لأولياء الأمور ولتربية الأمراء في حسن اختيار الجليس والمشاور وما ينبغي أن يقوله أو يعمله ولي الأمر في تلك المجالس.

وكانت هذه المؤلفات- وهي التي سمحت بذكرها المصادر فضلاً عما طبع منها- متنوعة فبعضها كما ألمحتِ مخصصة لأولياء الأمور بالدرجة الأولى، ولتربية الأمراء قبل توليهم مقاليد الأمور. وهي الكتب التي اعتمدت على منهج يبين للرجل كيفية تدبير أمره وأهله وصولا إلى سياسة العامة (Miroirs Desprinces). وتسمى هذه الأنواع من الكتب مرايا الأمراء. وهناك النوع الثاني الذي يعتمد الدولة منطلقا لنصائحه وتعاليمه فيتحدث عن الملك والملك وآدابه. ومن هذين النوعين الكتاب المعروف بسر الأسرار المنسوب لأرسطو وكتاب التاج المنسوب للجاحظ. وكتاب التبر المسبوك

للغزالي، وسراج الملوك للطرطوشي وسلوك المالك لابن أبي الربيع، وكتاب الإشارة إلى أدب الأمارة للحضرمي القيرواني(١١).

وقد دعت الحاجة عند قيام الحكم العباسي المحكم القواعد، الواعي لمقتضيات السياسة إلى الاستفادة من النظامين القريبين، النظام البيزنطي والنظام الساساني، بعد أن استوعبوا تجارب النظامين الراشدي والأموي. فاتجه المثقفون والمفكرون السياسيون إلى التراث السياسي لكلا النظامين يستهلمونهما أو ينقلون عنهما (مرايا الأمراء) للاسترشاد بهما في سياسة الملك وتدبير الرعية، أو بسبب حنين بعض المؤلفين وتعصبهم لها.

وكان التراث المعَّرب الذي يمثل اليوناني (وهو السكندري والبيزنطي) وكذلك الهندي والساساني أقرب إلى نفسية الخلفاء العباسيين لما ينطوي عليه من مظاهر السلطان وأبهة الملك وتمجيد الحكام. بينما كان الفكر اليوناني المتقدم على عهد أفلاطون وأرسطو يمثل اتجاهاً مغايراً ما كان ليروق أولئك الخلفاء، حيث يؤكد على معاني الديمقراطية والحرية السياسية والمساواة والعدالة التعويضية (أو التوزيعية) التي رددها أفلاطون وحللها أرسطو وروجها الكتاب اليونانيون السياسيون في العهود الزاهرة في القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد(١٢).

وهناك نوع آخر من المؤلفات كانت مخصصة للجلساء والمسامرين ومن هذا النوع كتاب (رسوم دار الخلافة) الذي يشرح ما كان معمولاً به في دار الخلافة العباسية من رسوم، وما أصاب تلك الرسوم من تبديل وتغيير وفق مراحل التاريخ العباسي، والتي كانت تتطلب من زوار دار الخلافة ومن جلساء الخلفاء ومسامريهم الأخذ بتلك الرسوم.

وهذان النوعان من التأليف أي ما كان مخصصا لتربية الأمراء وما كان مخصصا لجلساء أولياء الأمور أصابه ما أصاب كثيراً من العلوم والمعارف من اتساع وكثرة

أدت ببعض المؤلفين إلى تأليف كتب مختصرة في الموضوع يعمد فيها المؤلف إلى حصر المعلومات من مشجرات النسب أو الجداول، لكي يسهل حفظها أو يسهل أمر الرجوع إليها دون قراءة التفاصيل الكثيرة، ومن أمثلة هذا النوع كتاب ابن أبي الربيع (سلوك المالك في تدبير الممالك) [١٣] وكتاب لمؤلف مجهول هو (قانون السياسة ودستور الرئاسة) [١٤].

ونوع ثالث جمع بين النوعين وهو الغالبية المطلقة من المؤلفات[١٥] التي كانت على شكل أخبار وحكايات عن مجالس الخلفاء وذوي السلطان لا يُرادُ بها أن تكون أبحاثاً جادة في الرسوم أو السياسة بقدر إتيانها بما يلذ القاري من الأدب شعراً ونثراً. أي ما قيل في تلك المجالس من الكلام البليغ سواء كان في كلام المسامرين أو في ردود الخلفاء وذوي السلطان.

٤- رسوم المجالس في صدر الإسلام:

بشر العرب بتعاليم الإسلام، وكانت تتضمن ثلاثة أسس رئيسة أولها العقائد وثانيها الأعمال (أي العبادات والمعاملات) وثالثها الأخلاق[١٦].

وفي مجال الأخلاق ورد في القرآن الكريم نوعان من الأخلاق، نوع هو تعاليم الآداب واللياقة كما في الآية ((وإذا حُييتم بتحيةٍ فَحيوا بأحسنَ منها أو ردوها)) [١٧].

وكما في الآية ((يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتِكُم حتى تستأنسُوا وتُسلموا على أهلها ذَلكم خيرٌ لكُم لعلكُم تذكَّرون* فإن لم تجدُوا فيها أحداً فلا تدخلُوها حتى يُؤذنَ لكُم* وإن قِيل لكُمُ ارجِعوا فأرجِعُوا هو أزكى لكُم واللهُ بما تعملونَ عليم)) [١٨].

ونوع آخر هو أسمى ما تدعو إليه الحضارة، الوفاء بالوعد أو الصبر في الشدائد والعدل مع من أحببت أو كرهت، والعفو عند المقدرة، كما في الآية (والموفون بعهدهم

إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس) [١٩] والآيــة (إن اللهَ يــأمرُ بالعدلِ والإحسان وإيتاء ذي القُربى وينهى عن الفَحشاءِ والمُنكر والبغي) [٢٠].

كما تضمن الحديث النبوي الشيء الكثير من آداب السلوك للفرد أو للجماعة[٢٠].

ولما كان الإسلام قد ظهر في أمة العرب، وهي أمة عريقة لها إرث حضاري استقرت أُسسه لذلك أبقى الإسلام على بعض هذا الإرث الذي يتضمن الأخــلاق وألغــي مــا يعارض مبادئه فقد أقر الشجاعة، والكرم، وإغاثة الملهوف، وإقراء الضيف واســتقبال الوفود وإكرامهم.

وقد تميز عام (٩هــ) بأنه عام الوفود التي قدمت من جميع أنحاء الجزيــرة العربيــة معلنة إسلامها ومتلقية تعاليم الإسلام، ووصايا الرسول (ص) فكــان عليــه الــصلاة والسلام في استقباله لرؤساء القبائل وسفرائها قدوة للصحابة في مسلكه، وفي مجالــسه وفي حديثه، وفي استماعه لأقوال الوفود، وفي وصاياه لهــم. وعلــى هديــه ســار الراشدون الأربعة في حكمهم مع البساطة والتواضع سواء في مجالــسهم العامــة أو الخاصة.

لذا لم يكن للرسول (ص) ولا للراشدين حجَاب يحجبون الناس عنهم في المسجد* محل اجتماع المسلمين في الأوقات الخمسة، ومحل اجتماعهم عند حــصول مــا يــستدعي اجتماعهم. وكان لهم في بيوتهم خدم لهم يستأذنون للزوار، وللمدعوين إلى الطعام.

ومن هنا جاءت الأحاديث الكثيرة التي تحث على عدم احتجاب أولي الأمر عن الناس، لما في ذلك من تأخير لأعمال الناس وإيذائهم أو عدم سماع شكاية المظلوم: (من ولاه الله عز وجل شيئا من أمر المسلمين، فاحتجب دون حاجتهم وخلتهم وفقرهم، احتجــب الله عنه دون حاجته وخلته وفقره) [٢١]. أو قوله (ص) (من ولي من أمر الناس شــيئا فاحتجب عن أولي الضعف والحاجة، احتجب الله عنه يوم القيامة) [٢٢].

أما الآثار التي وردت عن النبي (ص) بأن له حجاباً في بيته فهم خدم أو موال كانوا يستأذنون للداخل إلى بيت رسول الله (ص) زواراً أو مدعوين إلى طعام. وقد علمهم النبي (ص) آداب الدخول وآداب السلام، والطعام والانصراف بعد الطعام، وفي هذا نزلت الآية

(يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أنْ يؤذنَ لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث إن ذلكم لكم كان يؤذي النبي فيستحي منكم والله لا يستحي من الحق وإذا سألتموهن متاعاً فسألوهن من وراء حجاب) [٢٣].

وقد سار الراشدون على نهج الرسول (ص) في تأكيدهم عدم الاحتجاب عن الناس، ورؤيتهم والالتقاء بهم متى جاءوا كما أكدوا ذلك للولاة في أمصارهم. فمن وصايا عمر بن الخطاب (رض) (إياكم والحجاب وأظهروا أمركم بالبراز وخذوا الذي لكم وأعطوا الذي عليكم، فإن امرؤ ظلم حقه مضطراً حتى يغدو به مع الغادين) [٢٤].

ومن وصايا عمر بن الخطاب أيضاً لمعاوية بن أبي سفيان واليه على الشام (بوَ أَذَنْ للضعيف وأدنِه حتى ينبسط لسانه ويجترئ قلبُه، وتعهد الغريب، فإنه إذا طال حبسُه وضاقَ إذنُه ترك حقه، وضعف قلبُه، وإنما أقوى- أي ذهب به- حقه من حبسَه) [٢٥].

وكانت السابقة في الإسلام تراعى عند الدخول على الخلفاء وتفضل على المكانة الاجتماعية فقد اجتمع على باب عمر بن الخطاب (رض) جماعة فيهم عيينه بن حصن الفزاري والأقرع بن حابس، وسهيل بن عمرو (خطيب قريش)، فدخل الآذن إليه وأخبره ثم خرج مناديا ليدخل بلال، وصهيب وسلمان وعمار (فتمعرت وجوه القوم، فقال سهيل: لم تتمعر وجوهكم؟ دعوا ودعينا، فأسرعوا وأبطأنا، ولئن حسدتموهم على باب عمر، لما أعَد الله لهم في الجنة أكثر) [٢٦].

ولما حل العصر الأموي كانت دولة الإسلام قد امتدت ما بين حدود الصين والأندلس وانتقل مقر الحكم إلى دمشق، فأصبحت عاصمة الدولة الإسلامية القريبة من الدولة البيزنطية فكان من علامات هذا التغيير اتخاذ الحجاب دون الناس لاسيما إذا علمنا أن معاوية كان قد تعرض للاغتيال فأصبح الخلفاء متخذين حجابا يمنعون الناس من الدخول عليهم، إلا بإذن منهم لإدخالهم وفق مراتبهم ومن أجل عدم الازدحام عليهم عند النظر في حوائجهم كما استخدموا رسوماً في الدخول عليهم، وترتيب هذا الدخول وفق اعتبارات اقتضت مراعاتها منها السياسية والاجتماعية ومراعاة السن وشهرة المستأذن، هذا فضلاً عما كان موروثا من أدب المجالس.

أصبح الداخل على الخلفاء أو ولاة الأمور في الدولة الإسلامية بعد استئذان الحاجب له أن يبدأ بالسلام على الخليفة بقوله (السلام عليك يا أمير المؤمنين، ورحمة الله وبركاته) وعلى الوالي (السلام على الأمير ورحمة الله وبركاته) ثم يتخذ الداخل مكانه الذي يرشده إليه الحاجب أو ولي الأمر.

ولما كان الحاجب يقوم بمهمة تسهيل الدخول إلى ولي الأمر أو تأخيره فقد أصبح موضع عناية أولياء الأمور فاختاروا الرجل ذا الحنكة والتجربة، ومن له عقل وحزم ومن كان أمينا في نقل ما يسمعه من المستأذن أو في أدائه لما يأمره به ولي الأمر، وأن يكون عارفاً بمنزلة المستأذنين على أولياء الأمور حتى لا ينتقص من حرمهم وحقهم[٢٧].

نجد بعض هذه الصفات في وصية الخليفة عبد الملك لأخيه عبد العزيز حيث ولاه مصر بقوله (إن الناس قد كثروا عليك، ولعلك لا تحفظ، فاحفظ عني ثلاثاً قال: قل يا أمير المؤمنين قال: انظر من تجعل حاجبك؟ ولا تجعله إلا عاقلا فهيما مفهما صدوقاً لا يورد عليك كذباً، يحسن الأداء إليك والأداء عنك، ومره ألا يقف – ببابك أحد من الأحرار إلا أخبرك حتى تكون أنت الآذنَ له أو المانع، فان لم يفعل كان هو الأمير

وأنت الحاجب، وإذا خرجت إلى أصحابك فسلم عليهم يأنسوا بك. وإذا هممت بعقوبة فتأن فيها، فانك على استدراكها قبل فواتها اقدر منك على انتزاعها بعد فواتها) [٢٨].

وفي العصر العباسي كانت الدولة الإسلامية قد قطعت شوطاً كبيراً في التحضر، فبنى العباسيون على الأسس التي وضعها الأمويون قبلهم. وزادوا عليها كثيراً من التعقيد والرسوم، فقد أقاموا حكمهم على أنهم الورثة الشرعيون لعائلة النبي (ص)، وأن حقهم مقدس؛ ولهذا أشاعوا استعمال كلمة إمام وأمير المؤمنين أكثر من الخليفة لإيحائها الديني. وكان لاتخاذهم بغداد (بعد بنائها) عاصمة على شكل قلعة لها أبواب تغلق عند الغروب لإحكام السيطرة عليها، ولمنع تسرب الغرباء إليها بداية لاتخاذ تلك الرسوم وتطويرها وتنظيمها.

وزاد عدد الحجاب إذ أصبحت دور الخلافة أشبه بمدن صغيرة ولاسيما بعد أن انتقلت إلى الجانب الشرقي وأصبحت ضمن سياج على شكل قوس يضمها يطلق عليه حريم دار الخلافة. وكانت الأوصاف التي يتطلبها الخلفاء والولاة في حجابهم في هذا العصر وهي نفسها، فهذا الصابي يصف لنا الحاجب وكثرة واجباته بقوله (إن يكون صبيح الوجه، يتولى أمر الحواشي فيما يتولونه ترتيباً لا يتجاوز بكل منهم فيه حده ولا يحمله ما لا يطيقه ثم يراعيهم مراعاة تدعوهم إلى التحرز في الأفعال والتحفظ في الأعمال، ومداومة الخدمة من غير إخلال، وملازمة الحشمة من غير استرسال) [٢٩].

وقد صيغت الأقوال الحكمية في مهمة الحاجب وأهمية دوره في استقبال الداخلين على أولياء الأمور كقولهم (كاتبك لسانك، وحاجبك وجهك، وعونك يدك، فاختر لنفسك وجهاً ولساناً ويداً ...) [٣٠].

ولما كانت دار الخلافة بقصورها المختلفة ومرافقها المتعددة أشبه بمدينة لذلك كثر الحجاب فيها، وأصبح لهم رئيس وواجبات كثيرة داخل دار الخلافة التي منها: مراقبة العاملين فيها ممن تجمعهم كلمة الحواشي. جاء عن الخليفة المعتضد بالله (٢٤٢هـ –

٢٨٩/ ٨٥٧ – ٩٠٢م) أنه في زمنه كان يخدم في تلك الدار من أولاد الأمراء والقواد المرسومين بالمقام فيها على رسم الخلافة. وأنه كان لكل منهم واجب يقوم به إلا أنهم كانوا قد اتخذوا من أحد الحجر حجرة يستريحون فيها سميت دار الحجبة(٣١) من دون علم الخليفة، فإذا انفض الموكب (أي مجلس الخليفة) وانصرف الناس، جلسوا فيها، فنزعوا خفافهم، ووضعوا عمائمهم عن رؤوسهم وأخذوا يلعبون بالشطرنج والنرد. وبينما هم على عادتهم اطلع عليهم أحد أصحاب الأخبار في الدار فكتب بخبرهم إلى الخليفة المعتضد بالله. فخرج أمره (يستصفعون وما لهم من شافع) أي إن الخليفة لا يقبل فيهم شفاعة وأن لا بد من ضربهم، وقد أمر الخليفة الحاجب خفيف السمرقندي، فنفذ الحكم بضرب كل واحد منهم عدة مقارع. مما جعل الحواشي بعد ذلك متجنبين للتبذل ملتزمين لمواقع عملهم(٣٢).

وكان الحاجب يمنع الداخل إلى دار الخلافة من ارتداء لباس غير السواد ففي زمن الخليفة المطيع لله، وكان حاجبه مؤنس الفضلي وقد حضر الوزير محمد بن الحسن ابن صالحان(٣٣) وابن الخياط صاحب ديوان الرسائل، والحسن بن عمر بن يحيى العلوي بالبياض. قال له الحاجب ((ليس هذا اللباس أيها الشريف، لباس الدار، ولا حضورك حضور من يريد الوصول؟

فقال له: كأنك أنكرت البياض؟

قال: نعم

قال: هذا زيي وزي آبائي.

قال: ما الأمر هذا، ولا رأيت أحداً من أسلافك دخل هذه الدار إلا بالسواد. ولقد حضر عمر ابن يحيى أبوك عندنا في أيام الطائع لله (رض) لتقرير أمر الحج، ومن معه وهو بسواد أسود.

فقال: ما معنى سواد أسود؟

قال له: سواد مصبوغ. وأنني لأذكره وقد عرق والسواد يجري على جبينه، وهو يمسحه بشستجة (منديل) في يده.

قال له محمد بن عمر: فما الذي تريده أيها الحاجب؟

قال: أن تغير هذه اللبسة وتفعل ما جرت به العادة.

قال: أو انصرف.

قال: الاختيار إليك.

وقام محمد بن عمر ونزل إلى زبزبه (زورقه) وانصرف إلى داره(٣٤).

ومما كان الحاجب يلاحظه ألوان أخفاف الداخلين إلى دار الخلافة إذ كان يمنع الداخل بنعال أو خف أو لالكة(٣٥) حمراء، لأن ذلك لباس الخليفة.. ففي زمن الخليفة المطيع لله دخل القاضي ابن أبي الشوارب بخف أحمر، فلما رآه الحاجب أبو الحسن محمد ابن أبي عمرو الشرابي وكان يضمر العداء للقاضي. وجد فرصته بإهانة القاضي لدخوله بالخف الأحمر، ولما علم الخليفة بما حصل لم ينكره.

وكانت هذه الواقعة سببا في وفاة القاضي(٣٦).

وكان الحاجب يلاحظ الجالسين سواء كانوا للخدمة أو منتظرين الإذن فمن رآه واضعاً رجلا فوق أخرى عدها تبذلاً واستهانة بدار الخلافة، فعاقب فاعلها(٣٧).

الدخول على الخلفاء:

أما آداب الدخول على الخلفاء سواء للأفراد أو للجماعات فقد أُخذ بها عند قيام الحكم الأموي، وزادت تنظيما في العصر العباسي. واختلف الرسم بالنسبة للتقبيل وفق مراحل التاريخ، فقد كان في بعض أخبار العصر العباسي أن الداخل على الخليفة من

أمير أو وزير أو ذي قدر كبير. يقول له (السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته) ثم يتقدم ويأخذ يده ويقبلها. وفي هذه الحالة تكون يده مغشاة بكمه إكراماً له. والعلة في تغشيتها لئلا يباشرها فم أو شفة. ويبدو أن عادة تقبيل اليد قد تركت في القرن الرابع وعدل عنها إلى تقبيل الأرض(٣٨).

فأما ولاة العهود من أولاد الخلفاء والأهل من بني هاشم والقضاة والفقهاء والزهاد والقراء فما كانوا يقبلون أرضا. لكنهم يقتصرون على السلام وربما خطب بعضهم خطبة قصيرة بثناء ودعاء. وهذه الفئة من الناس اختلطت في زمن الصابي بالفئة التي تجيز تقبيل الأرض إلا القليل من الناس ممن تورع عن هذا الفعل.

أما أوساط الجند ومن دونهم من عوام الناس، ومن لا رتبة له منهم فمنكر منهم تقبيل الأرض لأن منزلتهم تقصر عن ذاك(٣٩).

ويبدو أن الأمر أصبح مختلفاً بعد ذلك في مجالس الخلفاء والحكام في الأقاليم لذا أصبح (منهم من يرى الخدمة بتقبيل الأرض إذا كان – ذو سلطان – راكباً والعتبة إذا كان جالسا. ومنهم من يرى تقبيل البساط ومنهم من يرى الانحناء في الخدمة كالركوع. ومنهم من لا يرى إلا السلام والخطاب بالنعت (أي أمير المؤمنين) أو الأمير أو السلطان ثم الجلوس. فأما تقبيل اليد عند القدوم، وعند البيعة وعند العفو وعند تجديد الإحسان فعادة سوية لم يمنعها شرع ولا سياسة) (٤٠).

ومن الآداب أن لا يسرع الداخل في مشيته ولاسيما إذا كان مع أحد غيره فمما يذكر أن كلا من محمد بن الأشعث(٤١) والأحنف بن قيس(٤٢) كانا بباب معاوية، فأذن للأحنف ثم لابن الأشعث، فأسرع الثاني في مشيته حتى تقدم الأحنف ودخل قبله. فقال معاوية للأحنف (والله إني ما أذنت له قبلك. وأنا أريد أن تدخل قبله. وإنا كما نلي أموركم كذلك نلي آدابكم ولا يزيد متزيد في خطوه إلا لنقص يجده من نفسه) (٤٣).

ومن رسوم آداب الدخول على الخلفاء وأولياء الأمور أن لا يسلم الداخل على القادم بين يدي الخليفة وورد في هذا المعنى عن قدوم عبد الله بن عباس على معاوية، وعنده زياد ابن أبي سفيان (وقد رحب به معاوية، وقرب مجلسه، ولم يكلمه زياد شيئاً حتى ابتدأه ابن عباس قائلاً: ما حالك أبا المغيرة؟ كأنك أردت أن تحدث بيننا وبينك هجراً؟ قال : لا ولكنه لا يسلم على قادمين بين يدي أمير المؤمنين فقال له ابن عباس: ما ترك الناس التحية بينهم بين يدي أمرائهم فقال له معاوية: كف عنه يا ابن عباس، فإنك لا تشاء أن تغلب إلا غلبت) (٤٤).

وقد تكررت هذه الصورة في العصر العباسي فقد دخل أبو مسلم الخراساني على الخليفة أبي العباس السفاح وعنده أخوه المنصور، فسلم على أبي العباس فقال له (يا أبا مسلم هذا أبو جعفر: فقال له يا أمير المؤمنين هذا موضع لا يقضي فيه إلا حقك).(٤٥)

وعلى الداخل إلى مجالس الخلفاء أن تكون ملابسه ملائمة، أما إذا كانت رثة أو ممزقة فقد يناله الازدراء، فقد حاسب الخليفة سليمان بن عبد الملك، أحد الداخلين عليه بثياب رثة، كذلك الخليفة عاب هشام لباس أحد الداخلين عليه، ولام حاجبه لعدم إخباره بذلك(٤٦).

وقد روعي في الملابس ألاّ تكون مشابهة للباس الخليفة نفسه(٤٧) وأن تكون مجللة بالسواد للموظفين الكبار باستثناء العوام، وأن يتعطر الداخلون بأنواع العطور إلا ما عرف من كراهية الخليفة لنوع معين منها(٤٨).

وقد كانت المجالس على ثلاثة أنواع سواء كان ذلك في زمن العصر الأموي أو العباسي وهي: نوع خاص وهو الذي يضم الخليفة ومن يحضر مجلسه مشاوراً أو أنيساً لتدارس بعض شؤون الدولة، أو لسماع نصيحة فقيه أو عالم. ونوع يرتبون على طبقاتهم ويدخل فيهم الضعفاء والنساء وإذا كان الوقت وقت طعام دعوا للمشاركة في

الأكل[٤٩] ومما يذكر عن الخليفة معاوية بن أبي سفيان أن عدداً من النساء جئن وافدات عن قبائلهن أو طالبات لحاجات من الخليفة مما أبرز طرائف رائعة في الحوار والمحادثة مع كون بعضهن يمثلن جانب المعارضة[٥٠]. ونوع ثالث هو للراحة والاستمتاع سواء كان ذلك بإدخال الشعراء، وما قد يحصل من إنشادهم الشعر بعد إذن الخليفة أو بما كان يقوم به الخليفة من تحريضهم على المكاثرة والمفاخرة وعرض أجود ما عندهم. وكانت العادة أن يحضر مع الشعراء الفقهاء والعلماء. والكتاب وكثير منهم كان في عداد الشعراء أيضاً فكانت هذه المجالس إحدى الأماكن التي تنتشر فيها الرواية والأخبار العلمية والأدبية المختلفة ويتم فيها التشجيع على الإبداع واكتساب المعرفة. ولاسيما في العصر العباسي الذي أصبحت الجوائز فيه مورداً للرزق لكثير من أصحاب المعارف المختلفة فضلاً عن الشعراء.

وكان إدخال الناس على الخلفاء يتم وفق منزلتهم الاجتماعية فعندما وفد والي العراق عبيد الله بن زياد على معاوية فقال له: "ائذن للوفود على منازلهم وشرفهم فأذن لهم"[٥١] فدخل الأحنف في آخرهم ... فسألهم معاوية عن واليهم فأثنوا عليه إلا الأحنف بقي ساكتاً، وفهم منه معاوية عدم رضاه عن الوالي فقال له وللوفد اختاروا والياً غير عبيد الله وبعد أيام دخلوا عليه فبعد سماعهم كان الأحنف ساكتا فسأله معاوية رأيه فقال " إن وليت علينا أحدا من أهل بيتك لم نعدل بعبيد الله أحداً وإن وليت من غيرهم فانظر في ذلك. قال معاوية : فإني قد أعدته عليكم، ثم أوصاه بالأحنف، وقبح رأي عبيد الله في مباعدة الأحنف ويتضح من هذا الخبر فائدة تقديم الناس على منازلهم إلى الخليفة فالأحنف شيخ تميم أحد قادة الفتح لم يقدمه الوالي بسبب كراهية بينهما، فلما رآه معاوية، سمع رأيه وعرف أنه مميز عن بقية الوفد برجاحة عقله، ولهذا أوصى الوالي بتقريب مجلسه واتخاذه مشاوراً.

وكان الخلفاء الأمويون ثم العباسيون بعدهم يأذنون لأفراد الأسرة قبل غيرهم من الناس مراعاة للقرابة ولرفع مكانتهم أمام الناس[٥٢].

وإذا كان إدخال الناس على مراتبهم يؤدي إلى انتظار مجيء الإذن بإدخالهم فان هناك أشخاصاً لم يكن للحاجب مندوحة عن تأخيرهم ليلاً أو نهاراً بل كان يقدمهم على كل أحد وهؤلاء الأشخاص هم المؤذن للصلاة وطارق الليل الذي لا يستطيع الانتظار حتى الصباح وصاحب البريد[٥٣].

ومثل هذا كان يعمل الولاة في أقاليمهم فعن زياد بن أبي سفيان قوله لحاجبه (يا عجلان إني وليتك حجابتي وعزلتك عن أربع: هذا المنادي إلى الله في الصلاة والفلاح لا تحجبه عني، فلا سلطان لك عليه. وطارق الليل تجبه لشر ما جاء به، ولو كان في تلك الساعة، ورسول الثغر فانه إن أبطأ ساعة افسد عمل سنة، فادخله علي، وإن كنت في لحافي.

وصاحب الطعام، فإن الطعام إذا أعيد تسخينه فسد) [٥٤].

وكانت مقابلة الخليفة تتم خلال يومين من الأسبوع للخاصة فمن لم يستطع الدخول في هذين اليومين دخل مع العامة[٥٥].

ترتيب الجلوس في حضرة الخليفة:

اتخذ الحكام قبل الإسلام السرير والمنبر والكرسي، وهي أعواد منصوبة وأرائك منضدة عليها، ولتكون مرتفعة عن أهل المجلس.

فلما جاء الإسلام كان النبي (ص) والراشدون بعده على سنته يجلسون على الحصر أو الجلود أو الأرض. وكان المنبر محل جلوسهم عند الخطبة. أما في بيوتهم فيجلسون على فرش أعدت على الأرض.

ولما حل العصر الأموي اتخذ معاوية ما كان يتخذ قبل الإسلام من مقاعد بعد أن استأذن الناس فيه معتذرا بأنه قد بدن (أي أصابته البدانة)، فأذنوا له فتبعه الخلفاء من بعده. وكانت هذه المقاعد تغطى بأنواع الفرش صيفا وشتاءً.[٥٥]

وكان الخليفة إذا أراد إكرام شخص لمكانته السياسية أو الاجتماعية أو لقرابته أدنى مجلسه منه، وربما أجلسه على السرير نفسه الذي يجلس عليه[٥٦]. ولما حل العصر العباسي وزادت أبهة الخلافة، أصبحت العادة أن يجلس الخليفة على كرسي مرتفع في دست[٥٧] كامل مغطى بأفخر الفرش المعروفة آنذاك.

ويكون لباسه قباءاً أسود لا يخالطه لون آخر أوملحماً[٥٨] ويجعل على رأسه عمامة سوداء رصافية، ويقلد سيف النبي (ص) وعلى كتفيه بردة النبي (ص) ويمسك بقضيبه[٥٩].

ويقف الغلمان وهم حرس الخليفة الخاص، والخدم من خلف السرير وحواليه متقلدين بالسيوف، وبأيديهم الطبرزينات والدبابيس[٦٠].

ويقوم من وراء السرير وجانبيه خدم صقالبه[٦١] يذبون عنه بالمذاب (المراوح) المقمعة بالذهب والفضة (ما يمكن أن يتطاير أمامه من ذباب وغيره).

ويكون بينه وبين الناس ستارة ديباج فإذا دخل الناس وأخذوا أماكنهم المخصصة رفعت، وإذا أريد إخراجهم مدت[٦٢].

أما ترتيب جلوس الناس أو وقوفهم بحسب منازلهم في يوم الموكب (أي يوم جلوس الخلفاء) فيكون بخروج الخليفة وجلوسه على ما ذكرنا أو بإدخال الناس أولاً ويكون عندها حاجب الحجاب بلباسه الرسمي من القباء الأسود المولد، والعمامة السوداء، والسيف والمنطقة جالسا في الدهليز ومعه الحجاب وخلفاؤهم. فإذا جاء الوزير وأمير

الجيش ومن لهم رسم في حضور الموكب. راسل حاجب الخليفة بواسطة أحد الخدم الحرمية (الرسائلي، فإذا رغب الخليفة بالجلوس للخاصة فقط، أعلمه وإن أراد الجلوس العام استدعى حاجب الحاجب فدخل وحده، ووقف في الصحن وقبل الأرض، فتأتيه الإشارة بإدخال الناس وإجلاسهم أو جعلهم في أماكنهم المخصصة، فيخرج حاجب الحجاب، ويدعو ولي العهد إن كان في الوقت ذاك ولي للعهد، ثم أولاد الخليفة، إن كان له ولد ثم يدخل الوزير ويمشي الحجاب بين يديه إلى أن يقترب من السرير. فإذا قرب، تأخروا عنه ويقدم الوزير بعد تقبيل الأرض إلى أن يدنو من الخليفة فان شرف بمد يده إليه أخذها وقبلها وتراجع، حتى يقف عن يمين السرير على خمسة أذرع منه، ويدخل بعده أمير الجيش فيقبل الأرض ويقف عن يسار السرير. ثم أصحاب الدواوين والكتاب. ويصل القواد يتقدمهم خلفاء الحجاب على مراتبهم ويقفون يمينا وشمالا على رسومهم.

وينادى ببني هاشم ومن يلبس الدنيات(٦٣) ويتقلد الصلوات فيتقدمون إلى أول البساط ويسلمون ويقفون مفردين.

ثم يدعى القضاة وأولهم قاضي القضاة، ثم قضاة العاصمة، ويقع الإذن العام بعد ذلك. فيدخل الجند ويقفون صفين بين حبلين محدودين في صحن السلام، جعل الغرض منهما أن يمنعا من الازدحام والاختلاط والتضاغط. وان يشاهد الخليفة من يدخل بينهما على بعد فيعلم من هو ويكون ذلك أكثر هيبة وروعة.

وكان من جملة ترتيب المجلس أن يخصص بعض الحجاب لمنع الطيور من الوقوف ولاسيما الغربان بان يرميه بقوس الجلاهق (البندق) ليمنعه من النعيب(٦٤).

آداب الجلوس في مجالس الخلفاء:

بعد أن يتخذ الداخلون على الخلفاء أماكنهم جلوسا أو وقوفا وبعد أن – يؤدوا التحية وينصرفون بأبصارهم نحو الخليفة، فإذا بدأ بالحديث أقبلوا على سماعه باهتمام،

مظهرين السرور به سواء كان الحديث جديداً على مسامعهم أو معاداً[٦٥]. وفي هذا المعنى ورد قول روح بن زنباع الجذامي مشاور عبد الملك بن مروان (إن أردت أن يمكنك الملك من إذنه، فأمكن إذنك من الإصغاء إليه إذا حدث) [٦٦].

وقد كان خلفاء العصر الأموي الأول مثل معاوية ويزيد ومروان وعبد الملك يناديهم بعض الناس كالصحابة أو شيوخ القبائل بأسمائهم أو بكناهم[٦٧] ومما لا يتعارض مع قولنا هذا ما ورد عن الصحابي سعد بن أبي وقاص وقد دخل على معاوية فسلم قائلاً "السلام عليك أيها الملك. فضحك معاوية – وقال ما كان عليك يا أبا إسحاق رحمك الله لو قلت أمير المؤمنين؟ فقال: أتقولها جذلان ضاحكاً، والله ما أحب أني وليتها بما وليتها به". فالسلام كما فهمه معاوية فيه تعريض به[٦٨].. إلا أن ذلك أصبح غير مقبول زمن الوليد بن عبد الملك، فكيف لا، وقد أصبحت دولته أكبر دولة وأقواها في العالم آنذاك لهذا وجدناه يقول في إحدى خطبه: (إنكم كنتم تكلمون من كان قبلي من الخلفاء بكلام الأكفاء وتقولون يا معاوية ويا يزيد، وإني أعطي الله الوفاء به لا يكلمني أحد، بمثل ذلك إلا أتلفت نفسه، فلعمري إن استخفاف الرعية براعيها في مثل ذلك سيدعوها إلى الاستخفاف بطاعته والاستهانة بمعصيته) [٦٩] والمسألة لم تكن مسألة استهانة بالخلفاء عند مناداتهم بالاسم أو الكنية ولكن العرب كانوا قد اعتادوا ذلك في مجالسهم إلا أن التأثيرات الحضارية ونمو الدولة العربية أديا إلى زيادة التعقيد في المراسيم.

وعلى الداخل على الخلفاء مهما كانت رتبته أن يقلل من الالتفات إلى جانبه، ومن الآداب المرعية عدم ضحك الجالس مع الخليفة إذا تكلم معه[٧٠]. وعدم رفع الصوت. فقد حضر مجلس الخليفة عمر بن عبد العزيز رجل ورفع صوته فقال له الخليفة (اخفض صوتك فإنما يكفي الرجل من الكلام قدر ما يسمع صاحبه) [٧١]. ويصدق هذا حتى على الوزراء في العصر العباسي فقد دخل الحسن بن محمد المهلبي (ت: ٣٥٢هـ) يوما في زمن وزارته لمعز الدولة إلى حضرة الخليفة المطيع لله، فرفع

صوته فقال له الخليفة (ترفع صوتك بين يدي، وأمر بإخراجه مجذوبا بيده، ومدفوعا بظهره، فجلس في دهليز دار الخلافة، وأخذ يعتذر بأن ما صدر عنه لم يكن عن سوء نية أو سوء أدب وإنما كان صوته جهوراً. وبعد طلب العفو أذن له في العودة إلى حضرة المطيع وأدى رسالته(٧٢).

ومن الآداب أن لا يعاد في مجلس الخليفة حديث سبق وأن حدث به الخليفة حتى وان كان بين الحديث الأول، والإعادة مدة زمنية. ورد عن روح بن زنباع انه قال (أقمت مع عبد الملك سبع عشرة سنة من أيامه، ما أعدت عليه حديثاً) (٧٣).

وهذا ما كان جارياً زمن الخلفاء العباسيين أيضاً إلا إذا طلب الخليفة إعادته(٧٤).

ولا يجوز اغتياب أحد في مجلس الخليفة(٧٥) وكذلك لا يجوز اغتياب الخليفة أو ولي الأمر فقد ذكر الخليفة المأمون لأحد القادة "حميد الطوسي (ت : ٢١٠هـ)": (إن الصديق يحوّل بالجفاء عدواً والعدو يحوّل بالصلة صديقاً. وأراك رطب اللسان بعيوب إخوانك. فلا تزدهم في أعدائك والعاقل قليل العيب ما كان عارفا بنفسه. وما اعتادت نفسي غيبة ولا ريبة) (٦٧).

ومن مثل هذا ما حدث به أحد قادة الخليفة المقتدر وهو مفلح الأسود قال كان الوزير سليمان بن الحسن (ابن مخلد بن الجراح ت ٣٣٢هـ) يكثر من ذكر علي بن محمد ابن الفرات أو الطعن عليه وكان المقتدر يظهر كراهية لما يسمعه منه. فلما كان في بعض الأيام أعاد سليمان ذكر ابن الفرات والوقيعة فيه فتمثل الخليفة ببيت للشاعر الحطيئة:

أقلوا عليهم لا أبا لأبيكم   من اللوم أو سدوا المكانَ الذي سدوا

فلما سمع سليمان ذلك (امتقع لونه، وكادت الأرض أن تخيس به، ولم يعد له ذكراً من بعد) [٧٧].

ومما يتطلب من أخلاق جليس أولي الأمر تجنب السعاية والنميمة لأنها من الأفعال اللئيمة الذميمة. وقد قيل من نمّ إليك، نمّ عليك ومن سعى عندك، سعى بك.

وفي هذا المعنى أورد الصابي ما كتبه محمد بن علي الكاتب إلى مولاه والي أرمينية محمد بن خالد ما نصه: (إن قوما جاؤوا على سبيل التنصح: إن رسوماً للسلطان بأرمينية قد عفت ودرست، وانه توقف عن تتبعها إلى أن يعرف رأيه فيها) فوقع الوالي على ظهر الورقة (قرأت هذه الرقعة المذمومة وسوق السعاية بحمد الله عندنا كاسدة وألسنتهم في أيامنا كليلة. فإذا قرأت كتابي هذا، فاحمل الناس على قانونك وخذهم بما في ديوانك، فلم ترد الناحية لبعث الرسوم العافية ولا لإحياء الآثار الداثرة، وجنبني وتجنب بيت جرير إذ يقول:

وكنت إذا حللت بدار قوم رحلت بخزية وتركت عارا[٧٨]

ومن الحكمة عدم الظهور للسلطان بمظهر من يمتلك قوة النفس وشدة البطش أو يشير عليه بأمور لا يدري كيفية عواقبها، إذ قد يتصور السلطان أن هذا الجليس وفق رأيه الأول أهوج لا يبالي كيف دخل أو خرج فلا يأمن على سلطانه منه. وبالنسبة لرأيه الثاني فانه قد لا يكون صائبا، فيتحمل ذنب ما أشار به، ولكن عليه أن يقدم النصح دون أن يبت في بعض الأمور ما لم يكن واثقا من النتائج.

لقد أورد الصابي مثالاً على ما حصل للوزير العباس بن الحسن (قتل سنة ٢٩٦هـ) إذ أمره الخليفة المكتفي بالله بأن يجرد جيشاً عند حلول موسم الحج ظاهر أمره الذهاب للحج وحقيقته أن يلاحق زكرويه بن مهرويه زعيم القرامطة (قتل سنة ٢٩٤هـ) إلا أن الوزير كان من رأيه أن يترك أمر زكرويه إلى انقضاء الحج، لعل الله يكفي أمره

ثم عند عودته إلى داره. وكان قد حضر عنده الكتاب والقواد فأخبرهم بما دار بينه وبين الخليفة فكل صوب رأيه إلا علي بن محمد بن الفرات الذي أخبره بأن عليه عدم مخالفة أمر الخليفة فإن رأيه صائب فيها، وان كان الرأي رأيه إلا أن الوزير أقام على رأيه. فحصلت هجمة القرامطة على موكب الحاج(٧٩).

ومن الرسوم عدم تشميت الخليفة عند عطاسه، وعدم رده إن أخطأ، كما لا يتوقع رده على التعزية أو التهنئة، فمن وصايا الخليفة عبد الملك لجليسه عالم الكوفة الشعبي قوله لا تساعدني على ما قبح، ولا ترد عليَّ الخطأ في مجلسي، ولا تكلفني جواب التشميت والتهنئة، ولا جواب السؤال والتعزية ودع عنك كيف أصبح الأمير وكيف أمسى، وكلمني بقدر ما استطعت، واجعل بدل المدح لي صواب الاستماع مني، وأعلم أن صواب الاستماع أكثر من صواب القول، وإذا سمعتني أتحدث فلا يفوتنك منه شيء، وأرني فهمك في طرفك وسمعك ولا تجهد نفسك في تطرية جوابي ولا تستدعي بذلك الزيادة في كلامي. فإن أسوأ الناس حالاً من تقرب للملوك بالباطل وإن أسوأهم حالاً منهم من استخف بحقهم. وأعلم يا شعبي أن أقل من هذا يذهب بسالف الإحسان، ويسقط حق الحرمة، فان الصمت في موضعه ربما كان أبلغ من المنطلق في موضعه وعند إصابته فرصته(٨٠).

ومن الرسوم المتبعة عدم إفشاء سر ولي الأمر إذا أودعه لجليسه، فقد قيل إن السلطان يغفر كل ذنب إلا ما كان من إفشاء حديث أو إفساد حرمة له، أو قدح في دولته.

وبهذا الأمر قتل الخليفة المعتضد نديمه ومعلمه وأحد الفلاسفة الأطباء المؤرخين أحمد ابن الطيب السرخسي (ت ٢٨٦هـ)، لأنه أفشى بعض أسراره وقد خاطبه بقوله (أنت قلت لي إن السلطان يعفو عن كل أمر ما دون الخروج بسره أو الإفساد لحرمه، أو السعي على دولته. وأنا أحملك على حكمك) (٨١).

وفي مقابل ذلك نصح المنظرون في تأليفهم الأمراء أو الحكام بحسن اختيار الأصحاب، فقال بعضهم: امتحن الأصحاب بالاختيار قبل الصحبة، وإياك والطمأنينة قبل الخبرة. فإذا ظفرت يداك بالكريم، فاستدم إخاءه باللين والمودة، فإنها قرابة مستفادة.

ويستشهد المنظرون بكلام ينسب لأكثر من شخص واحد هو: (من لانت كلمته وجبت محبته، ومن خشنت عريكته وازور جانبه ملَّهُ أهله، وقلَّ صاحبه. وليس لذي عَسْف شمل ولا إلف) [٨٢].

ومن الرسوم المتبعة عدم تخطئة الخليفة أو ولي الأمر أو تصحيح كلامه إن أخطأ في مجلس حفل. يذكر أن الخليفة عبد الملك سأل الشعبي عند قدومه عليه كم عطاءَك؟

وكان المفروض أن يقول كم عطاؤك؟ فأجابه الشعبي: ألفين. فانتبه الخليفة، وسأله كيف لحن؟ فقال لحن أمير المؤمنين، فلحنت كما لحن. وتروى بأشكال أخرى ولكن بنفس المعنى مثل (لما ترك أمير المؤمنين الإعراب كرهت أن أُعرِبَ كلامي عليه)[٨٣] واستمر هذا الرسم معمولا به فكان على الجليس أن لا يخطِّئ السلطان إن أورد كلاماً ملحوناً أو روى حديثاً مرفوضاً. أو أنشد شعراً مكسوراً. لذا لم يكن للجليس مهما كانت منزلته أن يرد الخطأ مواجهاً ومصرحاً. ولكن له أن يعرض به مشيراً وملوحاً ويؤيده بالنظائر والأشباه ما يؤدي إلى معرفة السلطان بالصواب.

لقد وقع للمأمون مع النضر بن شميل النحوي اللغوي (ت ٢٠٤هـ) شيئا من هذا القبيل.

(قال النضر: دخلت على المأمون (صلوات الله عليه) بمرو وعليَّ أخلاق مترعبلة (أي ملابس رثة).

فقال لي: يا نضر، تدخل علي في مثل هذه الأخلاق؟

قلت: يا أمير المؤمنين، إن حرموا لا يدفع إلا بهذه الثياب.

فقال: لا ولكنك متقشف

وتجارينا الحديث فقال المأمون: حدثني هشيم بن بشر عن مجالد عن الشعبي عن ابن عباس قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجمالها، كان في ذاك سَدادُ من عوز، فقلت: صدق فوك يا أمير المؤمنين وعثر هشيم.

حدثني عوف الأعرابي عن الحسن عن ابن عباس قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجمالها، كان في ذاك سِدَادٌ من عوز؟

وكان المأمون متكئا فاستوى جالساً. وقال السَّداد لحن يا نضر؟

قلت: نعم، وإنما لحن هشيم، وكان لحاناً.

قال: ما الفرق بينهما؟

قلت: السَدادُ: القَصد في الدين، والسبيل (أي الاستقامة والصواب) والسِداد: البلغة، وكل ما سددت به شيئا فهو سِداد) (٨٤).

أما التعابير الجميلة التي كان الخلفاء وذوو السلطان يودون سماعها من جلسائهم مثل أطال الله بقاء أمير المؤمنين و(أبقاك الله) و(يُطيل الله عمرك) و(فداك أبي وأمي) و(جُعلت فداك) (٨٥).

وفي المخاطبة يقال لهم (يا خليفة الله، ويا أمين الله و يا أمير المؤمنين) (٨٦) ويا أمام(٨٧).

وعلى الجليس أو النديم مهما علت منزلته أن يقلل الالتفاف إلى جانبيه وتحريك يده أو شيء من أعضائه، أو رفع رجل للاستراحة عند شعوره بالإعياء. وأن يغض طرفه

عن كل مرأى إلا شخص الخليفة أو ولي الأمر. وأن لا يسار أحد في مجلسه ولا يشير إليه بيده ولا عينه، ولا يقرأ رقعة ولا كتاباً يوصلان إليه بين يديه إلا ما احتاج إلى قراءة عليه وأذن له فيه.

وإن اقتضاه الأمر مخاطبة أحد في مجلس الخليفة، ألا يخاطبه أو يقيم الحجة عليه (إلا بأخف الألفاظ، وأشد الاستيفاء) (٨٩).

وكانت العادة جارية في العصر العباسي أن يكون في خف الوزير أو الكاتب دواة لطيفة بسلسلة، ودرج (ورق) ومطينة فيها طين أحمر يختم به بعد لف الكتاب بالسحاءة (وهي شريط من ورق) فإذا أراد أن يكتب شيئاً بحضرة الخليفة علق الدواة في يده اليسرى، وأمسك الدرج بيده اليمنى فإذا فرغ من الكتابة، طوى الكتاب وأسحاه وختمه وأرسله.

ورد عن الخليفة الواثق بالله أنه أراد أن يكتب كتاباً فأمر كُتّابه، فلم يعبروا عما في نفسه، فأمر محمد بن عبد الملك الزيات (فأخرج دواة ودرجاً من خفه وكتب بما استوفى المعنى فيه وعرضه عليه. فكان على ما في نفسه) (٩٠).

وعلى الوزير أو الكاتب أو من يخاطبه الخليفة في شأن من الشؤون أن لا يغادر مكانه ما دام مكلماً الخليفة. أما إذا انتهى من كلامه أو مما طلب منه بيانه وشرحه أن لا يقيم بعد ذلك بل عليه الخروج. وإذا خرج والخليفة يشاهده جعل خروجه متراجعا إلى ورائه لئلا يوليه ظهره. فإذا غاب عن طرفه استقام في مشيه(٩١).

ومن الرسوم المتبعة عدم الإدلال على ذوي السلطان والانبساط دون حذر مما يؤدي إلى التقصير في حقهم، وإنما على الجليس أخذهم بالهيبة والإعظام والتكريم وعدم التبجح بالكناية-إن كان الجليس يمتلكها-أو المطالبة بما كان يؤمله فإن زيادة الدالة مفسدة للحرمة ومجلبة للبغضاء.

وقد ورد عن المنصور أنه كان من جملة أسباب قتله لأبي مسلم الخراساني إدلاله عليه وفي هذا قال المنصور (أدل فأمل، وارجف فاعجف) [٩٢] .

وحكي عن المأمون أنه عرض على أحد المقربين إليه وهو المعلى بن أيوب عملا يقلده إياه، فاستعفاه منه، فقال له المأمون: الخائن أسهل أمراً علي من الأمين. لأنه لا يدل ولا يتسحب[٩٣] .

وعلى الجليس أن يتجنب المخاط والبصاق بشكل مطلق والسعال والعطاس على قدر الاستطاعة. فان أجل ما يكون الجليس في عين ولي الأمر أن يكون ساكناً، أما إذا استرسل في هذه الأمور التي ذكرنا فان هيبته تذهب من عين وقلب ولي الأمر.

ويظهر ذلك جفوته ولفظه[٩٤].

آداب الطعام:

اتسمت حياة الخلفاء الراشدين بالبساطة في المأكل والملبس والزهد في الحياة. وكانت موائدهم التي يحضرها عدد من الناس يقدم فيها اللحم والخبز والمرق[٩٥]. وعلى الآكل أن يبدأ بالبسملة ويتناول الطعام من أمامه وأن لا يبعد طعاماً قدم إليه[٩٦].

واستمرت آداب الطعام سارية خلال العصر الأموي فكان يكره للمرء أن يأكل بشراهة[٩٧]. وأن لا تكون لقمته كبيرة[٩٨]. وان لا يحرك المدعو إلى طعام يده مع الخليفة في صحنه، فعن معاوية بن أبي سفيان أن أعرابياً جلس معه على مائدته فمد يده إلى ثريده كانت بين يدي معاوية فقال له منبها وبأسلوب المداعبة (أخرقتها لتغرق أهلها) [٩٩].

وكان من الأدب أيضاً عدم امتناع الجلساء عن الطعام إذا حضر ودعاه الخليفة فلربما كانت دعوة الخليفة لمعرفة أدب الجليس في مؤاكلته وحسن تصرفه عند الطعام[٩٩].

أما في العصر العباسي فقد تطور المجتمع وشاع البذخ والتأنق في الطعام وتظافرت جهود مجموعات من الناس للوصول إلى هذا المستوى كالطباخين والشرائبيين والأطباء، والأدباء فضلاً عن التلاقح الحضاري[١٠٠] وأصبحت رسوم آداب المائدة شائعة لكل الطبقات وقد خصها بعض المؤلفين بالذكر والتأليف[١٠١].

انتهاء المجلس:

وكانت هناك علامات يبديها ولي الأمر وعلى جلسائه الانتباه إليها فإذا وجده يتثاءب أو ألقى المروحة من يده أو مد رجليه أو تمطى أو اتكأ في حال، فصار إلى غيرها مما يدل على كسله ووقت قيامه، أن يقوم كل من حضره وإذا لم يفعل أيا من هذه الحركات فقد ينبه الجلساء بجملة أو كلمة اعتاد قولها في نهاية المجلس.

ورد عن الخليفة الراشد عمر بن الخطاب(رضي الله عنه) قوله (الصلاة) إيذانا بانتهاء المجلس وكان ينهي عن السمر بعد صلاة العشاء. وكان عثمان (رضي الله عنه) يقول (العزة لله). وكان معاوية يقول (ذهب الليل). أو يقول إذا شئتم. وكان عبد الملك إذا ألقى المخصرة من يده قام سماره. أو يقول إذا شئتم. وكان الرشيد يقول (سبحانك اللهم وبحمدك). وكان المعتصم إذا نظر إلى صاحب النعل قام من حضره. وكان الواثق إذا مس عارضيه وتثائب قام سماره ، وكان المأمون إذا استلقى على فراشه قام من حضر.وربما قام بعضهم بجنس آخر من الإشارة أو الكلام، ولكن ما ذكرناه كان المشهور عنهم في إنهاء مجالسهم[١٠٢].

وإذا كانت صفات الجلساء كما ذكرنا وواجباتهم قد قاموا بها كما شرحها المؤرخون والنظار فانه كان على أولي الأمر مكافأتهم والخلع عليهم وفي هذا المعنى ورد في التاج أن (من أخلاق الملك أن يخلع على من أدخل عليه سروراً إما في خاصة نفسه وإما في توكيد ملكه) فإن كان السرور متعلقاً بنفس الحاكم (الملك، الخليفة) فمن حق

الجليس على الملك أن يخلع عليه في قرار داره ويحضره بطانته وخاصته. أما إذا كان الجليس قد أدخل السرور في قلبه بتأكيد ملكه فمن حقه أن يخلع عليه في مجلس عام لينشر بذلك الذكر ويحسن به الأحدوثة ويشجع الآخرين في توكيد الملك وتعزيزه.

وإذا كان السرور كما أشرنا متعلقاً بنفس ولي الأمر فلا بأس أن تكون الخلعة على شرب أو لهو. أما إذا كان السرور يتعلق بالأمر الثاني فمن العدل أن تكون الجائزة مالاً أو وظيفة أو ولاية أو إقطاعا أو إجراء أرزاق، أو قبول وساطة في فك أسير أو قضاء دين[١٠٣].

وهناك من النظار من رتب واجبات الحاكم تجاه جلاسه على الشكل الآتي[١٠٤]:

أولاً: أن يحفظهم كما يحفظ أعضاءه وقواه.

الثاني: أن يوسع عليهم أرزاقهم ووظائفهم.

الثالث: أن يفوض إليهم أعمالهم على قدر فضلهم ومحلهم.

الرابع: أن يعين مراتبهم وينزل كلاً منهم منزلته المستحقة.

الخامس: أن يرفع منزلة من أحسن في فعله.

السادس: أن يجعل طاعتهم رغبة لا رهبة.

السابع: أن يجتهد في أداء حقوقهم السابقة.

الثامن: أن لا يستغرق أوقاتهم في الخدمة.

التاسع: أن لا يقبل فيهم قول الواشي إلا بعد التحقيق.

العاشر: أن يعفو عنهم أول زلة. وينذرهم في الثانية ويعاقبهم في الثالثة.

استقبال رسول الإمبراطور البيزنطي:

ومن الرسوم التي ذكرها المؤرخون ما كان متبعا في استقبال رسول الدول الأجنبية وفي أثناء إقامته وتوديعه، كما حصل في سنة ٣٠٥هـ /٩١٧م فقد بعث قسطنطين السابع رسوله إلى بغداد يلتمس المهادنة والفداء من الخليفة المقتدر بالله وقد سجل هذه الواقعة الصابي[١٠٥] (ت : ٤٤٨هـ) وأفاض في تفصيلها الخطيب البغدادي (ت: ٤٣٦هـ) [١٠٦] إذ ذكرا أن دار الخلافة قد فرشت بالفرش الجميلة وزينت بالآلات الجليلة، ورتب الحجاب وخلفاؤهم، والحواشي على طبقاتهم على أبوابها، وفي دهاليزها وممراتها، وصحونها ومجالسها.

ووقف الجند على اختلاف أجيالهم صفين بالثياب الحسنة وتحتهم الدواب بالمراكب (السروج) الذهب والفضة، وبين أيديهم الجنائب[١٠٧]. وقد أظهروا العدد والأسلحة الكثيرة فكانوا من أعلى باب الشماسية (الصليخ) والى قريب من دار الخلافة، وبعدهم الغلمان الحجرية والخدم، وغلمان الخليفة، بالبزة الرائقة والمناطق المحلاة والسيوف.

ووضعت أنواع الزوارق في دجلة مثل الشذاءات والطيارات والزبازب والشبارات والزلالات السميريات بأفضل زينة وعلى أحسن تعبئة.

وكان سكان بغداد الشرقية قد وقفوا على جانبي الشارع الذي فيه الموكب واكترى الكثير منهم أسطح المنازل أو الدكاكين ليتمكن من التفرج على الموكب.

وسار الرسول ومن معه إلى أن وصلوا دار الخلافة فدخلوا مجتازين بدار الحاجب نصر القشوري، فرأى الرسول منظراً هاله، فظنه الخليفة فقيل له: هذا الحاجب، ثم مر الرسول ومن معه على دار الوزير علي بن محمد ابن الفرات فرأى منظراً أكثر هيبة مما رآه للحاجب فلم يشك أنه الخليفة فقيل له هذا الوزير ثم أخذ إلى موضع للاستراحة

يطل على دجلة وقد فرش بأنواع الفرش، وعلقت عليه الستور، ونصبت فيه الدسوت وأحاط به الخدم والغلمان بأسلحتهم.

ثم استدعي بعد ساعة إلى حضرة الخليفة المقتدر وقد جلس مجلسا عظيما مهيبا، فخدم (أي أدى رسالته) وقد شاهد من الأمر ما راعه وهاله. ثم انصرف إلى دارٍ أعدت له، وقد فرشت، وجعل فيها الخدم وأنواع المؤن التي تظهر غنى الخليفة العباسي ومروءته. ثم ودع بعد انتهاء مهمته بمثل الحفاوة التي استقبل فيها.

الخلاصة:

هكذا كانت الرسوم التي اتبعت في مجالس أولي الأمر تعبر عن بعض جوانب الحضارة العربية الإسلامية. تلقت الأجيال العربية بعض أسسها منذ العهود السابقة للإسلام جزءاً من أخلاق الأمة العامة الموروثة، كاستقبال الضيوف والوفود وإكرامهم، واحترام المواثيق والعهود.

وبعد أن هذبها الإسلام أصبح بعضها من السنة الطاهرة وسير الراشدين، ثم أضافت إليها الأجيال خلال الحقب المتتالية من لدن الحكم الأموي والعباسي فأصبحت آداباً تراعى، فظهر اهتمام المجتمع والدولة بأصول المقابلات، واتخاذ ما يلزم لذلك من ملابس تناسب المقام والتزام بآداب المجالس والطعام وحسن الاستماع وتخير الكلام المناسب وفق المناسبة.

الهوامش

(١) الزبيدي : **تاج العروس** ٨ : ٣١٢.

(٢) الدكتور سليم النعيمي: **المراسم والتشريفات** – مجلة المجمع العلمي العراقي – مج ٢٢-١٩٧٣ ص ١٥٧-١٦١.

(٣) القلقشندي : **صبح الأعشى** ١١: ١٠٧-١١٢.

(٤) ابن فضل الله العمري: **التعريف بالمصطلح الشريف** : ٦-١١٠، ١١١-٢٠٧، ٢٠٨-٢٣١، ٢٣٥-٢٤٥.

(٥) الأربلي : **خلاصة الذهب المسبوك** : ٢٩٠.

(٦) ابن الساعي ٩ : ٢٦٤، ابن الفُوطي : **تلخيص مجمع الآداب** ج ٤ ق١، ص ٤٤٨.

(٧) مجهول : **الحوادث** : ٣٥

(٨) ابن الفوطي : ج ٤ق ٣ص ٢٩٢.

(٩) م.ن. ج٤ ق٢ ص٩٧٩.

(١٠) د. سليم النعيمي : ١٥٧-١٦١.

(١١) أنظر الدكتور رضوان السيد : **كتاب الإشارة إلى أدب الإمارة** : ١٧-٣٢.

(١٢) عبد الرحمن بدوي : **الأصول اليونانية للنظريات السياسية في الإسلام** : ٥، ٦، ٧، ٧٢، ٧٣.

(١٣) نشرة الدكتور ناجي التكريتي – دار الأندلس ١٩٨٠ – ١٩٨١.

(١٤) تحقيق محمد جاسم الحديثي – دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد ١٩٨٧.

(١٥) لقد قدم الباحث ميخائيل عواد (في مقدمة رسوم دار الخلافة ٤٧ – ٦٣) جرداً للمؤلفات المتعلقة بالحكم والسياسة والأخلاق ونحوها فكان منها بعض الكتب الفقهية والتاريخية وما له علاقة بالرسوم المتبعة في مجالس أولي الأمر.

(١٦) د. محمد سلام مدكور: **مدخل الفقه الإسلامي**١٥، ١٨، أحمد المصري: الفقه الإسلامي، ص ٧٢٦.

(١٧) سورة **النساء**: الآية ٨٦.

(١٨) سورة **النور**: الآية ٢٧، ٢٨

(١٩) سورة **البقرة**: الآية ١٧٧.

(٢٠) سورة **النحل**: الآية ٩٠

(٢١) انظر كتاب **(اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان)** ص ٥٢٥، ٥٢٨، ٥٣٤، ٥٣٨، ٥٥٧، ٥٥٨، ٥٦٠. انظر أيضاً سنن أبي داود: **كتاب الاستئذان** ٤: ٣٤٤ فما بعدها مسند أحمد بن حنبل: **كتاب الآداب**: ٢٤٧ فما بعدها، سنن الترمذي: **(كتاب الآداب)** ج٥، ٨٠ فما بعدها.

(٢٢) أبو داود: **السنن** ٣: ١٣٥.

(٢٣) أحمد بن حنبل: **المسند**: ٢٣٩.

(٢٤) سورة **الأحزاب**: ٥٣.

* أول من اتخذ المقصورة معاوية بن أبي سفيان بعد تعرضه للقتل من قبل الخوارج.

(٢٤) الجاحظ: الرسائل **(رسالة الحجاب)** ٢: ٣١.

(٢٥) الجاحظ: الرسائل **(رسالة الحجاب)** ٢: ٣١، الآبي: نثر الدر ٢: ٢٧.

(٢٦) الجاحظ : البيان والتبيين ١ : ٣١٧.

(٢٧) الجاحظ : رسائل **(رسالة الحجاب)** ٢ : ١٤٠.

(٢٨) الجاحظ : رسائل **(رسالة الحجاب)** ٢ : ٢٣٨.

(٢٩) الصابي : **رسوم دار الخلافة** : ٧١.

(٣٠) المرادي القيرواني : **الإشارة إلى أدب الإمارة** : ١٠٨.

(٣١) الصابي : **الوزراء** : ٢٩٤.

(٣٢) وزر لشرف الدولة بن عضد الدولة ثم لأخيه بهاء الدولة – توفي ببغداد، سنة ٤١٦هـ.

(٣٣) الصابي : **الوزراء** ٧٥.

(٣٤) الالكة أو الالجة حذاء بغدادي شاع في العصر العباسي.

(٣٥) الصابي : **الوزراء** ٧٥.

(٣٦) م. ن : ٧٦.

(٣٧) م. ن : ٣١.

(٣٨) الصابي : **الوزراء** ٣١ : ٣٢.

(٣٩) العباسي : **آثار الأول في ترتيب الدول** : ٦٠ (هامش الرسوم ص ٣١).

(٤٠) ابن الأشعث : محمد بن الأشعث الكندي، **قائد من أصحاب مصعب** قتل سنة ٦٧هـ.

(٤١) الأحنف بن قيس السعدي المنقري التميمي سيد تميم وأحد القادة الفاتحين ت ٧٢هـ.

(٤٢) ابن عبد ربه : **العقد الفريد** ١ : ٦٨، ٣ : ٨.

(٤٣) ابن عبد ربه ١ : ١٦، ٢ : ٤٥٩.

(٤٤) ابن عبد ربه ١ : ١٧.

(٤٥) غانم هاشم السلطاني : **رسوم دار الخلافة الأموية** : ١٣٦.

(٤٦) الجاحظ (المنسوب له) : **التاج** : ٤٨.

(٤٧) الصابي : **الوزراء** ٣٢، ٣٣.

(٤٨) المسعودي : **مروج** ٣ : ٢٩.

(٤٩) انظر كتاب الوافدات على معاوية بن أبي سفيان. تحقيق سنية الشهابي. بيروت، لبنان، مؤسسة الرسالة ١٩٨٣.

(٥٠) الطبري ٥ : ٣١٦.

(٥٢) السلطاني : ١٣٩.

(٥٣) م. ن.

(٥٤) ابن عبد ربه ١ : ٧١.

(٥٥) ابن عبد ربه ٤ : ٨٣، غانم : ١٤١.

(٥٦) ابن عبد ربه ٦ : ٩٦، ابن خلدون : **المقدمة** : ٤٦١ ط بيروت

(٥٧) الصابي : الوزراء ٣٢، ابن عبد ربه ٢ : ٧٩، ٤ : ٤.

(٥٨) الدست : ما يهيأ للجلوس عليه من قبل ذوي السلطان.

(٥٩) الملحم : ما كان سداه ابريسم أي حرير ابيض ولحمته غير ابريسم.

(٦٠) القضيب : هو عصا قيل إن النبي (ص) كان يحملها بيده واصبح حملها متوارثا كالبردة.

(٦١) الطبرزينات : جمع طبرزين، نوع من الفؤوس كانت من آلات القتال.

(٦٢) الصقالبه : الرقيق الذين يؤتى بهم من شرق أوروبا وجنوبها.

(٦٣) الصابي : **الوزراء** ٩٠، ٩١.

(٦٤) عمائم على شكل الدنان.

(٦٥) الصابي : **الوزراء** ٨٢.

(٦٦) الجاحظ : **التاج** : ٥٣، النويري ٦ : ١٤٨

(٦٧) الجاحظ : **التاج** (منسوب له) : ٦٠.

(٦٨) الجاحظ (منسوب له) : **التاج** : ٨٣، المرزباني : **الموشح** ٢١٦، ٣٧٣.

(٦٩) البلاذري : **أنساب الأشراف** – ج٤ ق١-القدس ١٩٧١

(٧٠) مجهول : **أخبار العباس** : ١٧٨، القلقشندي : **مآثر الانافة** : ٣ : ٣٤٧.

(٧١) الجاحظ (منسوب له) : **التاج** : ١١٣.

(٧٢) الصابي : **الوزراء** ٣٣، ٣٤.

(٧٣) الجاحظ (منسوب له) **التاج** : ١١٣.

(٧٤) م. ن.

(٧٥) الصابي : **الوزراء** : ٤٦.

(٧٦) الجاحظ (المنسوب له) : **التاج** : ١١٣.

(٧٧) الصابي : **الوزراء** : ٣٨.

(٧٨) م. ن.

(٧٩) الصابي : **الوزراء** ٤٦.

(٨٠) م. ن : ٥٠ وانظر المرادي القيرواني : ١٣٩.

(٨١) المسعودي : **مروج** ٣ : ١٢، وانظر **تهذيب الرئاسة** : ١٥٣، ١٥٩ **وقانون السياسة ودستور الرئاسة** : ١٢١.

(٨٢) الصابي : الوزراء ٥١، وانظر المرادي القيرواني : **الإشارة إلى أدب الإمارة:** ٩٧ وفي الهامش قائمة بالمصادر حول هذا الموضوع.

(٨٣) المرادي القيرواني : ٩٩، ١٠٠.

(٨٤) الصابي : **الوزراء** ٥٧.

(٨٥) الصابي : **الوزراء** ٥٣، ٥٤.

(٨٦) الوشاء : **الفاضل في صفه الأدب الكامل** : ١١٦، ١١٩، ١٢٨، ١٧٥، الصابي : **رسوم** : ١٠٦، ١٠٨، ١٠٩، غانم السلطاني: ٢٥٤.

(٨٧) الجاحظ (المنسوب له) : **التاج** : ٨٦، الأبي ٢ : ١٤٩، ١٥٧، ١٥٩، ١٦٧، ١٦٩، ١٧٣، ١٨٢، ١٨٦، ١٩٧.

(٨٨) الاصفهاني : **الأغاني** :١٦ : ٣٧٠.

(٨٩) الصابي : **الوزراء** ٣٤.

(٩٠) م. ن : ٦٦.

(٩١) م. ن : ٣٥.

(٩٢) الصابي : **الوزراء** ٦٥.

(٩٣) م. ن.

(٩٤) الصابي : **الوزراء** ٣٥، وانظر المرادي القيرواني : ١٦٦.

(٩٥) الطبري ٤ : ١٨٧.

(٩٦) النويري : **نهاية الأرب** ٣ : ٣٣٨.

(٩٧) الجاحظ (المنسوب له) : **التاج** : ١٣، القلعي : **تهذيب الرئاسة** : ١٥٣.

(٩٨) ابن عبد ربه ٦/٢٩٩.

(٩٩) الآبي : **نثر الدر** : ٢ : ١٦٩.

(١٠٠) الجاحظ (المنسوب له): **التاج** : ١٤، ابن قتيبه : **عيون** ٣ : ٢١٩.

(١٠١) الجاحظ (المنسوب له): **التاج** : ١١٩ – ١٢٠.

(١٠٢) انظر بدري محمد فهد: **العامة ببغداد في القرن الخامس الهجري**:٩٦- ١٤٠

(١٠٣) الجاحظ : ١٣٤ فما بعدها

(١٠٤) الجاحظ : المنسوب له : **التاج** :٧٠.

(١٠٥) مجهول : **قانون السياسة ودستور الرئاسة** : ١٢٢.

(١٠٦) الصابي : **الوزراء** ١١ – ١٤.

(١٠٧) الخطيب البغدادي ١ : ١٠٠ – ١٠٥. وانظر الصابي : **رسوم** : ١١ – ١٤.

(١٠٨) الجنائب: خيل تقاد إلى جانب الفارس، حتى إذا تعب ما يركبه يركب الجنيبة.

مصادر ومراجع البحث

القرآن الكريم.

- أحمد بن حنبل، **المسند**، المطبعة الميمنية ١٣١٣هـ.
- الآبي، **نثر الدر**، تحقيق محمد علي قرنة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨١.
- الأربلي، **خلاصة الذهب المسبوك**، تحقيق مكي السيد جاسم، بغداد، ١٩٦٤.
- بدري محمد فهد : **العامة ببغداد في القرن الخامس الهجري** – بغداد – مطبعة الإرشاد ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م.
- البيروني، **الآثار الباقية عن القرون الخالية**، تحقيق سخاو، لا يبزك، ١٩٧٨.
- الترمذي، **الجامع الصحيح أو سنن الترمذي**، المكتبة الإسلامية.
- التنوخي، **نشوار المحاضرة**، تحقيق عبود الشالجي، بيروت، ١٣٩١–١٣٩٣هـ/ ١٩٧١ – ١٩٧٣م.
- الجاحظ، **البيان والتبين**، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة.
- الجاحظ، **الرسائل**، القاهرة مكتبة الخانجي، ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م.
- الجاحظ، **التاج**، (منسوب له)، تحقيق أحمد زكي باشا، القاهرة، ١٩١٤.
- الخطيب البغدادي، **تاريخ بغداد**، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٣٤١هـ/ ١٩٣١م.
- ابن خلدون، **المقدمة**، ط بيروت.
- أبو داود، **السنن**، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المطبعة العصرية، بيروت.

- ابن أبي الربيع، **سلوك المالك في تدبير الممالك**،تحقيق د.ناجي التكريتي، دار الأندلس، ١٩٨٠ – ١٩٨١م.
- ابن الساعي، **الجامع المختصر**، تحقيق مصطفى جواد، بغداد ١٣٥٣/ ١٩٣٤م.
- ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، تحقيق أحمد أمين وآخرون، القاهرة، ١٩٤٠ – ١٩٥٠م
- د. عبد الرحمن بدوي، **الأصول اليونانية للنظريات السياسية في الإسلام**، القاهرة ١٩٥٤.
- السلطاني، **غانم هاشم، رسوم دار الخلافة الأموية**، رسالة دكتوراه مطبوعة على الآلة الكاتبة، كلية الآداب.
- ابن الفوطي، **تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب**، دمشق، ١٩٦٧.
- ابن قتيبة، **عيون الأخبار**، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٤٣ – ١٣٤٩هـ/ ١٩٢٥ – ١٩٣٠م.
- الصابي، **دار الخلافة**، تحقيق ميخائيل عواد بغداد مطبعة العاني ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٤م.
- الصابي، **الوزراء**، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٨.
- الطبري، **تاريخه**، تحقيق محمد أبو الفضل، دار المعارف بمصر، ١٩٦٤م.
- ابن فضل الله العمري: **التعريف بالمصطلح الشريف** – تحقيق د. سمير الدروبي – منشورات جامعة مؤتة ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م.
- فؤاد عبد الباقي، **اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان**، المطبعة العصرية، الكويت، ١٣٩٧/ ١٩٧٧م.

- القلقشندي، **مآثر الأنافة**، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، الكويت، ١٩٦٤م.
- القلقشندي، **صبح الأعشى**، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧.
- القلعي، **تهذيب الرئاسة وترتيب السياسة** ـ تحقيق إبراهيم يوسف مصطفى عجوة الأردن، مكتبة المنار، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
- مجهول، **الحوادث الجامعة**، بغداد، مطبعة الفرات، ١٣٥١هـ.
- مجهول، **قانون السياسة ودستور الرئاسة**، تحقيق محمد جاسم الحديثي، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٨٧.
- د. محمد سلام مدكور، **مدخل الفقه الإسلامي**، القاهرة، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م.
- المرادي القيرواني، **الإشارة إلى آداب الإمارة**، تحقيق د. رضوان السيد بيروت دار الطليعة.
- المرزباني، **الموشح**، تحقيق علي محمد البجاوي، دار نهضة مصر، ١٩٦٥.
- المسعودي، **مروج الذهب**، بيروت، دار الأندلس، ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م.
- ابن النديم، **الفهرست**، ط القاهرة.
- النعيمي، د. سليم، **المراسم والتشريفات**، مجلة المجمع العلمي العراقي مج ١٩٧٣/٢٢.
- النويري، **نهاية الأرب في فنون الأدب**، مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية.
- الوشاء، **الفاضل في صفة الأدب الكامل**، تحقيق يوسف يعقوب مسكوني، بغداد، مطبعة شفيق ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٠م.

أضواء على سياسة الإمبراطورية البيزنطية في تهجير السكان وتوطينهم (من القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي حتى منتصف القرن الخامس الهجري/منتصف الحادي عشر الميلادي)

الدكتور هانئ عبد الهادي البشير

قسم التاريخ

كلية الآداب

جامعة حلوان

أُقيمت الإمبراطورية البيزنطية على مساحات شاسعة مترامية الأطراف؛ لذلك كثر أعداؤها في الخارج وكثر عدد الخارجين عليها في الداخل. ولمواجهة كل هؤلاء الأعداء استحدثت بعض النظم كنظام الثيمات Themes (الثغور)(١)، ورحّبت الإدارة البيزنطية في بعض الأحيان بهجرة بعض السكان من مكان إلى آخر، واستقطبت وهجّرت في بعض الأحيان الأخرى آخرين ووطنتهم في أماكن مختلفة من أراضيها، ولاسيما في المناطق المهددة بالخطر أو التي هجرها سكانها نتيجة الغارات الخارجية.

وهي سياسة ورثتها بيزنطة عن الإمبراطورية الرومانية، غير أنها توسعت فيها وطورتها بما يتلاءم وأوضاعها السياسية. ولذلك لا عجب أن نجد بيزنطة في الوقت الذي سعت فيه بعض العناصر كالأرمن والسلاف[٢]- على سبيل المثال- كي تخضعهم لسيادتها، سعت أيضاً لتجنيد بعضهم في صفوف جيوشها، أو نقل وتوطين بعضهم الآخر في منطقة ما لإعمارها وزراعة حقولها المهجورة ودفع الضرائب عنها إلى جانب الذود عن ترابها.

وهكذا جاءت سياسة تهجير السكان وتوطينهم مكمّلة لنظام الثيمات وداعمة لها، ولعل هذا يفسر سبب اختيار هذا الموضوع، فإلى جانب خلو المكتبة العربية من بحث قائم بذاته يعالج سياسة تهجير السكان وتوطينهم في الإمبراطورية البيزنطية، كانت هذه السياسة من الأهمية بمكان بالنسبة للإمبراطورية البيزنطية وبخاصة من الناحيتين العسكرية والديموغرافية على حد سواء. فمن الناحية العسكرية، كان تهجير السكان هو الذي حرّر الإمبراطورية البيزنطية بعض الشيء من الحاجة الماسة لتجنيد عناصر جيشها ومواجهة مشاكلها في القرنين الأول والثاني الهجريين/ السابع والثامن الميلاديين، ثم لتتحول بعد ذلك من سياسة الدفاع إلى سياسة الهجوم والتوسع، التي بلغت ذروتها في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي إبان عهد الأسرة المقدونية. أما من الناحية الديموغرافية فإن إعادة إعمار بعض مناطق آسية الصغرى التي أفرغت من سكانها بالعنصر السلافي، كان بمثابة ثورة ديموغرافية ترتب عليها نتائج بعيدة المدى ممثلة في التغير العرقي لسكان المنطقة، بعدما اندمج هؤلاء السلاف مع السكان الأصليين سواء عن طريق العمل أو المصاهرة.

أما عن اختيار الباحث لهذه الفترة دون غيرها من الفترات التاريخية الأخرى، فمرده إلى أن هذه الفترة، فضلاً عن كونها تشمل العصر البيزنطي الأوسط كاملاً (من القرن الأول الهجري/السابع الميلادي إلى القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي)، وهو العصر الذي بلغت فيه بيزنطة ذروة مجدها، شهدت بيزنطة في بدايتها إبان عصر

الإمبراطور هرقل Heraclius (٦١٠–٦٤١م)، ميلاد أعظم نظام إداري في تاريخها وهو نظام الثيمات، كما شهدت في نهايتها أيضاً، خلال القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، انهيار هذا النظام، مما كان له أثره البالغ على الإمبراطورية البيزنطية، ولاسيما خلال عصرها المتأخر (من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي حتى منتصف القرن التاسع الهجري/ الحادي عشر الميلادي).

ويحاول الباحث في هذه الدراسة رصد الحالات التي قام فيها أباطرة الدولة البيزنطية بنقل بعض السكان وتهجيرهم من منطقة لتوطينهم في منطقة أخرى، موضحاً دوافع هذه السياسة والنتائج التي ترتبت عليها في إطارها التاريخي، وهنا تجد الإشارة إلى أن طول الفترة الزمنية التي شملتها هذه الدراسة، يرجع بالدرجة الأولى إلى ندرة المعلومات التي وردت بالمصادر البيزنطية عن سياسة التهجير، وهي معلومات مقتضبة أيضاً لم تذكر سوى الملامح العامة لهذه السياسة دون الخوض في تفاصيلها، مما يزيد من صعوبة البحث.

على أي حال، لن نتتبع هنا جذور سياسة التهجير في الفترة الباكرة من التاريخ البيزنطي، لكن يكفي القول: إن الإمبراطور جستنيان الأول Justinian 1 (٥٢٧–٥٦٥م) اتبعها في القرن السادس الميلادي، وذلك عندما نقل بعض الوندال Vandals إلى آسية الصغرى ووطّنهم هناك، وعندما فعل الشيء ذاته مع الكوتريجور Kotroigurs – من قبائل البلغار– حينما هجرهم ووطّنهم في تراقيا Thrace، أيضاً ووطّن في نفس الوقت تقريباً بعض القوط الشرقيين Ostrogorths في بيثينيا Bithynia التي شكلت فيما بعد ثغر الأوبتيماتي Optimate، وظل هؤلاء القوط هناك حتى نهاية القرن الأول الهجري/ مطلع القرن الثامن الميلادي رغم أنهم لم يكونوا قد اصطبغوا بعد بالصبغة الهللينية بشكل كامل(٣).

أما خطة إعادة التوطين الكبرى، التي كان ينوي الإمبراطور موريس Maurice (٥٨٢هـ/٦٠٢م)، القيام بها بعد المرسوم الإمبراطوري الذي أصدره عام ٦٠٢م، ويقضي بنقل حوالي ثلاثين ألفاً من الأرمن مع أسرهم لتوطينهم في إقليم تراقيا Thrace كي يكونوا جنوداً يدافعون عنه ضد السلاف، لم يتم تنفيذ إلا جانب منها بسبب وفاته(٤)، وكان السبب الرئيس لقلق الإمبراطور، هو كثرة عدد المستوطنات السلافية وانتشارها – أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع الميلادي/ الأول الهجري– في قلب شبه جزيرة البلقان وامتدادها حتى بحر إيجة والبحر الأدرياتي وجبال البلقان، ليس هذا فحسب وإنما كان هناك انتشار أيضاً للسلاف، الذين كانوا خبراء في زراعة الأرض البور، في بلاد اليونان واستقروا في تساليا Thessalia وغرب البلوبونيز وأبيروس Epirus. وهو خطر أدركته السلطات البيزنطية ولم تتوانَ – بعد موريس– عن بذل الجهود المضنية لمقاومته. لكننا باستثناء المقاومة الناجحة التي بذلت في مدينة تسالونيك Thessalonike وأشار إليها مصدر معجزات القديس ديمتري، لا نعرف الكثير خلال القرنين الأول والثاني الهجريين/ السابع والثامن الميلاديين غير معروفة لنا تفصيلاً، فكل ما نعرفه مجمل وقليل؛ والسبب في هذا هو أن كتابة التاريخ في تلك الفترة توقفت. والمقصود بالكتابة التاريخية هنا هو الكتابة الحولية المتصلة على النمط الذي كتبه لنا مؤرخو القرن السادس الميلادي مثل بروكوبيوس Procopius، وأجاثياس Agsthias، وميناندر بروتكتور Menander Protector، وثيوفيلاكت سيموكاتا Theophylactus Simocatta، الذي تتوقف حوليته عند سنة ٦٠٢م. ولذلك يعدّ ما كتبه كل من الراهب البيزنطي ثيوفانيس Theophanes، والبطريرك نقفور Nicephore، المصدرين الرئيسين لتاريخ هذين القرنين(٦).

كيفما كان الأمر، بدت سياسة الإمبراطورية البيزنطية في تهجير وتوطين السكان واضحة في القرن السابع الميلادي، عندما نشأ فيها نظام الثيمات، وهو نظام دفاعي

بحث، ترجع جذوره إلى نهاية القرن الثالث الميلادي عندما أثر الإمبراطور دقلديانوس Diovleton (٢٨٤-٣٠٥م) النظام الإداري الذي يقوم على الفصل بين السلطتين المدنية والعسكرية في مختلف الأقاليم للحد من شوكة القادة العسكريين وللقضاء على الحركات الانفصالية التي أخذت تستشري في أرجاء هذه الأقاليم؛ مما أعطى الإمبراطورية فترة راحة من ثورات العصيان، إلى أن جاء القرن السادس الميلادي، فنجم عن هذا النظام ارتباك في العمل، كما ازدادت حدة الخطر في الخارج، قام الإمبراطور جستنيان الأول بإيقاف هذا النظام، ثم قام الإمبراطور موريس بجمع السلطتين المدنية والعسكرية في أيدي الحاكم في كل من ولايتي رافنا Ravenna وقرطاجة Cartrage، خاصة بعد ازدياد موجة الغزو اللمباردي Lombards في إيطاليا، وازدياد حدة غارات البربر في إفريقية. ونتيجة للخطر الفارسي في القرن السابع الميلادي ثم الخطر العربي في الشرق، تم إحداث تغيير تام للأحوال بآسية الصغرى؛ إذ أدرك الإمبراطور هرقل بثاقب بصره، أنه من أجل إنقاذ البقية الباقية من إمبراطوريته في آسية الصغرى، لا بد من اتباع نظام إداري يحقق لها الصمود، فقرر أن يوطن بعضاً من فرقه في الأقاليم المهددة بالخطر، ثم أخذت الإدارة البيزنطية في تقديم قطع من الأراضي الزراعية في هذه الثيمات لهؤلاء الجنود تحمل اسم "الإقطاع العسكري" Stratiota Ktimata ليستغلوها مقابل أدائهم للخدمة العسكرية في تلك الثيمات وشريطة أن تورث الخدمة العسكرية فيها كما تورث هذه الإقطاعات، وكانت تلك نواة نظام الثيمات، وهو نظام أضفى على بيزنطة طابعاً خاصاً بتدشينه العصر الوسيط من تاريخها(٧).

لقد كانت نتيجة هذه السياسة إيجابية للغاية، ففي الوقت الذي أمد نظام الثيمات الإمبراطورية بما تحتاجه من رجال للدفاع عنها، أدى أيضاً إلى استثمار الأراضي الزراعية المهجورة وزيادة الإنتاج فيها، وشيئاً فشيئاً حدث توسع في طبعة صغار الملاك وتحسين وضعها الاقتصادي؛ ذلك أن توريث أرض الفلاح الجندي إلى ابنه

الأكبر دون بقية الأبناء، جعل هؤلاء الأبناء يطلبون أرضاً جديدة يستثمرونها لقاء التزامهم بخدمات عسكرية، مما أدى إلى ازدياد عدد هؤلاء الفلاحين الجنود في الثغور البيزنطية(٨)، وبالتالي ازدادت عائدات الضرائب وتوفرت السيولة النقدية لخزانة الإمبراطورية(٩).

وقصارى القول: ظهرت هذه الثيمات كنتيجة مباشرة لإعادة حكومة الإمبراطورية توزيع فرق الجند على مناطق آسية الصغرى، بعد انسحاب الفرق العسكرية البيزنطية المتمركزة في الشام وأرمينية عقب فتوح العرب المسلمين الكبرى لها. وكان الهدف الرئيس وراء انسحاب الفرق العسكرية البيزنطية إلى داخل آسية الصغرى وإعادة توطينها هناك، هو إقامة خط دفاع جديد في آسية الصغرى. وبعدما صادف هذا النظام نجاحاً كبيراً، قامت الحكومة الإمبراطورية بتهجير أعداد كبيرة من السكان الأجانب إلى داخل الإمبراطورية، ولاسيما من الأرمن، ولذلك لن نبالغ إذا قلنا إن الأرمن والسلاف شكّلوا نواة الجيش البيزنطي آنذاك(١٠).

إلا أن الأمر لم يقتصر على الأرمن والسلاف، وإنما شمل عناصر سكانية أخرى كالصرب Serbs والكروات Croats(١١)؛ ففي عام ٥هـ/ ٦٢٦م عقب هزيمة الآفار تحت أسوار مدينة القسطنطينية، عمد الإمبراطور هرقل أن يضربهم بالصرب والكروات، فحرض الاثنين على قتال الآفار وتغلبوا عليهم، وسمح لهم بالهجرة والاستقرار في شبه جزيرة البلقان، حيث تم توطين الكروات في المناطق الشمالية الغربية من البلقان، والصرب في المناطق الجنوبية الشرقية منها، مقابل اعترافيهم جميعاً بالسيادة البيزنطية(١٢).

وهكذا يتضح أن تهجير السكان في الإمبراطورية البيزنطية لم يكن قاصراً على عنصر بعينه أو منطقة بعينها، وإنما شمل عناصر ومناطق مختلفة، حسب حاجة الإمبراطورية ومصلحتها القومية، مما ساعدها على التغلب على الكثير من المشاكل

التي واجهتها، وقد سار خلفاء هرقل على نهجه لفترات طويلة وإن اختلفت سياسة التهجير لديهم من عصر إلى آخر.

وكان أول من اتبع هذه السياسة من هؤلاء الخلفاء هو الإمبراطور البيزنطي قنسطانز الثاني Constans II (٢١-٤٨هـ/٦٤١-٦٦٨م)، الذي استغل في عام ٣٦-٣٧هـ/٦٥٦-٦٥٧م، فرصة انشغال المسلمين بأمر الخلافة، وقام بحملة ناجحة على منطقة سكلافينيا Sklavinia في شبه جزيرة البلقان(١٣). كانت بالتحديد ضد السلاف الذين استقروا في الإقليم المحيط بمدينة تسالونيك، وكانت تلك هي المرة الأولى التي تشن فيها بيزنطة هجوماً عنيفاً ضد السلاف منذ عصر الإمبراطور موريس، ولم يكتفِ الإمبراطور بطرد هؤلاء السلاف وإنما أخضعهم لسلطته ،أسر بعضهم وهجّر بعضهم الآخر إلى آسية الصغرى، لتجنيد عدد من هم ضمن صفوف الجيش البيزنطي هناك. ومنذ ذلك الوقت أخذ عدد السلاف يتزايد سواء في آسية الصغرى أو في الجيش البيزنطي(١٤).

نعرف أيضاً أن المسلمين شنوا حملة بقيادة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد على آسية الصغرى في عام ٤٥هـ/٦٦٥م، وهرب أثناءها حوالي خمسة آلاف جندي سلافي من الجيش البيزنطي وانضموا إلى المسلمين الذين وطّنوهم في منطقة أفامية Apameia ببلاد الشام(١٥). وحيث إنه لا يوجد دليل قاطع على استيطان للسلاف في آسية الصغرى قبل ذلك التاريخ، فالأرجح أن السلطات البيزنطية هي التي سبق أن وطّنت هؤلاء السلاف، الذين فروا إلى المسلمين، في آسية الصغرى في أعقاب حملة قنسطانز الثاني السالفة على إسكلافينيا عام ٣٦-٣٧هـ/ ٦٥٦-٦٥٧م(١٦). ويرجع ذلك إلى أن آسية الصغرى كانت قد أقرت من سكانها منذ أوائل القرن الأول الهجري / السابع الميلادي نتيجة لحروب جستنيان الأول الطويلة المهلكة، ونتيجة لاجتياح الفرس،* ومن بعدهم العرب، للإمبراطورية بصفة عامة ولآسية الصغرى بصفة خاصة، ولهذا اضطر أباطرة الأسرة الهرقلية (٦١٠-٧١١م) ومن بعهدهم أباطرة

الأسرة الأيسورية (٩٩-١٨٦/١٨٧هـ/ ٧١٧-٨٠٢م) إلى نقل أعداد كبيرة من السلاف كي يستقروا في المناطق التي هجرها سكانها تحت وطأة الغزو الخارجي[١٧].

إبان عهد قنسطانز الثاني أيضاً، أدت الحماسة الدينية في أرمينية إلى قيام نحلة البيالصة[١٨]، وكان للفتح العربي لأرمينية واضطهاد الكنيسة الأرمينية للبيالصة أثره الكبير في هجرة عدد كبير من الأرمن إلى الأراضي البيزنطية؛ ذلك أن البيالصة الأرمن الذين طردوا من ديارهم حوالي عام ٤٢هـ/٦٢٢م، وطنتهم الإمبراطورية في أراضيها وتحديداً عند التقاء نهري إريس Iris وليكوس Lycus. وقد امتدت هذه المستوطنات حتى وصلت تقريباً نيقوبوليس Nicopolis ونيوقيصرية Neocaesarea. وكانت أعداد الأرمن في هذه المناطق جديرة بالاعتبار، حتى أن منطقة كومانا Comana –على سبيل المثال– كانت سوقاً شهيراً لهؤلاء الأرمن[١٩]. ويبدو أن الإدارة البيزنطية وطّنت هؤلاء – من وجهة نظر الباحث– في أراضيها يهدف جذبهم إلى الكنيسة الأرثوذكسية البيزنطية، لكن يبدو أن الضغوط التي تعرض لها هؤلاء المهجرين، جعلت بعضهم يعود إلى أرمينية بعدما علموا بمدى تسامح الحكام المسلمين مع أصحاب العقائد الأخرى[٢٠].

على أي حال، ما حدث من إنشاء ثيمات جديدة وتهجير لعناصر سكانية مختلفة، صار نموذجاً يُحتذى بها كلما دعت الحاجة وتوفرت الظروف المناسبة لذلك، فقد أنشأ الإمبراطور قسطنطين الرابع ConstantineIV (٤٨-٦٦هـ/٦٦٨-٦٨٥م) ثيم تراقيا[٢١] لمواجهة الخطر البلغاري على الجبهة الشمالية، كما أسس أسطول أول ثسيم بحري في بيزنطة وهو ثيم الكارابيزياني Carabisiani أو كبير هايوت Kibyrrhaeots[٢٢].

وفي عهد الإمبراطور جستنيان الثاني Justinian II (٦٦-٦٧هـ/٨٧-٩٣م/ ٦٨٥-٦٩٥م/٧٠٥-٧١١م) حدثت موجة كبيرة من التوسع في تهجير السلاف من البلقان إلى

آسية الصغرى؛ ذلك أنه عقد هدنة مع الأمويين في الشرق عام ٦٩-٧٠هـ/٦٨٨-٦٨٩م، فتوفرت الظروف المناسبة للاهتمام بالبلقان، وقاد في العام نفسه حملة ناجحة على إسكلافينيا وبلغاريا، وفيها واصل زحفه عبر أقاليم استقرت فيها قبائل سلافية حتى وصل مدينة تسالونيك[٢٣]، وتمكن البيزنطيون من أسر أعداد غفيرة من السلاف، بعضهم بالقوة وبعضهم الآخر انضم إلى البيزنطيين بمحض إرادته. وقام الإمبراطور بتهجير هؤلاء الأسرى إلى منطقة ثيم (ثغر) الأوبسيق Opsikion في بيثينيا Bithynia، ووطّنهم بها لدعم القوة العسكرية هناك[٢٤]، والدليل على ذلك أنه جنّد منهم في عام ٧٦هـ/٦٩٥م، جيشاً قوامه حوالي ثلاثين ألف جندي، وقاده إلى سياستوبوليس Sebastopolis (سولوسياري حالياً) في أرمينية لقتال المسلمين. لكن حدث أثناء المعركة ما لم يتوقعه الإمبراطور، وهو هروب أغلب هؤلاء السلاف وانضمامهم إلى صفوف المسلمين، فحاقت الهزيمة بالبيزنطيين، مما أثار حفيظة الإمبراطور وجعله يقتل البقية الباقية من هؤلاء السلاف هم وعائلاتهم[٢٥].

ولم يكن السلاف هم العنصر الوحيد الذي قام الإمبراطور جستنيان بتهجيره داخل الإمبراطورية، ففي عام ٦٩هـ/ ٦٨٨م، أيضاً قام بنقل عنصر المردة Marfaites[٢٦] -بناء على الاتفاق الذي أبرمه مع الأمويين- من جبال أمانوس Amanus بشمال لبنان وقسمهم إلى مجموعات، وطّن بعضها في كل من نيقوبوليس Nicopolis (في أبيروس Epirus) والبلوبونيز Peloponnesus ليعملوا كبحارة هناك، ووطّن بعضها الآخر في بامفيليا Pamphiylia في الجنوب الشرقي من آسية الصغرى. وربما كان هدفه من وراء ذلك هو تدعيم قواته العسكرية، لكن بقاءهم في بلاد الشام كان أكثر فائدة للإمبراطورية؛ لأنهم كانوا يشكلون درعاً واقياً على الحدود البيزنطية ضد المسلمين، ولذلك انتقده المؤرخ ثيوفانيس قائلاً: "إن الإمبراطور بتصرفه هذا حطم الجدار النحاسي الذي شكله هؤلاء المردة"[٢٧]، وهذا إن دل على شيء إنما يدل – من وجهة نظر الباحث- على تذبذب جستنيان الثاني وقلة خبرته السياسية.

يتضح ذلك مما قام به تجاه القبارصة، حينما قرر تهجيــر بعــضهم مــن جزيــرتهم، وأصدر قراراً استثنائياً في المجمع الخامس السادس Quinsextum[٢٨]، الذي عقد فــي مدينة القسطنطينية عام ٧٢هـ/٦٩١م، بنقل القبارصــة النــصارى ومعهــم رئــيس أساقفتهم وغيره من رجال الدين إلى إقليم قيزيقوس Cyzicus في جنوب غرب آســية الصغرى لتوطينهم فيها، بعدما اشتدت معاناة هذا الإقليم للأضرار الناجمة عن حصار العاصمة وحاجته الماسة إلى ملاحين مهرة من ناحية، وليحول دون تعــودهم علــى الإدارة الإســلامية مــن ناحيــة أخــرى، وأطلــق علــى هــذه المــستوطنة Nea Justinianopolis –أي مدينة جستنيان الجديدة. غير أن هذا التــصرف أثــار اســتياء الخليفة عبد الملك بن مروان، كما أدى إلى إقفار الجزيرة من السكان وإلى قطع تجارة القبارصة مع المسلمين في بلاد الشام، مما كانت له أضراره البالغة عليهم، ولاسيما أن التجارة كانت تشكل المورد الرئيس لهم، ولذلك اضطر جستنيان الثاني إلى العدول عن رأيه ، وتحمس لإعادة إعمار قبرص مرة أخرى[٢٩]. وأرسل إلى الخليفة عبد الملــك بن مروان يطلب منه إعادة من وجد من القبارصة في بــلاد الــشام إلــى قبــرص، فاستجاب الخليفة إلى طلبه وجمع القبارصة وأرســلهم إلــى جزيــرتهم. كمــا قــام الإمبراطور أيضاً بإرسال مندوب إمبراطوري لجمع القبارصــة فــي أرض الــروم، وتحديداً في كل من قيزيقوسي وثغري كبيرهايوت والترقسيان، وإرسالهم إلى قبــرص وبذلك عمرت قبرص مرة أخرى وأصبحت آهلة بالــسكان[٣٠]. لكــن بعــدما تكبــد القبارصة خسائر فادحة من جراء سياسة جستنيان الثاني السيئة في تهجير السكان.

يذكر أيضاً أن الإمبراطور جستنيان الثاني وطّن الإسكيثيين Scythians(الــسلاف)[٣١] في المناطق الجبلية من نهر ستريمون Strymon شرق مقدونيا Macedonia؛ وكــان هدفه في هذه المرة هو إضعافهم وكسر شوكتهم في إقليم مقدونيا، وكانت تلــك هــي سياسته بشكل عام تجاه السلاف[٣٢].

أما الأرمن الذين فروا في عام ٨١هـ/٧٠١٠م، بقيادة بعض ناخارارات الأرمن Nakharas (أي لأفراد الطبقة الأرستقراطية القوية)، من جراء الفتح العربي لأرمينية، فقد وطّنهم جستنيان الثاني أيضاً على الحدود البونطية Pontic (شرق البحر الأسود)، ثم عاد بعض هؤلاء لأرمينية فيما بعد، في حين ظل بعضهم الآخر كما هو(٣٣).

وعلى أي حال، فإن سياسة جستنيان الثاني المتعلقة بتوطين العناصر المختلفة كانت – بشكل عام رغم المآخذ التي تؤخذ عليها– سياسة عملية؛ إذ سدت حاجة جوهرية للدولة البيزنطية في عصره.

وبانتهاء عصر جستنيان الثاني ينتهي عصر أسرة هرقل، لكن كانت السمة البارزة في نهاية عهد هذه الأسرة، هي زيادة عدد الفلاحين الجنود في الثغور البيزنطية، مما جعل قادتهم يطمحون للسيطرة على الحكم، فشرعوا ينتاحرون مع ممثلي الطبقة الأرستقراطية في العاصمة على العرش البيزنطي. وهكذا طبعت الحقبة الأخيرة من القرن السابع والحقبة الأولى من القرن الثامن الميلادي، بطابع الصراع على السلطة العليا بين الأرستقراطيين في العاصمة من جهة، والقادة العسكريين في الثغور البيزنطية من جهة أخرى، على أن نفوذ الطبقة الأرستقراطية في القسطنطينية قد ضعف حينما اعتلى ليو الثالث Leo III –قائد ثغر الأناتوليك– العرش البيزنطي عام ٩٩هـ/٧١٧م(٣٤).

وفي العام الأول من حكم ليو الثالث (٩٩-١٢٤هـ/٧١٧-٧٤١م) فقدت العاصمة البيزنطية نفسها عدداً كبيراً من سكانها، نتيجة للطاعون الذي غشيها عام ١٠٠هـ/٧١٨م، ولتعويض هذا النقص، نقل ليو الثالث السكان إليها من الولايات الشرقية ولاسيما الولايات المتاخمة للعرب(٣٥).

من ناحية أخرى كانت الطريقة التي اعتلى بها العرش، هي التي جعلته يقدم بعد ذلك على تقسيم الثغور البيزنطية، فحتى لا يجرؤ عليه أحد قادة الثغور كما جرؤ هو على

سيده الإمبراطور ثيودوسيوس الثالث Theodosius III (٩٧-٩٩هـ/٧١٥-٧١٧م)، جعل ثيمات آسية الصغرى ستا بدلاً من أربع (على عهد هرقل)، كي تقل موارد القادة فيها وتتضاءل لديهم إمكانات الخروج على السلطة المركزية(٣٦). أيضاً حرص ليو الثالث على إضعاف وتقليص نفوذ رجال الدين، ولاسيما المعارضين لسياسته الأيقونية (محاربة عبادة الصور والأيقونات)، بمصادرة ثروات كنائسهم وأديرتهم والأراضي الزراعية التابعة لها، ونقل ملكية بعض هذه الأراضي للمهجرين من المدنيين والعسكريين لتشجيعهم على أداء الواجبات المنوطة بهم(٣٧).

أما الإمبراطور قسطنطين الخامس كوبرنيموس Constantine V Copronymus (١٢٤-١٥٩هـ/٧٤١-٧٧٥م)، ابن ليو الثالث وخليفته على العرش، فقد فاق والده في سياسة التهجير والتوطين؛ ذلك أن الجيوش البيزنطية جمعت آلاف من الأرمن والسريان والمنوفيزيتيين أثناء إغارتها في عام ١٢٧-١٢٨هـ/ ٧٤٤-٧٤٥م، على مناطق جرمانيكا Germanicea (مرعش) وملطية Melitene وأرض الروم Erzerom بعضهم في تراقيا، وبعضهم الآخر على امتداد الحدود الشرقية وأولئك هم الذين وقعوا بعد ذلك في أيدي المسلمين ونقلوهم إلى بلاد الشام(٣٨)، كما قام قسطنطين الخامس عقب الاستيلاء على ثيودوسيوبوليس Theodosiopolis وملطية عام ١٣٣-١٣٤هـ/٧٥٠-٧٥١م، بنقل بعض الأرمن والبيالصة Paulicians إلى إقليم تراقيا وأغدق عليهم الأموال ولبى كل احتياجاتهم، وربما كان هدفه من وراء ذلك هو أن يكونوا على مقربة من مدينة القسطنطينية ليؤازروه في مواجهة الحركة الأيقونية (عبادة الأيقونات)، التي كان هو من أبرز معارضيها؛ لأن المصادر لا يوجد بها ما يوضح الهدف الحقيقي للإمبراطور وراء هذا التهجير(٣٩).

ويرى الباحث أن دوافع قسطنطين الخامس ربما كانت دينية وسياسية أيضاً؛ فمن الناحية الدينية فإن البيالصة كانوا مناهضين لعبادة الأيقونات وبالتالي سيدعموه في حركته الأيقونية، كما أن نقل بعضهم كان سيقلل من خطر نحلتهم في آسية الصغرى،

وخير دليل على قلق البيزنطيين من نحلتهم هو ما ذكره المؤرخ بطرس الصقلي Oetrus Siculus[٤٠]، وهو أن والد قسطنطين الخامس سبق أن أرسل يطلب حضور ججنزيوس Gegnesios – أحد زعماء البيالصة– إلى مدينة القسطنطينية، كي يختبروا مدى قوة إيمانه بالأرثوذوكسية بعدما وجهوا له تهمة مناهضتها بين أتباعه[٤١].

ومن الناحية السياسية ففي الوقت الذي كان نقل البيالصة سيقلل من خطرهم، فإنهم والأرمن سيدافعون عن تراقيا ضد البلغار، وهو أمر يتضح مما رواه البطريرك نقفور، من أن البلغار عندما رأوا قسطنطين الخامس يُشيِّد بعض المدن في تراقيا ويوطّن فيها هؤلاء المهاجرين، استاؤوا وطالبوه بدفع أتاوة مالية كبيرة، ولما رفض ذلك اجتاحوا تراقيا عام ١٣٩هـ/٧٥٦م، إلى أن وصلوا إلى السور الطويل[٤٢]، ورداً على ذلك قام قسطنطين الخامس ضدهم بحملتين في عام ١٣٩هـ/ ٧٥٦م أنزل فيهما خسائر جسيمة في صفوف البلغار[٤٣].

على أي حال، واصل الإمبراطور قسطنطين الخامس سياسته في تهجير السكان، وقام في عام ١٣٨هـ/ ٧٥٥م، ونتيجة لمرض الطاعون الذي انتشر في الإمبراطورية عام ١٢٩هـ/ ٧٤٦م، وأودى بحياة آلاف من سكان العاصمة وأحدث مجاعة مروعة بالإمبراطورية، بنقل أعداد من سكان الجزر اليونانية إلى القسطنطينية ليعوض نقص السكان فيها[٤٤]. وكانت أكبر عملية تهجير قام بها قسطنطين الخامس عام ٧٦٢م، حينما نقل من السلاف في شبه جزيرة البلقان حوالي ٢٠٨,٠٠٠ – وهو عدد مبالغ فيه– إلى آسية الصغرى ووطّنهم بجوار نهر أرتاناس Artanas (يصب في البحر الأسود) على مقربة من البسفور[٤٥]، لكن إذا كان كل من ثيوفانيس ونقفور قد ذكر أن هؤلاء السلاف تركوا جانب البلغار وهربوا إلى قسطنطين الخامس ولذلك نقلهم إلى آسية الصغرى، فالأرجح أن هؤلاء اللاجئين السلاف كانوا من إقليم تراقيا الذي أصابه الدمار نتيجة للصراع الدامي بين البيزنطيين والبلغار[٤٦]

وفي ميدان الإصلاحات الداخلية، اقتفى قسطنطين الخامس أثر والده ليو الثالث فاهتم بالزراعة وزيادة الإنتاج الزراعي ومد الرقعة الزراعية، خصوصاً بعد استخدام الصقالبة في استصلاح الأراضي والعناية بالري، وفي إطار هذه السياسة أقام عدة مستعمرات في المناطق الواقعة على الحدود الغربية للإمبراطورية، وأنزل فيها المسيحيين المهاجرين من أرمينية وتراقيا، لطبع هذه المناطق بالطابع اليوناني، فتقدمت الزراعة في عهده وتوافرت المحاصيل والغلات المهمة(٤٧)، وإذا كان قد صادر بعض أراضي الأديرة ووزعها على القادة العسكريين والجنود المؤيدين لسياسته الأيقونية كمكافآت على خدماتهم وإخلاصهم له، فقد هجر إلى آسية الصغرى عام ١٤٥هـ/ ٧٦٢م، مجموعة كبيرة من السلاف وأقطعهم أيضاً الأراضي الزراعية التي صادرها من أملاك الأديرة مقابل التزامهم بخدمات عسكرية(٤٨).

جرت أيضاً في عهد الإمبراطور ليو الرابع Leo IV (١٥٩-١٦٤هـ/٧٧٥-٧٨٠م) حركة تنقل بشري كبيرة لأولئك الذين وقعوا في أسر القوات البيزنطية إبان إحدى حملاتها على قيليقية Cilicia وبلاد الشام، وكان غالبيتهم من السريان اليعاقبة وإلى جوارهم قلة من الأرمن، وتم توطين هؤلاء جميعاً في إقليم تراقيا، وكان عددهم حوالي ١٥٠,٠٠٠ مواطن(٤٩). غير أن أغلب هؤلاء الأرمن وقع في أسر الخان البلغاري كروم Krum (١٨٨-١٩٩هـ/٨٠٣-٨١٤م)(٥٠)، فيما بعد وطردهم إلى مناطق بعيدة، ومع ذلك نجحت غالبيتهم في العودة مرة أخرى، وربما كان والد الإمبراطور باسيل الأول Basil I (٢٥٣-٢٧٣هـ/٨٦٧-٨٨٦م) المقدوني من بين هؤلاء الأسرى، لكن ليس هناك ما يؤيد هذا الرأي(٥١).

أيضاً فعل ليو الرابع كما فعل والده ونقل أعداداً كبيرة من البيالصة إلى تراقيا عام ١٦١-١٦٢هـ/ ٧٧٧-٧٧٨م، مما كان له أثره المباشر في تغيير البناء الإثني لمناطق جنوب شرق البلقان. ولكن بعد انعقاد المجمع المسكوني السابع عام ١٧١هـ/ ٧٨٧م، وإقراره لعبادة الأيقونات، بدأ عصر جديد من الاضطهاد البيزنطي ضد

البيالصة ولم يتوقف إلا باعتلاء الإمبراطور نقفور الأول (١٨٦/١٨٧-١٩٦هـ/ ٨٠٢-٨١١م) Nicephore I، العرش البيزنطي(٥٢).

على الصعيد الأرمني أيضاً يذكر المؤرخ الأرمني جيفونذ Ghevond وجود الأرمن على الأراضي البيزنطية؛ حيث هاجر منهم نحو ١٢,٠٠٠ رجلاً في عام ١٧٤هـ/٧٩٠م، بقيادة المدعو شابوه الأماتوني Chapouh the Amatouni إلى الأراضي البيزنطية، وكان معهم زوجاتهم وأطفالهم كما اصطحبوا معهم أيضاً أتباعهم وخيولهم(٥٣)، ورحّبت بهم الإدارة البيزنطية ومنحتهم أراضٍ خصبة ليستوطنوا فيها، لا نعرف على وجه التحديد الأراضي التي منحت لهم. غير أن ألقاب هؤلاء اللاجئين تدل على أنهم كانوا من طبقة النبلاء الأرمن، الذين كانوا أحياناً ما يتلقون النقد لفرارهم من بلادهم وتركهم للضعفاء تحت رحمة العرب(٥٤).

وبعد فترة قصيرة وتحديداً في عام ١٧٦هـ/٧٩٢م، عقب القضاء على ثورة نشبت في ثغر الأرمنياق Armeniac بزعامة بعض القادة الأرمن، قامت السُلطات البيزنطية بنقل حوالي ألف جندي أرمني -عقاباً لهم- إلى جزيرة صقلية وعدد من الجزر الأخرى، ووطّنتهم هناك(٥٥).

جدير بالذكر أن هجرة الأرمن الجماعية إلى الإمبراطورية البيزنطية، كتلك التي وقعت خلال القرنين الأول والثاني الهجريين/ السابع والثامن الميلاديين، تراجعت بعض الشيء في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، لكن ظل الأرمن يتوافدون على الإمبراطورية البيزنطية فرادى بحثاً عن الثروة وتحقيق الطموحات الشخصية(٥٦).

على أي حال، في محاولة لتقييم الظروف الصعبة التي مرت بها بيزنطة في القرنين الأول والثاني الهجريين/ السابع والثامن الميلاديين، يلاحظ أن استمرار غارات

الشعوب المجاورة، كالعرب والسلاف وغيرهم، على أرمينية وآسية الصغرى، أدى في أغلب الأحيان إلى انقطاع الاتصال بين المدن البيزنطية في تلك المناطق.

كما أدت غارات الأسطول العربي الإسلامي على جزر بحر إيجة إلى إقفار معظم هذه الجزر وخلوّها من السكان. بل دفع الخطر القادم من البر والبحر سكان المدن الساحلية والسهلية أن يهجروا السواحل والسهول ويبحثوا عن أماكن مناسبة للدفاع في عمق البلاد والمرتفعات(٥٧)، لكن المصادر – مع الأسف – لم تقدم معلومات كافية لرصد كل حالات الهجرة أو التهجير التي تمت من جراء ذلك.

لقد استمرت حالات التهجير أو الهجرة بصورها المختلفة في نهاية القرن الثاني الهجري/ بداية التاسع الميلادي؛ فيذكر ثيوفانيس- وهو المصدر المعاصر لهذه الأحداث- في معرض حديثه عن أحداث عام ١٩٤-١٩٥هـ/ ٨٠٩-٨١٠م من حكم الإمبراطور نقفور الأول Nicephiore I (١٨٦-١٨٧هـ/٨٠٢-٨١١م)، أن الإمبراطور قام بنقل كثير من النصارى من مختلف أقاليم الإمبراطورية إلى إسكلافينيا، وأن هؤلاء المهجرين أكرهوا على هذا الأمر، لذا كان وقعه عليهم أشد ألماً من سجنهم، وإذا كان بعضهم قد اعتبره ذلة ومهانة، فإن بعضهم الآخر فضل الموت على الرحيل من أوطانهم. ورغم كل ذلك لم يبالِ الإمبراطور ومضى في تنفيذ خطته التي استغرقت نحو ستة شهور، من سبتمبر حتى عيد الفصح عام ١٩٥هـ/ ٨١٠م(٥٨).

رغم إيجاز هذه المعلومات، فالأمر واضح، وهو أن الإمبراطور نقفور الأول نقل بعض السكان من آسية الصغرى، إلى شبه جزيرة البلقان وتحديداً إلى إسكلافينيا، أي المناطق التي قطنها السلاف بالبلقان، وكانت تتضمن بالطبع أقاليم تراقيا، مقدونيا، تسالونيك واليونان، وشبه جزيرة البلوبونيز(٥٩).

هنا تجدر الإشارة إلى أنه قبل عملية التهجير عام ١٩٥هـ/ ٨١٠م إلى البلقان، كانت أعداد السلاف المستقرين في الإقليم المحيط بتسالونيك وأقاليم مقدونيا واليونان والبلوبونيز، كبيرة بالمقارنة بعدد السكان البيزنطيين المستقرين هناك. وأن هذه الحقيقية جعلت الحكومة البيزنطية عاجزة عن تأكيد سيطرتها الكاملة على تلك الأقاليم رغم كثرة عدد الحملات العسكرية التي أرسلتها إلى هناك، ولذا كان الأمر يحتاج لوجود عدد أكبر من العناصر البيزنطية التي تتكلم اليونانية وتعتنق المسيحية الأرثوذوكسية كي يتحقق اندماج السلاف وانصهارهم في بوتقة الحضارة البيزنطية(٦٠). وبناءً عليه فما أقدم عليه نقفور كان صحيحاً من الناحية السياسية. فبالنسبة لمقدونيا واليونان – مثلاً– كانوا سيدافعون عنهما ضد البلغار، ولاسيما أن كثافة السكان البيزنطيين الأصليين كانت قليلة في مقدونيا والإقليم المحيط بمدينة تسالونيك اليونانية، ولهذا سبق أن سمحت الحكومة البيزنطية ببقاء بعض السلاف ولم تحاول طردهم حتى لا تعمل على خلق منطقة فراغ تغري البلغار باحتلالها.

وبالنسبة لغرب البلوبونيز فكان الإمبراطور يطمع في أن ينشر هؤلاء المستوطنين، ولاسيما وأنهم كانوا أرثوذكس ويتحدثون اليونانية النصرانية بين السلاف الذين كانوا يسيطرون على غرب البلوبونيز منذ عهد الإمبراطور موريس(٦١). صحيح هذا الإجراء لم يحقق لنقفور الأول كل ما كان يرنو إليه؛ إذ لم يحل هؤلاء المهجرين دون أطماع البلغار في مقدونيا، أو تحالفهم مع السلاف في منطقة تسالي Thessaly(٦٢). لكن تهجير أعداد كبيرة من السكان البيزنطيين من أقاليم آسية الصغرى إلى إقليم تسالونيك وبقية أقاليم اليونان والبلوبونيز، نتج عنها إعادة صبغ أقاليم معينة بالصبغة البيزنطية Byzantinization، واسترداد الإدارة البيزنطية لسيادتها على اليونان والبلوبونيز، كما أنها كانت البداية الحقيقية والعملية لامتصاص العناصر السلافية المستقرة هناك في الكيان الإمبراطوري. ويمكن القول: إن أحوال السلاف استقرت إلى حد بعيد بعد عام ١٩٥هـ/ ٨١٠م في الإقليم المحيط بمدينة تسالونيك.

والمرجح أن المشكلات التي تسببت فيها العناصر السلافية أصبحت قليلة ولم تحتج إلى نفس القوة العسكرية التي احتاج لها الأمر دائماً قبل عام ١٩٥هـ/ ٨١٠م؛ ذلك أن الأحداث تشير إلى أن السلاف في إقليم تسالونيك عاشوا حياة هادئة وأنهم كانوا تابعين مخلصين للإدارة البيزنطية وأنهم قاتلوا بشجاعة إلى جانب البيزنطيين ودافعوا عن مدينة تسالونيك التي تعرضت لهجوم إسلامي بقيادة ليو الطرابلسي (يوناني اعتنق الإسلام) عام ٢٩٢هـ/٩٠٤م(٦٣)، وقد جنت الإمبراطورية البيزنطية ثمار الجهود التي بذلها الإمبراطور نقفور الأول أيضاً في كل من وسط اليونان والبلوبونيز، فبعد مضي نحو قرن من الزمان على هذه الجهود، عادت هذه المناطق مرة أخرى إلى يونانيتها السابقة(٦٤).

يذكر أيضاً أنَّ الإمبراطور نقفور الأول أعاد بناء مدينة باتراس Patras ونقل إليها بعض اليونانيين المقيمين في كالابريا Calabria لإعمارها كما حول كنيستها إلى أسقفية. وأعاد أيضاً بناء مدينة Lacedaemon ونقل إليها بعض سكان آسية الصغرى، بينهم بعض الأرمن؛ لإعمارها هي الأخرى(٦٥).

أما الإمبراطور ميخائيل الأول Michael I (١٩٦-١٩٨هـ/ ٨١١-٨١٣م) فقد وطن بعض البلغار في مناطق مختلفة من الإمبراطورية البيزنطية لأسباب غير معروفة، ولا ندري هل كانت البلدة البلغارية القريبة من إفسوس Ephesos من بقايا هذه المستوطنات أم لا؟(٦٦)، فالأمر ما يزال يحتاج إلى مزيد من البحث والدراسة.

ومن الفئات التي تعرضت للنقل والتهجير أيضاً في عهد الإمبراطور ميخائيل الأول، الأثنيين Athinganoi(٦٧)، ففي إطار سياسته المناهضة للهراطقة، أصدر ضدهم في عام ١٩٦-١٩٧هـ/ ٨١١-٨١٢م، عقوبة الإعدام ثم تراجع عن ذلك وقام بطردهم وتهجيرهم من كل من فريجيا Phrygia ولاكونيا Lyconia بآسية الصغرى، إلى أقاليم أوروبية بهدف إضعافهم والقضاء على معارضتهم. وكانت جزيرة Aegina من بين

المناطق التي استقر فيها هؤلاء الهراطقة، ويلاحظ أنهم ذابوا بمرور الوقت في المجتمع بعدما وجدوا أنفسهم منبوذين هناك(٦٨).

من ناحية أخرى، وفي غمرة الصراع بين البيزنطيين والعباسيين، ومحاول كل طرف استغلال الفتن الداخلية لدى الطرف الآخر لصالحه، نجحت الدبلوماسية البيزنطية على عهد الإمبراطور ثيوفيل Theophilos (٢١٤-٢٢٨هـ/٨٢٩-٨٤٢م) في استقطاب الخرميّة Hurramit الفرس، الذين كانوا قد ثاروا ضد الخلافة العباسية بقيادة بابك الخرميّ Babek(٦٩)،

ولاذ آلاف منهم عام ٢١٩هـ/ ٨٣٤م بزعامة كل من بابك وشخص آخر يدعى نصر Nasr بالأراضي البيزنطية ودخلوا في خدمة الإمبراطور البيزنطي إثر مفاوضات رتّب لها البطريق Patricus الفارسي الأصل ثيوفوب Theophobos، الذي كان قد نشأ وتربى في مدينة القسطنطينية وكانت تربطه بالخرميّة صلة نسب ولغة؛ ولذلك جعله الإمبراطور على رأس هؤلاء اللاجئين. بيدَ أنهم لم يصونوا الجميل للإمبراطور وثاروا في عام ٢٢٤هـ/٨٣٨م، من أجل أن ينصّبوا ثيوفوب إمبراطوراً، ولما رفض ذلك إخلاصاً منه للإمبراطور البيزنطي وباءت محاولتهم بالفشل، أصر الإمبراطور ثيوفيل على كسر شوكتهم. وقام بتقسيمهم – وكان عددهم حوالي خمسة عشرة ألف رجل – إلى كتائب كل واحدة قوامها نحو ألفي رجل، ثم وزعهم على مختلف ثغور الإمبراطورية، واشتهرت هذه الكتائب هناك باسم الكتائب الفارسية(٧٠).

لكن عادت بيزنطة مرة أخرى في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري/ النصف الثاني من القرن التاسع الميلادي، من خطر هرطقة البيالصة بعدما اتخذ أتباعها مدينة تفريك Tefrike عاصمة لهم وعصوا الإمبراطورية عصياناً مسلحاً واتحدوا مع المسلمين ضد البيزنطيين. ولم يجد الإمبراطور باسيل الأول مفراً من مواجهتهم عام ٢٥٨—٢٥٩هـ/ ٨٧١-٨٧٢م، فهزمهم وقضى على قوتهم السياسية. ومع ذلك

تغاضى عمّا فعلوه ولم يقم بإهانتهم أو إذلالهم، وإنما وطّن بعضهم على الحدود الشرقية للإمبراطورية في مواجهة المسلمين، وضم بعضهم الآخر إلى صفوف الجيش البيزنطي، في حين نقل فريق ثالث إلى أماكن أخرى من الإمبراطورية وبخاصة في المناطق البيزنطية في جنوب إيطاليا. وهناك اشتهر من قادتهم المدعو دياكونيتز Diaconitez ، حينما قام بمآثر بطولية عظيمة دفاعاً عن الوجود البيزنطي هناك(٧١). ويبدو أن القائد البيزنطي الشهير نقفور فوكاس Nicephorus phocas – جد الإمبراطور الذي حمل الاسم نفس الاسم في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي– أكمل تلك المهمة في عام ٢٧٢هـ/ ٨٨٥م، حينما قام بتوطين عدد كبير من الأرمن في كالابريا Calabria، فالأرجح أن هؤلاء كانوا من بقايا بيالصة مدينة تفريك المذكورين(٧٢).

ومع نهاية القرن الثالث الهجري/ بداية القرن العاشر الميلادي وحدوث هجرة الأرمن الكبرى إلى الإمبراطورية البيزنطية، أصبح في غرب آسية الصغرى، بكل من براين Preine وبلاتنتيان Platanian، مستوطنتين عسكريتين للأرمن، وخرجت منهما قوات عسكرية أرمينية شاركت في الحملة العسكرية التي شنها البيزنطيون على جزيرة كريت عام ٢٩٩هـ/٩١١م على عهد الإمبراطور ليو السادس (الحكيم) Leo VI (٢٧٣-٣٠٠هـ/٨٨٦-٩١٢م)(٧٣). غير أن تزايد عدد الوافدين الأرمن على بيزنطة، جعل الإدارة البيزنطية توطّنهم خلال الربع الأول من القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي في مناطق صغيرة على الحدود عرفت بالثغور الأرمينية Armenian Themes، وكانت محاكاة للثغور الموجودة داخل الأراضي البيزنطية. وبموجب ذلك تم منح هؤلاء المستوطنين الأرمن إقطاعات Stratiotai من الأراضي نظير خدمتهم العسكرية في جيش الثغر التابعين له. وتدل الإشارة التي وردت لدى المؤرخ البيزنطي ليو الشماس Leo Diacinus، على أن الأراضي التي تسلموها كانت مساحتها ضيقة ولا تكفي حاجاتهم العسكرية إلا بالكاد(٧٤). ثم بدأت تظهر بمرور الوقت في

الإمبراطورية مشكلة تتمثل في كيفية تحويل المناطق التي فتحت مؤخراً إلى ثيمات صغيرة يستوطنها الأرمن وجماعات أخرى (بيالصة، وسريان، يعاقبة Syrian Jacobites ، وعرب نصارى أو متنصرون)، ولاسيما على عهد الإمبراطور قسطنطين Constantine VII (٣٣٤-٣٤٨هـ/٩٤٥-٩٥٩م)، واستمرت هذه المشكلة حتى عصر الإمبراطور نقفور فوقاس، الذي سعى لحلها، فمثلاً منح سباسطيا Sebastia بإقليم قبادوقيا Cabppadocia للأرمن ليستوطنوا فيها وتكاثروا فيها على نحو مضطرد، كما وزع بعضهم في الحصون التي استولى عليها من الحمدانيين، ويبدو أن هذه المستوطنات كانت بالكثرة التي جعلت الإمبراطور يصدر مرسوماً يوضح فيه الضوابط التي تنظم ملكية الجنود الأرمن لإقطاع عسكري في تلك المناطق[٧٥]. وكانت النتيجة أن أصبحت هذه الثغور الصغيرة تشكل في عصره وعصر خلفائه من بعده رافداً مهماً لتعبئة الجيش البيزنطي وحشده لشن الحملات العسكرية المختلفة، لاسيما وأنَّ قربهم من مناطق الحدود كان يضمن سرعة إعدادهم عند شن هذه الحملات[٧٦].

مع بداية القرن العاشر/ الرابع هجري أيضاً، وإن كان التاريخ المحدد غير معروف، فالأتراك الذين عرفوا بالـ Vadariotae استوطنوا بالقرب من نهر فاردار Vardar القريب من مدينة تسالونيك. وهناك أتراك آخرون عرف عنهم أنهم استوطنوا بالقرب من Ochrido في منطقة جبال رودب Rhodope، رغم أن ظروف وتاريخ استيطانهم غير معلوم على وجه الدقة[٧٧].

تجلت أيضاً في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، سياسة بيزنطية في استقطاب وتوطين بعض العناصر الساخطة لدى أعدائها من المسلمين، في أوضح صورها. فيروي الجغرافي المسلم ابن حوقل عند تطرقه لأحداث عام ٣٣٠هـ/ ٩٤١م، قصة قبيلة بني حبيب العربية قائلاً: "لم تزل (نصيبين .... المعروفة بكثرة الثمار ورخص الأسعار... فأكب عليها بنو حمدان بضروب الظلم والعدوان ... حتى

حمل ذلك بنو حبيب إلى أن خرجوا بذراريهم وعبيدهم ومواشيهم... ومن ساعدهم من جيرانهم وشاركهم فيما قُصدوا به من الغصب لعقارهم في نحو عشرة آلاف فارس... فتنصروا بأجمعهم وأوثقوا ملك الروم من أنفسهم بعد أن أحسن لهم النظر في إنزالهم على كرائم الضياع... وخيّرهم القرى والمنازل.. فعادوا إلى بلد الإسلام على بصيرة بمضاره... وخبرة بطرقه... وقلوبهم تضطرم حقداً... وقد كاتبوا من خلفوه وراسلوا من عرفوه... وأن ملكهم أيدهم... فلحق بهم كثير من المتخلفين... وتزايدت ثقة الملك (يقصد الإمبراطور البيزنطي) بهم والروم في السكون إليهم..."(٧٨).

وهكذا انتقد ابن حوقل الحمدانيين بمرارة على كثرة الضرائب التي فرضوها وظلمهم في معاملة بني حبيب، فاستغل البيزنطيون الفرصة واستقطبوهم رحبوا بهم. ولا شك -من وجهة نظر الباحث- في أن الدبلوماسية البيزنطية لعبت دوراً ما لاستقطاب بني حبيب وتوجيههم إلى الأراضي البيزنطية؛ كي تستغلهم في صراعها آنذاك مع المسلمين في أطراف آسية الصغرى وبلاد الشام، ونجحت في ذلك. فاعتنق بنو حبيب النصرانية وكاتبوا غيرهم من القبائل الأخرى فلحقت بهم، كما انضموا إلى الجيش البيزنطي في صراعه مع المسلمين، وكان خطرهم كبير لدرايتهم بالمنطقة ودروبها مما أوقع بالمسلمين خسائر فادحة.

وجدت أيضاً في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي وفي الركن الجنوبي الغربي من آسية الصغرى، مستعمرة سكنها شعب يعرف بالـ Mauroe (السود)، وهؤلاء اشتهروا بالشدة والغلظة جاه السكان الأصليين، ولا نعرف شيئاً عن هؤلاء السود، ويرجح بعض الحديثيين أنهم من عرب إفريقية، تم نقلهم ليعملوا لخدمة الأسطول البيزنطي(٧٩).

وخلال النصف الثاني من القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، تشجع كثير من الأرمن وبتوجيه من السلطات البيزنطية على ترك ديارهم والانتقال إلى المناطق التي

نجح البيزنطيون في استعادتها مؤخراً من أيدي العرب، للاستيطان بها، مثل ملطية Meltiene التي سقطت في أيدي البيزنطيين في عام ٣٢٣هـ/ ٩٣٤م، وطرسوس Tarsus في عام ٣٥٤-٣٥٥هـ/ ٩٦٥، وأنطاكية عام ٣٥٩هـ / ٩٦٩م، وغيرها من المدن الأخرى، بهدف تأهيلها بعدما فقدت عدداً كبيراً من سكانها إثر رحيل المسلمين عنها. فاستخدم نقفور فوكاس – مثلاً- يعاقبة الأرمن والسريان، في إعادة إعمار ملطية التي كانت تقريباً شبه مهجورة(٨٠).

وعندما اعتلى يوحنا الأول التزيمسكس John I Tzimises (٢٥٩-٣٦٦هـ/ ٩٦٩-٩٧٦م) العرش البيزنطي، كانت الحدود الشمالية للإمبراطورية يهددها الخطر الروسي والبلغاري؛ لذلك رأى الإمبراطور أن يقوم بنقل وتهجير بعض العناصر السكانية من آسية الصغرى، ولاسيما البيالصة لما اشتهروا به من بأس في ميدان الحرب والقتال، ليعزز بهم القوات المرابطة على الحدود الشمالية في البلقان، في مواجهة الأعداء الشماليين(٨١)، فنقل عدداً كبيراً من البيالصة من منطقة الحدود الشرقية إلى إقليم تراقيا، وتحديداً إلى المنطقة المحيطة بفليبوبوليس Philippolis(٨٢). يذكر أيضاً أن جزيرة كريت التي استردها القائد البيزنطي نقفور فوقاس من المسلمين في عام ٣٥٠هـ/٩٦١م، نقل إليها الإمبراطور يوحنا الأول التزيمسكس بعض الأرمن ووطّنهم بها(٨٣). بعد قليل وفي عام ٣٧٨هـ/٩٨٨م، قام الإمبراطور باسيل الثاني Basil II (٣٦٦-٤١٦هـ/٩٧٦-١٠٢٥م) بترحيل عدد من الأرمن من الأقاليم الشرقية ووطّنهم في مقدونيا. في عهده أيضاً استوطن بعض الأرمن – من غير البيالصة مقدونيا وجزيرة كريت(٨٤).

أما في بلاد الشام، فما إن علم الإمبراطور باسيل الثاني عام ٤٠٧هـ/١٠١٦م بفرار حاكم حلب منصور بن لؤلؤ، الذي حرص على أن يستبد بحكمها من دون الحمدانيين، لكنه فشل في النهاية وقرر الفرار من قلعتها هو وإخوته ولجؤوا إلى أنطاكية الخاضعة للحكم البيزنطي، حتى باسيل الثاني إلى دوق أنطاكية ميخائيل البطريق يطلب منه

استقبال منصور وأهله، ففعل وأحسن إليهم وأغدق عليهم الأموال وأنعم على منصور بلقب ماجستر Magister (لقب شرفي) ووطنه هو وأتباعه وكل من تفرق من أفراد أسرته، في ضيعة شيخ ليلون بين حلب وأنطاكية، وهكذا أضحى منصور ابن لؤلؤ وأفراد أسرته في قبضة باسيل الثاني يستخدمهم سلاحاً قوياً لتهديد حكومة حلب الجديدة(٨٥).

أما على الجبهة الشمالية، ففي أعقاب سقوط دولة البلغار الأولى عام٤٠٩هـ/١٠١٨م، على يد الإمبراطور باسيل الثاني، تم تهجير أعداد من البلغار إلى الأراضي البيزنطية، وتم توطين بعضهم في قلاع تساليا Thessalia وبعضهم الآخر في منطقة الدانوب الأدنى، وحوّل بلغاريا إلى مجرد إقليم بيزنطي يحكمه حاكم إمبراطوري وأخضعها لنظام الثيمات بعد تقسيمها إدارياً. ولا يستبعد أن يكون البيزنطيين قد هجروا بعض بلغار آسية الصغرى في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي ووطنوهم هناك ولاسيما بمنطقة إفسوس Ephesus(٨٦).

وتعرضت الإمبراطورية البيزنطية على الجبهة الشمالية أيضاً في عهد الإمبراطور قسطنطين التاسع مونوماخوس Constantine IX Monamachos (٤٤٠-٤٤٥هـ/١٠٤٨-١٠٥٣م)، لهجرة جماعية واسعة النطاق من جانب البشناق(٨٧)، ففي غمرة الصراع الذي جرى بين تيراخ Tiraach (الخان الأكبر للبشناق) وأحد كبار قادته ويدعى تيجن Tegen، فر الأخير إلى مستنقعات الدنيبر عندما علم أن الخان يدبر للتخلص منه، واستطاع هناك أن يجذب اثنين من القبائل الثمانية التي يتكون منها البشناق وقادهم ضد تيراخ، ولما هزم فر بما تبقى من رجاله، وكانوا حوالي عشرين ألفاً إلى دروستولم Drostolum (سيلسترا Silistra)(٨٨)، ومن هناك بعث إلى قائد ثيم باريستريون Paristrion يطلب منه السماح له ولقواته بعبور نهر الدانوب والإقامة داخل الأراضي والدخول في خدمة الإمبراطورية، فرحب به الإمبراطور قسطنطين التاسع واستقبله في القسطنطينية لمظاهر التكريم والتشريف ومنحه لقب بطريق، كما

تم تعميده هو واتباعه على يد الأسقف أثيموس Euthymus، وقامت الإدارة البيزنطية بتوطينهم في دبرودجا، حيث عهدت إليهم بمهمة حراسة ثلاث قلاع حدودية وطلب منهم الإمبراطور الدفاع عن الحدود الدانوبية ورد غارات البشناق القادمة من الشمال وكذلك حملات الأمراء الروس(٨٩).

على صعيد آخر فإن ضم أرمينية، والذي اكتمل في منتصف القرن الخامس الهجري/ منتصف الحادي عشر الميلادي، ساعد على حدوث هجرة جماعية للأرمن إلى داخل الإمبراطورية، سواء داخل الأقاليم القديمة أو التي ضمها مؤخراً، ثم أخذ هؤلاء الأرمن ينخرطون وبشكل كبير في النظام الإداري لكثير من المناطق البيزنطية على الحدود الشرقية، كما هو الحال – مثلاً– في المناطق التي شكلت ثغر Lycandos(٩٠). وكانت الإدارة البيزنطية حريصة بالدرجة الأولى، على نقل وتهجير الأمراء الأرمن، الذين اصطحبوا معهم – إلى جانب عائلاتهم– أفراد حاشيتهم، حتى يقال إن تهجير هؤلاء أفرغ أرمينية من العناصر الشجاعة من السكان. ولا نعرف على وجه التحديد عدد من خرج أو تم تهجيره من الأرمن، لكن مما لا شك فيه أن تكرار الأتراك السلاجقة غاراتهم على أرمينية أجبر آلاف من الأرمن على ترك ديارهم والذهاب للاستيطان في قبادوقيا Cappadocia وفي قيليقية Cilicia وفي شمال بلاد الشام(٩١).

أخيراً ما الذي يمكن أن نخرج به من هذه الدراسة:

أولاً: إن سياسة التهجير وإعادة الاستيطان في الإمبراطورية البيزنطية، هي سياسة اضطرت إليها الإمبراطورية لأسباب سياسية بالدرجة الأولى، منها ما يتعلق ببيزنطة نفسها، ومنها ما يتعلق بالسكان الذين تم ترحيلهم من منطقة لأخرى داخل الإمبراطورية سواء بإرادتهم أو بالقوة. ولن نبالغ إذا ما قلنا إن بقاء الإمبراطورية كان رهناً ببقاء هذه السياسة.

ثانياً: كانت هناك دوافع اقتصادية أيضاً وراء عملية التهجير، والحقيقة أن الناحيتين السياسية والاقتصادية مرتبطتان ببعضهما أشد الارتباط، فنقل نحو عشرة آلاف أرمني – مثلاً– حوالي عام ٥٧٨م، إلى قبرص شارك بعضهم في إصلاح الأراضي الزراعية هناك، وآخرون عملوا كخدم في المنازل، وانضم فريق ثالث إلى الجيش وحارب ضد أعداء الإمبراطورية، ولا ريب في أن الإمبراطورية البيزنطية تدين لهذه العناصر الجديدة من أرمن وسلاف بالكثير، ويمكن القول: إن بيزنطة تدين لكل عنصر في جانب معين. فإذا قلنا إن السلاف أحيوا الزراعة، بينما حارب الأرمن أعداء الإمبراطورية البيزنطية، فإن هذه العبارة العامة في جوهرها بعض الصحة. ويلاحظ أنه بينما تعلمت الطبقات العليا للعناصر المهاجرة (الأرمن والسلاف) كيف تتكلم اللغة السائدة في الإمبراطورية ألا وهي اليونانية الوسيطة (البيزنطية) حققت عناصر الفلاحين الأرمن والسلاف تقدماً أيضاً، واحتاج انصهارها في البوتقة البيزنطية إلى وقت طويل. فمثلاً الإمبراطور باسيل الأول المقدوني، الذي كان في الأصل فلاحاً، كان يتكلم الأرمنية كلغته الأولى. كذلك ظلت اللغة السلافية سائدة في بعض مناطق جنوب اليونان حتى القرنين الثامن والتاسع الهجريين/ الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين(٩٢).

ثالثاً: إن نقل وتهجير بعض العناصر السكانية شكل دعماً قوياً للقوات البيزنطية وساعد الإمبراطورية على أن تعيد تنظيم هذه القوات البري منها والبحري أيضاً، فهاهم المردة – مثلاً في عهد جستنيان الثاني – إذا كان نقلهم قد شكل خللاً على الجبهة الشرقية للإمبراطورية من ناحية، فقد شكل دعماً للقوات الإمبراطورية من ناحية أخرى، ذلك عندما عمل نحو خمسة آلاف منهم كبحارة في وحدتين بحريتين تعمل إحداهما ضمن ثيم كبير هايوت، والأخرى تم توزيعها بين ثلاث مناطق هي: أبيروس والبلوبونيز وجزر البحر الأيوني(٩٣). ولا ريب في أن دعم

القوات البيزنطية ساعد الإمبراطورية على مواجهة كثير من الأزمات التي تعرضت لها ولاسيما في القرن الأول الهجري/، السابع الميلادي حينما حرص خلفاء الإمبراطور هرقل على الحفاظ على البقية الباقية من الإمبراطورية البيزنطية في مواجهة الخطر العربي، واتضحت أهمية هذا الدعم أيضاً في القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي عندما تشجعت القوات البيزنطية وبادرت هي بمهاجمة أعدائها على مختلف الجبهات، مثلما حدث - مثلاً- على عهد الإمبراطور قسطنطين الخامس.

رابعاً: إن الدماء الفتية التي جددت شباب الإمبراطورية البيزنطية هي في أغلبها دماء عنصرين أساسيين هما: الأرمن والسلاف؛ ذلك أن أباطرة الدولة البيزنطية اضطروا لتجنيدهم وإلى نقل أعداد كبيرة منهم، كي يستقروا في كل من آسية الصغرى وبعض مناطق البلقان، بعدما هجرها سكانها تحت وطأة الغزو الخارجي. وكان هدف الإدارة البيزنطية من وراء ذلك أن تقوم هذه العناصر الجديدة بزراعة الحقول المهجورة، ودفع الضرائب عنها (ليتوفر للخزانة السيولة النقدية)، فضلاً عن قيام هذه العناصر بالانخراط في جند الثغور للدفاع عنها. وكانت أعداد من الأرمن والسلاف التي قامت الإدارة الإمبراطورية بتهجيرها إلى آسية الصغرى، والبلقان تبلغ عشرات الآلاف.

خامساً: جاءت سياسة تهجير السكان وتوطينهم مكملة لنظام الثيمات وداعمة له، وهو نظام أدى إلى اختفاء الطبقة الأرستقراطية القديمة وظهور طبقة أرستقراطية جديدة استطاعت أن تجمع بين الثروة والثقافة والمناصب العليا في الإدارة البيزنطية. وقد جنت بيزنطة ثمار سياسة التهجير من الناحيتين العسكرية والديموغرافية أيضاً، فإذا كانت هذه السياسة قد مكنتها من التخلي عن سياسة الدفاع في القرنين الأول والثاني الهجريين/ السابع والثامن الميلاديين، إلى سياسة

الهجوم والتوسع في القرن العاشر الميلادي، فقد ساعدت أيضاً على إحداث تغير عرقي لسكان بعض المناطق البيزنطية.

سادساً: كان إقليم تراقيا في البلقان، من أكثر الأقاليم البيزنطية التي هاجر إليه عناصر سكانية مختلفة، لأهميته بالنسبة للإمبراطورية؛ ذلك أن بقاء الإمبراطورية كان مرتبطاً ببقاء الجبهة الشمالية، فأي عدو كان يعبر نهر الدانوب، كان يستطيع أن يتوغل بعد ذلك في إقليم تراقيا المفتوح حتى يصل إلى أسوار القسطنطينية، وهنا يصبح الخطر عظيماً ولا تحمد عقباه.

الهوامش

(١) تعني كلمة ثيما اليونانية (θεμα) أو ثيم اللاتينية Theme، والجمع ثيمات، في الأصل قسماً من الجند أو فرقة من الجيش (وهي تقابل في المصادر العربية تعبير جند/بند)، ثم أطبقت على المنطقة العسكرية في التنظيم الإداري العسكري الجديد الذي ظهر في القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي بهدف دفاعي بحت، انظر: هانئ البشير: **البيالصة في آسية الصغرى في ضوء مصنف بطرس الصقيلي**، مجلة المؤرخ المصري، العدد الرابع والعشرون يناير ٢٠٠١م، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ص ٧٧-٧٨، حاشية رقم ٣٧.

(٢) الكلمة العربية للسلاف هي صقلب، والصقلاب هو الرجل الأبيض أو الأحمر والجمع صقالبة، ويبدو أن اسم السلاف مشتق من كلمة Slovene ومفردها Slovenin ، ومن غير المعروف على وجه الدقة موطن السلاف الأول، حيث لا تقدم المصادر الكثير عنهم، ولم يكونوا نظاميين. وقد حدث الاستقرار السلافي أساساً في شبه جزيرة البلقان في القرن السابع، وبالتحديد إبان حكم الإمبراطور فوقاس Phocas (٦٠٢-٦١٠م)، والسنوات الأولى من حكم الإمبراطور هرقل Heraclius (٦١٠-٦٤١م)، انظر: هانئ البشير: **الدولة البيزنطية (٦٤١-٧١١م)**، (القاهرة، ٢٠٠٢م)، ص ٢٦، حاشية رقم ١، ولمزيد من التفاصيل عن الصرب والكروات، انظر: أسميت غنيم: **الآفار**، الإسكندرية، ١٩٩١م، ص ٥٢-٥٣.

(٣) Theophanes, The Chronicle of Theophanes Cnfessor, Byzantine and Near Eastern history, A 284-813, Trans with Introduction and Commentary by Mango, C and Scott ,R, with the assistance of Greatrex, g, (Oxford , 1997) pp.536,537, note.no.7;Charanis, P.,"The Transfer of Population as a Policy

in the Byzantine Empire" In Comparative Studies in Society and Historv.,Vol.3,No.2 (Cambridge, Jan, 1961),p. 140.

(٤) Sébèos., Histoire d'Heraclius, Traduite de L'Armenien et annotee par Frederic Macler, (Paris, 1904),pp. 3 0-31; Charanis., The Armenians in the Byzantine Empire, (Lasbon, 1963),pp. 14-15.

الوندال من العنصر الجرماني الذي خرج من شبه جزيرة اسكنديناوه، وظهروا للمرة الأولى عام ٤٠٦، عندما عبروا نهر الراين مع غيرهم من القبائل الجرمانية الأخرى، واجتاحوا غاليا ثم إسبانية عام ٦٠٩م. وعبروا البحر المتوسط عام ٤٢٩م، إلى شمال إفريقية وأقاموا مملكة هناك استمرت حتى عام ٥٣٣، انظر:

The Oxford Dictionary of Byzantium, Prepared at Dumbarton Oaks, Alexander P. Kazhdan and Others (Oxford, 1991), Vol.3, p.2151

أما القوط فهم أعظم قبائل الجرمان الشرقيين عدداً وخطراً على أوروبة، موطنهم الأصلي شبه جزيرة اسكندناوه، وانقسموا في مطلع القرن الثالث الميلادي وهم على شواطئ البحر الأسود الشمالية إلى فرعين كبيرين هم، القوط الشرقيون والقوط الغربيون. أقام الأولون شرقي نهر دنيستر، بينما استقر الآخرون في غربه، ولا تعني هذه التسمية سوى دلالتها على الوضع الجغرافي لهذين الفرعين، انظر:

(٥) Miracula St Demitrii., In Patrologia Graeca., T. 116, (Paris, 1864), col. l351, PG; Lemerle., "La composition et la Chronologic des deux premiers Livres des Miracula St. Demetrii, "The Byzantinische Zeitschrift (Leipzig, 1953), P.358, BZ; Charanis., Population. pp. 142-143.

لمزيد من المعلومات عن الوجود السلافي في شبه جزيرة البلقان وجهود بيزنطة لاسترداد سيادتها المفقودة، انظر: وسام عبد العزيز فرج: السلاف في شبه

جزيرة البلقان وجهود الإمبراطورية البيزنطية لاسترداد سيادتها (٥٩١-١٠١٨م)، **الجمعية التاريخية المصرية**، العدد ٣٠ (١٩٨٤م)، ص ٧١-١٣٣.

(٦) البطريرك نقفور: **التاريخ المختصر** (٦٠٢-٧٦٩م) نقله إلى العربية وقدم له وعلق عليه د. هانئ البشير، القاهرة، ٢٠٠٦م، ص ١؛ وسام عبد العزيز فرج: **دراسات تاريخ وحضارة الإمبراطورية البيزنطية**، ج١، (٣٢٣-١٠٢٥م)، الإسكندرية، ١٩٨٢م، ص ١٥٩-١٦٠.

كتب بروكوبيوس، السكرتير والمستشار القانوني للإمبراطور جستيان الأول، **التاريخ السري**، وغيره من الأعمال الأخرى، وكتب أجاثياس المؤرخ والشاعر: **التاريخ** في خمسة أجزاء عالج فيها أحداث الفترة ٥٥٢-٥٥٨م، وأكمل ميناندر بروتكتور، المؤرخ ذلك العمل في كتابه "التاريخ" وغطى فيه الفترة بين عامي ٥٥٨-٥٨٢م، وبدأ ثيوفيلاكت سيموكاتا من حيث انتهى ميناندر بروتكتور ممثلاً ذلك في مصنفه بعنوان "التاريخ" الذي غطى فيه عصر الإمبراطور موريس. ثم حدث انقطاع مفاجئ في الكتابة التاريخية الحولية في القرنين الأول والثاني الهجريين/ السابع والثامن الميلاديين، وهما القرنان اللذان أرخ لهما كل من ثيوفانيس ضمن مصنفه الذي يحمل عنوان (التاريخ الزمني)، والبطريرك نقفور ضمن كتابه الذي يحمل عنوان (مختصر تاريخيي لما حدث بعد الإمبراطور موريس) أو (التاريخ المختصر) وفقاً لترجمة سيريل مانجو الإنجليزية، انظر: البطريرك نقفور: **المختصر**، ص ١.

(٧) Vryonis, S., Pyzantium and Europe,London,1967, p.71; Diehl, Ch., .,Histoire de L'Empire Byzantin, Paris, 1919, P.58; Baynes and Moss, B., Byzantium, Oxford, 1948, P. 13; Brehier, L, Les Institutions de L'Empire Byzantin, Paris , 1949 , P. 119.

وانظر أيضاً: وسام عبد العزيز فرج: **الدولة والتجارة في العصر البيزنطي الأوسط** (من القرن السابع وحتى نهاية القرن الحادي عشر الميلادي) حوليات كلية الآداب، الكويت، الحولية التاسعة، الرسالة الثالثة والخمسون ١٩٨٨م، ص ٦٥؛ إبراهيم أحمد العدوي: **الأمويون والبيزنطيون**، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٩٦٣م، ص ١٦٩-١٦٧؛ أومان: **الإمبراطورية البيزنطية**، تعريب، مصطفى طه بدر، القاهرة، ١٩٥٣م، ص ١٣٢.

(٨) نعيم فرج: الحضارة البيزنطية، الطبعة الثالثة، (دمشق عام ٢٠٠٠م)، ص ١٠٦.

(٩) وسام عبد العزيز فرج: **قوانين الملكية الزراعية في الإمبراطورية البيزنطية في القرن العاشر الميلادي**، دراسة تحليلية ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط المجلد الثاني ١٩٨٣م، ص ٣٠٢.

(١٠) وسام فرج: **دراسات**، ص ٢٠٢، ١٩٩. ولمزيد من المعلومات عن هذه الثيمات، انظر: طارق منصور محمد، **الجيش في الإمبراطورية البيزنطية، من بداية القرن السابع إلى نهاية القرن التاسع الميلادي**، رسالة ماجستير لم تنشر، كلية الآداب، بنها، ١٩٩٣م، ص ٩٦-٩٧-١٠٢؛ وسام فرج: **دراسات**، ٢٠٠-٢٠١. وعن الخلافات التي نشأت بين المحدثين حول بداية ظهور الثيمات، انظر:

Charanis, P.," Some Remarks on the changes in Byzantium in the Seventh century "in melanges. G. Ostrogorsky, Beograd, 1963, Vol.1 , P. 74, Ostrogorsky, G.," Sur la date de la composition du livre des Themes et sur L'Epoque de la constitution des Premiers Themes D' Asie Mineure "dans. Byzantion. T., XX III, Bruxelles, 1953 . P. 84 .B

انظر أيضاً: ليلى عبد الجواد: **الدولة البيزنطية في عصر الإمبراطور هرقل وعلاقاتها بالمسلمين**، القاهرة، ١٩٨٥م، ص١٠٩-١١٤، طارق منصور: **الجيش**،

ص٢٠٣-٢٠٦.

(١١) تعني كلمة صرب في لغة الرومان العبيد، أما الكروات فتعني باللغة السلافية، الذين يحتلون الكثير من الأراضي، ومن الصعب التمييز بين الصرب والكروات من الناحية العرقية واللغوية، وكذلك الجمع بينهما من الناحية السياسية. ويذكر البعض أنهم أصلاً قبائل السرامطة Sarmatians الإيرانية الرعوية، في حين يرجح البعض الآخر أنهم يعودون إلى أصل سلافي، حيث جاؤوا إلى البلقان ضمن القبائل السلافية في الثلث الأخير من القرن السادس الميلادي، لمزيد من المعلومات انظر: قسطنطين بورفيورجنيتوس: **إدارة الإمبراطورية البيزنطية**، عرض وتحليل وتعليق محمود سعيد عمران، بيروت، ١٩٨٠م، ص ١٢٣-١٢٦. وسام عبد العزيز فرج: قراءة التاريخ المبكر لكرواتيا – البوسنة- الصرب في العصور الوسطى، جمعية الآثار بالإسكندرية، ١٩٩٣م، العدد الثامن، ص ١٦٧. انظر أيضاً:

Gregoire, H., " L'origine et Le nom des Croats et des Serbes" dans, B.,Vol.17.(Bruxelles 1994 - 45)PP.88 - 91.

(١٢) قسطنطين بورفيورجنيتوس: **إدارة الإمبراطورية البيزنطية**، ص ١٢٣-١٢٦-١٢٧؛ اسمت غنيم: **الآفار**، ص ٥٢-٥٣.

(١٣) Theophanes., The Chronicle,p.484;Florin Curta., The Making of The Slavs History and Archaeology of The lower Danube Region C.500-700 (Cambridge N -D), p.l 10.

انظر أيضاً: وسام فرج: **السلاف**، ص ٨٤.

وإسكلافينيا مصطلح جغرافي يقصد به المناطق التي استقرت بها مجموعة من القبائل

السلافية سواء كانت متحدة أو منفصلة دون أن يكون في مقدورها تأسيس أي دولة منظمة فيها وكانت السلطة البيزنطية فيها اسمية فقط، انظر هانئ البشير: **الدولة**، ص ٩٨-حاشية رقم ١.

والمقصود هنا هم السلاف الذين كانوا في ضواحي منطقة تسالونيك، انظر:

Charanis.,Population,. 143.

(١٤) Ostrogorsky, G., History of the Byzantine state, Eng Trans by -U HusseyJ, (Oxford, 1956),p.104.

انظر أيضاً: السيد الباز العريني: **الدولة البيزنطية**، القاهرة، ١٩٦٠م، ص ١٢٦-١٢٧؛ وسام فرج: **السلاف**، ص ٨٥.

(١٥) الطبري: **تاريخ الرسل والملوك** (٢٢٤-٣١٠هـ) تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الثانية، سلسلة ذخائر العرب، ج٥، القاهرة، د.ت، ص ٢١٢؛ ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، من سنة ٣٠ لغاية ٦٤هـ، تحقيق أبي الفداء عبد الله القاضي، الطبعة الأولى ج٣، بيروت، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ص ٢٩٨.

انظر أيضاً: Florin Curta., The Slavs, pp. 110-111.

(١٦) Charanis., Population, P. 143

(١٧) وسام فرج: **دراسات**، ص ٢٥٢.

(١٨) لمعرفة البيالصة ونحلتهم انظر: هانئ البشير: **البيالصة**، ٤٥-٨٨.

(١٩) Charanis., The Armenians, P. 13.

يذكر المؤرخ الإنجليزي ستيفن رنسيمان أن الأرمن لم يكونوا يهاجرون قبائل كاملة إلا إذا اضطروا إلى الانتقال اضطراراً بسبب إبعادهم عن أوطانهم، بل

كان رحيلهم في الغالب كأفراد مغامرين، انظر: **الحضارة البيزنطية**، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، وراجعه زكي علي، القاهرة ١٩٩٤م، ص ٢١٥.

(٢٠) Janet Hamilton and Bernard Hamilton; Christian Dualist Heresies In The Byzantine World, c.650-c.1450 (New York, N-D),p.5.

(٢١) ثيم تراقيا يحده البحر الأسود شمالاً ومقدونيا جنوباً وسور أناستاسيوس شرقاً وبلغاريا غرباً، ويرجح أغلب المؤرخين أنه أنشأ في عهد الإمبراطور قسطنطين الرابع دون ذكر تاريخ معين، انظر هانئ البشير: **بيزنطة وبلغاريا** (٦٨١-١٠١٨م) القاهرة ٢٠٠١م، ص ٣٨-٣٩، حاشية رقم ٥.

(٢٢) الكارابيزياني بمعنى بحارة وهو أول ثيم بحري أنشأ في بيزنطة، وقد مر إنشاؤه بعدة مراحل، وأسس أسطوله الإمبراطور قسطنطين الرابع، وكان أسطوله مكلفاً بمراقبة حوض البحر المتوسط بصفة عامة، ومراقبة أي طرق بحرية تؤدي إلى مدينة القسطنطينية بصفة خاصة. وإزاء ازدياد حملات المسلمين البحرية واتساع نطاق مسؤولية هذا الثيم اضطر أباطرة بيزنطة تقسيمه إلى قسمين: الأول عرف باسم كبير هايوت ويضم الجهات الساحلية والجنوبية، والجنوبية الغربية لآسية الصغرى، والثاني يعرف بالبند الإيجي، ويضم بحر إيجة، وكان لكل منهما أسطولاً خاصاً به تحت قيادة نائب الأميرال البحري، ويخضعان لسيادة قائد الأسطول الراسي في مياه القسطنطينية، انظر:هانئ البشير: **تطور البحرية البيزنطية ونشاطها العسكري خلال القرنين الثامن والعاشر للميلاد**، مجلة التاريخ والمستقبل، كلية الآداب، جامعة المنيا، يوليو ٢٠٠٣م، ص ١٥٠-١٥١؛ رنسيمان: **الحضارة**، ص ١٧٦، حاشية رقم ١، ولمزيد من المعلومات عن هذا الثيم والخلافات حول تاريخ نشأته انظر: هانئ البشير: البحرية، ١٤٩-١٥٧.

(٢٣) Charanis., Population, P. 143; Ostrogorsky., state, p. 119.

انظر أيضاً: وسام فرج: **السلاف**، ص٨٥-٨٦؛ السيد الباز العريني: **الدولة**، ص١٤٣. تحتل مدينة تسالونيك موقعاً استراتيجياً في شمال بلاد اليونان وفي شبه جزيرة البلقان، لذلك كانت الإدارة البيزنطية حريصة دائماً على ألا تقع في أيدي الأعداء؛ لأنه بدونها تصبح مشاريع الحكومة البيزنطية من أجل استرداد سيطرتها على اليونان والبلوبونيز صعبة التحقيق إن لم تكن مستحيلة، لذلك لا عجب إذا ما علمنا أن جهود الإمبراطورية البيزنطية لاسترداد سيادتها على البلقان انطلقت دائماً من مدينة تسالونيك، انظر: وسام فرج: **السلاف**، ص ٨٣-٨٤.

(٢٤) Theophanes.,The Chronicle,p.508;Cedrenus. Compendium Historiarum., Vol .l,In Corpus Scriptorum Historiae Bvzantinae / Bonnae,1838),p.772,CSHB; Averil Cameron., The Byzantines, (0xford,2006)p.9; Runciman, S., A history of the First Bulgarian Empire, (London, 1930), p.30; Brehier, L., Le Mond Byzantin, Vie et Mort de Byzance (Paris, 1969),67 ; Florin Curta., The Slavs,P. 112

انظر أيضاً: البطريرك نقفور: **المختصر**، ص ٨٠.

وكلمة الأوبسيق كلمة لاتينية الأصل دخلت اللغة اليونانية في عصر الإمبراطور جستنيان الأول، أطلقت على ثغر بآسية الصغرى، وتجمع الآراء إلى إنشائه في الثمانينيات من القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي. وكانت عاصمته مدينة نيقية التي كان بها حوالي عشرة حصون، كما كانت قواته حوالي ستة آلاف جندي. وحمل لقب قومس، على عكس قادة الثغور الأخرى، الذين كانوا يحملون لقب ستراتيجوس، وكان الهدف من وراء نشأة هذا الثغر هو حماية العاصمة نفسها، نظراً لمواجهته شاطئها، ومن خطر المسلمين، انظر: هانئ البشير:

بلغاريا، ص ٤٠، حاشية رقم ٢.

(٢٥) Historiarum, The Chronicle, p 511; Cedrenus; Historiarum, 1 , PP.772-773; Zonaras., Epitomae Historiarum LibriJn CSHB., T III (Bonnae, 1897),p.280.

انظر أيضاً: البطريرك نقفور: **المختصر**، ص ٨١، ٣٨ حاشية رقم ١٤٨.

(٢٦) المردة: هم جماعة ترجع إلى أصل فارسي، وورد اسمهم في المصادر العربية باسم الجراجمة، والمصادر البيزونطية باسم المرادنيين. أما المؤرخون المحدثون فقد عرفوهم باسم المردة، وقد هاجرت هذه الجماعة بتعاقب الأجيال من مكان إلى آخر حتى استقر بهم الحال على الحدود الشمالية للبنان . انظر: هانئ البشير: **الدولة**، ص ٨١، حاشية رقم ٤.

(٢٧) Theophanes., The Chronicle,p.507; Vasiliev, A. A., History of the Byzantine Empire 324 - 1453, Vol, I, (Wisconsin, 1958) p.214; Brooks., "The successor's of Heracluis to 717 "In Cambridge Medieval History, vol II, (Cambridge, 1936) (Wisconsin of Byzantium, p.406,CMH;Head, C., Justinian 11 1972), p.35.

انظر أيضاً: البطريرك نقفور: **المختصر**، ص ٨١، ١٣٩ حاشية رقم ١٤٨.

(٢٨) عرف المجمع الخامس السادس بهذا الاسم، لأنه كان استكمالاً لأعمال المجمعين الخامس والسادس، كما عرف أيضاً بمجمع ترولان Trillan نسبة إلى قاعة الاجتماعات بالقسطنطينية. انظر: هانئ البشير: الدولة، ص ٦٠-٦١.

(٢٩) Theophanes., The Chronicle,p.509; Mansi .,Sacrorum Conciliorum Novoet Amplissima Collectio (Austria, 1960), vol.XI,CoL921; Head., Justinian II,p.47; Brooks., Heracluis,

pp. 406-407.

انظر: قسطنطين السابع بورفيورجنيتوس: **إدارة الإمبراطورية**، ص ١٧٩-١٨٠: السيد الباز العرينبي، **الدولة**، ص ١٤١.

(٣٠) قسطنطين السابع بورفيورجنيتوس: **إدارة الإمبراطورية**، ص ١٨٠.

(٣١) يقصد بالاسكيثين الشعوب التركية المختلفة التي كانت بيزنطة على صلة بها، وأطلق هذا الاسم في بعض الأحيان على السلاف، وتجدر الإشارة إلى أن البيزنطيين لم يميزوا في أوروبة إلا بين ثلاث مجموعات عرقية رئيسية، القوط Goth والهون Huns والسلاف، فأي شعب من شعوب المنطقة كان يندرج تحت واحدة من هذه المجموعات الاتنية. انظر:
BeŜevliev,V.," Deux Corrections au" Breviarium" du Patriarch Nicephore,28(Paris, 1970),pp, 158-159; Charanis., Pppulation, pp. 143-144.

(٣٢) Charanis., Population,p. 144

(٣٣) Ghevond., Histoire des Guerres et de Conquetes des Arabes in Armenie, Trad par Gchahuazrian. G.(Paris, 1856), pp33-34; Charanis., The Armenians, p. 13.

(٣٤) نعيم فرح: **الحضارة**، ص ١٠٦-١٠٧.

(٣٥) أسد رستم: **الروم في سياستهم وحضارتهم، ودينهم، وثقافتهم، وصلاتهم بالعرب**، ج١، بيروت، ١٩٥٥م، ص ٣٠٥.

(٣٦) أسد رستم، **الروم**، ص ٣٠١-٣٠٢.

تجدر الإشارة إلى أن التعديلات التي أجرتها بيزنطة على نظام الثيمات لم يتوقف، مما أدى إلى زيادة عدد هذه الثيمات بشكل مستمر، بلغ نحو خمس وعشرين قيماً في نهاية القرن الثالث الهجري/ نهاية التاسع الميلادي، وثمانية وثلاثين ثيماً في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، انظر: نعيم فرح: **الحضارة**، ص ١٧٥.

(٣٧) نعيم فرح: **الحضارة**، ص ١٧٥

(٣٨) Theophanes., The Chronicle,p.584; Charanis., Population,p. 144.

(٣٩) Theophanes., The Chronicle, p.590 ; Janet Hamilton and Bernard Hamilton., Heresies ,p.57.

انظر أيضاً: البطريرك نقفور: **المختصر**، ص ١٠٢.

(٤٠) لا نعرف عن بطرس الصقلي أي معلومات سوى أنه كان راهباً، وأن الإمبراطور باسيل الأول Basil I (٢٥٣-٢٧٣هـ/٨٦٧-٨٨٦م) كلفه في عام ٢٥٦-٢٥٧هـ/ ٨٦٩-٨٧٠م، بالسفر إلى العاصمة البوليصية تفريك Tefrik من أجل 'إجراء مفاوضات حول تبادل الأسرى بين الجانبين. لمزيد من التفاصيل عن بطرس الصقلي، وكتابه، انظر هانئ البشير: **البيالصة**، ص ٤٦.

(٤١) Petrius Siculus., Historia, In, PG. Vol. 104 (Paris, 1864) cols. 1280 - 1285, 129.

(٤٢) البطريرك نقفور: **المختصر**، ص ١٠٢.

السور الطويل هو سور أناستاسيوس Anastasios ويقع غرب مدينة القصسطنطينية، ويبعد عنها حوالي ٤٠ كم، ويمتد من البحر الأسود عبر تراقيا حتى بحر مرمرة بمسافة ٦٥م، لمزيد من التفاصيل عن هذا السور، انظر: هانئ

البشير: **بلغاريا**، ص ٥٨ حاشية رقم ٣.

(٤٣) البطريرك نقفور: **المختصر**، ص ١٠٢-١٠٣، هانئ البشير: **بلغاريا**، ص ٥٩.

(٤٤) Theophanes.,The Chronicle,p.593;Charanis.,Population,p. 144. Janet Hamilton and Bernard., Heresies, p.57.

(٤٥) Theophanes. The Chronicle,p.599.

انظر أيضاً: البطريرك نقفور: **المختصر**، ص ١٠٤. يرى المؤرخ اليوناني بيتر خارانيس Charanis, P أن عدد السلاف، الذين هم كل من الراهب ثيوفانيس والبطريرك نقفور وهو ٢٠٨,٠٠٠مبالغ فيه، ولا بد أنه كان يشمل الرجال والنساء والأطفال، انظر:

Charanis,p.,"The Slavic Element In Byzantine Asia Minor In The Thirteenth Century"B, 18(Bruexelles, 1946-1948),p.76.

(٤٦) Theophanes., The Chronicle,p.599.

انظر أيضاً: البطريرك نقفور: **المختصر**، ص ١٠٤. هانئ البشير: **بلغاريا**، ص ٦١، حاشية رقم ١.

ورغم مبالغة المؤرخين ثيوفانيس ونقفور في أعداد هؤلاء السلاف، كان هناك بعض المؤرخين المحدثين الذين دافعوا عن دقة هذا الرقم (٢٠٨,٠٠٠٠) واعتبره قاصراً فقط على الرجال الذين كانوا قادرين على حمل السلاح ، انظر: البطريرك نقفور: **المختصر**، ص ١٦١، حاشية رقم ٢٧٢.

(٤٧) محمد مرسي الشيخ: تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، الإسكندرية ١٩٩٤م، ص ١٣٨

(٤٨) نعيم فرح: **الحضارة**، ص ١٤٧.

(٤٩) Ghevond., Histoire, pp. 126-127; Theophanes., The Chronicle, p.623. Charanis., Population, p. 144.

(٥٠) لا نعرف عن كروم شيئاً قبيل اعتلائه العرش البلغاري سوى أنه كـان أميـراً لبلغار بانونيا Pannonia في الشمال الغربي من البلقان، انظر: هـانئ البـشير: **بلغاريا**، ص ٧٩، حاشية رقم ٤.

(٥١) Charanis.,The Armenians,p. 15.

(٥٢) Dragojlovic, D., "The history of Paulicianism on the Balkan Peninsula, Balcanica, V(Beograd, 1973), p235; Runciman, Manicheisme Medieval, L'Heresie Dualiste dans le S., Christianism trad par Petrement. S., Marty. J, (Paris, 1949), p.41.

(٥٣) Ghevond., Histoire,p. 162.

(٥٤) Charanis., The Armenians,p. 14.

(٥٥) Theophanes.,The Chronicle,p.644.

(٥٦) Charanis., The Armenians,p. 14.

(٥٧) نعيم فرح: **الحضارة**، ص ١٤٧-١٤٨.

(٥٨) Theophanes.,The Chronicle,p.667

(٥٩) Theophanes., The Chronicle,p.669, Note,No.2: Charanis., Population, p. 144

(٦٠) وسام فرج: **السلاف**، ص ٩٢.

(٦١) Theophanes ., The Chronicle , p .669 , Note, No.2 ; Charanis Population, ppl44-145

انظر أيضاً: وسام فرج: **السلاف**، ص ٨٧. هانئ البشير: **بلغاريا**، ص ٨٤.

كانت الإدارة البيزنطية حريصة دائماً على الحيلولة دون قيام أي اتـصال أو أي اتحاد بين العناصر السلافية الخاضعة لسلتها وبعضها البعض، أو بينهـا وبـين

البلغار، وذلك لضمان استمرار سيطرتها عليهم، انظر: وسام فرج: **السلاف**، ص ٨٨.

(٦٢) Venedikov,I."La Population Byzantine en Bulgarie au Debut IX Siecle" Byzantinobulgarka, 1 (Sofia, 1962),pp.261 -262.

انظر أيضاً: هانئ البشير: **بلغاريا**، ص ٨٤.

(٦٣) Charanis ., Population,p. 151.

انظر أيضاً: وسام فرج: **السلاف**، ص ٩٣.

(٦٤) Hupchick, D .,The Balkans from Constantinople to Communism (New york,2004),p.37.

(٦٥) Charanis ., Population, pp. 145.

يبدو أن هؤلاء اليونانيين كانوا ممن هاجروا إلى إيطاليا إثر اجتياح السالف لشبه جزيرة البلقان وتوغلهم جنوباً حتى البلوبونيز في نهاية القرن السادس وبداية القرن السابع الميلاديَ، انظر:

Charanis.," On the Question of the Slavonic Settlements in Greece during the middle Ages" Byzantinoslavica, 1 OfPrague, 1949),pp.255.

(٦٦) Cedrenus., Historiarum,II.p.52; Charanis., Population,p. 149.

(٦٧) كان الأثنيون أتباعاً لحزب غريب اشتهر أعضاؤه بمبالغتهم في التطهير والحرص على تأدية الصلاة يوم السبت، ثم انغمس هؤلاء في الفكر الفلكي وأعمال السحر والشعوذة ر المؤرخ ثيوفانيس أن الإمبراطور نقفور الأول (١٨٦/١٨٧-١٩٦هـ/٨٠٢-٨١١م) كان صديقاً لهم بل ومغرماً بأعمال السحر والشعوذة لديهم واستخدمها في مواجهة بعض معارضيه. انظر:

Theophanes.,The Chronicle,p.671; Janet Hamilton *and* Bernard Hamilton., Heresies,,p.59 ; Charanis., Population,p. 145.

(٦٨) Theophanes., The Chronicle, p. 678; Charanis, P., Ethnic

changes in the Byzantine Empire in the Seven Century "In, Dumparton Oaks Papers, (Cambridge, 1957), p.27; Population,pp.145.

(٦٩) ادعى بابك زعيم الفرقة الخرمية في بلاد فارس أن روح جاويدان قد حلت فيه، وجاويدان كان زعيماً نسب إليه أتباعه صفات الألوهية، وزاد بابك على ذلك أن نشر تعاليم المجوس، وقاد بابك ثورة هزت الدولة العباسية في عهد الخليفة المأمون، واستمرت حتى قضى عليها الخليفة المعتصم عام ٢٢٣هـ/٨٣١م، انظر إبراهيم أيوب: **التاريخ العباسي، السياسية والحضارية**، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٨٩، ص ٨٦-٨٧.

(٧٠) اليعقوبي: **تاريخ اليعقوبي**، ليدن، ١٨٨٣م، ج٢، ص ٥٣٣، محمد الشيخ: **الدولة**، ص ١٦٦.

Bury, J., A history of the Eastern Roman Empire, From the Fall of Irene to the accession of Basil 1, (London, 1912), pp.253-254 Charanis., Population, pp 147-148.

انظر أيضاً: السيد الباز العرينين: **الدولة** ، ص ٢٤١-٢٤٢.

(٧١) Petrus Siculus, Historia,Cols. 1273-1276; Vita Basilii., Constantine Porphyrogenitus., Historia De Vita Et Rebus Gestis Basilii Inclyti Imperatoris, ed. I. Bekker, In: TheophCont CSHB (Bonn,1838), p.283; Lemerle,P., "L'Histoire des pauliciens D'Asie Mineure D'apres les sources Grecques les sources Grecques "dans, Travaux et Memoires,5fParis,1973),pp.99-100.,TM

(٧٢) Charanis., The Armenians,p. 16.

(٧٣) Charanis., The Armenians,p. 16

(٧٤) Leo Diaconus., Historiae,In CSHB, ed Hase.C (Bonn, 1828). p.28; Eric McGeer., "The Legal Decree of Nikephoros II Phokas Concerning Armenian *Stratiotafin* Peace and war in Byzantium, Essays in Honor of George T. Dennis, S. J. ed By T.Miller and J. Nesbitt(Washington, 1995)p.l24.

جدير بالذكر أن ثغر الأرميناق Armeniakoi الذي يقع في الشمال الشرقي من آسية الصغرى ويتاخم أرمينية، وكان قد تم إنشاؤه في القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي خلال عهد الإمبراطور هرقل لمواجهة الأخطار الخارجية، اتخذ اسمه من اسم الأرمن الذين كانوا يقيمون فيه وبجواره – لكثرتهم العددية، انظر: Charanis., The Armenians, p. 19

(٧٥) Eric McGeer .,Decree,pp. 124-125.

لمزيد من المعلومات عن مرسوم الإمبراطور نقفور فوقاس، انظر:

Eric McGeer .,Decree,pp. 123-137.

(٧٦) Eric McGeer ..Decree,p. 124.

(٧٧) Charanis ., Population,p. 148

(٧٨) ابن حوقل: **كتاب صورة الأرض**، بيروت، ١٩٩٢م، ص ١٩١-١٩٢.

(٧٩) Charanis ., Population,p. 149.

(٨٠) Charanis ., Population,pp. 146-147;The Armenians.,p.32.

(٨١) Janet Hamilton *and* Bernard Hamilton ., Heresies, p. 114.

(٨٢) Zonaras., Historiarum,T.3,pp.521-522 ; Janet Hamilton *and* - AY Bernard Hamilton., Heresies,, p. 114

(٨٣) Charanis., Population,p. 146.

(٨٤) Charanis., Population,p. 146.

(٨٥) ابن العديم: **زبدة الحلب من تاريخ حلب**، حققه وقدم له الدكتور سهيل زكار، الجزء الأول (دمشق، ١٩٩٧م، ص ١٨٦-١٨٧، السيد الباز العريني، **الدولة**، ص ٥٩٤-٥٩٦.

(٨٦) Cedrenus.,Historiarum,II.pp.453,461;Charanis.,Population,pp.148- - Al 149.

انظر أيضاً: هانئ البشير: **بلغاريا**، ٢٠٥.

تم تقسيم أقاليم دولة البلغار الأولى إلى عدة ثيمات جديدة هي ثيم بلغاريا وقاعدته سكوبلج Skoplje في غرب مقدونيا. وثيم باريستريون Paristrion ويعرف أيضاً باسم Paradunavon ويضم الإقليم الممتد بين الدانوب الأدنى وجبال البلقان وقاعدته سيلستريا على نهر الدانوب. ثيم سيرم في أقصى الشمال وقاعدته سيرم على السافا وربما ضم مدينة بلجراد Belgrad، التي تقع على ملتقى الدانوب بنهر السافا. كذلك قامت الحكومة البيزنطية بتدعيم ثيم دالماشيا فإضافة الإقليم الخلفي له. انظر: وسام فرج: **السلاف في شبه جزيرة البلقان**، ص ١٢٤، حاشية رقم ١٣٣.

(٨٧) البشناق من الشعوب التركية المنتمية إلى قبائل الغز، التي كانت تقطن التركستان "بلاد الترك" وفي فترة مبكرة من تاريخهم اضطروا للهجرة نحو العرب، فمروا بكييف ثم اتجهوا جنوباً. انتهى بهم المطاف للاستقرار في منطقة لبيديا Lebedia عام ٢٨٠هـ/٨٩٣م، ثم ارتبطت هجرتهم بعد ذلك إلى المنطقة الممتدة من نهر السيرت، بما يجري من تطورات سياسية في منطقة البلقان،

- انظر: قسطنطين بورفيروجينتوس: **إدارة الإمبراطورية**، ص ٥٦-٥٧؛ المتولي تميم: **البشناق والبيزنطيون**، دراسة في سياسة بيزنطة الشمالية (٨٥٠-١١٢٢م)

رسالة ماجستير بلم تنشر بعد كلية الآداب، جامعـــة المنــصورة، ١٩٩٦م) ص ٤٤-٥١.

(٨٨) Oikonomides,N.,"Recherches sur L' histoire du Bas-Danube XIe siecles: la Mesopotamia de L' occidenf 'dans, aux xe- -A A Revue des Etudes sud-Est Europeennes.3 (1965) .p.78.

انظر أيضاً: المتولي تميم، **البشناق**، ص ١٠٢.

ولمعرفة الخلافات بين المؤرخين حول عدد المهاجرين مـــن البـــشناق وســـبب الهجرة وتاريخها، انظر أيضاً: المتولي تميم، **البشناق**، ص ١٠٣-١٠٥.

(٨٩) Cedrenus.,Historianim,II.pp.852-854;Zonaras., Historiarum, T. III, p. 641

انظر أيضاً: عمر كمال توفيق: **تاريخ الدولة البيزنطية**، تقديم الدكتور، محمـــود سعيد عمران، الإسكندرية ٢٠٠٣م، ص ١٧٣، السيد الباز العريني: **الدولة**، ص ٧٦٦-٧٦٧؛ المتولي نعيم، **البشناق**، ص ١٠٢.

(٩٠) Constantine Porphyrogenitus., De Thematibus Orientis et occidentis, in PG, ed Migne,Vol.22(Paris ,1864)Col.95,; Charanis., Population, p. -.146.

(٩١) Charanis.,Population,p.l47.

(٩٢) وسام عبد العزيز فرج: **دراسات**، ج١، ص ٢٥٢-٢٥٣.

(٩٣) عن دور هؤلاء المردة في الأسطول البيزنطي: انظر: هانئ البشير: **البحريـــة**، ص ١٦١-٢٦١.

النفقات في العراق في العصر السلجوقي
٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م- ٥٩٠هـ/ ١١٩٣م
"نفقات دار السلطنة والخلافة"

الدكتور
صبحي محمود العزام
قسم التاريخ
كلية العلوم الاجتماعية
جامعة مؤتة

الدكتور
عيسى محمود العزام
قسم العلوم الإنسانية
كلية العلوم والآداب
جامعة العلوم والتكنولوجيا

المملكة الأردنية الهاشمية- الكرك

الملخص:

كان الباحثون والدارسون قد اهتموا في دراسة الإيرادات المالية للدولة الإسلامية، دون اهتمام يذكر للنفقات العامة، فموضوع النفقات لم يدرس بصورة متخصصة خلال الحقبة. لهذا كان جدة الموضوع وحداثته، الدافع لدراسة الموضوع. وقد تناول البحث نشأة السلاجقة والمصادر المالية للدولة السلجوقية، كما درس الفائض المالي بعد النفقات ونفقات دار السلطنة والخلافة المتمثلة بنفقات مال البيعة ونفقات القصور السلطانية ونفقات نساء السلاطين والخلفاء وما كان ينفق على تأديبهم وتعليمهم. كما

بحث النفقات التي خصصت لبني طالب. ونفقات الفقهاء والعلماء، والأدباء والشعراء، والأطباء وكبار المغنين والملهين، وأخيراً نفقات التعليم والمتصوفة.

Abstract

Payments in Iraq in Seljugds Century

447/1055-590/ 1193

"The payment`s of A L-Sultan and Caliphate Department"

The researchers and readers gave their attention to study the financial outcomes in Islamic country, with out any attention of general payments in this country, so, it subject of the payments isn't studied in specialization way through that period and all the previous studies, were referring rarely to money payments ways in little pages or in some lines. So the modernity of the subject the research investigated briefly the financial in creasing after payments and the payments of AL-Sultan and caliphate department represented in promise money and the payments of sultans and Khalifates castle, and the payments then the payments for Bani Taleb, then the research investigated the payments of scientists, poets, doctors, singers and AL-Soufi learning payments.

تمهيد:

١- نشأة السلاجقة:

يجمع معظم المؤرخين، على أن السلاجقة يرجع أصلهم إلى الأتراك الغز التركمان[١] وكان الموطن الأصلي للشعوب التركية ومنها الغز هي سهول أوراسيا التي عرفت عند الجغرافيين العرب باسم تركستان[٢] وخلال القرون الثاني والثالث والرابع للهجرة، أخذت هذه القبائل ترحل من موطنها الأصلي في أقصى سهول تركستان، إلى أن استقرت في إقليم ما وراء النهر، وهناك استقروا في نواحي جند[٣] وبخارى[٤] وهناك اعتنق سلجوق بن دقاق جدهم الأعلى الدين الإسلامي على المذهب الحنفي، وكان لدخولهم الإسلام "الأثر في التقريب بينهم وبين السامانيين[٥] الذين وقفوا إلى جوارهم في صد غارات الأتراك الوثنيين والقراخانيين[٦] وفي مدينة جند توفي سلجوق بن دقاق[٧] الذي كان له أربعة أولاد هم أرسلان (إسرائيل) وميكائيل وموسى وبيغو[٨].

وقد كان إسرائيل قد قاد هجرة السلاجقة جنوباً نحو خراسان[٩] مستغلاً زوال الدولة السامانية عام ٣٨٩هـ/ ٩٩٨م وتوزع أراضيها بين القراخانيين والغزنويين[١٠] وتولي قيادة السلاجقة ميكائيل بن سلجوق، بعد القبض على إسرائيل من قبل السلطة الغزنوية[١١] وتمكن عام ٤١٦هـ/١٠٢٥م في عبور خراسان وتوحيد صفوف السلاجقة[١٢] ورغم الهزيمة التي تلقاها السلاجقة في رباط فراوه[١٣] إلا أنهم أعادوا ترتيب صفوفهم تحت قيادة طغرل بك بن ميكائيل، الذي اختير زعيماً لهم[١٤] وفي عهد السلطان مسعود بن محمود الغزنوي[١٥] امتلك السلاجقة خراسان بعد الانتصارات التي حققوها على السلطة الغزنوية في نسا[١٦] وباب سرخس[١٧]. وداندنقان[١٨] وقد استغل السلاجقة انتصاراتهم، وضموا إلى ممتلكاتهم الأجزاء

الجنوبية والوسطى من إيران[١٩] إضافة إلى خراسان وعندما تأزم الوضع السياسي في بغداد، سار السلطان طغرل بك إلى العراق ودخله عام ٤٤٧هـ/١٠٥٥م.[٢٠]

٢- الموارد المالية للدولة السلجوقية: التي كانت تمثل بـ:

١) الخراج: الذي يقال أن السلطان طغرل بك لما قدم بغداد عام ٤٥٥هـ/١٠٦٣م، أقام بها من رجاله حراساً وجباةً[٢١] واهتمت السلطنة السلجوقية بتنمية الخراج عن طريق العناية بوسائل الري[٢٢] والاقتصاد في الجباية[٢٣] وإسقاط الضرائب الإضافية عن المزارعين[٢٤] وأحياناً إسقاط الخراج[٢٥] وكان النظام المتبع في الجباية فرض قدر معين من المال على المقطع[٢٦]. وأحياناً إتباع نظام المقاسمة مع الفلاحين[٢٧] وأحياناً أخرى تضمين الخراج[٢٨].

٢) الجوالي أو ما يسمى بالجزية وقد كانت السلطنة تعين عاملاً لجبايتها يعرف بعامل الجوالي[٢٩].

٣) الجزية المقدمة من القوى المسيحية خوفاً من بطش السلطنة السلجوقية فالإمبراطورية البيزنطية مثلاً قدمت الجزية للسلطنة السلجوقية عام ٤٦٣هـ/١٠٧٠م قدرت بثلاثمائة وستين ألف دينار سنوياً[٣٠].

٤) غنائم الحروب التي كانت مصدر من مصادر الثروة لدى السلاجقة في صراعها مع القوى المحيطة بها فالسلطان ألب أرسلان[٣١] أثناء هزيمته للامبراطورية البيزنطية عام ٤٦٣هـ/١٠٧٠م، في منازكرد حصل على غنائم حتى تقاسم أجناده الذهب والفضة بالأرطال[٣٢].

٥) ضريبة المواريث الحشرية: ويقصد بها الأموال التي يموت عنها أربابها دون وجود وارث شرعي لها، وكانت تجمع بواسطة عامل يسمى متولي التركات[٣٣]

وكانت هذه الضريبة الغير شرعية أحياناً تجبي للخاتون زوجة السلطان(٣٤) وأحياناً أخرى للعميد والشحنة(٣٥).

٦) المصادرات، التي ازدادت ظاهرتها في العصر السلجوقي سواء لرجال الدولة كما فعل السلطان ملكشاه(٣٦) حين صادر وزيره نظام الملك الطوسي (ت٤٨٥هـ/١٠٩٢م) (٣٧) وكافة الرجال التابعين له(٣٨) أو للتجار(٣٩) وعامة الناس التي تجاوزت مصادرتهم حد الوصف(٤٠).

٧) المكوس: إذ كان العصر السلجوقي أكثر العصور فرضت فيه المكوس على الرعايا، إذ فرضت مكوس على ما يباع في الأسواق بمختلف أنواعها(٤١) فيما عرف بحق البيع للسلطان(٤٢) وضرائب فرضت على الأملاك(٤٣) وهناك ضرائب فرضت على المنتجات الزراعية(٤٤) وضرائب على دور الضرب(٤٥) وجبايات الشرطة[٤٦] وعلى أثمان الخمور ومهور البغايا(٤٧).

٨) نهب الجيوش التي كانت مصدر من المصادر المالية التي اعتمدت عليها السلطنة السلجوقية منذ بداية أمرها إذ لما استولت الدولة السلجوقية على جميع خراسان سنة ٤٣٢هـ/١٠٤٠م مارسوا النهب بشكل تجاوز الوصف(٤٨) وعندما دخل السلطان طغرل بك العراق نهب السواد والجانب الشرقي من بغداد حتى نزل العسكر في دور الناس وارتكبوا المحظورات(٤٩).

٣- دراسة الفائض المالي بعد النفقات:

يهدف هذه المبحث إلى توضيح ما خلفه السلاطين من أموال، وذلك لأن الأموال التي خلفها أولئك السلاطين، تعكس سياستهم تجاه الإنفاق، وخلال الحقبة كان السلطان ألب أرسلان (٤٥٥هـ-٤٦٥هـ/١٠٦٣-١٠٧٢م). قد وفر الكثير من الأموال إذ قام وزيره نظام الملك الطوسي بعد وفاته. بأخذ البيعة لابنه ملكشاه (٤٦٥هـ-٤٨٥هـ/١٠٧٣م-١٠٩٢م). بعد أن زاد في جامكيات الأمراء، ما مقداره سبعمائة

ألف دينار[٥٠]. والسلطان ملكشاه، الذي امتاز بكثرة النفقات العسكرية والعمرانية[٥١]. بلغ ما خلفه في خزائنه عشرين ألف ألف دينار[٥٢]. وهو مبلغ يساوي خراجه السنوي الذي يصل إلى عشرين ألف ألف دينار[٥٣]. وهذه الأموال التي تركها السلطان وقعت بين يدي زوجته تركان خاتون[٥٤]. التي أنفقتها على العسكر والناس في سبيل البيعة لابنها الصغير محمود[٥٥].

وكانت الحرب التي وقعت بين السلطان بركياروق (٤٨٧-٤٩٨هـ/١٠٩٤-١١٠٤م)[٥٦]. والسلطان محمد(٤٨٧-٥١١هـ/١٠٩٤-١١١٧م)[٥٧]. حول عرش السلطنة قد أصاب الناحية الاقتصادية بالشلل لعدة سنوات، لذلك لا تتحدث المصادر عن مقدار ما خلفه السلطان بركياروق. أما السلطان محمد فقد بلغ الوفر في عهده درجة من الكثرة، إذ بلغ ما خلفه ثمانية عشر ألف ألف دينار عينا، سوى المصوغات من الجواهر وأصناف الثياب[٥٨]. وقيل أحد عشر ألف ألف دينار[٥٩]. ويؤكد ذلك أن ابنه السلطان محمود (٥١١-٥٢٥هـ/١١١٧-١١٣٠م)[٦٠]. وجد له في قلاع أصبهان[٦١]. من أواني الذهب والفضة ما يقارب مائة وثمانين رطلاً[٦٢]. وهذه الأموال التي تركها السلطان وقعت بين يدي أمرائه، الذين أفرغوا خزائن السلطان من الذهب، وتقاسموا المضوغات من الحلي والأواني والآلات والثياب والخيل حتى استاقوا الأغنام وتقاسموا الكباش منها والنعاج[٦٣]. أما السلطان محمود، فقد أنفق ما خلفه والده في العسكر، وبلغ ما أنفقه عشرة آلاف ألف دينار[٦٤]. وقيل مائة وثمانين رطلاً من الذهب[٦٥]. كما أكثر من الإنفاق لكثرة حروبه[٦٦]. وحياة البذخ التي كان يحياها، إذ أن دار السلطنة حين احترقت في بغداد عام ٥١٥هـ/١١٢١م، ذهب فيها من الذهب والفرش والآلات والجواهر ما يزيد ثمنه على ألف ألف دينار[٦٧]. لذلك لا تتحدث المصادر عن مقدار ما خلفه من أموال. أما السلطان مسعود (٥٢٧-٥٤٧هـ/١١٣٠-١١٥٣م)[٦٨]. فلم يؤثر عنه الاهتمام بجمع المال، إذ كان يقسم عائدات المملكة، على الخير وعلى الموجودين في حضرته، لذلك كانت خزائنه خالية

من النقود والحلي والجواهر[٦٩]. أما السلطان سنجر(٤٩٢-٥٥٢هـ/١٠٩٨-١١٥٧م)[٧٠]. فقد بلغ ما خلفه من الجواهر ألف وثلاثين رطلاً[٧١]. وهذا، لم يجتمع يوماً ما في خزائن خليفة أو ملك[٧٢].ويؤكد ذلك أن الغز حين دخلوا دار مملكة السلطان سنجر في خراسان عام ٥٤٧هـ/١١٥٢م، وجدوا الخزائن مملوءة، فنهبوا في اليوم الأول الذهب والفضة، وفي اليوم الثاني الأشياء النحاسية والرصاصية والحديدية وفي اليوم الثالث الوسائد والمراتب والجرار والدنان والأبواب الخشبية[٧٣].

وبلغ الوفر في عهد السلطان أبي شجاع محمد(٥٤٧-٥٥٣هـ/١١٥٢-١١٥٨م) [٧٤]. درجة من الكثرة إذ ترك أموالاً وجواهر ومعادن وحلي وخيول ومواشٍ لا حصر لها[٧٥]. وينطبق هذا الثراء على أمرائه فمثلاً الأمير خاصبك بك[٧٦]. بعد قتله وجد العسكر في خزائنه ثلاثة عشر ألف ثوب من الأطلس الأحمر[٧٧]. وسبع دنان كبيرة قد خصصها لشرب الخمر، وأدوات فضة، وأربعمائة بغل مجهزة للسفر[٧٨]. ومن الخلفاء كان الخليفة المسترشد بالله (٥١٢-٥٢٩هـ-١١١٨-١١٣٤م)[٧٩].الخليفة الوحيد الذي وفر من الأموال الكثير، إذ حين وقع الخليفة في أسر السلطان مسعود عام ٥٢٩هـ/١١٣٤م، وجد معه من الأموال الكثير إذ يقال أن صناديق المال التي كانت على مائة وسبعين بغلاً تقدر قيمتها بأربعة آلاف ألف دينار، والرحل كانت على خمسمائة جمل، إضافة إلى عشرة الآف عمامة[٨٠]. وعشرة آلاف جبة[٨١]. وعشرة آلاف قباء[٨٢]. وقدر ما نهب بعشرة آلاف ألف دينار[٨٣]. وفي رواية أنه كان يحمل معه سبعون حمل بغل ذهب وخمسة آلاف حمل جمل فضة، وأربعمائة حمل بغل أقمشة، وأربعون ألف من العمائم والطرابيش والأقمصة الكاملة[٨٤].

٤- نفقات دار السلطنة والخلافة:

يقصد بنفقات دار السلطنة والخلافة، كل ما يتعلق بالسلطان والخليفة منذ بيعته حتى انتهاء سلطنته، أو خلافته ويتضمن ذلك نفقات مال البيعة، ونفقات المطابخ والخدم،

وأفراد الأسرة عموماً كالأولاد والزوجات، وما يحيط بالسلطان والخليفة وما يتصل بهما من العلماء والشعراء والأطباء وكبار الملهين.

١ – مال البيعة

البيعة هي العهد على الطاعة والرضى بقبول الشخص المبايع سلطاناً على المسلمين(٨٥). وهناك نوعان من البيعة الخاصة وتتم بين المرشح للسلطنة والخلافة وكبار معاونيه ومستشاريه، والبيعة العامة وتتم بين السلطان أو الخليفة وجمهور الناس علنا(٨٦). ومال البيعة كان يدفع عند البيعة بولاية العهد، أو تقلد السلطان زمام الأمور في الدولة. وغالباً ما يدفع مال البيعة إلى الجند. والإشارات عن مال البيعة للسلاطين قليلة فالسلطان ملكشاه صرف مال البيعة للأمراء عندما جلس على سده السلطنة عام ٤٦٥هـ/١٠٧٢م (٨٧). إذ زاد في جامكيات الأمراء بمقدار سبعمائة ألف دينار(٨٨). وعندما أخذ البيعة بولاية العهد إلى ابنه أبي شجاع أحمد الملقب بملك الملوك عام ٤٨١هـ/١٠٨٨م قام بنثر الذهب على الخطباء في البلاد عند ذكره في الخطبة(٨٩).

وعندما توفي السلطان ملكشاه، قامت تركان خاتون زوجته، بإنفاق عشرين ألف ألف دينار على الجند، في سبيل أخذ البيعة لابنها محمود بالسلطنة(٩٠). وعندما تولي السلطان محمود عرش السلطنة فرق ، عشرة آلاف ألف دينار على العسكر(٩١). والسلطان أرسلان شاه بن طغرل (ت٥٥٣هـ-٥٧٠هـ/١١٥٨م- ١١٧٤م)(٩٢). عندما اعتلى عرش السلطنة قام أتابكه شمس الدين ألدكز(٩٣). بالخلع على سائر أمراء العراق وآران(٩٤). الخلع السنية (٩٥). وسليمان شاه بن محمد (ت٥٥٦هـ-١١٦١م) لما خطب له قام بنثر الدراهم والدنانير على الخطباء(٩٦).

وكما كان سائداً عند السلاطين مال البيعة فقد كان سائداً أيضاً عند الخلفاء فالراشد بالله (٥٢٩هـ-٥٣٠هـ/١١٣٤م- ١١٣٥م)(٩٧). لما بويع عام (٥٢٩هـ/ ١١٣٤م) قام

بنثر الدنانير على الخطباء[٩٨]. وفرق على العسكر بما طابت نفوسهم، وأطلق النفقات على جاري العادة[٩٩].

والمقتفي لأمر الله (٥٣١هـ-٥٥٥هـ/١١٣٦-١١٦٠م)[١٠٠]. لما بويع عام ٥٣١هـ/١١٣٦م أنفق في حفل مبايعته عشرة آلاف دينار[١٠١].

والمستنجد بالله (٥٥٥هـ-٥٦٦هـ/١١٦٠-١١٧٠م)[١٠٢]. لما بويع عام ٥٥٥هـ/١١٦٠م نثر الدنانير والدراهم على الخطباء[١٠٣]. والمستضيء بأمر الله (٥٦٦هـ-٥٧٥هـ/١١٧٠م-١١٧٩م)[١٠٤]. لما بويع عام ٥٦٦هـ/١١٧٠م فرق أموالاً على الهاشميين والعلويين والعلماء والأربطة وخلع الخلع على أرباب الدولة حتى حكى خياط المخزن أنه فصل لتلك المناسبة ألف وثلثمائة قباء أبريسم[١٠٥].

ونثر الناصر لدين الله (٥٧٥هـ-٦٢٢هـ/١١٧٩م-١٢٢٥م)[١٠٦]. الدنانير والدراهم على الخطباء عام ٥٨٥هـ/١١٨٩م بعد أن خطبوا لولي عهده أبي نصر محمد[١٠٧].

٢- نفقات القصور

لقد تنوع الإنفاق على القصور السلطانية، فمنها ما كان ينفق على الطعام، ومنها ما كان ينفق على الخدم والحشم وشراء الجواري، إضافةً إلى نفقات ولائم الزواج، ولنبدأ بالنفقات على طعام السلاطين والخلفاء ومشاربهم، فالسلطان طغرل بك، كان حريصاً على أعداد الخوان[١٠٨]. للجند وتهيئة ضروب الطعام المختلفة، لهم إذ حين كان يستيقظ مبكراً للتنزه أو الصيد، كان يحمل موكبه عشرون وسقاً من الأطعمة[١٠٩]. وأقام السلطان طغرل بك سماطاً للخليفة القائم بأمر الله سنة ٤٥٢هـ/١٠٦٠م فاضل من قبله من الخلفاء[١١٠]. أما السلطان ألب أرسلان، فقد كانت موائده متنوعة، فهناك سماط للعسكر والأمراء[١١١]. وسماط لإطعام الفقراء، يذبح فيه كل يوم خمسين رأساً من الغنم[١١٢]. هذا ولم نعثر على نفقات طعام السلطان بركياروق والسلطان محمد والسلطان محمود[١١٣]. أما السلطان مسعود، فيذكر أنه أقام سماطاً عظيماً في بغداد

سنة ٥٣٥هـ/١١٤٠م بمناسبة انضمام بهروز الخادم(١١٤) للفتوة بحيث زينت بغداد لعدة أيام(١١٥).

ولم نعثر على نفقات طعام السلطان أرسلان شاه بن طغرل سوى رواية عن دعوة أقامها أحد أمرائه (١١٦) أنفق عليها مائة وخمسين ألف دينار، كان منها خمسة وسبعين ألف دينار عينا(١١٧).

أما نفقات طعام الخلفاء فيذكر أن الخليفة القائم بأمر الله(١١٨) أقام سماطاً للسلطان طغرل بك عام٤٥١هـ/١٠٥٩م(١١٩).والخليفة المقتدي بأمر الله(١٢٠) أقام سماطاً للسلطان ملكشاه والأمراء الأتراك عام ٤٨٠هـ/١٠٨٧م كان فيه أربعون ألفاً منَ من السكر(١٢١). والخليفة المستظهر بالله (٤٨٧-٥١٢هـ/١٠٩٤-١١١٨م)(١٢٢). أقام سماطاً للأمراء عام ٥٠٣هـ/١١٠٩م(١٢٣).

وكان الخليفة المستنجد بالله أكثر إنفاقاً على الأسمطة، إذ أقام سماطاً عام ٥٥٩هـ/١١٦٣م حضره أرباب الدولة والصوفية، (١٢٤) وسماطاً عام ٥٦٠هـ/١١٦٤م (١٢٥). وسماطاً بمناسبة زواجه عام ٥٦٢هـ/١١٦٦م (١٢٦). وسماطاً بمناسبة الشفاء من مرضه عام ٥٦٦هـ/١١٧٠م(١٢٧). واعتاد وزيره عون الدين بن هبيره(١٢٨). إقامة أطباق الإفطار أيام شهر رمضان للصوفية وأرباب الدولة والفقراء وكانت تكلفة الطبق الواحد ثلاثة آلاف دينار(١٢٩). إضافةً إلى أطباق الحلوى التي كان فيها ألف رطل وأربعمائة رطل من الحلاوة والسكر(١٣٠). وأكثر الخليفة المستضيء بأمر الله من إقامة الأسمطة لأرباب الدولة والعلماء والمتصوفة (١٣١). مثل سماط عام ٥٧١هـ/١١٧٥(١٣٢). وسماط عام ٥٧٢هـ/١١٧٦م (١٣٣). والخليفة الناصر لدين الله أكثر من بناء دور الضيافات في بغداد، مثل دار المضيف للحاج(١٣٤).

٣- نفقات النساء

لقد كثر الإنفاق على النساء في العصر السلجوقي، فالسلطان طغرل بك تزوج مرتين، الأولي كانت زنجان خاتون (ت٤٥٢هـ/١٠٦٠)[١٣٥]. والثانية ابنة الخليفة القائم بأمر الله وكان شرط الخليفة للموافقة على الزواج، أن يقدم السلطان ثلاثمائة ألف دينار، ويسلم واسط وجميع ما كان للخاتون المتوفاة من الأملاك والأقطاع والرسوم في سائر الأصقاع[١٣٦]. وتذكر المصادر أن السلطان أرسل مهر أربعمائة ألف دينار، ومائة ألف دينار ذهب ومائة وخمسين ألف درهم فضة وأربعة آلاف قطعة قماش جهاز[١٣٧]. وقد علقت المصادر على ضخامة المهر والجهاز "وأشياء كثيرة من الآت الذهب والفضة والحلي[١٣٨]. و"قدم لها تحفاً يقصر الوصف عن ضبطها"[١٣٩]. كما أرسل السلطان هدية للخليفة ثلاثين غلام من الأتراك على ثلاثين فرس، وعشرة آلاف دينار للخليفة وعشرة آلاف دينار لكريمته، وخمسة آلاف دينار لوالدتها وثلاثة آلاف دينار لولي عهده[١٤٠]. وحين خرجت ابنة الخليفة من بغداد كان معها من الفرش والآلات والجواهر والأواني الشيء الكثير"[١٤١].

وعندما دخل السلطان عليها، قدم لها في اليوم الأول عقدين فاخرين، وقطعة ياقوت، وفي اليوم الثاني جواهر وفرجية نسيج مكللة باللؤلؤ [١٤٢]. ومد سماط خلع فيه على وزيره عميد الملك الكندري[١٤٣]. وعلى جميع الأمراء والأكابر والقضاة [١٤٤]. ولا نجد نفقات نساء السلطان ألب أرسلان، أما السلطان ملكشاه فقد كان لزوجته تركان خاتون (ت٤٨٧هـ/١٠٩٤م) عشرة آلاف من الغلمان الأتراك[١٤٥]. كما تحكمت بأموال السلطان بعد وفاته، إذ أرسلت خمسمائة ألف دينار إلى ابن السلطان بركياروق[١٤٦]. على أن يترك المنافسة في السلطنة، والبيعة لولدها[١٤٧]. إضافة إلى الأموال التي وزعت على الجيش في سبيل البيعة لإبنها [١٤٨].

والسلطان مسعود يذكر عنه أنه أقام احتفالاَ لمدة أسبوع في بغداد بمناسبة زواجه من سفرى بنت دبيس بن صدقة عام ٥٣٤هـ/١١٣٩م[١٤٩]. أنفق فيه أموالاً كثيرة على المقربين[١٥٠]. والسلطان محمد أكثر من الإنفاق على زواجه من ابنه ملك كرمان عام ٥٤٠هـ/١١٤٥م إذ أقام سرادق عديدة، وأحضر المطربين احتفالاً بالمناسبة[١٥١].

والسلطان محمد، كان محسناً لأخته كوهرست إذ حين توجهت إلى خوزستان[١٥٢]. لزيارة أبيها ملكشاه[١٥٣]. كانت تحمل من الذهب أحمالاً [١٥٤]. والسلطان أرسلان شاه ابن طغرل (ت٥٧٠هـ-١١٧٤م) كانت والدته ترسل الصدقات والصلات إلى الزهاد بشكل متواصل[١٥٥].

أما نساء الخلفاء، فيذكر أن القائم بأمر الله قدم مائة ألف دينار صداق زواجه من ابنة الملك داوود أخ السلطان طغرل بك عام ٤٤٨هـ/١٠٥٦م[١٥٦]. وإقطاعاً على دجلة باثني عشر ألف دينار[١٥٧].ومائة ثوب ديباج وفص ذهب وطاسة ذهب [١٥٨]. وعندما خطب الخليفة القائم ابنه السلطان ألب أرسلان لولي عهده عام ٤٦٥هـ/١٠٧٢م، نثر من الدراهم والجواهر الكثير[١٥٩]. على رجال دولته.

والخليفة المقتدي بأمر الله حين خطب ابنة السلطان ملكشاه، بذل أربعمائة ألف دينار منها خمسين ألف دينار معجل[١٦٠]. وأرسل هدايا بعشرة آلاف دينار، وخمسين ألف دينار حق الرضاعة على عادة الترك، ومائة ألف دينار مهر[١٦١]. وأقام سماطاً لأمراء السلطان كان فيه أربعون ألف منّ من السكر[١٦٢]. وكان جهاز العروس قد نقل على مائة وثلاثين جملاً مجللة بالديباج، منها اثنا عشر صندوقاً من فضة مملوءة بالحلي والجواهر [١٦٣]. وخرجت ابنة السلطان إلى بغداد وعليها من الذهب والجواهر مالاً يحاط به[١٦٤]. وكان الخليفة أيضاً كثير الصلة لوالدته قرة العين، التي بنت رباطتً في مكة ورباطاً ببغداد[١٦٥]. ولا نجد عن زواج الخليفة المستظهر بالله من الخاتون أخت السلطان محمد بن ملك شاه، لكن نفقات الخاتون كانت كثيرة إذ حين عادت إلى بغداد

عام ٥٠٤هـ/١١١٠م كان معها من الخيل والجواهر والغلمان والجواري ما لا يدركه حزر [١٦٦]. وبلغ إجمالي نفقات زواج الخليفة المقتفي لأمر الله من أخت السلطان مسعود عام ٥٣١هـ/١١٣٦م مائة ألف دينار صداق، ولما زفت إليه ظهر معها من الذهب والأموال والجواهر ما لم ير مثله قط [١٦٧]. إذ كان عرساً مشهوداً[١٦٨].لم يسمع بمثله[١٦٩]. وكانت بنفشه زوجة المستضيء بأمر الله ذات بر، إذ أقامت جسراً على الفرات عام ٥٧٠هـ/١١٧٤م[١٧٠].وحولت الدار التي تملكها إلى مدرسة سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م[١٧١]. وأنشأت رباطاً في سوق المدرسة للصوفية عام ٥٧٣هـ/١١١٧[١٧٢].

٤- نفقات أولاد السلاطين والخلفاء

لم تعرف المخصصات الشهرية التي كانت تصرف لأبناء السلاطين وأحفادهم، غير أن المصادر تتحدث في مناسبات معينة عن نفقات أخرى كالاحتفال بولادة الأولاد الذكور، وتحمل السلاطين والخلفاء نفقات تزويجهم، ونفقات الختان، والتأديب.

فالسلطان مسعود لما ولد له ولد ذكر من ابنة قاورت عام ٥٣٤هـ/١١٣٩م أقام احتفالاً ببغداد [١٧٣]. وحين ولد ذكر أخر له من ابنه دبيس بن مزيد سنة ٥٣٧هـ/١١٤٢م، أقام احتفالاً آخر لمدة سبعة أيام[١٧٤]. وكذلك كان يفعل الخلفاء، فالخليفة المقتدي بأمر الله حين ولد له ذكر من ابنه ملك شاه عام ٤٨٠هـ/١٠٨٧م زين البلد[١٧٥]. والخليفة المسترشد بالله حين ختن أولاده عام ٥١٧هـ/١١٢٣م زين بغداد، وصنعت الخاتون قبة علقت عليها الديباج والجواهر، وقبة عليها غرائب الحلي والحلل [١٧٦]. والخليفة المقتفي لأمر الله حين ختن ولده خلع الخلع وأقام سماطاً للأمراء الأتراك[١٧٧]. والخليفة المستضيء بأمر الله حين ختن ولده عام ٥٦٨هـ/١١٧٢م، فرق الخلع وعمل الأسمطة، ذبح فيها ثلاثة ألاف دجاجة وألف رأس من الغنم[١٧٨].

٥- نفقات بني طالب:

بنو طالب هم الأشراف من نسل علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقد كان السلاطين السلاجقة يراعونهم ويفرضون لهم الجرايات والصلات[١٧٩]. ولا تقدم المصادر معلومات واضحة عما كان يقدم للطالبيين من صلات غير أخبار بعض الصلات التي كان يتفضل بها الولاة والوزراء في عهود بعض السلاطين، فالأمير عماد الدين ساوتكين والي خراسان حين زار بغداد سنة ٤٧٦هـ/١٠٨٣م زار المشهد المقدس وأطلق المال للعلويين المقيمين فيه[١٨٠].والوزير أبو شجاع ظهير الدين[١٨١]. حين عاد إلى بغداد من الحج سنة ٤٧٩هـ/١٠٨٦ زار المشهدين الشريفين وأطلق للأشراف الموجودين بهما مالا جزيلاً[١٨٢]. ويذكر عن أبي عبدالله الثقفي رئيس اصبهان (ت٤٨٩هـ/١٠٩٥م) أنه كان دائم الإحسان إلى العلويين[١٨٣]. كذلك أولى الخلفاء العناية بالعلويين أيضاً فالخليفة المستضيء بأمر الله حين بويع سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠م فرق مالاً عظيماً على العلويين والهاشميين[١٨٤].

٦- نفقات المغنين والملهين:

قدمت المصادر الكثير من النصوص، على ما كان ينفق من المرتبات والصلات الكثيرة عليهم، فمثلاً عميد الملك الكندري وزير السلطان طغرل بك حين غنت له المغنية المشهورة ابنة الأعرابي أمر لها بألف دينار وللمرافقين لها بألف دينار أخرى[١٨٥].

والسلطان مسعود حين انضم بهروز الخادم للفتوة، جمع القيان وأظهر الناس بالمناسبة الطبول والزمور[١٨٦]. والسلطان ملك شاه بن محمود كان مفرطاً في اللهو والطرب[١٨٧]. و مجلسه مزدان بجميلات كشمير[١٨٨]. والسلطان أرسلان شاه ابن طغرل أنفق الكثير من المال على الحفلات والمطربين[١٨٩]. والسلطان طغرل الثالث

(٥٧٠-٥٩٠هـ/١١٧٤-١١٩٤م)[١٩٠]. كان له الكثير من المطربات أشهرهن زليخا[١٩١].

٧- نفقات الجواري والمماليك أو أثمان شراء الجواري والمماليك:

كان اقتناء الجواري والمماليك من مظاهر العصر السلجوقي ففي عهد السلطان ملكشاه، كان الوزير نظام الملك الطوسي قد أكثر من شراء المماليك الأتراك للخدمة في الجيش، بحيث نافت أعدادهم على عشرين ألف مملوك[١٩٢]. وجاميكاتيهم زادت على مائة ألف دينار في السنة[١٩٣]. كما كان للسلطان مماليك في دار السلطنة عليهم من الخصيان الرقباء، وعلى طوائفهم النقباء[١٩٤].

كما شاع اقتناء المماليك عند أمراء السلطان أيضاً، فعميد خراسان[١٩٥]. محمد ابن منصور النسوي[١٩٦]. اشترى مائة غلام ، وقام بإهدائهم إلى السلطان عندما علم بنبأ عزله [١٩٧]. والسلطان محمود اشترى يوماً ما مماليك من بعض التجار، وأمر التاجر أن يأخذ الثمن من والي خوزستان [١٩٨]. وكان وزيره أبو طالب السميرمي[١٩٩]. قد أكثر من شراء المماليك والجواري حتى أن زوجته حين خرجت للحج، كان يرافقها مائة جارية[٢٠٠]. وكان مجلس السلطان محمود بن ملك شاه مزداناً بمحبوبات لا نظير لهن[٢٠١]. والسلطان أرسلان شاه بن طغرل كان قد أكثر من إقامة الحفلات التي تزدان بالأمراء الأتراك في الألبسة الفاخرة[٢٠٢].

كذلك اعتنى الخلفاء بشراء المماليك والجواري فالخليفة المستظهر بالله حين فاضت دجلة والفرات سنة ٤٩٩هـ/١١٠٥م أخرج جواريه في سفن، وكان في أحد السفن تسع جوارٍ غاليات الثمن[٢٠٣]. وكمؤشر على اهتمام الخليفة بشراء الجواري والغلمان. إن الخاتون زوجته حين خرجت من بغداد إلى دار السلطنة سنة ٥٠٤هـ/١١١٠م كان معها من المماليك والجواري ما لم يسمع بمثله[٢٠٤].

٨- نفقات المؤدبين:

الذين كانوا يقومون بتأديب أولاد السلاطين والخلفاء، وكان يختار لهذه المهمة خيرة رجال العصر علماً وأدباً، وليس لدينا إشارة عن هذا الجانب سوى تكليف المستظهر بالله العالم أحمد بن عبد الوهاب (ت٥١٤هـ/١١٢٠م) بتعليم أولاده، ويظهر أن راتبه كان كبيراً، حتى أن المؤدب حين توفي كانت تركته ثلاثمائة ألف دينار(٢٠٥).

٩- نفقات الأطباء:

رغم الندرة في المعلومات التي تقدمها المصادر، إلا أن هناك اهتماماً سلجوقياً كبيراً في هذا المجال فيذكر مثلاً أن أبا الحسن بن التلميذ الطبيب لما استدعاه أحد السلاطين من بغداد، أعطاه السلطان العطايا الجمة من الأموال والمراكب والملابس والتحف(٢٠٦).

والوزير نظام الملك الطوسي كان قد أصلح أحوال المارستان العضدي، إذ عين له ثلاثة خزان وثمانية وعشرين طبيباً(٢٠٧). وشمس الملك بن نظام الملك أقام بيمارستان للمعسكر السلطاني، وكان يحمل آلاته وخيمته وأدويته والأطباء والغلمان والمرضى مائتي جمل(٢٠٨). والسلطان محمد حين مرض له عشرة من الغلمان سنة ٥٠١هـ/١١٠٧م بعث بهم إلى المارستان، وبعث معهم مائة دينار صرفت في مصالح المكان(٢٠٩).

أما عناية الخلفاء، فتتمثل في قيام الخليفة القائم بأمر الله بجعل النظر في المارستان العضدي إلى أبي القاسم عبد الرحمن أحمد بن رضوان سنة ٤٦٠هـ/١٠٦٧م لأمانته(٢١٠). والوزير أبو شجاع ظهير الدين وزير الخليفة المقتدي بأمر الله حين وقع مرض في زمانه بعث أنواع الأشربه والأدوية إلي أصقاع البلد(٢١١). كما يرد ذكر براعة أبو المعالي الغزالي (ت٥٣٨هـ/١١٣٦م) ساقي الأدوية بالمارستان العضدي(٢١٢).

١٠- نفقات الفقهاء والعلماء:

كانت العلاقة وثيقة بين السلاطين والفقهاء والعلماء، كالحفاظ والمحدثين، الذين كانوا يحضرون مجالس السلاطين، ويقدمون فيها الرأي والمشورة، لذلك قربهم السلاطين والخلفاء وأحسنوا إليهم.

فالسلطان ألب أرسلان كان قد أكرم أبا القاسم القشيري الملقب زين الإسلام حين ذهب إليه(٢١٣). والسلطان ألب أرسلان أيضاً قلد عمر بن عبد الله بن الحسين (ت٤٨٤هـ/١٠٩١م) التدريس في مدرسته التي أنشاها في نيسابور(٢١٤)، والإشراف على أوقافها ناهيك عن تقلده القضاء في المدينة(٢١٥). والسلطان ملكشاه ووزيره نظام الملك الطوسي كانوا أكثر عناية بهذه الفئة، فمحمد بن أحمد بن محمد بن إسحاق (ت٥٠٧هـ/١١١٣م) نال المكانة عند السلطان في أصفهان(٢١٦). والوزير نظام الملك الطوسي أقام مدرسة في نيسابور لإمام الحرمين عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني (ت٤٧٨هـ/١٠٨٥م) تعرف بالمدرسة الميمونة(٢١٧).

وحين قدم نيسابور الفضل بن محمد بن علي شيخ الزهاد (ت ٤٧٧هـ/١٠٨٤م) عقد له نظام الملك مجلساً للوعظ، نال بفضله القبول عند الخاص والعام من الناس(٢١٨). وكان نظام الملك كثير التعظيم لعبد الواحد بن إسماعيل (ت٥٠٢هـ/١١٠٨م) (٢١٩). ولعبد الله بن محمد بن علي الأنصاري الهروى (ت٤٨١هـ/١٠٨٨م) (٢٢٠). كما كان الوزير كثير الإنفاق على هذه الفئة إذ حين وعظ المعمر بن علي بن المعمر نظام الملك أمر له بمائة دينار(٢٢١). كما أعطى عبد السلام بن محمد أبو يوسف القزويني شيخ المعتزلة (ت ٤٨٨هـ/١٠٩٥م) ثلاثمائة دينار(٢٢٢). واعتاد حضور سماطه أبي القاسم القشيري وأبي إسحاق الشيرازي وإمام الحرمين الجويني(٢٢٣). ورتب نظام الملك محمد بن محمد بن أحمد (ت٤٨٩هـ/١٠٩٥م) للتدريس في نظاميته بنيسابور(٢٢٤). واستقبل الفقيه الحنفي أبو المظفر السمعاني التميمي

(ت٤٨٩هـ/١٠٩٥م) فأكرمه وعقد له مجلساً للتذكير في المدرسة الشافعية بالمدينة(٢٢٥). واستمع لدروس الحافظ أبو علي البلخي (٤٧١هـ/١٠٧٨م) في نظامية بلخ(٢٢٦) وقام بتعيينه مدرساً بها(٢٢٧). وحين خرج الإمام أبو حامد الغزالي(ت٥٠٥هـ/١١١١م) إليه بالغ في إكرامه، وولاة المدرسة النظامية في بغداد(٢٢٨). كما رتب للتدريس في نظامية بغداد، عبد السيد بن محمد بن عبد الواحد أبي نصر بن الصباغ(٢٢٩)، الذي كان يشرف على نظامية بغداد حتى تكاملت عمارتها سنة ٤٥٦هـ/١٠٦٣م(٢٣٠). كما بني لإبراهيم بن علي بن يوسف الفيروز أبادي مدرسة على شاطئ دجلة(٢٣١). وقلّد للتدريس في نظامية بغداد عبد الوهاب بن محمد ابن عبد الوهاب الفقيه الشافعي (ت٥٠٧هـ/١١١٣م)(٢٣٢). وفي نظامية أصبهان محمد ابن ثابت الخجندي أبو بكر الشافعي (ت٤٨٣هـ/١٠٩٠) (٢٣٣). وحين هاجر إليه أبو بكر عتيق بن عبيد الله البكري من أهل المغرب، بعث به إلى بغداد وأجرى له الجراية (٢٣٤)، ويقال أنه أنفق على شيخ الشيوخ الساوجي، وعلى الفقراء في مدةٍ يسيره ثمانين ألف دينار(٢٣٥).

والسلطان تاج الدولة تتش(٢٣٦)، زار الفقيه أبو الفتح نصر بن أحمد المقدسي النابلسي الشافعي لمحبته له(٢٣٧). ونال أبو محمد بن محمد الطبري الفقيه الشافعي (ت٥٤٨هـ/١١٥٣م) عند السلطان بركيا روق المال والجاه (٢٣٨). والسلطان محمود كان قد جلس لأبي الفتوح الغزالي (ت٥٢٠هـ/١١٢٦م) أخ الإمام أبي حامد الغزالي، وقام بإعطائه ألف دينار (٢٣٩). والسلطان سنجر يذكر عند تعيينه في نظامية بغداد عبد الواحد الحسن بن محمد بن إسحاق الباخرجي (ت٥٥٣هـ/١١٥٨م) (٢٤٠). أما عناية الخلفاء فيذكر أن الخليفة القائم بأمر الله احتضن الفقيه أبو عمر النسوي وقلده القضاء(٢٤١). والفقيه أبي الفتح الأسفرييني حين زار بغداد سنة ٥١٦هـ/١١٢٢م سلمه الخليفة المسترشد بالله رباط الأرجوان(٢٤٢). ولما قدم أبو الحسن الغزنوني (ت٥٥١هـ/١١٥٦م) بغداد قامت زوجة المستظهر بالله بإكرامه وبناء رباط له(٢٤٣).

وكان الوزير عون الدين بن هبيره وزير الخليفة المقتفي لأمر الله، أكثر الوزراء إكراماً للعلماء، إذ أعطى الفقيه أبو محمد الأشتري المالكي مائة ديناراً[٢٤٤]، وأعطى المحدث أبو الفرج عبد الخالق بن يوسف خمسين دينار[٢٤٥]. واستقبل الخليفة المستضيء بأمر الله الفقيه شرف الدين بن أبي عصرون[٢٤٦]. وقلد الخليفة الناصر لدين الله الفقيه عبد الوهاب بن عبد القادر بن أبي صالح الجيلي (ت٥٩٣هـ/١١٩٦م) المظالم[٢٤٧]، وخلع على الفضل رضى الدين أبو الخير القزويني (ت٥٨١هـ/١١٨٥م) الطرحة والطيلسان في الديوان [٢٤٨].

١١- نفقات الأدباء والشعراء:

لقد عاش الأدباء والشعراء في حقبة الدولة السلجوقية في سعة من العيش، وبرز خلال الحقبة الكثير منهم، نتيجة الدعم الذي يقدمه السلاطين وأمرائهم إلي هذه الفئة نظراً لما كانوا ينقلونه من أخبار ونوادر وحكايات، ولما كانوا يجودون به من مدائح لهذا قدمت إليهم الأرزاق الجارية والصلات الكثيرة، فالمصادر تتحدث عن أن أل سلجوق كانوا محبين للشعر لطبيعتهم البدوية. فطغانشاه بن ألب أرسلان، كان كثير الحب للشعر، فمحادثته ومعاشرته كانت كلها مع الشعراء، كما كان من ندمائه الشعراء أمثال أبي عبد الله القرشي وأبي بكر الأزرقي، وأبي منصور بن يوسف، وشجاعي النسوي، وأحمد البديهي، وحقيقي ونسيمي. وهؤلاء كانوا مرتبين بالخدمة، يحصلون على مرتبات وصلات دائمة، أما باقي الشعراء فكانوا يفدون للحضرة في أوقات معينة، ويحصلون على الصلات والأرزاق بوفادتهم، ومن الطريف أن يحكي أن طغانشاه طرب لبيتين قالهما أبو بكر الأزرقي فبعث إليه طغانشاه بدرع من ذهب قيمته خمسمائة دينار[٢٤٩].

والوزير عميد الملك الكندري وزير السلطان ألب أرسلان كان أكثر حباً للشعر وإكراماً للشعراء إذ لما دخل عليه الشيخ علي بن الحسن الباخرزي مهنئاً بالوزارة خلع

عليه، ولما أنشده مادحاً أعطاه الوزير ألف دينار [٢٥٠]، وحين كتبت إليه الكاتبة أم الفضل فاطمة بنت الحسن المعروفة ببنت الأقرع [٢٥١]، رقعة أعطاها ألف دينار [٢٥٢]. وأعطى السلطان ملكشاه الشاعر المعزي فرساً تساوي قيمتها ثلاثمائة دينار، وقدم له ألف دينار ومنحه ألف دينار أخرى [٢٥٣]. والوزير نظام الملك الطوسي كان كثير الإنعام والإدرار على الشاعر ابن الهبارية [٢٥٤]، حتى حين مدحه في إحدى المناسبات خلع عليه وأعطاه خمسمائة دينار [٢٥٥]. والأتابك قزل أرسلان [٢٥٦]، كان محباً للشعر إذ كان الشاعر كمال المزدقان مقرباً منه، يخلع عليه الخلع الثمينة [٢٥٧]. وكذلك الخلفاء ووزرائهم كانوا محبين للشعر فالوزير عميد الدولة بن جهير [٢٥٨]، وزير المقتدي بأمر الله خصص للشاعر مجد العرب العامري مائة دينار كل سنة، وثوب أطلس وعمامه قصب وحصان [٢٥٩]. والخليفة المسترشد بالله تقدم عنده الكاتب والشاعر على بن أفلح (ت٥٣٣هـ/١١٣٨م) حتى لقبه جمال الملك، وأعطاه الذهب ورتب له الرواتب [٢٦٠]. والوزير أبو علي بن صدقة [٢٦١]، أجزل إلى الشاعر أبي عبد الله محمد بن خليفة السنبي العطاء [٢٦٢]، كما أجزل العطاء إلى الشاعر محمد بن خليفة أبو عبد الله النمري العراقي (ت٥١٥هـ/١١٢١م) [٢٦٣].

والوزير عون الدين بن هبيرة وزير الخليفة المقتفي لأمر الله، رزق الشعراء ما لم يرزقه أحد من الأكابر، وكان أكابر الشعراء المقربين منه الحيص بيص [٢٦٤]، وابن بختيار الأبلة [٢٦٥]، وابن التعاويذي، ومنصور النمري، والعماد الكاتب الأصفهاني [٢٦٦]. والخليفة المستضيء بأمر الله لما بويع ومدحه الحيص بيص، أعطاه ثلاثمائه دينار وأقطعه ضيعة كبيرة [٢٦٧]، كما سير إلى أبي البركات ابن الأنباري النحوي الشاعر (ت٥٧٧هـ/١١٨١م) خمسمائة دينار [٢٦٨].

١٢- نفقات التعليم:

كانت السلطنة السلجوقية والخلافة العباسية تشجع التعليم وتحتضن الفقهاء والعلماء فالسلطان ألب أرسلان بدأ عهده ببناء مدرسة في بغداد أنفق الأموال العظيمة عليها[٢٦٩]. والسلطان ملك شاه أنفق على العلماء الأموال الكثيرة[٢٧٠]، ونظام الملك الطوسي، أنشأ الكثير من المدارس والأربطة ووقف الوقوف عليها[٢٧١]، وكانت تلك المدارس ذات مستوى رفيع، وبذلك يكون أول من أمر بتأسيس المدارس ووضع نظامها[٢٧٢]، وكان أقرب الناس وأحبهم إليه العلماء[٢٧٣]، وقد قدر إنفاقه على الفقهاء والمتصوفة كل سنة بثلثمائة ألف دينار[٢٧٤]. وفي الفترة المتأخرة كانت والدة السلطان أرسلان شاه بن طغرل بك ترعى العلماء وترسل الصدقات والصلات إليهم[٢٧٥].

كما أولت الخلافة الجانب العلمي الأهمية، إذ أنفق فخر الدولة بن جهير[٢٧٦]، وزير الخليفة القائم بأمر الله في مدةٍ وجيزةٍ سبعمائة ألف دينار على الشعراء والعلماء والعسكر[٢٧٧]. وكانت الخاتون والده الخليفة المقتدي بأمر الله لهما معروف على الصوفية[٢٧٨]. ووقف بهرام بن بهرام (ت٥٢٠هـ/١١٢٦م) قطعة من أملاكه على الفقهاء في خلافة المسترشد بالله[٢٧٩]. وبالغ الوزير عون الدين بن هبيرة في تقريب الفقهاء، واجتهد في إكرامهم وإيصال النفع إليهم[٢٨٠]، وكان مجلسه عامراً بالعلماء والمتفقهة [٢٨١]. إذ حين ألف كتاب الإفصاح عن معاني الأحاديث الصحاح، رتب لحفظه ألف وثمانمائة طالب، وجعل لهم لتحفيظهم مائة وأربعين معيد، حتى لم يبق مسجد ولا مدرسة إلا ويلقى فيه درس من كتابه، وبعد حفظ الطلبة لدروسهم، كانوا يحضرون مجلس الوزير، فيوصل إليهم المبار والأنعام. حتى يقال أن ابن هبيرة أنفق على الكتاب ما مجموعه مائة ألف وثلاثة عشر ألف دينار[٢٨٢]. والخليفة المستضيء بأمر الله لما بويع عام ٥٦٦هـ/١١٧٠م فرق أموالاً، وخلع على أكثر الناس من الأشراف والفقهاء والعلماء[٢٨٣]. كما أقام الأسمطة إذ أقام سماطاً عام ٥٧٠هـ/١١٧٤م حضرة أرباب الدولة والعلماء والمتصوفة والقراء[٢٨٤]، وأقام سماطاً

عام ٥٧١هـ/١١٧٥م حضرة أرباب الدولة والعلماء والمتصوفة[٢٨٥]، وأقام سماطاً عام ٥٧٢هـ/١١٧٦م حضرة أرباب الدولة والعلماء والمتصوفة[٢٨٦]. وفي تلك الأسمطة كان يخلع الخلع ويفرق الأموال[٢٨٧]. وعضد الدولة أبو الفرج محمد بن رئيس الرؤساء حين قلد الوزارة للمستضيء فرق ذهباً، وحنطة على المقيمين بالمشاهد والمدارس والجوامع والأربطة[٢٨٨].

١٣- نفقات المتصوفة:

تشير الروايات إلى ازدهار حركة التصوف في العصر السلجوقي، بفضل رعاية السلطنة لهذه الحركة، بإغداق الصلات والهبات على أتباعها ومؤسساتها. فالسلطان ملكشاه أنشأ لأبي سعد النيسابوري رباطاً على نهر معلي في بغداد [٢٨٩]. والوزير نظام الملك الطوسي كان ينفق كل سنة ثلثمائة ألف دينار على الصوفية والقراء[٢٩٠]. كما أنشا الكثير من الأربطة للمتصوفة ووقف الأوقاف عليها[٢٩١]. وواصل السلطان محمود الاهتمام بالمتصوفة إذ أجلس الصوفي أبو الفتوح الغزالي في دار السلطنة ومنحه ألف دينار[٢٩٢]. وفي العصر السلجوقي المتأخر، كانت والدة السلطان أرسلان شاه بن طغرل ترسل الصلات والصدقات بشكل متواصل إلى الزهاد والمتصوفة[٢٩٣].

كما رعت الخلافة العباسية هذه الحركة، فالوزير أبو القاسم ابن المسلمة[٢٩٤]، وزير القائم بأمر الله كان قد خصص كل يوم لأبي علي الشرمقاني [٢٩٥]، ثلاثة أرطال خبز ودجاجة مشوية وقطعة حلوى[٢٩٦]. وقامت الخاتون زوجة المستظهر بأمر الله في احتضان أبو الحسن الغزنوي (ت٥٥١هـ/١١٥٦م) ببناء رباط له ووقف الأوقاف عليه[٢٩٧]. كما أنشأ قاضيه أبو الفتح الأرغياني (ت٤٩٨هـ/١١٠٤م) خانقاه للمتصوفة ووقف الأوقاف عليها[٢٩٨]. وفي عهد المستنجد بالله اشتهر أبو النجيب السهروردي (ت٥٦٣هـ/١١٦٧م) الذي كان إماماً في الشافعية وعلما في الصوفية[٢٩٩]. وفي عهد المستضيء بأمر الله أرتفع شأن الصوفية لعناية الخليفة بهم

ودعوة اتباعها إلى الأسمطة التي كان يقيمها، كما حصل عام ٥٧٠هـ/١١٧٤م، وعام ٥٧١هـ/١١٧٥م وعام ٥٧٢هـ/١١٧٦م مع توزيع الخلع والأموال عليهم(٣٠٠). كما اعتاد وزيره عضد الدولة ابن رئيس الرؤساء بإرسال الذهب والحنطة إلى المقيمين في المشاهد والأربطة(٣٠١).

الخاتمة:

يعدُّ موضوع النفقات في العراق في العصر السلجوقي، من الموضوعات الجديدة في دراسة الحضارة الإسلامية، ومن خلال الدراسة السابقة، برزت النتائج التالية:

- إن الفائض المالي بعد النفقات، قد اختلف من سلطان لآخر، فهناك من أكثر من الإنفاق، ، وهناك من اهتم بجمع المال والاقتصاد في النفقات.
- احتلّ مال البيعة مكاناً بارزاً في نفقات دار السلطنة والخلافة، لتفادي الفتن والثورات واستمالة قلوب الشعب والجند بإغداق الأموال وتوزيعها عليهم.
- كانت نفقات السلاطين والخلفاء على موائدهم ومشاربهم، قد تفاوتت بين السلاطين والخلفاء.
- كانت نفقات شراء الجواري والمماليك مرتفعة سواء في دار السلطنة أو دار الخلافة.
- من النفقات ما كان يخصص لزواج السلاطين والخلفاء المتكرر، إضافة إلى المبالغ المخصصة للإنفاق عليهن بحيث خصص لكثيرات رواتب جارية، شكلت عجزاً مالياً واضحاً لخزينة الدولة.
- تحملت مالية الدولة الإنفاق على أولاد السلاطين والخلفاء ومصاريف زواجهم، وختانهم، وتأديبهم.

- تحملت مالية الدولة النفقة على بني طالب، بصرف الرواتب لهم، ومنحهم الصلات والهدايا في كثير من المناسبات.
- كان من أبواب النفقات، الأموال التي صرفت على العلماء والفقهاء لاهتمام السلاطين والخلفاء بالعلم والعلماء.
- أما نفقات الأدباء والشعراء فقد احتلت مكاناً بارزاً في النفقات إذ كان كثيراً من السلاطين والخلفاء ووزرائهم يفخرون بما يقدمونه إلى الشعراء وكان من أثر ذلك حركة أدبية واسعة تمثلت ببروز الكثير من أعلام الشعراء كالأمير المعزى وحقيقي ونسيمي وغيرهم.
- من النفقات الأموال التي أنفقت على المغنين وكبار الملهين، نظراً للدور الذي قام به هؤلاء في تسلية السلاطين والخلفاء وتثقيفهم وترفيههم، إضافة إلى ما يقدمونه للدولة من مادة إعلامية عن طريق إشاعة الأغاني التي تعكس مدى الازدهار الحضاري.
- يعتبر التعليم جزءاً لا يتجزأ من مرافق الدولة السلجوقية، إذ عملت الدولة على تشجيع الحركة العلمية، وكان الوزير نظام الملك الطوسي أول من وضع نظاماً للمدارس وسلماً لرواتب طلاب العلم، كما اهتمت الدولة في إنشاء المكتبات وتوفير مستلزماتها لها.
- أولت الدولة السلجوقية العناية بالحركة الصوفية، فعملت على بناء الأربطة، وصرف المبالغ الضخمة على المقيمين بها من المتصوفة.

الملحق

قائمة بأسماء السلاطين والخلفاء

السلاطين:

١- طغرل بك بن ميكائيل بن سلجوق ٤٣٢- ٤٥٥هـ/١٠٣٧-١٠٦٣م.

٢- ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق ٤٥٥- ٤٦٥هـ/١٠٦٣- ٧٢

٣- ملكشاه بن ألب أرسلان بن دواد بن ميكائيل ٤٦٥-٤٨٥هـ/١٠٧٢-١٠٩٢م.

٤- بركياروق بن ملكشاه بن ألب أرسلان ٤٨٧-٤٩٨هـ/١٠٩٤-١١٠٤م.

٥- محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان ٤٩٨-٥١١هـ/١١٠٤-١١١٧م.

٦- سنجر بن ملكشاه بن ألب أرسلان ٤٩٢-٥٥٢هـ/١٠٩٨-١١٥٧م؟

٧- محمود بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان ٥١١-٥٢٥هـ/١١١٧-١١٣٠م

٨- مسعود بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان ٥٢٧-٥٤٧هـ/١١٣٢-١١٥٢.

٩- محمد بن محمود بن محمد بن ملكشاه ٥٤٧- ٥٥٣هـ/١١٥٢- ١١٥٨.

١٠- أرسلان شاه بن طغرل بن محمد بن ملكشاه ٥٥٣- ٥٧٠هـ/١١٥٨-١١٧٤م.

١١- طغرل بن أرسلان شاه بن طغرل بن محمد بن ملكشاه ٥٧٠-٥٩٠هـ/١١٧٤-١١٩٣م.

الخلفاء:

١- القائم بأمر الله ٤٢٢- ٤٦٧هـ/١٠٣١-١٠٧٥م.

٢- المقتدى بأمر الله ٤٦٧- ٤٨٧هـ/١٠٧٤-١٠٩٤.

٣- المستظهر بالله ٤٨٧-٥١٢هـ/١٠٩٤-١١١٨م.

٤- المسترشد بالله ٥١٢-٥٢٩هـ/١١١٨- ١١٣٤م.

٥- الراشد بالله ٥٢٩- ٥٣٠هـ/١١٣٤-١١٣٥م.

٦- المقتفي لأمر الله ٥٣٠-٥٥٥هـ/١١٣٥-١١٦٠م.

٧- المستنجد بالله ٥٥٥-٥٦٦هـ/١١٧٠- ١١٧٩م.

٨- المستضيء بأمر الله ٥٦٦- ٥٧٥هـ/١١٧٠-١١٧٩م.

٩- الناصر لدين الله ٥٧٥-٦٢٢هـ/١١٧٩- ١٢٢٥م.

الهوامش

(١) ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني الجزري (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م) **الكامل في التاريخ**، ١٢ج، دار صادر للطباعة والنشر، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت ١٩٦٦، ج٨، ص٢٣٦، بارتولد، فلاديمير "تاريخ الترك في آسيا الوسطى، ترجمة أحمد السعيد سليمان، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٥٨، ص٢٩.

(٢) الحسيني، صدر الدين أبي الحسن علي بن أبي الفوارس ناصر بن علي (ت٥٧٥هـ/١١٨٠م) **كتاب أخبار الدولة السلجوقية**، عني بتصحيحه محمد إقبال، مراجعة لجنة إحياء التراث العربي، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٤، ص٢.

(٣) جند: مدينة من بلاد ما وراء النهر، قريبة من خوارزم وأهلها مسلمون على المذهب الحنفي، ياقوت، شهاب الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الله الرومي (ت٦٢٦هـ/١٢٢٩م) **معجم البلدان**، ط٢، ٧ح، دار صادر، بيروت، د. ت، ج٢، ص١٤٣.

(٤) بخارى: مدينة عظيمة مشهورة بما وراء النهر بينها وبين سمر قند ثلاثون فرسخاً (أي حوالي ١٨٠كم) ياقوت، **معجم البلدان** ج٢، ص٨٠.

(٥) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج٨، ص٢٣٧، بارتولد، **تاريخ الترك**، ص١٠٨.

(٦) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج٨، ص٢٣٧.

(٧) اليزدي، محمد بن محمد بن عبد الله ابن النظام الحسيني (ت٧٤٣هـ/ ١٣٤٢م)، **العراضة في الحكاية السلجوقية**، ترجمة عبد النعيم حسنين، حسين أمين، مطبعة جامعة بغداد، بغداد، ١٩٧٩، ص٢٠.

(٨) الحسيني، **أخبار الدولة السلجوقية**، ص٢.

(٩) خراسان بلاد واسعة أول حدودها مما يلي العراق وآخر حدودها مما يلي الهند، ياقوت، معجم البلدان، ج٢، ص٣٥٠.

(١٠) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج٨، ص٢٣٧، بارتولد، **تاريخ الترك**، ص٨٢-٨٤.

(١١) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج٨، ص٢٣٧، الحسيني، **أخبار الدولة السلجوقية**، ص٨٣، الراوندي، **راحة الصدور**، ص١٤٦-١٥٠.

(١٢) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج٨، ص٢٣٨، الراوندي، **راحة الصدور**، ص١٥٣، اليزدي، العراضة، ص٢٩-٣٠.

(١٣) رباط فراوه، مدينة صغيرة بين نسا ودهستان وخوارزم، ياقوت، معجم البلدان، ج٤، ص٢٧١.

(١٤) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج٨، ص٢٣٨-٢٣٩، الراوندي، **راحة الصدور**، ص١٥٤.

(١٥) السلطان مسعود بن محمود الغزنوي، حكم ٤٢١هـ/١٠٢٩م-٤٣٢هـ/١٠٤٠م)، إذ قام الجند بعد هزيمته في أسرة وقتله، حلمي أحمد كمال

الدين، **السلاجقة في التاريخ والحضارة**، ذات السلاسل، الكويت، ١٩٨٦، ص١٠٠.

(١٦) نسا: مدينة بخراسان قرب سرخس، القزويني، أبو عبد الله زكريا محمد بن محمود القزويني (ت٦٨١هـ/١٢٨٢م)، **آثار البلاد وأخبار العباد**، نشر رستفلدط جوتنجن سنة ١٩٤٨، دار صادر، بيروت، ١٩٦٩، ص٤٦٥.

(١٧) باب سرخس: سرخس مدينة مشهورة من نواحي خراسان بين نيسابور ومرو، ياقوت، **معجم البلدان**، ج٣، ص٢٣٥.

(١٨) النسوي، محمد بن أحمد (توفي عام ٦٣٩هـ/١٢٤١م) **سيرة السلطان جلال الدين منكبرتي**، نشر وتحقيق حافظ أحمد حمدي، دار الفكر العربي، مطبعة الاعتماد، مصر، ١٩٥٣، ص٢٨٣.

(١٩) حلمي، **السلاجقة في التاريخ والحضارة**، ص٢٠١.

(٢٠) داندنقان: بلدة من نواحي مرو، ياقوت، **معجم البلدان**، ج٢، ص٦١٠، الحسيني، **أخبار الدولة السلجوقية**، ص١٠-١١، الراوندي، **راحة الصدور**، ص١٦٢-١٦٣.

(٢١) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج٩، ص٢٥، الحسيني، **اخبار الدولة السلجوقية**، ص١١-١٢، الراوندي، **راحة الصدور**، ص١٦٧-١٦٨.

(٢٢) ابن العمراني، محمد بن علي بن محمد (ت٥٨٠هـ/١١٨٤م) **الأنباء في تاريخ الخلفاء**، تحقيق وتقديم ودراسة قاسم السامرائي، نشريات المعهد الهولندي للآثار المصرية، والبحوث العربية، القاهرة، د، ت، ص١٨٨.

(٢٣) ابن العبري، أبو الفرج جمال الدين بن هارون (ت٦٨٥هـ/١٢٨٦م) **تاريخ الزمان نقله إلى العربية الأب إسحاق أرملة**، دار الشرق بيروت، ١٩٨٦، ص٩٩.

(٢٤) اليافعي، عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان (ت٧٦٨هـ/١٣٦٦م)، **مرآة الجنان وعبرة اليقظان** ٤ح في ٢م، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت، ج٣، ص١٠٦.

(٢٥) ابن الموصلايا، أمين الدولة أبو أسعد العلاء (ت٤٩٧هـ-١١٠٤م) **رسائل أمين الدولة**، تحقيق عصام عقله، رسالة دكتوراه، الجامعة الأردنية، عمان ١٩٩٧، ص٣٠٦.

(٢٦) ابن دقماق، صارم الدين، إبراهيم بن أيدمر العلائي (ت٨٠٩هـ/١٤٠٦م) **الجوهر الثمين في سيرة الملوك والسلاطين**، تحقيق محمد كمال الدين، عالم الكتب، بيروت، د. ت، ص٩٢.

(٢٧) ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني، (ت٦٣٠هـ/١٢٣٢م)، **التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية**، مكتبة المثنى، بغداد، د. ت، ص٧٩.

(٢٨) الفارقي، محمد بن يوسف بن يحيى بن الأزرق (ت٥٨٠هـ/١١٨٤م) **تاريخ الفارقي**، حققه وقدم له بدوي عبد اللطيف عوض، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٧٤، ص٢٢٤.

(٢٩) ابن الموصلايا، **رسائل**، ص٧٣.

(٣٠) ابن العبري، **تاريخ الزمان**، ص١١١.

(٣١) الب أرسلان هو السلطان عضد الدولة أبو شجاع الب أرسلان، محمد بن داوود ابن ميكائيل بن سلجوق، حكم ٤٥٥-٤٦٥هـ/١٠٦٣-١٠٧٢م الراوندي، **راحة الصدور**، ص١٨٥-١٩٥.

(٣٢) الحسيني، **أخبار الدولة السلجوقية**، ص٦٤.

(٣٣) ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن محمد الجوزي، (ت٥٩٧هـ/١٢٠٠م)، **المنتظم في تاريخ الملوك الأمم**، ١٨ح، دراسة وتحقيق محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، مراجعة نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٢، ج١٧، ص٣٢٢.

(٣٤) ابن الجوزي، **المصدر نفسه**، ج١٧، ص٢٩٦-٢٩٧.

(٣٥) ابن الجوزي، **المصدر نفسه**، ج١٧، ص٣٢٢.

(٣٦) السلطان ملكشاه: أبو الفتح بن أبي شجاع محمد الب أرسلان بن داوود بن ميكائيل بن سلجوق الملقب جلال الدولة حكم ٤٦٥-٤٨٥هـ/١٠٧٣-١٠٩٢) ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ج١٦، ص٣٠٨-٣١٣.

(٣٧) نظام الملك الطوسي: الحسن بن علي بن اسحاق بن العباس أبو علي الطوسي الملقب نظام الملك وزير للسلطان ألب أرسلان والسلطان ملكشاه لمدة تسعة وعشرين سنة (ت٤٨٥هـ/١٠٩٢م) ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ط، دار المعارف العثمانية، ج٨، ص٢٣٥.

(٣٨) سبط ابن الجوزي، شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزا وعلي (ت٦٥٤هـ/١٢٥٦م) **مرآة الزمان في تاريخ الأعيان**، مجلس دار المعارف العثمانية، حيدر أباد، الدكن، ١٩٥١، ص٢٩.

(٣٩) الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، (ت٧٤٨هـ/١٣٤٧م)، **العبر في خبر من غبر**، ٤ج، حققها وضبطها أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٥، ج٢، ص٢٦٦.

(٤٠) الذهبي، **العبر**، ج٢، ص٣٢٩.

(٤١) ابن العمراني، **الأنباء**، ص٢١١.

(٤٢) ابن الجوزي، **المنتظم**، ج١٨، ص٤٩.

(٤٣) ابن الجوزي، **المصدر نفسه**، ج١٧، ص١٦.

(٤٤) ابن الجوزي، **المصدر نفسه**، ج١٧، ص٢٣٠.

(٤٥) ابن الموصلايا، **رسائل**، ص١٦٠-١٦١.

(٤٦) ابن الموصلايا، **المصدر نفسه**، ص٧٢.

(٤٧) ابن الجوزي، **المنتظم**، ج١٧، ص١٩٢.

(٤٨) الذهبي، الحافظ شمس الدين محمد (ت٧٤٨هـ/١٣٤٢م) **دول الإسلام**، نشر عبد الله ابن إبراهيم الأنصاري، طبع دار إحياء التراث الإسلامي، قطر، د. ت، ج١، ص٢٦٠.

(٤٩) ابن الجوزي، **المنتظم**، ج١٥، ص٣٥٠، ج١٦، ص٣-٥.

(٥٠) ابن الجوزي، **المصدر نفسه**، ج٨، ص٢٧٧. الجامكية: الراتب وجمعها جوامع، جامكيات الرواتب.

(٥١) الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان (ت٧٤٨هـ/١٣٤٧م) **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، ٤٤ج، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، ط٢، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩٠-١٩٩٦، (حوادث ٤٨٠-٤٩٠هـ)، ص ١٦٣).

(٥٢) ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ج٩، ص٦٢.

(٥٣) ابن الجوزي، **المصدر نفسه**، ج٩،ص ٧.

(٥٤) تركان خاتون، زوجة السلطان ملكشاه وهي بنت طغاج خان وأبوها من نسل أفرسياب ملك الفرس كانت ذات نفوذ قوى في عهد زوجها(ت٤٨٧هـ/١٠٩٤م) انظر ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ج٩، ص٨٤.

(٥٥) ابن الجوزي، **المصدر نفسه**، ج٩، ص٦٢.

(٥٦) بركياروق: أبو الظفر بركياروق ابن ملكشاه حكم (٤٨٧هـ-٤٩٨هـ/١٠٩٤-١١٠٤م) وتميز بصراعه الشديد مع أخيه محمد، ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج١٠، ص٧٦.

(٥٧) السلطان محمد، غياث الدين والدنيا محمد بن ملكشاه، صفت له السلطنة بعد وفاة أخيه بركيا روق عام (٤٩٨هـ/١١٠٤م) واستمر في الحكم حتى وفاته ٥١١هـ/١١١٧م) الحسيني، **أخبار الدولة السلجوقية**، ص ٧٩-٨٤.

(٥٨) الحسيني، **المصدر نفسه**، ص٩٨-٩٩.

(٥٩) الذهبي، **العبر**، ج٢، ص٣٩٧.

(٦٠) السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه حكم (٥١١هـ - ٥٢٥هـ/١١١٧-١١٣٠م) وتميز عهده بصراعه الشديد مع الخلافة إذ قصد بغداد أكثر من مرة، انظر ترجمته الراوندي، **راحة الصدور وأية السرور**، ص ٢٩٩-٣٠٣.

(٦١) أصبهان، مدينة عظيمة وهي اسم لإقليم بأسره من نواحي الجيل، ياقوت، معجم البلدان، ج١، ص٢٠٦.

(٦٢) الحسيني، **أخبار الدولة السلجوقية**، ص٩٩.

(٦٣) البنداري، الفتح بن علي بن محمد الأصفهاني (٦٤٣هـ/١٢٤٥م) **تاريخ دولة آل سلجوق**، ط٢، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٧٨، ص٢٦٣.

(٦٤) الذهبي، **دول الإسلام**، ج٢، ص٣٨.

(٦٥) الحسيني، **أخبار الدولة السلجوقية**، ص٩٩.

(٦٦) الذهبي، **تاريخ الإسلام** (حوادث ٥٠٠-٥٢٠هـ) ص٢٨٧.

(٦٧) الذهبي، **المصدر نفسه** (حوادث ٥٦٠-٥٢٠هـ) ص ٢٨٧.

(٦٨) السلطان مسعود هو مسعود بن محمد بن ملكشاه حكم (٥٢٧هـ-٥٤٧هـ/ ١١٣٢-١١٥٣) وتميزه عهده بالصراع مع الخلافة والمنافسين له في السلطنة، ابن الأثير، **التاريخ الباهرة** ص ٦٠-١٠٦.

(٦٩) اليزدي، **العراضة في الحكاية السلجوقية**،١٩٧٩، ص١١٧.

(٧٠) السلطان سنجر: هو السلطان الأعظم معز الدنيا والدين أبو الحارث سنجر بن ملكشاه بويع بالسلطنة (٥١٤هـ/١٦٢٠م) واستمر في حكم خراسان حتى سنة

٥٥٢هـ/١١٥٧م، انظر ترجمته الراوندي، **راحة الصدور وأية السرور**، ص٢٥٥-٢٨١.

(٧١) الحسيني، **أخبار الدولة السلجوقية**، ص١٢٤.

(٧٢) الذهبي، **العبر**، ج٣، ص١٧.

(٧٣) الراوندي، راحة الصدور وأية السرور، ص٢٧٢. الغزامة عظيمة من الترك، وبلاد الأوغوز تحف بالبلاد الإسلامية في آسيا الوسطى، وتجاور بلاد جرجان وطبرستان من أملاك المسلمين، وهناك قبائل عديدة من الغز منها السلاجقة، بارتولد، **تاريخ الترك**، ص٩٤-٩٥.

(٧٤) أبو شجاع محمد هو السلطان غياث الدنيا والدين أبو شجاع محمد بن محمود بن محمد بن ملكشاه حكم (٥٤٧هـ-٥٥٣هـ/١١٥٢-١١٥٨م) الراوندي، **راحة الصدور وأية السرور**، ص٣٧١-٣٨٩.

(٧٥) اليزدي، **العراضة في الحكاية السلجوقية**، ص١٣٥.

(٧٦) خاصبك التركماني (ت٥٤٨هـ/١١٥٣م) انظر ترجمته ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ج١٠، ص١٥٣-١٥٤.

(٧٧) الأطلس الأحمر: الأطلس الثوب الخلق، انظر مطلوب، أحمد، معجم الملابس في لسان العرب، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٩٥، ص٣٣.

(٧٨) الراوندي، **راحة الصدور وأية السرور**، ص٣٧٥-٣٧٦.

(٧٩) المسترشد بالله: هو أبو المنصور الفضل بن المستظهر بالله، حكم (٥١٢هـ-٥٢٩هـ/١١١٨-١١٣٤)، وتميز بصراعه الشديد مع السلطنة السلجوقية في

عهد السلطان مسعود للاستقلال بالخلافة ابن خلكان شمس الدين أبو العباس أحمد (ت ٦٨١هـ/١٢٨٦م)، **وفيات الأعيان وأبناء الزمان**، ٨ح، متعدد الطبقات، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، د. ت، ج٢، ص٤٤٧.

(٨٠) العمامة: لباس الرأس والجمع عمائم، مطلوب، معجم الملابس في لسان العرب، ص٨٨.

(٨١) الجبة: ضرب من الثياب، والجبة الخرقة المدورة، مطلوب، معجم الملابس في لسان العرب، ص٤٥.

(٨٢) القباء: الممدود من الثياب والجمع أقبية، مطلوب، معجم الملابس في لسان العرب، ص٩٤.

(٨٣) ابن الطقطقا، محمد بن علي بن طباطبا، (ت٧٠٩هـ/١٣٠٩م)، **كتاب الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، دار صادر، د. ت، ص٣٠٢- ٣٠٣.

(٨٤) ابن العبري، **تاريخ الزمان**، ص١٤٧.

(٨٥) الرفاعي، أنور، **النظم الإسلامية**، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٣، ص٤٧.

(٨٦) الصالح، صبحي، **النظم الإسلامية**، دار العلم للملايين، بيروت، ط٣، ١٩٧٦، ص٢٧٢.

(٨٧) أبو سعد المستوفى، محمد بن منصور أبو سعد المستوفى الملقب شرف الملك ت٤٩٤هـ/١١٠٠م انظر ترجمته، ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ج٩، ص١٢٨.

(٨٨) ابن الجوزي، **المصدر نفسه**، ج٨، ص٢٧٧.

(٨٩) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج١٠، ص١٦٢.

(٩٠) ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ج٩، ص٦٢.

(٩١) الذهبي، **تاريخ الإسلام** (حوادث ٤٨٠-٤٩٠هـ) ص٦.

(٩٢) أرسلان شاه بن طغرل بن محمد بن ملكشاه (ت٥٧٠هـ/١١٧٤م) اليافعي **مرآة الجنان**، ج٣، ص٣١.

(٩٣) شمس الدين أيلدكز: (ت٥٧٠هـ/١١٧٤م)، انظر ترجمته ابن خلكان: **وفيات الأعيان**،ج٥، ص٢٠٨.

(٩٤) أران: اسم أعجمي لولاية واسعة وبلاد كثيرة منها جنزة وهي التي يسميها العامة كنجة وبرذعة وشمكور وبيلقان، ياقوت، معجم البلدان، ج١، ص١٣٦.

(٩٥) الحسيني، **أخبار الدولة السلجوقية**، ص١٤٥.

(٩٦) ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ج١٠، ص١٦٤.

(٩٧) الراشد بالله: منصور بن المسترشد بالله الملقب الراشد بالله حكم ٥٢٩هـ-٥٣٠هـ/١١٣٤- ١١٣٥م تميز بصراعه مع السلطنة إلى أن تم عزله عن الخلافة، ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ج١٠، ص٧٦-٧٧.

(٩٨) ابن الجوزي، **المصدر نفسه**، ج١٠، ص٥١.

(٩٩) ابن القلانسي، أبو يعلي حمزة بن أسد بن علي بن محمد التميمي (ت٥٥٥هـ/١١٦٠م) **تاريخ أبي يعلي المعروف بتاريخ دمشق**، تحقيق سهيل زكار، تكوين للطباعة والنشر، دمشق، ٢٠٠٧، ص٤٠.

(١٠٠) المقتفي لأمر الله: أبو عبد الله المقتفي لأمر الله ابن أمير المؤمنين المستظهر بالله حكم ٥٣٠-٥٥٥هـ/١١٣٠-١١٦٠م) وإليه يعود الفضل في تحرير العراق من الحكم السلجوقي، انظر ترجمته ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ج١٠، ص١٩٧.

(١٠١) ابن العبري، **تاريخ الزمان**، ص١٥٢.

(١٠٢) المستنجد بالله: يوسف المستنجد بالله ابن المقتفي لأمر الله حكم (٥٥٥هـ-٥٦٦هـ/١١٦٠-١١٧٠م)، انظر ترجمته ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ج١٠، ص٢٣٦.

(١٠٣) ابن الجوزي، **المصدر نفسه**، ج١٠، ص١٩٣، ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج١١، ص٢٥٧.

(١٠٤) المستضيء بأمر الله: أبو محمد الحسن بن المستنجد بالله بن يوسف المقتفي لأمر الله بن المستظهر بالله حكم ٥٦٦هـ-٥٧٥هـ/١١٧٠-١١٧٩م)، انظر ترجمته الذهبي، **العبر**، ج٣، ص٦٨.

(١٠٥) ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ج١٠، ٢٣٣، الأزدي، علي بن ظافر (ت٦١٣هـ/١٢١٦م) **أخبار الدول المنقطعة** (الدولة العباسية)، ٢ج، تحقيق عصام هزايمة وآخرون، مؤسسة حمادة للخدمات الجامعية، اربد، ١٩٩٩، ج٢، ص٤٥٥، ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج١١، ص٣٦١.

(١٠٦) الناصر لدين الله: أبو العباس أحمد بن المستضيء بأمر الله الحسن بن المستنجد بالله يوسف حكم ٥٧٥هـ-٦٢٢هـ/١١٧٩-١٢٢٥م وكان من أقوى الخلفاء بعد استقلال الخلافة عن السلطنة، انظر الذهبي، **العبر**، ج٣، ص١٨٥.

(١٠٧) الغساني، إسماعيل بن العباس (ت٨٠٣هـ/١٤٠٠م) **العسجد المسبوك والجواهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك**، تحقيق شاكر محمد عبد المنعم، دار التراث الإسلامي، بيروت، ١٩٧٥، ص٢٠٧.

(١٠٨) الخوان: ما يوضع عليه الطعام ليؤكل، واصل معني الخوان، الطعام أو الوليمة، شير أدى، الألفاظ الفارسية المعربة، بيروت، ١٩٨٠، ص٥٨.

(١٠٩) نظام الملك الطوسي، الحسن بن إسحاق بن العباس أبو علي الطوسي (ت٤٨٥هـ/١٠٩٢) **سياست نامة أو سير الملوك**، ترجمة يوسف بكار، نشر وتوزيع دار الثقافة، دولة قطر، ص١٦٩.

(١١٠) البنداري، **تاريخ دولة آل سلجوق**، ص١٩٣.

(١١١) الحسيني، **أخبار الدولة السلجوقية**، ص٥٤، البنداري، **تاريخ دولة آل سلجوق**، ص٢١٣.

(١١٢) الحسيني، **أخبار الدولة السلجوقية**، ص٥٤، البنداري ، **تاريخ دولة آل سلجوق**، ص٢١٣.

(١١٣) ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ج٩، ص٢٢٨، الذهبي، **دول الإسلام**، ج٢، ص٤٢.

(١١٤) بهروز الخادم: بهروز بن عبد الله أبو الحسن الخادم الأبيض الغياثي، كان يلقب مجاهد الدين وليّ العراق نيفا وثلاثين سنة (ت٥٤٠هـ/١١٤٥م) انظر ترجمته، ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ج١٠، ص١١٧.

(١١٥) ابن الجوزي، **المصدر نفسه**، ج١٠، ص١٨٩، الفتوة تعني الشباب وتركز على الكرم والشجاعة والمروءة والفروسية والصبر وكان من مراسيمها لبس العضو الجديد سراويل الفتوة ويشرب شرابها، فوزي، فاروق عمر، الخلافة العباسية السقوط والانهيار، ٢ج، جار الشروق، عمان ١٩٩٨، ص٢١٥.

(١١٦) ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ج١٠، ص١٢١.

(١١٧) الحسيني، **أخبار الدولة السلجوقية**، ص١٥٦.

(١١٨) القائم بأمر الله الخليفة حكم ٤٢٢هـ- ٤٦٧هـ/١٠٣١م- ١٠٧٥م ، ترجمته ابن الجوزي، وكان هو الذي دعا السلاجقة إلى دخول العراق لتحريره من البويهيين، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ج١٦، ص١٦٨.

(١١٩) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج١٠، ص٨.

(١٢٠) المقتدى بأمر الله حكم (٤٦٧-٤٨٧هـ/١٠٧٤-١٠٩٤م) انظر ترجمته، ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ج٩، ص٨٤.

(١٢١) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج٨، ص٢٠٣، الذهبي، **تاريخ الإسلام** (حوادث ٤٧٠-٤٨٠هـ) ص ٣٤-٣٥، اليافعي، **مرآة الجنان**، ج٣، ص١٠٧، ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت٨٠٨هـ/١٤٠٠م) **تاريخ ابن خلدون المسمى كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، ط٢، ٧ج، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣، ج٥، ص١٤.

(١٢٢) المستظهر بالله أحمد ابن المقتدى بأمر الله حكم ٤٨٧هـ-٥١٢هـ/١٠٩٤-١١١٨م، انظر ترجمته ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ج٩، ص٢٠٠.

(١٢٣) ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت٨٧٤هـ/١٤٤٦م) **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، ١٥ج، ط٢، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٥، ج٥، ص٣٥٤.

(١٢٤) ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ج١٠، ٢٠٨.

(١٢٥) ابن الجوزي، **المصدر نفسه**، ج١٠، ص٢١١.

(١٢٦) ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ج١٠، ص٢٢٠، ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ح٥، ص٣٥٤.

(١٢٧) ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ج١٠، ص٢٣٢.

(١٢٨) عون الدين بن هبيرة، يحيى بن محمد أبو المظفر بن هبيرة الوزير (ت٥٦٠هـ/١١٦٤)، وقد تقلد الوزارة للخليفة المقتدى بأمر الله والخليفة المستنجد بالله، انظر ترجمته ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ج١٠، ص٢١٤-٢١٧.

(١٢٩) ابن الجوزي، **المصدر نفسه**، ج١٠، ص ١٧٧

(١٣٠) ابن الجوزي، **المصدر نفسه**، ج١٠، ص٢٣٥.

(١٣١) ابن الجوزي، **المصدر نفسه**، ج١٠، ص ٢٥٩.

(١٣٢) ابن الجوزي، **المصدر نفسه**، ج١٠، ص ٢٥٧.

(١٣٣) ابن الجوزي، **المصدر** نفسه، ج١٠، ص ٢٦٤.

(١٣٤) الغساني، **العسجد المسبوك**، ص ١٧٤.

(١٣٥) ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج٥، ص٦٨٥.

(١٣٦) ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ج٨، ص٢١٨، ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج١٠، ص١٨.

(١٣٧) ابن العبري، تاريخ الزمان، ص١٠٥، **ابن الأثير، الكامل في التاريخ**، ج١٠، ص٢٥.

(١٣٨) المنّ: كان يساوي رطلين بغدايين٤/٧ ١٢٨ درهم= ٤٠١,٧٨ غم، هنتس، فالتر، **المكاييل والأوزان الإسلامية**، ترجمة كامل العسلي، منشورات الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٧٠، ص٤٦، ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ج٨، ص٢٢٠.

(١٣٩) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٠، ص٢٥، البنداري ، **تاريخ دولة آل سلجوق**، ص١٩٤، **اليافعي، مرآة الجنان**، ج٣، ص٥٩.

(١٤٠) ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ج٨، ص٢٤٦.

(١٤١) ابن العمراني، **الأنباء في تاريخ الخلفاء**، ص١٩٩.

(١٤٢) الذهبي، **تاريخ الإسلام** (حوادث ٤٥٠-٤٦٠هـ) ص٣٨٠.

(١٤٣) عميد الملك الكندري: محمد بن منصور أبو نصر الكندري (ت٤٥٧هـ/١٠٦٤م)، وكان قد تقلد الوزارة للسلطان طغرلبك إلى أن قتله

السلطان، انظر ترجمته ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ج١٦، ص٩٢-٩٣.

(١٤٤) ابن الجوزي، المصدر نفسه، ج٨، ص٢٣٠، البنداري ، **تاريخ دولة آل سلجوق**، ص١٩٨.

(١٤٥) ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ج٩، ص٨٤.

(١٤٦) بركياروق: أبو الظفر بركياروق ابن ملكشاه حكم ٤٨٧-٤٩٨هـ/١٠٩٤-١١٠٤م، وتميز بصراعه الشديد على السلطنة مع أخيه السلطان محمد، انظر ترجمته ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ج١٧، ص٩٣، ابن العبري، جمال الدين بن هارون أبو الفرج الملطي (ت٦٨٥هـ/١٢٨٦م) تاريخ مختصر الدول، د.م، د.ن، د.ت، ص١٩٧.

(١٤٧) اليزدي، **العراضة في الحكاية السلجوقية**، ص٧٤.

(١٤٨) اليزدي، **المصدر نفسه**، ص٧٤.

(١٤٩) ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ج١٠، ص٧٢.

(١٥٠) اليافعي، **مرآة الجنان**، ج٣، ص٢١٧.

(١٥١) الراوندي، **راحة الصدور وأية السرور**، ص٣٨٧.

(١٥٢) خوزستان، اسم جامع لجميع بلاد الخوز الواقعة بين فارس والبصرة وواسط والجبال، ياقوت، معجم البلدان، ج٢، ص٤٠٤.

(١٥٣) ملكشاه بن محمود بن محمد بن ملكشاه (ت٥٥٥هـ/١١٦٠م) انظر ترجمته ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ج١٠، ص١٩٨.

(١٥٤) الراوندي، **راحة الصدور وأية السرور**، ص ٣٦٦.

(١٥٥) الراوندي، **المصدر نفسه**، ص٤٢٨-٤٢٩.

(١٥٦) الحسيني، **أخبار الدولة السلجوقية**، ص١٨.

(١٥٧) ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ج٨، ص١٧.

(١٥٨) ابن الجوزي، **المصدر نفسه**، ج٨، ص١٧.

(١٥٩) ابن الجوزي، **المصدر نفسه**، ج٨، ٢٧٤، ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج١٠، ص٧١.

(١٦٠) ابن الأثير، **المصدر نفسه**، ج١٠، ص١٢٠.

(١٦١) ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ج٩، ص٢.

(١٦٢) الذهبي، **تاريخ الإسلام** (٤٧٠-٤٨٠هـ)، ص٣٤-٣٥، اليافعي، مرآة الجنان، ج٣، ص١٠٠-١٠١.

(١٦٣) ابن خلدون، **العبر وديوان المبتدأ والخبر**، ج٥، ص١١.

(١٦٤) ابن خلدون، **المصدر نفسه**، ج٥، ص١٤.

(١٦٥) الذهبي، تاريخ الإسلام (حوادث ٥٠٠-٥٢٠هـ)، ص ٣٢٩، الأزدي، **أخبار الدول المنقطعة**، ج٢، ص٤٣٥، ابن الفوطي، كمال الدين أبو الفضل عبد الرزاق بن تاج الدين الشيباني (ت٧٢٣هـ/١٣٢٣م) تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب، ج٤، في ٤ق حققه مصطفى جواد، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مطبوعات مديرية أحياء التراث القديم، د.م، د.ت، ج١، ص٤٦٠.

(١٦٦) ابن القلانسي، **ذيل تاريخ** دمشق، ص٢٨٨

(١٦٧) ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ج١٠، ص٦٧، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٠، ص٤٧١، الحسيني، أخبار الدولة السلجوقية، ص٨١-٨٢، الذهبي، دول الإسلام، ج٢، ص٣١.

(١٦٨) الذهبي، **تاريخ الإسلام** (حوادث ٥٠٠-٥٢٠هـ) ص٢١.

(١٦٩) الذهبي، **دول الإسلام**، ج٢، ص١٠، ٣٣.

(١٧٠) الرقة: مدينة مشهورة على الفرات، ياقوت، معجم البلدان، ج٣، ص٥٨-٥٩، ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ج١٠، ص٢٥٠.

(١٧١) ابن الجوزي، **المصدر نفسه**،ج١٠، ص٢٥٢.

(١٧٢) ابن الجوزي، **المصدر نفسه**، ج١٠، ص٢٧١.

(١٧٣) ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ج١٠، ص٨٤.

(١٧٤) ابن الجوزي، **المصدر نفسه**، ج١٠، ص ١٠٣.

(١٧٥) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ** ، ج١٠، ص١٦٢.

(١٧٦) الذهبي، **تاريخ الإسلام** (حوادث ٥٠٠-٥٢٠هـ) ص٢٩٨.

(١٧٧) ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ج١٠، ص١٨١.

(١٧٨) ابن الجوزي، **المرجع نفسه**، ج١٠، ص٢٤٠.

(١٧٩) زيدان، جورجي، **تاريخ التمدن الإسلامي**، ط٢، مؤسسة خليفة للطباعة، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت، ص ٥٣٨٠.

(١٨٠) ابن الفوطي، **تلخيص مجمع الآداب**، ج٢، ص٧٣٣.

(١٨١) أبو شجاع ظهير الدين، محمد بن حسين بن عبد الله بن إبراهيم الروذراوي (ت٤٨٨هـ/١٠٩٥م)، تقلد الوزارة للخليفة المقتدى بأمر الله، ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ج٩، ص٩٠.

(١٨٢) البنداري ، **تاريخ دولة آل سلجوق**، ص٢٣٢.

(١٨٣) الذهبي، **تاريخ الإسلام** (حوادث ٤٨٠-٤٩٠هـ) ص٣٠٩.

(١٨٤) ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ج١٠، ص٢٣٣.

(١٨٥) الذهبي، **تاريخ الإسلام** (حوادث ٤٥٠-٤٦٠هـ) ص٤٢٤.

(١٨٦) ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ج١٠، ص ٨٩.

(١٨٧) الراوندي، **راحة الصدور وأية السرور**، ص٣٦١.

(١٨٨) اليزدي، **العراضة في الحكاية السلجوقية**، ص١٢٧.

(١٨٩) الراوندي: **راحة الصدور وأية السرور**، ص٤٣٠.

(١٩٠) طغرل الثالث، هو طغرل بن أرسلان شاه بن طغرل بن محمد بن ملكشاه (ت٥٩٠هـ/١١٩٤م)، قتل على يد الخوارزميين بتحريض من الخليفة العباسي الناصر لدين الله، انظر ترجمته الذهبي، **تاريخ الإسلام** (حوادث ٥٩٠-٦٠٠هـ) ص٩٣.

(١٩١) الراوندي، **راحة الصدور وأية السرور**، ص ٥٠٧-٥٠٨.

(١٩٢) الحسيني، **أخبار الدولة السلجوقية**، ص٦٧.

(١٩٣) ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ج٩، ص٦.

(١٩٤) البنداري، **تاريخ دولة آل سلجوق**، ص ٢٦٢.

(١٩٥) خراسان، بلاد واسعة أول حدودها مما يلي العراق وأخر حدودها مما يلي الهند، ياقوت، معجم البلدان، ج٢، ص٣٥٠.

(١٩٦) محمد بن منصور ابن النسوي المعروف بعميد خراسان (ت٤٩٤هـ/١١٠٠م) انظر ترجمته ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ج٩، ص١٢٨.

(١٩٧) الحسيني، **أخبار الدولة السلجوقية**، ص٣٥.

(١٩٨) ابن الأثير، الباهر في **تاريخ أتابكية**، ص٢١.

(١٩٩) أبو طالب السميرمي، علي بن أحمد أبو طالب السميرمي (ت٥١٦هـ/١١٢٢م)، تقلد الوزارة للسلطان محمود بن محمد انظر ترجمته ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ج٩، ص٢٣٩-٢٤١.

(٢٠٠) ابن الجوزي، **المصدر نفسه**، ج٩، ص٢٤٠.

(٢٠١) اليزدي، **العراضة في الحكاية السلجوقية**، ص١٢٧.

(٢٠٢) الراوندي، **راحة الصدور وأية السرور**، ص٤٣٠.

(٢٠٣) ابن العبري، **تاريخ الزمان**، ص١٢٨.

(٢٠٤) الحسيني، **أخبار الدولة السلجوقية**، ص ٨١-٨٢.

(٢٠٥) ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ج٩، ص٢١٩.

(٢٠٦) ابن العبري، **تاريخ مختصر الدول**، ص٢١٠.

(٢٠٧) البنداري، **تاريخ دولة آل سلجوق**، ص٢٠٣.

(٢٠٨) البنداري، **المصدر نفسه**، ص٢٧٣.

(٢٠٩) ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ج٩، ص ٩٢.

(٢١٠) ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ج٨، ص٢٤٨.

(٢١١) ابن الجوزي، **المصدر نفسه**، ج٩، ص٩٠-٩١.

(٢١٢) ابن الجوزي، **المصدر نفسه**، ج١٠، ص٨٧.

(٢١٣) السبكي، تاج الدين أبي نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي (ت٧٧١هـ/١٣٦٩م) **طبقات الشافعية الكبرى**، ٨ج، تحقيق محمود محمد الطناحي، عبد الفتاح محمد الحلو، عيسى البابي الحلبي وشركاه، د.ت، ج٥، ص١٥٨.

(٢١٤) نيسابور، بفتح أوله، مدينة مشهورة في خراسان، ياقوت، **معجم البلدان**، ج٥، ص٣٣١.

(٢١٥) الذهبي، **تاريخ الإسلام** (حوادث ٤٨٠-٤٩٠هـ) ص ١٣٦.

(٢١٦) السبكي، **طبقات الشافعية**، ج٦، ص٨٤.

(٢١٧) السبكي، **المصدر نفسه**، ج٥، ص١٧٦.

(٢١٨) السبكي، **طبقات الشافعية**، ج٥، ص٣٠٥.

(٢١٩) السبكي، **المصدر نفسه**، ج٧، ص١٩٥.

(٢٢٠) ابن العبري، **تاريخ مختصر الدول**، ص١٥٧

(٢٢١) ابن رجب، زين الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين الدمشقي الحنبلي (ت٧٩٥هـ/١٢٩٢م) **الذيل على طبقات الحنابلة**، ٤ج، في ٢م، دار المعرفة، بيروت، د.ت، ج٣، ص١٠٩.

(٢٢٢) الذهبي، **تاريخ الإسلام**، (حوادث ٤٨٠-٤٩٠هـ) ص ٢٥٣.

(٢٢٣) السبكي، **طبقات الشافعية**، ج٣، ص٣١٣

(٢٢٤) الذهبي، **تاريخ الإسلام**، (حوادث ٤٨٠-٤٩٠هـ) ص ٣١٧-٣١٨.

(٢٢٥) الذهبي، **المصدر نفسه**، ص٣٤٦.

(٢٢٦) بلخ: مدينة مشهورة في خراسان، ياقوت، معجم البلدان، ج١، ص٥٦٨.

(٢٢٧) الذهبي، **تاريخ الإسلام**، (حوادث ٤٧٠-٤٨٠هـ) ص ٤٤

(٢٢٨) الذهبي، **تاريخ الإسلام**، (حوادث ٥٠٠-٥٢٠هـ) ص ١٠٥

(٢٢٩) السبكي، **طبقات الشافعية**، ج٥، ص١٢٤.

(٢٣٠) الذهبي، **دول الإسلام**، ج١، ص٢٦٩.

(٢٣١) ابن النجار، محب الدين أبي عبد الله محمد بن محمود بن الحسن (ت٦٤٣هـ/١٢٤٥م) **المستفاد من ذيل تاريخ بغداد**، ج١٨، من تاريخ بغداد، حققه وقد له قيصر أبو فرج، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٧١، ص٤٤.

(٢٣٢) ابن النجار، محب الدين أبي عبد الله محمد بن محمود بن الحسن (ت٦٤٣هـ/١٢٤٥م) **ذيل تاريخ بغداد**، ج١٥، ١٦، ١٧، من تاريخ بغداد، صححه قيصر أبو فرج، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٧١، ج١٥، ص٣٩١.

(٢٣٣) الذهبي، **العبر**، ج٢، ص٣٤١.

(٢٣٤) ابن النجار، **ذيل تاريخ بغداد**، ج١٦، ص١٨٥.

(٢٣٥) الذهبي، **تاريخ الإسلام** (٤٨٠-١٩٠هـ)ص١٤٤.

(٢٣٦) تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان (ت٤٨٨هـ/١٠٩٥)، وكان أخيه السلطان ملكشاه قد أقر على الشام، ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ج٩، ص٨٧.

(٢٣٧) الذهبي، **تاريخ الإسلام** (٤٨٠-٤٩٠هـ)ص٣٤٦.

(٢٣٨) اليافعي، **مرآة الجنان**، ج٣، ص١٣٣.

(٢٣٩) ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج٥، ص٢٢٤

(٢٤٠) ابن النجار، **ذيل تاريخ بغداد**، ج١٥، ص٢١٩.

(٢٤١) السبكي، **طبقات الشافعية**، ج٤، ص١٧٥.

(٢٤٢) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج١٠، ص ٦٠٥.

(٢٤٣) ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج٥، ص٣٠٩.

(٢٤٤) ابن رجب، **ذيل طبقات الحنابلة**، ج٣، ص٢٥٥.

(٢٤٥) ابن رجب، **المصدر نفسه**، ج٣، ص٢٦٣.

(٢٤٦) العماد الأصفهاني، عماد الدين محمد بن محمد بن حامد (ت٥٩٧هـ/١٢٠٠م) **خريدة القصر وجريدة أهل العصر**، ٥ج، تحقيق محمد بهجت الأثري، المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٩٦٤، ج١، ق١، ص١٢.

(٢٤٧) ابن النجار، **ذيل تاريخ بغداد**، ج١٥، ص٢١٩.

(٢٤٨) الغساني، **العسجد المسبوك**، ص١٩٦.

(٢٤٩) السمرقندي، **النظامي العروضي** (توفي في النصف الثاني من القرن السادس الهجري) جهار مقالة، ترجمة محمد علي تاويت، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ١٩٨٢، ص١٥٧.

(٢٥٠) الحسيني، أخبار الدولة السلجوقية، ص٢٤.

(٢٥١) فاطمة بنت علي المؤدب المعروفة ببنت الأقرع الكاتبة (ت٤٨٠هـ/١٠٨٧م)، ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ج١٦، ص٢٧٢-٢٧٣.

(٢٥٢) ابن الفوطي، **تلخيص مجمع الآداب**، ج٢، ص٤٩٦.

(٢٥٣) السمرقندي، **جهار مقالة**، ص١١٥.

(٢٥٤) ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ج٤، ص٤٥٣.

(٢٥٥) العماد الأصفهاني، **خريدة القصر**، ج٢، ق١، ص٧٨.

(٢٥٦) قزل أرسلان بن الأتابك شمس الدين ألدكز، انظر ترجمته الراوندي، **راحة الصدور وأية السرور**، ص٤٩٨-٥٠٢.

(٢٥٧) الراوندي، **المصدر نفسه**، ص٤٦٦.

(٢٥٨) محمد بن محمد بن محمد بن جهير أبو منصور (ت٤٩٣هـ/١٠٩٩م)، تقلد الوزارة لبني مروان في ديار بكر وللخليفة العباس القائم بأمر الله، ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ج٩، ص١١٨.

(٢٥٩) العماد الأصفهاني، **خريدة القصر**، ج٤، ق١، ص١٦٧.

(٢٦٠) ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج٥، ص٢٥٧.

(٢٦١) الحسن بن علي بن صدقة وزير المسترشد بالله (ت٥٢٢هـ/١١٢٨م) ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ج١٠، ص٩-١٠.

(٢٦٢) العماد الأصفهاني، **خريدة القصر**، ج٤، ق١، ص٢٠٩.

(٢٦٣) العماد الأصفهاني، **المصدر نفسه**، ج٤، ق١، ص٣٠٣.

(٢٦٤) الحيص بيص: شهاب الدين أبو الفوراس سعد بن محمد التميمي الشاعر المشهور (ت٥٧٤هـ/١١٧٨م) الذهبي، **العبر**، ج٣، ص٦٥.

(٢٦٥) ابن بختيار الأبله: أبو عبد الله محمد بن بختيار البغدادي (ت٥٧٩هـ/١١٨٣م) الذهبي، العبر، ج٣، ص٧٨.

(٢٦٦) ابن رجب، **ذيل طبقات الحنابلة**، ج٣، ص٢٨١.

(٢٦٧) العماد الأصفهاني، **خريدة القصر**، ج٣، م٢، ص٨٧.

(٢٦٨) السبكي، **طبقات الشافعية**، ج٧، ص١٥٦.

(٢٦٩) ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ج٥، ص٧٠-٧١

(٢٧٠) الحسيني، **أخبار الدولة السلجوقية**، ص٥٨

(٢٧١) ابن العمراني، **الأنباء في تاريخ الخلفاء**، ص١٩٩-٢٠٠

(٢٧٢) اليزدي، **العراضة في الحكاية السلجوقية**، ص٥٧-٥٨.

(٢٧٣) ابن الأثير، **التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية**، ص٩

(٢٧٤) الحسيني، **أخبار الدولة السلجوقية**، ص٦٧.

(٢٧٥) الراوندي، **راحة الصدور وأية السرور**، ص ٤٢٨.

(٢٧٦) فخر الدين بن جهير، أبي نصر محمد بن محمد بن جهير الملقب فخر الدولة (ت٤٨٣هـ/١٠٩٠م) ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ج١٦، ص٢٩٠.

(٢٧٧) ابن العمراني، **الأنباء في تاريخ الخلفاء**، ص ١٩٩-٢٠٠.

(٢٧٨) الأزدي، **أخبار الدول المنقطعة**، ج٢، ص٤٣٥.

(٢٧٩) ابن النجار، **المستفاد من ذيل تاريخ بغداد**، ص٤٤.

(٢٨٠) ابن رجب، **ذيل طبقات الحنابلة**، ج٣، ص٢٥٦.

(٢٨١) الذهبي، **العبر**، ج٣، ص٣٥

(٢٨٢) ابن النجار، **المستفاد من ذيل تاريخ بغداد**، ص٢٦٠ -٢٦١.

(٢٨٣) الأزدي، **أخبار الدول المنقطعة**، ج٢، ص٤٥٥.

(٢٨٤) ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ج١٠، ص٢٠٢.

(٢٨٥) ابن الجوزي، **المصدر نفسه**، ج١٠، ص ٢٥٧.

(٢٨٦) ابن الجوزي، **المصدر نفسه**، ج١٠، ص٢٦٤.

(٢٨٧) ابن الجوزي، **المصدر نفسه**، ج١٠، ٢٦٤،٢٥٧.

(٢٨٨) ابن الطقطقا، **الفخري في الآداب السلطانية**، ص٣١٩.

(٢٨٩) أبن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج١٠، ص١٥٩، الذهبي، العبر، ج٢، ص٣٤٠، **تاريخ الإسلام** (حوادث ٤٧٠-٤٨٠هـ) ص ٤٥٩.

(٢٩٠) الحسيني، **أخبار الدولة السلجوقية**، ص٦٧.

(٢٩١) الذهبي، **تاريخ الإسلام**، (حوادث ٤٨٠-٤٩٠هـ) ص١٤٤.

(٢٩٢) ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوم والأمم**، ج٩، ص ٢٦٠.

(٢٩٣) الراوندي، **راحة الصدور وأية السرور**، ص٤٢٨.

(٢٩٤) أبو القاسم ابن المسلمة: علي بن الحسن بن أحمد بن محمد بن عمر أبو القاسم ابن المسلمة (ت٤٥٠هـ/١٠٥٨م)، **تقلد الوزارة للخليفة القائم بأمر الله**، ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ج١٦، ص ٤١-٤٣.

(٢٩٥) أبو علي الشرمقاني: الحسن بن أبي الفضل أبو علي الشرمقاني **المؤدب** (ت٤٥١هـ/١٠٥٩م) انظر ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الأمم والملوك**، ج١٦، ص٥٧.

(٢٩٦) ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج٥، ص٦٧.

(٢٩٧) ابن تغري بردي، **المصدر نفسه**، ج٥، ص٣٠٩.

(٢٩٨) الذهبي، **تاريخ الإسلام** (حوادث ٤٩٠-٥٠٠هـ) ص٢٩٨.

(٢٩٩) الذهبي، **العبر**، ج٣، ص٤٩.

(٣٠٠) ابن الجوزي، **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ج١٠، ص٢٠٢، ٢٥٧، ٢٦٢.

(٣٠١) ابن الطقطقا، **الفخري في الآداب السلطانية**، ص٣١٩.

قائمة المصادر والمراجع

أ. المصادر

١- ابن الأثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني الجزري (ت٦٣٠هـ/١٢٣٢م) **الكامل في التاريخ**، ١٢ج، دار صادر للطباعة والنشر، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٦.

٢- ـــــــــــ، **التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية**، تحقيق عبد القادر أحمد طليمات، دار الكتب الحديثة، القاهرة، مكتبة المثنى، بغداد، ١٩٦٣.

٣- الأزدي، علي بن ظافر (ت٦١٣هـ/١٢١٦م) **أخبار الدول المنقطعة** (الدولة العباسية)، ٢ج، دراسة وتحقيق عصام هزايمة وآخرون، مؤسسة حمادة ودار الكندي للنشر، اربد، ١٩٩٩.

٤- الأصفهاني، عماد الدين محمد بن محمد بن حامد (ت٥٩٧هـ/١٢٠٠م) **خريدة القصر وجريدة أهل العصر**، ٥ج، تحقيق محمد بهجت الأثري، المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٩٦٤.

٥- البنداري، الفتح بن علي بن محمد الأصفهاني (ت٦٤٣هـ/١٢٤٥م) **تاريخ دولة آل سلجوق**، قرآه وقدم له يحيى مراد، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٤.

٦- ابن تغري بردي، جمال الدين أبي المحاسن يوسف (ت٨٧٤هـ/١٤٦٩م)، **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، ١٦ج، قدم وعلقه عليه محمد حسن شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٠.

٧- ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت٥٩٧هـ/١٢٠٠م) **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، ١٠ج، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد، الدكن، ١٣٥٨هـ.

٨- الحسيني، صدر الدين أبي الحسن علي بن أبي الفوارس ناصر بن علي (ت٥٧٥هـ/١١٨٠م) **كتاب أخبار الدولة السلجوقية**، عني بتصحيحه محمد إقبال، مراجعة لجنة إحياء التراث العربي، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٤.

٩- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت٨٠٨هـ/١٤٠٥م)، **تاريخ ابن خلدون** المسمى كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ٧ج، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٦٢.

١٠- ابن خلكان، شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد (ت٦٨١هـ/١٢٨٦م)، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، ٨ج، تحقيق إحسان عباس، متعدد الطبقات، دار صادر، بيروت، د.ت.

١١- ابن دقماق، صارم الدين إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائي (ت٨٠٩هـ/١٤٠٦م) **الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين**، ٢ج، في ١م، تحقيق محمد كمال الدين عز الدين علي، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٥.

١٢- الذهبي، شمس الدين محمد بن عثمان (ت٧٤٨هـ/١٣٤٧م)، **العبر في خبر من غبر**، ٤ج، حققها وضبطها أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٥.

١٣- ــــــــــ **دول الإسلام**، ٢ج/ ١م، عني بطبعه ونشره عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، طبع إدارة إحياء التراث الإسلامي، دولة قطر، د.ت.

١٤- ــــــــــ **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والإعلام** (حوادث٤٤٠-٥٩٠هـ) تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩٦.

١٥- الراوندي، محمد بن علي بن سليمان (ت٦٠١هـ/١٢٠٤م) **راحة الصدور وأية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية**، نقله من الفارسية إبراهيم أمين الشواربي وعبد النعيم محمد حسنين وفؤاد عبد المعطي الصياد، دار القلم، القاهرة، ١٩٦٠.

١٦- ابن رجب، زين الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين الدمشقي الحنبلي (ت٧٩٥هـ/١٣٩٢م) **الذيل على طبقات الحنابلة**، ٤ج/ ٢م، دار المعرفة، بيروت، د.ت.

١٧- سبط ابن الجوزي، شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزواغلي (ت٦٥٤هـ-١٢٥٦م) **مرآة الزمان في تاريخ الأعيان**، مجلس دار المعارف العثمانية، حيد أباد، الدكن، ١٩٥١م.

١٨- السبكي، تاج الدين أبي نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي (ت٧٧١هـ/١٣٩٦م) **طبقات الشافعية الكبرى**، ٨ج، تحقيق محمود محمد الطناحي، عبد الفتاح محمد الحلو، عبسي البابي الحلبي وشركاه، د.م، د.ت.

١٩- السمرقندي، النظامي العروضي (توفي في النصف الثاني من القرن السادس الهجري)، جهار مقالة (المقالات الأربع) في الكتابة والشعر والنجوم والطب،

ترجمة محمد علي تاويت، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ١٩٨٢.

٢٠- ابن الطقطقا، محمد بن علي بن طباطبا (ت٧٠٩هـ/١٣٠٩م) **كتاب الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، دار صادر، بيروت، د.ت.

٢١- ابن العبري، جمال الدين بن هارون أبو الفرج الملطي (ت٦٨٥هـ/١٢٨٦م) **تاريخ مختصر الدول**، د.ن، د.م، د.ت.

٢٢- ــــــــــ **تاريخ الزمان**، نقله إلى العربية الأب إسحاق أرملة، قدم له الأب جان موريس فبيه، دار المشرق، بيروت، ١٩٨٦.

٢٣- ابن العمراني، محمد بن علي بن محمد (ت٥٨٠هـ/١١٨٤م) **الأنباء في تاريخ الخلفاء**، تحقيق وتقديم ودراسة قاسم السامرائي، نشريات المعهد الهولندي للآثار المصري والبحوث العربية، القاهرة، ١٩٧٣.

٢٤- الغساني، إسماعيل بن العباس (ت٨٠٣هـ/١٤٠٠م) **العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك**، تحقيق شاكر محمود عبد المنعم، دار التراث الإسلامي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، دار البيان، بغداد، ١٩٧٥.

٢٥- الفارقي، محمد بن يوسف بن علي بن الأزرق (ت٥٨٠هـ/١١٨٤م)، **تاريخ الفارقي** حققه وقدم له بدوي عبد اللطيف عوض، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٧٤.

٢٦- ابن الفوطي، كمال الدين أبو الفضل عبد الرزاق بن تاج الدين الشيباني (ت٧٢٣هـ/١٣٢٣م) **تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب**، ج٤،في ٤ق،

حققه مصطفى جواد، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مطبوعات مديرية إحياء التراث القديم، د.م، د.ت.

٢٧- القزويني: أبو عبد الله زكريا محمد بن محمود القزويني (ت٦٨١هـ/١٢٨٢م) **آثار البلاد وأخبار العباد**، نشر وستقلد ط جوتنجن سنة ١٩٤٨، ط دار صادر، بيروت، د. ت.

٢٨- ابن القلانسي، أبو يعلي حمزة بن أسد بن علي بن محمد التميمي (ت٥٥٥هـ/١١٦٠م) **تاريخ أبي يعلي المعروف بتاريخ دمشق**، تحقيق سهيل زكار، التكوين للتأليف والترجمة والنشر، دمشق، ٢٠٠٧.

٢٩- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت٨٤٥هـ/١٤٤٢م) **السلوك لمعرفة دول الملوك**، ٨ج، تحقيق محمد عبد القادر عطا، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧.

٣٠- ابن الموصلايا، أمين الدولة أبو سعد العلاء (ت٤٩٧هـ/١١٠٤م)، **رسائل أمين الدولة**، تحقيق عصام عقله، رسالة دكتوراه، الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٩٧.

٣١- ابن النجار، محب الدين أبي عبد الله محمد بن محمود بن الحسن (ت٦٤٣هـ/١٢٤٥م) **ذيل تاريخ بغداد**، ج١٥، ١٦، ١٧، من تاريخ بغداد، صححه قيصر أبو فرج، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٧١.

٣٢- ــــــــــ **المستفاد من ذيل تاريخ بغداد**، ج١٨ من تاريخ بغداد، حققه وعلق عليه وقدم له قيصر أبو فرج، دار الكتاب العربى، بيروت، ١٩٧١.

٣٣- النسوي، محمد بن أحمد (ألفه بعد عام، ٦٣٩هـ/١٢٤١م) **سيرة السلطان جلآل الدين منكبرتي**، نشر وتحقيق حافظ أحمد حمدي، دار الفكر العربي، مطبعة الاعتماد، مصر، ١٩٥٣، ص٢٨٣.

٣٤- نظام الملك الطوسي، الحسن بن إسحاق بن العباس أبو علي الطوسي (ت٤٨٥هـ/١٠٩٢م) **سياست نامة أو سير الملوك**، ترجمة يوسف بكار، نشر وتوزيع دار الثقافة، دولة قطر، ١٩٨٦.

٣٥- اليافعي، عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان (ت٧٦٨هـ/١٣٦٦م) **مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان**، ٤ج، وضع حواشية خليل منصور، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.

٣٦- ياقوت، شهاب الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الله الرومي (ت٦٢٦هـ/١٢٢٩م)، **معجم البلدان**، ط٢، ٧ج، دار صادر، بيروت، د.ت.

٣٧- اليزدي، محمد بن محمد بن عبد الله ابن النظام الحسيني (ت٧٤٣هـ/١٣٤٢م) **العراضة في الحكاية السلجوقية**، ترجمة وتحقيق عبد النعيم حسنين، حسين أمين، طبع على نفقة جامعة بغداد، مطبعة جامعة بغداد، بغداد، ١٩٧٩.

ب. المراجع الحديثة

١. بارتولد، فلاديمير، **تاريخ الترك في آسيا الوسطى**، ترجمة أحمد السعيد سليمان، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٥٨.

٢. حلمي، أحمد كمال الدين، **السلاجقة في التاريخ والحضارة**، ط٢، ذات السلاسل، الكويت، ١٩٨٦.

٣. الرفاعي، أنور، **النظم الإسلامية**، دار الفكر، بيروت، ١٩٧٣.

٤. زيدان، جورجي، **تاريخ التمدن الإسلامي**، ط٢، مؤسسة خليفة للطباعة، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت.

٥. شير، أدي، **الألفاظ الفارسية المعربة**، بيروت، ١٩٨٠

٦. الصالح، صبحي، **النظم الإسلامية**، ط٣، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٦.

٧. فوزي، فاروق عمر، **الخلافة العباسية السقوط والانهيار**، ٢ج، دار الشروق، عمان، ١٩٩٨.

٨. مطلوب، أحمد، **معجم الملابس في لسان العرب**، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٩٥.

٩. هنتس، ڤالتر، **المكاييل والأوزان الإسلامية**، ترجمة كامل العسلي، منشورات الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٧٠.

المحاولة الثالثة التي قام بها الصليبيون لاحتلال دمشق ٥٤٣هـ/١١٤٨م

الدكتور عبد السلام زيدان

قسم التاريخ

جامعة البعث

١- المقدمة.
٢- توجه قادة الحملة الصليبية الثانية إلى مملكة بيت المقدس.
٣- اجتماع الصليبيين في عكا واتخاذ القرار بمهاجمة دمشق.
٤- هجوم الصليبيين على دمشق.
٥- أسباب إخفاق الصليبيين في احتلال دمشق.
٦- الخاتمة.

١ـ المقدمة:

لم تكن المحاولة التي قام بها الصليبيون لاحتلال دمشق عام ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م هي المحاولة الأولى وإنما هي المحاولة الثالثة. فقد قام الصليبيون بخمس محاولات لاحتلال دمشق، كانت المحاولة الأولى بقيادة بلدوين الثاني ملك مملكة بيت المقدس (١١١٨-١١٣١م) في ذي الحجة عام ٥١٩هـ/ كانون الثاني عام ١١٢٦م، ونجح ظهير الدين طغتكين(١) أتابك دمشق بمساعدة ولاة الأطراف من الانتصار على بلدوين

الثاني. أما المحاولة الثانية فقد كانت بقيادة بلدوين الثاني، وبونس كونت طرابلس (١١١٢-١١٣٧م)، وبوهيموند الصغير أمير أنطاكية (١١٢٦-١١٣٠م)، وجوسلين الكبير كونت الرها (١١١٩-١١٣١م)، في عام ٥٢٣هـ/ شهر تشرين الثاني عام ١١٢٩م، ونجح بوري بن طغتكين (١١٢٨-١١٣١م) في الانتصار على مقدمة هذا الجيش، وعندما وصل الخبر إلى الملك بلدوين وبقية القوات استعدوا للقتال، ولكن سقوط المطر الغزير والضباب الكثيف منعهم من التقدم وعادوا من حيث أتوا[٢]. وقاموا بالمحاولة الرابعة بقيادة الملك بلدوين الثالث ملك مملكة بيت المقدس (١١٤٣-١١٦٢م) في عام ٥٥٢هـ/ ١١٥٧م، حيث هاجم بلدوين دمشق في غياب نور الدين محمود الذي كان يقوم بحملة ضد قلج أرسلان الثاني (١١٥٦-١١٩٢م) سلطان قونية[٣]، ونجح نجم الدين أيوب، المكلف بإدارة شؤون دمشق في غياب نور الدين، بتجنب الخطر الذي يتهدد مدينة دمشق، فعقد هدنة مع الملك بلدوين الثالث لمدة ثلاثة أشهر مقابل أن يدفع له "أربعة آلاف قطعة من الذهب، وردّ عليه ستة فرسان من الفرسان العاديين كانوا في أسره"[٤]. وقاموا بالمحاولة الخامسة بقيادة بلدوين الثالث ملك مملكة بيت المقدس وثييري كونت الفلاندرز، في شهر صفر عام ٥٥٣هـ/ آذار عام ١١٥٨م، ولكن نجح نور الدين في التصدي لهم[٥].

٢- توجه قادة الحملة الصليبية الثانية إلى مملكة بيت المقدس:

أخفقت الحملة الصليبية الثانية (١١٤٧-١١٤٩م) في استعادة الرها[٦] من المسلمين، حيث تعرض الألمان للهزيمة على أيدي السلاجقة في معركة قوية عند باتيز قرب دوريليوم[٧] عام ٥٤٢هـ/ في ٢٦ تشرين الأول عام ١١٤٧م، وتعرض الألمان لخسارة فادحة في الأرواح والعتاد، وتمكن الإمبراطور كونراد من النجاة مع عدد من قواته بعد أن جرح بسهمين في رأسه، وعادوا إلى نيقية[٨] عام ٥٤٢هـ/ في ٢ أو ٣ تشرين الثاني عام ١١٤٧م، وعاد السلاجقة إلى حصونهم محملين بالغنائم والأسلاب من الخيول، والسلاح، والنقود، وملأت هذه الغنائم البلاد السلجوقية حتى إنها وصلت

إلى فارس[٩]، والتقى الإمبراطور كونراد الثالث إمبراطور ألمانيا (١١٣٨-١١٥٢م) مع الملك لويس السابع ملك فرنسا (١١٣٧-١١٨٠م) في نيقية، وعقدا اجتماعاً قررا فيه إكمال هدفهما وتوحيد الجيشين في زحفهما، وعندما وصلا إلى إفسوس[١٠] قرر كونراد العودة إلى القسطنطينية، لذلك طلب من قواته الارتداد براً، أما هو فعاد عن طريق البحر[١١]. وعاد كونراد إلى القسطنطينية بسبب انزعاجه لفقده الكثير من جنوده الذين كانوا تحت قيادته[١٢] فضلاً عن أنه أُصيب بمرض جعله غير قادر على مواصلة الرحلة[١٣]، ولأنه لم يستطع أن يتحمل الفرنسيين الذين كانوا يسخرون من الألمان[١٤]، وذكر أودو أوف دويل [١٥] أن كونراد أسف لعدم مشاهدته مانويل الأول كومنين إمبراطور بيزنطة (١١٤٣-١١٨٠م)، لذلك عاد إلى القسطنطينية ليقضي الشتاء معه. وذكر البعض أن كونراد قرر العودة إلى القسطنطينية. إثر سماعه الأخبار التي حملها رسل مانويل، تلك الأخبار التي تتحدث عن حشود سلجوقية ستهاجم الصليبيين[١٦]. والراجح أن كونراد عاد إلى القسطنطينية بسبب مرضه، لأنه عندما علم مانويل وزوجته بمرض كونراد أرسلا له الهدايا، وطلبا منه العودة إلى القسطنطينية للنقاهة. وقد استقبلاه استقبالاً جيداً في العاصمة البيزنطية، وقام مانويل بعلاجه إلى أن استعاد صحته، ثم انتقل من القسطنطينية إلى فلسطين على أسطول بيزنطي صغير عام ٥٤٢هـ/ في آذار عام ١١٤٨م [١٧]. وربما كان السبب الذي جعل مانويل يطلب من كونراد العودة إلى القسطنطينية، ويعتني به بشكل كبير، ما أورده شالندون Chalandon [١٧] من أن مانويل كان مهدداً بخطر روجر الثاني ملك المملكة النورمانية (١١٣٠-١١٥٤م)، مما جعل إمكانية الحصول على مساعدة الإمبراطور الألماني ذات قيمة كبيرة له.

غادر الإمبراطور كونراد الثالث القسطنطينية إلى مملكة بيت المقدس على أسطول بيزنطي صغير عام ٥٤٢هـ/ في آذار عام ١١٤٨م[١٨] فوصل إلى عكا في شهر ذي القعدة ٥٤٢هـ/ منتصف شهر نيسان عام ١١٤٨م، وتابع تقدمه إلى مدينة القدس التي

وصلها في النصف الثاني من شهر نيسان من العام نفسه. وكان الملك بلدوين الثالث، والبطريرك فوشر، ورجال الدين، وعامة الشعب، قد خرجوا لاستقبال كونراد قبل وصوله إلى المدينة، "وتلقوه بالأناشيد والأهازيج، ودخلوا به بيت المقدس" [١٩]. ونزل الإمبراطور كونراد في قصر الداوية ليكون مقراً لإقامته[٢٠]، وزار الأماكن المقدسة في المدينة قبل أن يعود إلى عكا [٢١]. كما أبحر الفونسو جوردان بن ريموند الصنجيلي كونت طولوز من القسطنطينية[٢٢] مع زوجته وعائلته وألف من الخيالة[٢٣]، فوصل إلى عكا عام ٥٤٢هـ/ في نيسان عام ١١٤٨م بعد كونراد بأيام قليلة. وبينما كان ألفونسو في طريقه إلى القدس توقف في مدينة قيصرية الساحلية ومات بعد عدة أيام من وصوله إليها، ربما بسبب إصابته بمرض حاد مثل الزائدة الدودية، وكانت هناك شائعات تقول أنه مات مسموماً[٢٤] . وقد اتهم ريموند الثاني أمير طرابلس (١١٣٧-١١٥٢م) بأنه هو الذي دس السم إلى عمه ألفونسو جوردان لأنه كان يخشى أن يطالبه بإمارة طرابلس على أساس أن والده ريموند الصنجيلي هو مؤسسها[٢٥]، وهذا ما أوضحه برتراند بن جوردان حيث اتهم ابن عمه ريموند بتدبير عملية الاغتيال. واعتقد البعض أن الملكة مليسند هي التي دبرت الجريمة بناءً على طلب أختها الأميرة هوديبرنا زوجة ريموند[٢٦]. ولكن على الرغم مما قيل أوضح وليم الصوري[٢٧] أنه "لم يعرف أحد من ذا الذي دبر هذه الجريمة النكراء".

وتعرض لويس السابع وقواته للهزيمة على أيدي السلاجقة عند سفح أحد الجبال بعد مدينة لوديسيا في آسيا الصغرى في شعبان عام ٥٤٢هـ/ ٨ كانون الثاني ١١٤٨م[٢٨]، وتابع الفرنسيون طريقهم إلى أضاليا التي وصلوا إليها في شعبان عام ٤٥٢هـ/ ٢٠ كانون الثاني عام ١١٤٨م[٢٩]، ومنها نُقل لويس السابع مع قسم من قواته إلى أنطاكية بحراً حيث وصلوا إلى ميناء السويدية [٣٠] في ١٩ مارس " آذار" عام ١١٤٨م (٢٥شوال ٥٤٢هـ)[٣١]، بعد سفر بحري استغرق حوالي عشرين يوماً[٣٢]. وذكر بيري perry [٣٣] أنه ربما مر لويس على قبرص قبل وصوله إلى

ميناء السويدية. وعندما علم ريموند دي بواتيه أمير أنطاكية (١١٣٦-١١٤٩م) بوصول لويس إلى ميناء السويدية، أسرع مع حاشيته لاستقبال الملك واصطحابه إلى مدينة أنطاكية، واستقبله أهالي المدينة ورجال الدين بفرح كبير[٣٤]. وتعرض قسم كبير من الباقين في أضاليا للإبادة على أيدي السلاجقة. ولم يصل إلا قسم قليل منهم إلى أنطاكية[٣٥] وحصل خلاف بين لويس السابع وريموند دي بواتيه بسبب رفض لويس لاقتراح ريموند القيام بحملة مشتركة ضد حلب لذلك رحل لويس مع قواته إلى مملكة بيت المقدس[٣٥].

وغادر الملك لويس السابع أنطاكية متوجها إلى مملكة بيت المقدس عن طريق البحر[٣٦]، وقد وصل إلى عكا عام ٥٤٢هـ/ في شهر أيار عام ١١٤٨م[٣٧] . وذكر ميشو Michaud [٣٨] أن لويس لم يتوقف في طرابلس. ولكن براندج Brundage [٣٩] أشار إلى توقف الملك في طرابلس لمدة قصيرة قبل أن يستكمل رحلته إلى القدس. وتقدم الملك لويس من عكا إلى القدس، "فهب لاستقباله جميع رجال الدين والشعب، وساروا به إلى المدينة يحوطونه بما يليق به من التوقير والإجلال وما في قلوبهم من الغبطة، ثم ساروا به وبمن معه من النبلاء إلى الأحرام الطاهرة، يزفونهم بالأهازيج، ويرتلون التراتيل الدينية بين أيديهم"[٤٠]، وبعد انتهاء الملك من صلاته صحبوه إلى مقر إقامته ثم تركوه[٤١]. وتأجلّت المشاورات حول الأنشطة العسكرية للصليبيين إلى النصف الثاني من شهر حزيران حتى يتمكن الملك الفرنسي من أن يُكرس نفسه لأداء واجباته الروحية كحاج[٤٢]. واجتمع لويس مع كونراد الثالث في كنيسة القيامة[٤٣]. واجتمع الملك بلدوين الثالث وبارونات القدس، وكونراد الثالث، ولويس السابع، في مدينة القدس وقرروا الاجتماع في عكا في شهر محرم عام ٥٤٣هـ/ ٢٤ حزيران عام ١١٤٨م "لسماع ما أسفر عنه هذا الحج العظيم من النتائج، وما تمخضت عنه من جليل الأعمال، وزيادة رقعة المملكة"[٤٤].

٣- اجتماع الصليبيين في عكا واتخاذ القرار بمهاجمة دمشق:

عقد الصليبيون اجتماعاً في عكا في حزيران عام ١١٤٨م[٤٥]، وحضره من مملكة بيت المقدس الملكة مليسند وابنها بلدوين الثالث (١١٤٤-١١٦٢م)، وفوشر بطريرك بيت المقدس، وبلدوين رئيس أساقفة قيسرية، وروبرت رئيس أساقفة الناصرة، وروجو أسقف عكا، وبرنارد أسقف صيدا، ووليم أسقف بيروت، وآدم أسقف بانياس، وجيرالد أسقف بيت لحم، وروبرت رئيس الفرسان الداوية، وريموند رئيس الفرسان الاسبتاريه، ومناسيس الكند سطبل[٤٦] الملكي، وجيرارد صاحب صيدا، وجي صاحب بيروت، وكثيرون غيرهم[٤٧]. وحضر الاجتماع من الجانب الألماني الإمبراطور كونراد الثالث، وأوتو الفريزي، وهنري أسقف تول، وستيفن أسقف ميتز، وثيوفين أسقف بورتو، وديتون النائب البابوي المرافق للألمان، وهنري دوق النمسا أخو كونراد الثالث، وولف السادس دوق بافاريا، وفريدريك دوق سوابيا، وهيرمان كونت فيرونا، وبرتولد من إقليم أنخس، ووليم مركيز منتفرات، وجي كونت بلاندراس، وكثيرون غيرهم. كما حضر من الجانب الفرنسي الملك لويس السابع، وجودفري أسقف لانجرس، وأرنولف أسقف ليزييه، وجاي النائب البابوي المرافق للفرنسيين، وروبرت دي بيرش أخو الملك، وهنري كونت تروي، وتييري كونت الفلاندرز، وبرتراند الصغير الابن غير الشرعي لألفونسو جوردان، وآخرون غيرهم[٤٨]. ولم يحضر ممثلون عن إمارة أنطاكية والرها وطرابلس[٤٩]، ويرجع عدم حضور ريموند دي بواتيه اجتماع عكا إلى تخلي الملك الفرنسي عنه، واعتماده على مساندة الإمبراطور البيزنطي مانويل كومنين التي وعده بها بعد أن قدم له الولاء، ولم يحضر ريموند الثاني كونت طرابلس بسبب انزعاجه من اتهامه بقتل ألفونسو جوردان كونت تولوز، ولم يحضر جوسلين حاكم الرها لأنه لم يكن راضياً عن تصرفات الملك لويس. وربما لم يحضر أمراء الإمارات الصليبية الشمالية لأنهم كانوا يدركون أن إماراتهم كانت مهددة تهديداً مباشراً بخطر نور الدين محمود، لذلك كانوا يفضلون

الاحتفاظ بقوتهم بدلاً من تبديدها "من أجل تحقيق مطامع ثانوية لمملكة بيت المقدس"(٥٠).

كان الهدف من عقد الاجتماع التشاور في أمر الخطة التي يجب السير عليها لاستغلال جموع الصليبيين في توسيع رقعة مملكة بيت المقدس، وبعد مناقشات ومداولات واختلاف في الآراء استقر أمرهم أخيراً على منازلة دمشق(٥١). ويبدو أن البعض اقترحوا في هذا الاجتماع ضرورة توجيه الحملة ضد نور الدين من أجل إعادة الرها(٥٢). وهذا ما أكده ميشو Michaud (٥٣) عندما قال: "لم يذكر اسم جوسلين الثاني، البائس، سوى قليلٍ في اجتماع الملوك والأمراء والبارونات". وذكر سمايل Smail (٥٤) أن قرار غزو دمشق يقع على مسؤولية كونراد الثالث، ولويس السابع، وبلدوين الثالث. ويرى البعض أن بارونات مملكة بيت المقدس هم المسؤولون عن اتخاذ القرار(٥٥). ويرى ماير Mayer (٥٦) أنه لا يوجد في المصادر ما يؤكد على أن بارونات مملكة بيت المقدس هم الذين تقدموا ونفذوا اقتراح غزو دمشق، وأن قادة الحملة الصليبية الثانية هم الذين "كان لديهم القدرة على التقدم بمثل هذا المشروع الغامض". والواقع أن مسؤولية غزو دمشق تقع على عاتق القائمين على حكم مملكة بيت المقدس وقادة الحملة الصليبية الثانية، ولكن ربما يكون بلدوين الثالث وأمه مليسند، وبارونات المملكة، هم الذين اقترحوا المشروع لأنهم أرادوا الانتقام للهزيمة التي لحقت بهم على أيدي قوات معين الدين أنر (٥٧) ونور الدين محمود (٥٨)، عندما أرادوا تقديم المساعدة للتونتاش صاحب بصرى وصرخد في ذي الحجة عام ٥٤١هـ/ أيار عام ١١٤٧م .

ويرى بعض المؤرخين أنه إذا تمكن الصليبيون من الاستيلاء على مدينة دمشق فإنها ستصبح حصناً متقدماً يحمي مملكة بيت المقدس من هجمات المسلمين(٥٩). ويرى البعض الآخر أنهم وجهوا أنظارهم إلى دمشق لما تتمتع به من قداسة، فقد تم ذكرها في الإنجيل، ولأنها مركز تجاري كبير، كما أن نجاحهم في الاستيلاء عليها سوف

يؤدي إلى قطع الطريق بين مصر وبغداد، وإيجاد إقطاعيات زراعية عديدة للبارونات الصليبيين[٦٠].

وقد وصف عدد من المؤرخين قرار الهجوم على دمشق بالحماقة وأنه مخالف لقواعد الأدب واللياقة، لأن معين الدين أنر كان الحليف الوحيد للصليبيين بين أمراء المسلمين بالشام، وهو الوحيد الذي يستطيع مساعدتهم من أجل وقف تقدم نور الدين[٦١]. لذلك تتطلب المصلحة الصليبية الحفاظ على الصداقة مع دمشق إلى أن يتم التغلب على نور الدين، وأن يظل الخلاف قائماً بين دمشق وحلب[٦٢]. وأدى الهجوم على دمشق إلى التقارب بينها وبين حلب[٦٣]. كما جعل نور الدين محمود يفكر جدياً في الصراع الدائر بين المسلمين والصليبيين من أجل السيطرة على دمشق[٦٤].

وبعد أن وافق الحضور في اجتماع عكا على غزو دمشق، "نادى المنادي أن يكون كل أمير على أتم أهبة لقيادة قواته في اليوم المحدد للزحف إلى الناحية المعينة، لذلك احتشدت جميع قوى المملكة الحربية من المشاة والأهالي والحجاج على السواء، كما جاء العاهلان العظيمان اللذان يحبهما الرب (لويس السابع وكونراد الثالث)، وكانت معهما قواتهما"[٦٥].

٤- هجوم الصليبيين على دمشق:

وزع قادة الصليبيين سبعمائة ألف دينار على قواتهم في عكا، ولم يظهروا أنهم يريدون غزو مدينة دمشق بل بانياس (بالجولان)[٦٦]. وانضم إليهم في عكا عدد من الإنكليز، الذين كانوا قد شاركوا في الاستيلاء على لشبونة، وشاركوا في حصار دمشق[٦٧].

تقدم الصليبيون بقيادة الملك بلدوين الثاني، ولويس السابع، وكونراد الثالث، من طبرية[٦٨]، نقطة تجمعهم، باتجاه دمشق في صفر عام ٥٤٣هـ/ ١٥ تموز عام ١١٤٨م[٦٩]. وبلغ عدد المقاتلين الصليبيين خمسين ألف مقاتل[٧٠].

كان يحكم دمشق، أثناء تقدم القوات الصليبية إليها، مجير الدين أبق(٧١)، ومدبر الأمور معين الدين أنر، وهو صاحب السلطة الفعلية(٧٢). ولم يحفل الأمير معين الدين أنر في أول الأمر بما وصله من أنباء حول الحملة الصليبية، فقد سبق له أن سمع ما تكبدته من خسائر فادحة في آسيا الصغرى، كما لم يتوقع أن يستهدف الصليبيون دمشق، لكنه عندما علم بتحرك القوات الصليبية نحو مدينته، أصدر الأوامر إلى حكام المقاطعات التابعة لدمشق بأن يبعثوا إليه على عجل بكل من يستطيعون الاستغناء عنه من الرجال(٧٣)، و"جمع العسكر وحفظ البلد"(٧٤)، وطلب المساعدة من نور الدين محمود حاكم حلب(٧٥)؛ ومن أخيه سيف الدين غازي(٧٦) حاكم الموصل، ودعاه "إلى نصرة المسلمين وكف العدو عنهم"(٧٧).

وصل الصليبيون إلى بانياس وعقدوا اجتماعاً لتحديد الجهة التي سيهاجمون من خلالها مدينة دمشق، وبعد تباحث القادة مع عدد من الناس العارفين بموقع المدينة، والمناطق المجاورة لها، قرروا إن أفضل وسيلة للاستيلاء على المدينة الاستيلاء على البساتين المحيطة بها من معظم الجهات. وتابع الصليبيون تقدمهم حتى وصلوا إلى قرية داريا(٧٨) في ٥ ربيع الأول عام ٥٤٣هـ/ ٢٣ تموز عام ١١٤٨م، وقاموا بتنظيم قواتهم منعاً لحدوث المنازعات فيما بينهم، فجاء في المقدمة الملك بلدوين الثالث ومن يرافقه من قوات مملكة بيت المقدس، وتقرر أن يكون في المقدمة لأنه يعرف المنطقة أكثر من لويس السابع وكونراد الثالث، وجاء لويس بعد بلدوين، وكانت مهمته تأمين المساعدة لبلدوين إذا ما دعت الحاجة إلى ذلك، وجاء كونراد الثالث مع قواته في المؤخرة، وكانت مهمته حماية القوات الصليبية من أي هجوم مباغت يأتي من الخلف(٧٩).

وتشير المصادر العربية إلى توقف الصليبيين في المكان المسمى منازل العسكر(٨٠)، فوجدوا الماء مقطوعاً فيه، فتوجهوا ناحية المزة(٨١) بسبب وفرة المياه فيها(٨٢). وأراد الصليبيون الاستيلاء على الغوطة من جنوب غرب دمشق، لأنهم كانوا يعتبرون

الغوطة منطقة حصينة توفر حماية كبيرة للمدينة، لذلك فإن الاستيلاء عليها يساعد في الاستيلاء على دمشق، كما كانوا يريدون توفير الفاكهة والماء للقوات الصليبية[٨٣]. وربما رغبتهم في الحصول على الماء كانت أهم الأسباب التي دفعتهم لمهاجمة المدينة من الجهة الغربية التي كانت وفيرة المياه، فقد كان هناك نهر بردى بالإضافة إلى نهري بانياس والداراني وهما من فروع بردى[٨٤]. لذلك تقدم الملك بلدوين الثالث، ويتبعه لويس السابع، وكونراد الثالث، خلال الدروب الضيقة في بساتين الغوطة في جنوب غرب دمشق، وقد واجهت القوات الصليبية صعوبة كبيرة خلال تقدمها، بسبب ضيق الممرات الموجودة في البساتين، بالإضافة إلى الهجمات التي كان يشنها الدمشقيون المختبئون خلف الحواجز الطينية التي كانت تحيط بكل بستان، كما كانوا يطعنون الصليبيين المارين بالرماح التي في أيديهم، وتعرض الصليبيون لوابل من السهام التي كان يرميها حراس البساتين الذين كانوا يقيمون في مبانٍ مرتفعة، الأمر الذي أدى إلى قتل الكثير من الصليبيين[٨٥] . وأدرك الصليبيون خطورة الموقف لذلك قاموا بتدمير الجدران الموجودة على جانبي الدروب، وأسروا وقتلوا عدداً من المدافعين الذين كانوا يتحصنون خلف تلك الجدران، "واستولوا على البساتين"[٨٦]، وبذلك سيطر الصليبيون على الجزء الغربي من الغوطة بين داريا والمزة[٨٧].

وصل الصليبيون إلى المزة في٦ ربيع الأول عام ٥٤٣هـ/ يوم السبت ٢٤ تموز عام ١١٤٨م [٨٨]، وحاولوا بعد ذلك الوصول إلى النهر[٨٩] "ليطفئوا ظمأهم ويرووا غلتهم التي زاد من شدتها ما تحملوه من المشاق المضنية"، لكنهم لم يستطيعوا السيطرة على النهر[٩٠]، لان جيش دمشق من المسلمين حاول منع وصولهم إلى النهر[٩١]. وتساءل الإمبراطور كونراد عن سبب عدم تقدم القوات الصليبية، "فأعلموه بخبر استيلاء العدو (المسلمين) على النهر، ومنعه عسكرنا من العبور"، فغضب كونراد لسماعه الخبر، وتحرك مع قواته حتى وصل إلى الصفوف الأمامية التي كانت تحاول الوصول إلى النهر، ونزلوا عن خيولهم، واشتبكوا مع المسلمين بالأيدي،

وتقاتلوا بالسيوف، "وصمد الدماشقة في بادئ الأمر صمود الأبطال، وحاربوا ببسالة، لكن سرعان ما تسرب إليهم الوهن فلم يعودوا قادرين على تحمل المقاومة"، مما اضطرهم إلى الانسحاب والتخلي عن النهر[٩٢]. ويبدو أن المعركة حدثت في ٦ ربيع الأول ٥٤٣هـ/ يوم السبت ٢٤ تموز عام ١١٤٨م[٩٣]، حيث خرج معين الدين أنر ومجير الدين أبق على رأس مائة ألف راجل ما عدا الفرسان[٩٤]، وانتصر الصليبيون على المسلمين وسيطروا على النهر[٩٥]، وقتلوا من المسلمين حوالي مائتين[٩٦] منهم عبد الرحمن الحلحولي[٩٧]، والإمام يوسف الفندلاوي[٩٨]، وقد لقيا مصرعهما عند النيرب[٩٩].

وبعد أن سيطر الصليبيون على نهر بردى، تقدموا بقواتهم، فنزلوا بالميدان الأخضر[١٠٠]، ولم يستطع أهل دمشق صدهم عن ذلك المكان[١٠١]، "وقاموا بقطع الأشجار والتحصن بها، وهدم الحظائر"[١٠٢]. وانفراد ابن الجوزي[١٠٣] عن غيره من المؤرخين في توزيع القوات الصليبية وقبل وصولها إلى سور مدينة دمشق من ناحية الغرب، إذ يقول : "فنزل ملك الألمان في الميدان الأخضر في ستة آلاف فارس وثلاثين ألف راجل، ونزل ملك الساحل واسمه فرويس (ربما لويس) على الشرف الشمالي في ستة آلاف فارس وعشرين ألف راجل، ونزل الكنود والخيالة على الشرف القبلي في مائة ألف راجل، واجتهد المسلمون في إحصائهم فلم يقدروا".

ذكر جروسيه Grousset [١٠٤] أن كونراد الثالث سيطر على الربوة[١٠٥] بعد سيطرته على نهر بردى. وذكر رانسيمان[١٠٦] أن الصليبيين "شقوا طريقهم إلى قرية الربوة الواقعة على نهر بردى". ولكن لم يشر وليم الصوري، ولا ابن القلانسي، إلى ذلك.

عقد أهالي دمشق مجلساً للتشاور حول الإجراءات اللازمة التي يجب القيام بها لمنعهم من الدخول إلى المدينة، فسدوا جميع الشوارع من الناحية الغربية بجذوع الأشجار[١٠٧] التي قطعوها ليتحصنوا بها[١٠٨]، "نظراً لأن أملهم الوحيد كان يرتكز في

أن تسعفهم قوتهم بالهرب في الاتجاه المعاكس مع زوجاتهم وأولادهم في الوقت الذي يكون فيه الصليبيون منصرفين إلى إزالة هذه الحواجز"[١٠٩]، وقاموا بإخراج الصدقات، واجتمع الرجال، والنساء، والصبيان، في الجامع، "ونشروا مصحف عثمان، وحثوا الرماد على رؤوسهم، وبكوا، وتضرعوا"[١١٠]. لأن أهالي دمشق خافوا من الصليبيين عند اقترابهم من المدينة[١١١]، وتوقعوا سقوطها بأيديهم[١١٢]، وضاق بهم الحال[١١٣].

تحول المد في اليوم الثاني، ٧ ربيع الأول عام ٥٤٣هـ/ الأحد ٢٥ تموز عام ١١٤٨م، لصالح المسلمين، فقد شن الأمير معين الدين أنر هجوماً قوياً ضد الصليبيين، أسفر عن قتل وجرح العديد منهم، ولم تكن القوات الصليبية قادرة على مهاجمة القوات الإسلامية، فأحجموا عن الهجوم إلى أن تتهيأ لهم الفرصة المناسبة، للهجوم وظلوا على تلك الحالة إلى أن "مالت الشمس إلى الغروب وأقبل الليل وطلبت النفوس الراحة، وعاد كل منهم إلى مكانه، وبات الجند بإزائهم، وأهل البلد على أسوارهم للحرس والاحتياط، وهم يشاهدون أعداءهم بالقرب منهم[١١٤].

وفي اليوم الثالث من بدء القتال، ٨ ربيع الأول ٥٤٣هـ/ الاثنين ٢٦ تموز عام ١١٤٨م، أخذت النجدات التي طلبها الأمير معين الدين أنر من ولاة الأطراف تتوالى، فقد "كانت خيل التركمان تتواصل ورجالة الأطراف تتتابع"، ووصل عدد من رماة السهام من ناحية البقاع، ودخلوا إلى المدينة من الجهة الشمالية من باب توما وباب الفراديس، الأمر الذي أدى إلى رفع الروح المعنوية للدمشقيين. فقد هاجم المسلمون الصليبيين من الجهة الغربية للمدينة من باب النصر وباب الجابية، وأغرقوا المعسكر الصليبي بوابل من السهام، "ونبل الجرخ[١١٥] بحيث تصيب في مخيمهم في راجلاً، أو فارساً، أو فرساً، أو جملاً. ثم توقف القتال في هذا اليوم، وعادت قوات الطرفين إلى أماكنها[١١٦].

عاد المسلمون لمهاجمة القوات الصليبية في فجر اليوم الرابع، ٩ ربيع الأول ٥٤٣هـ/ الثلاثاء ٢٧ تموز عام ١١٤٨م، وأحاطوا بهم في معسكرهم، وتحصن الصليبيون بأشجار الزيتون، وقام المسلمون برميهم بالنشاب والأحجار، ولم يخرج منهم للقتال إلا جماعة من الفرسان والمشاة، ولكن القوات الإسلامية أمطرتهم بوابل من السهام قبل أن يشتبكوا معهم. ونجح عدد من سكان القرى في رصد تحركاتهم داخل دروب الغوطة، فقتلوا عدداً منهم، وأحضروا "رؤوسهم لطلب الجوائز عنها"[١١٧].

في غضون ذلك وصل سيف الدين غازي على رأس عشرين ألف مقاتل إلى حمص، كما وصل نور الدين محمود إلى حمص أيضاً، وأرسل سيف الدين غازي إلى معين الدين أنر يخبره بوصوله إلى حمص مع عدد كبير من القوات، ويشترط عليه "أن يكون نوابي بمدينة دمشق لأحضر وألقى الفرنج، فإن انهزمت دخلت أنا وعسكري البلد واحتمينا به، وإن ظفرت فالبلد لكم لا أنازعكم فيه"[١١٨]. وكان معين الدين أنر يدرك تماماً أنه لو سلم المدينة إلى سيف الدين فلن يعيدها أبداً[١١٩]. لذلك ما طل معين الدين في رده على سيف الدين غازي "لينظر ما يكون من الفرنج"[١٢٠]. أي أن معين الدين أنر أراد أن يستغل وجود سيف الدين في حمص للضغط على الصليبيين من أجل الانسحاب عن دمشق، وهذا ما حصل. فقد أرسل سيف الدين غازي إلى الصليبيين يهددهم ويطلب منهم الرحيل عن دمشق. وأرسل معين الدين إلى رجال الحملة الصليبية الثانية يهددهم بوصول سيف الدين غازي، ويطالبهم بالرحيل عن المدينة وإلا فإنه سيسلمها له. وأرسل إلى الصليبيين القدماء (بارونات مملكة بيت المقدس) يخوفهم من الصليبيين الجدد، ويخبرهم أنهم إذا نجحوا في السيطرة على دمشق فإنهم "لا يبقون عليكم ما بأيديكم من البلاد، وإن سلمت أنا دمشق إلى سيف الدين فأنتم تعلمون أنكم لا تقدرون على منعه عن البيت المقدس"، ووعدهم أن يسلمهم بانياس إذا استطاعوا إقناع كونراد الثالث بالرحيل عن دمشق، "فأجابوه إلى ذلك،...

واجتمعوا بملك الألمان وخوفوه من سيف الدين وكثرة عساكره...، وأنه ربما ملك دمشق فلا يبقي لهم معه مقام بالساحل، فأجابهم إلى الرحيل عن دمشق وسار عنها. ورحل فرنج الساحل وتسلموا حصن بانياس من معين الدين"[١٢١]. ومما يجدر ذكره أنه إذا كانت المصادر العربية تقتصر في الإشارة إلى كونراد الثالث، فهذا لا يعنى أن الملك لويس السابع لم يكن موجوداً في حصار مدينة دمشق.

ذكر وليم الصوري[١٢٢] أن "الدماشقة" نجحوا في رشوة بعض رجال مملكة بيت المقدس بمبلغ كبير من المال[١٢٣]، لذلك قام هؤلاء الرجال بنصح "الملك والأمراء والحجاج" بأن ينقلوا معسكرهم من الجانب الغربي للمدينة إلى الجنوب الشرقي، بحجة أن تلك الجهة خالية من الأشجار، كما أنه لا يوجد نهر أو خندق يعيق وصولهم إلى المدينة، كما أن السور ضعيف " لابد أن ينهار عند تعرضه لأول هجمة" ٠ وعندما سمع قادة القوات الصليبية المحاصرة لدمشق النصائح التي وجهت إليهم، قاموا بنقل المعسكر الصليبي إلى الجهة الجنوبية الشرقية[١٢٤]. وجدوا المكان الجديد بعيداً عن بساتين الفاكهة وعن الماء، وأخذ الطعام في النقصان، "وأدركوا أن الخيانة أتت أكلها"، وراحوا يتشاورون فيما يجب عمله في ظل الوضع الجديد، وأيقنوا أنه لا يمكنهم الرجوع إلى المكان الذي كانوا فيه، بسبب قيام القوات الإسلامية باستعادة ذلك المكان بعد مغادرة الصليبيين له، وقرروا في النهاية "الارتداد دون أن يحققوا هدفهم المنشود، فعادوا إلى المملكة سالكين نفس الطريق الذي جاءوا منه". ولا بد من الإشارة إلى أن المصادر العربية لا تشير إلى انتقال الصليبيين من غرب المدينة إلى جنوبها الشرقي ولا إلى مسألة الرشوة٠

ومهما يكن من أمر، فقد فك الصليبيون الحصار عن مدينة دمشق في ١٠ربيع الأول ٥٤٣هـ/ فجر يوم الأربعاء ٢٨ تموز عام ١١٤٨م، وحين علم المسلمون برحيلهم، قاموا بملاحقتهم، وقتلوا " من الرجال والخيول والدواب العدد الكثير"، وقام الصليبيون بإحراق الربوة وما يجاورها انتقاماً من المسلمين [١٢٥].

٥- أسباب إخفاق الصليبيين في احتلال دمشق:

يُرجع بعض المؤرخين إخفاق حصار دمشق إلى اختلاف الصليبيين حول مستقبل دمشق بعد احتلالها. فقد كان ثييري كونت الفلاندرز يرغب في الحصول على دمشق كإقطاع شبه مستقل على غرار إمارة طرابلس، وأيده في طلبه كل من كونراد الثالث ولويس السابع والملك بلدوين الثالث، وأيده بلدوين لأن أخته غير الشقيقة كانت زوجة ثييري، وكان بارونات مملكة بيت المقدس يأملون أن تكون دمشق إقطاعاً تابعاً للمملكة، وأراد أن يكون جوي بريسبار كونت بيروت حاكماً لهذا الإقطاع. لذلك قام بارونات مملكة بيت المقدس، بسبب الخلاف حول مستقبل دمشق، بالاتصال بمعين الدين أنر وحصلوا منه على مبلغ من المال مقابل ترحيل الصليبيين عن دمشق [١٢٦]. وربما أشار بارونات مملكة بيت المقدس على قادة الصليبيين بنقل المعسكر إلى الجهة الجنوبية الشرقية من دمشق حتى يفوتوا الفرصة على ثييري[١٢٧].

ذكر وليم الصوري [١٢٨] أن من الأسباب التي جعلت الصليبيين يفكرون بالرحيل عن دمشق، أنهم رأوا أنَّ المكان الجديد الذي انتقلوا إليه "بعيد كل البعد عن بساتين الفاكهة الكثيرة"، ولم يكن الأمر كذلك، إذ إنّ دمشق "كانت محاطة بالبساتين والجنائن المثمرة بالفاكهة والخضار من كل أطرافها... فمن الشمال كانت بساتين الصالحية، ومن الجنوب بساتين الشاغور (البراني) اليانعة الوافرة،... ومن الشرق بساتين الغوطة الشرقية الشهيرة، لا زالت موجودة إلى اليوم خارج الباب الشرقي، ومن الغرب الشرفان الأعلى والأدنى وغيرهما... إذاً كلام وليم الصوري في هذا المجال مرفوض جملة وتفصيلاً لأنه يخالف الحقيقة الطبوغرافية لواقع الأرض ومزروعاتها " [١٢٩].

وذكر وليم الصوري [١٣٠] أيضاً "أن هناك آخرين قالوا أن أمير أنطاكية كرس كل جهده ليجعل الفشل من نصيب مشروع الملك الويس... فقد أغرى فريقاً من كبار رجال الجيش على تعقيد الأمور تعقيداً حمل الملك الفرنسي على التخلي عن المشروع نهائياً".

أما ابن القلانسي [١٣١] فقد ذكر ان الصليبيين قرروا الانسحاب عن دمشق لما تواتر إلى سمعهم من أن العساكر الإسلامية أتت من كل النواحي لنجدة دمشق، خاصة أن نور الدين محمود وسيف الدين غازي قد وصلا إلى حمص، وقام سيف الدين بتهديد الصليبيين إن لم يرحلوا عن دمشق، وراسل معين الدين أنر "فرنج الشام" ووعدهم أنه سيتنازل لهم عن بانياس إذا نجحوا في ترحيل كونراد الثالث عن دمشق، الأمر الذي أدى إلى رحيلهم عن المدينة [١٣٢].

يتبين مما سبق أن مسألة الرشوة ليست هي السبب الوحيد الذي دفع الصليبيين إلى فك الحصار عن دمشق، ويرجع الإخفاق إلى الأسباب التالية:

١- المقاومة الجبارة التي قام بها معين الدين أنر مع قوات دمشق وبالتعاون مع النجدات التي وصلت من المناطق المجاورة.

٢- نجاح حرب العصابات (الكر والفر) التي قام المسلمون بشنها في بساتين الفوطة ضد الصليبيين.

٣- الكره والغيرة المتبادلة بين الصليبيين المحليين (حكام وبارونات مملكة بيت المقدس) وبين الصليبيين القادمين حديثاً (رجال الحملة الصليبية الثانية)، أدى إلى الاختلاف فيما بينهم حول مستقبل دمشق بعد احتلالها.

٤- قيام بارونات مملكة بيت المقدس بالاتصال مع معين الدين أنر لأنهم تخوفوا من ظهور إمارة جديدة تزاحمهم وتؤثر أو تحد من مكتسباتهم، كما كانوا يدركون أن الاستمرار في حصار دمشق سوف يؤدي إلى وقوعها في قبضة نور الدين محمود، الأمر الذي يجعل مملكتهم في مواجهة مباشرة معه. لذلك فضلوا الحفاظ على علاقتهم مع معين الدين أنر، والعمل على فك الحصار عن دمشق والاكتفاء بالحصول على بانياس، وربما حصلوا على مبلغ من المال.

٦- الخاتمة:

بعد إخفاق الحملة الصليبية الثانية في احتلال دمشق، عاد رجالها إلى مملكة بيت المقدس، وعقدوا اجتماعاً للقيام بأي عمل "يرفع من ذكرهم في عيون الخلف"، واقترح البعض محاصرة عسقلان، ولكن رفض الاقتراح قبل مناقشته، وذلك بسبب "غضب الرب عليهم" (١٣٣)، وتبين من اقتراح محاصرة عسقلان، أن مملكة بيت المقدس أرادت الاستفادة من قوات الحملة الصليبية الثانية من أجل القيام بعمل يؤدي إلى توسيع رقعة المملكة، والتعويض عن الفشل الذي لحق بهم أمام أسوار مدينة دمشق، ولكن لويس وكونراد رفضا المشاركة في حصار عسقلان، ولم تذكر المصادر أسباب رفضهما، وربما يرجع السبب في ذلك إلى الكراهية المتبادلة بين رجال الحملة الصليبية الثانية والصليبيين المقيمين ببلاد الشام، الأمر الذي لم يجعل الاقتراح يوضع موضع التنفيذ.

لم يبق كونراد في فلسطين مدة طويلة بعد عودته من حصار دمشق، بل توجه مع رجاله إلى عكا، حيث غادروها في ٢٤ربيع الآخر ٥٤٣هـ/ ٨ أيلول عام ١١٤٨م على متن سفن بيزنطية، وعندما وصلت السفن إلى تسالونيكا (١٣٤)، تقابل كونراد مع الإمبراطور البيزنطي مانويل كومنين (١٣٥). وعاد معه إلى القسطنطينية لكي يمضي عيد الميلاد بالبلاط الإمبراطوري، واحتفل بزواج أخيه هنري دوق أوستريا (النمسا) من الأميرة البيزنطية ثيودورا ابنة أخ مانويل. وغضب البيزنطيون عندما شاهدوا أميرتهم الجميلة " تُقدم قرباناً لحيوان من الغرب "حسبما كتب برودرومُس prodromus، أحد شعراء البلاط البيزنطي، لأمها يبثها عطفه ومواساته، ومهما قيل فإن الزواج يدل على المصالحة بين البلاطين الألماني والبيزنطي (١٣٦)، وأخيراً غادر كونراد الثالث القسطنطينية في شهر رمضان عام ٥٤٣هـ/ شباط عام ١١٤٩م عائداً إلى المانيا(١٣٧)، وكان قد سبقه ابن أخيه فريدريك دوق سوابيا بأمر منه لتقوية حالة الإمبراطورية (١٣٨). ومات كونراد في عام ١١٥٢م وحكم بعده ابن أخيه فريدريك بربروسا(١٣٩).

مكث الملك لويس السابع في مملكة بيت المقدس مدة ستة أشهر بعد رحيل كونراد الثالث للاحتفال بعيد الفصح في القدس[١٤٠] ٠ ولكن بعد فشل حصار دمشق، غادر بعض النبلاء الفرنسيين بقيادة روبرت شقيق الملك لويس إلى وطنهم [١٤١]. وكتب سوجر Suger، نائب الملك لويس السابع في فرنسا، إلى الملك لويس أكثر من مرة يطلب منه العودة إلى فرنسا، لذلك بعد الاحتفال بعيد الفصح في القدس، غادر الملك لويس مملكة بيت المقدس في أوائل صيف عام ١١٤٩م (٥٤٣هـ) عائداً إلى فرنسا على متن سفينة صقلية، وانضمت تلك السفينة إلى أسطول نورماني قرب سواحل البلوبونيز[١٤٢]، وقد هاجمت سفن البحرية البيزنطية الأسطول النورماني بالقرب من رأس مالية (Malee)، فسارع لويس برفع العلم الفرنسي على سفينته، وبذلك تابع طريقه بسلام، ولكن تمكن البيزنطيون من الاستيلاء على سفينة كانت تحمل الكثير من أتباعه وممتلكاته، ولم يوافق الإمبراطور مانويل على إعادة الرجال والأمتعة إلى فرنسا إلا بعد عدة أشهر[١٤٣]. ويذكر أن الملكة إليانور وقعت في الأسر ولكن أطلق سراحها بسرعة[١٤٤].

وصل الملك لويس إلى كالابريا Calabria في جنوب إيطاليا في ٢٩ تموز عام ١١٤٩م، والتقى مع روجر الثاني في بوتنزا potenza، كما التقى مع البابا إيوجين الثالث **Eugenius III** (١١٤٥-١١٥٣م) في تيفولي Tivoli [١٤٥]. ثم تابع الملك لويس السابع رحلته إلى فرنسا، وبعد وصوله إلى باريس التقى مع نائبه سوجر الذي أثنى عليه وشكره على حسن إدارته لشؤون المملكة أثناء غيابه عنها [١٤٦] . وطلق لويس زوجته إليانور بعد عودته إلى فرنسا بسبب اتهامه لها بالخيانة، واختلاف الطباع بينهما، وعدم إنجابها ولداً ذكراً يحفظ الحكم في أسرته، وأدى ذلك إلى انتقال مقاطعة إكيتانيا من حوزة لويس إلى هنري الثاني ملك انكلترا لأنه تزوج من إليانور[١٤٧].

الهوامش

(١) طغتكين: أبو منصور، المعروف بأتابك، كان من رجال تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان، وكان مع تاج الدولة لما ذهب إلى الري لقتال ابن أخيه بركياروق بن ملكشاه بن ألب أرسلان، ثم رجع إلى دمشق بعد قتل تاج الدولة، وكان أتابك دقاق مدة ولايته فلما مات دقاق استولى على دمشق، وظل يحكمها حتى وفاته في ٧ أو ٨ صفر سنه ٥٢٢هـ/ يوم السبت عام ١١٢٧م. انظر: ابن عساكر (علي بن الحسن بن هبة الله ت. ٥٧١هـ/١٢٢٣م): **تراجم من تاريخ دمشق، ضمن الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية**، تأليف وتحقيق د. سهيل زكار، (دمشق، ١٩٩٥م)، جـ١١، ص ١٩٤؛ ابن العديم (عمر بن أحمد بن أبي جرادة ت. ٦٦٠هـ/١٢٦٢م): **زبدة الحلب عن تاريخ حلب**، تحقيق الدكتور سامي الدهان، (دمشق، ١٩٥٤م)، جـ٢، ض١١٩.

(٢) ابن القلانسي (حمزة بن أسد بن علي بن محمد التميمي ت. ٥٥٥هـ/١١٦٠م): **ذيل تاريخ دمشق**، تحقيق د.سهيل زكار، (دمشق، ١٩٨٣م)، ص ٣٣٩-٣٤٠، ٣٥٦-٣٦٠؛ وليم الصوري (ت. ٥٨١هـ/١١٨٥م): **الحروب الصليبية**، ترجمة د. حسن حبشي، (القاهرة، ١٩٩٤م)، جـ٣، ص٥١-٥٤، ٦٨-٧٢.

(٣) قونية: مدينة في الأناضول فيها ضريح جلال الدين الرومي، مؤسس المولوية الصوفية، وكذلك فيها قبر جحا المشهور بما تروى عنه من نكات ونوادر، وهى من أعظم مدن الإسلام في بلاد الروم. انظر:

الحموي، (ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي ت. ٦٢٢هـ/١٢٢٩م): **معجم البلدان**، (بيروت، ١٩٨٤م)، جـ٤، ص ٤١٥؛ الشهابي (قتيبة): **صمود دمشق أمام الحملات الصليبية**، (دمشق، ١٩٩٨م)، ص ٥٣.

(٤) وليم الصوري: **المصدر السابق**، ص ٤٣٧.

(٥) رانسيمان (ستيفن): **تاريخ الحملات الصليبية**، ترجمة نور الدين خليل، الطبعة الثانية، (الإسكندرية ١٩٩٨م) جـ٢، ص ٤٠٤.

(٦) الرها (Edessa): هي مدينة اورفا في جنوب تركيا اليوم، تقع على مسافة ٤٥ ميلاً شرق الفرات، ومسافة حوالي ١٦٠ميلاً شمال شرق أنطاكية. انظر:

فوشيه الشارتري: **تاريخ الحملة إلى بيت المقدس** ١٠٩٥-١١٢٧م، ترجمة ودراسة وتعليق د. قاسم عبده قاسم، (الكويت، ١٩٩٣م)، ص ١١٨ "**في** الهامش حاشية رقم ٣"؛ الشهابي: **المرجع السابق**، ص ٦٧.

(٧) دوريليوم: هي مدينة إسكي شهر Eski Shehir في الأناضول، وهي مدينة صغيرة. انظر:

الشهابي: **المرجع السابق**، ص ٥٣.

(٨) نيقية (Nicaea): اسمها الحالي ازنيق Iznik في تركيا، وهي إحدى مدن إقليم بيثينيا البيزنطي، أحد أكبر وأهم المدن البيزنطية، واشتهرت المدينة بمكانتها التجارية وبكونها أحد أهم الطرق العسكرية المؤدية إلى الأراضي الداخلية لآسيا الصغرى. انظر :

Kazhdan, A.P.(ed.): The oxford Dictionary of Byzantium (Oxford, 1991) , vol.1, pp. 1463 – 1465.

(٩) أودو أوف دويل: **رحلة لويس السابع إلى الشرق**، ضمن كتاب "**الحروب الصليبية**"، ترجمة د. سهيل زكار، (دمشق، ١٩٨٤)، ص٣٥٥-٣٦٠؛ وليم الصوري: **المصدر السابق**، ص ٢٧٥-٢٧٨؛ ميخائيل السوري الكبير: **روايات المؤرخ ميخائيل السوري الكبير، ضمن الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية**، ترجمة د. سهيل زكار، (دمشق، ١٩٩٥م)، جـ٥، ص ١٨٠؛ ابن العبري (غريغوريوس بن هرون بن توما الملطي ت. ٦٨٥هـ/١٢٨٦م): **روايات ابن العبري**، ضمن الموسوعة الشامية، ترجمة د. سهيل زكار، (دمشق،

١٩٩٥م) جـ٥، ص ٣٦٥-٣٦٦؛ عاشور (سعيد): **الحركة الصليبية**، (القاهرة، ١٩٩٣م)، جـ١، ص ٤٨٨؛ رانسيمان: **المرجع السابق**، ص ٣١١؛

Kinnamos (J.): Deeds of john and Manuel Comnenus , trans. by C.M.Brand, (New York, 1976), PP. 68, 70; Grousset (R.): Histoire des croisades et du Royaume Franc de Jérusalem, (Paris, 1936), tom.2, PP. 234-236; Michaud (P.): Histoire des croisades, (Paris, 1849), tom.1, PP. 383, 389; Duggan (A.): The story of the crusades, 1097- 1291, (London, 1963), P. 113; Perry (V.G.): " The second crusade" , in setton : History of the crusade, vol. II, (Philadlphia, 1955), P. 496; Mayer (H.E.): The crusades , trans. By J. Gillingham, (Oxford,1972), PP. 103-104.

(١٠) إفسوس: مدينة في آسيا الصغرى قرب سواحل بحر إيجه، تمتعت بازدهار تجاري في عهد قسطنطين الثاني، وأركاديوس، وجستنيان في القرن السادس الميلادي، وقام السلاجقة باحتلالها ١٠٩٠-١٠٩٦م وعرفت آنذاك باسم كاسترون Kastron، ومرت بها جيوش الحملة الصليبية الثانية عام ١١٤٧م.

انظر:

Webester (M.): Webester New Geogrephical Dictionary, (New york, 1972), P. 374; Kazhdan: Op. Cit., PP. Vol. 1, P. 706.

(١١) أودو أوف دويل: **المصدر السابق**، ص ٣٦٩،٣٦١-٣٧٠؛ وليم الصوري: **المصدر السابق**، ص ٢٨٠-٢٨١؛

Kinnamos: Op. Cit., PP. 70-71.

(١٢) وليم الصوري: المصدر السابق، ص ٢٨١.

(١٣) Ostrogorsky (G.): History of Byzantine state , trans. By J.M. Hussey, (Oxford, 1956) . P. 339; Chalandon (F.): " The later comneni " , in Camb. Med. Hist., vol.4, (Cambridge, 1927), P. 368; Perry: Op. Cit., P. 498;

عاشور: المرجع السابق، ص ٤٨٩؛ رانسيمان: **المرجع السابق**، ص ٣١٣؛ عبيد (إسحاق): **روما وبيزنطة من قطيعة فوشيوس حتى الغزو اللاتيني لمدينة**

قسطنطين ٨٦٩-١٢٠٤م، (القاهرة، ١٩٧٠م)، ص ٢٠٢؛ عطا (زبيدة): **الترك في العصور الوسطى**، (القاهرة، د.ت)، ص ٩٣.

(١٤) Kinnamos : Op. Cit., P. 70; Grousset: Op. Cit., Tom. 2, P. 240;

وليم الصوري: **المصدر السابق**، ص ٢٨١.

(١٥) **رحلة لويس السابع إلى الشرق**، ص ٣٦٩-٣٧٠.

(١٦) Archer (T.A.): The crusade, (London, 1894), P. 215.

(١٧) "The Later comneni", P. 368.

(١٨) وليم الصوري: **المصدر السابق**، ص ٢٨١، ٢٩٠؛ رانسيمان: **المرجع السابق**، ص ٣١٣؛

Kinnamos: Deeds of John and Manuel Commenus, P. 71.

(١٩) وليم الصبوري: **المصدر السابق**، ص ٢٩١؛ شحاته (عادل): **العلاقات السياسية بين الإمبراطورية الرومانية المقدسة والشرق الإسلامي** ١١٥٢-١٢٥٠م، ٥٤٧-٦٤٨هـ، الطبعة الأولى، (القاهرة، ١٩٨٩م)، ص ٥٧؛

Otto of Freising : The Deeds of Frederick Barbarossa, trans. C.C.Mierow, (Columbia University, 1953), PP. 101-102; Perry: OP. Cit., P. 505; Grousset: OP. Cit,, Tom.2, P. 250; Stevenson (W.B.): The Crusaders in the East, (Cambridge , 1968), P. 159.

(٢٠) Otto of Freising: OP. Cit., P. 102.

(٢١) Ibid., P. 102; Kinnamos: OP. Cit., P. 72.

(٢٢) رانسيمان: **المرجع السابق**، ص ٣٢٥.

(٢٣) الرهاوي المجهول: **الحملتان الصليبيتان الأولى والثانية**، ضمن كتاب "**الحروب الصليبية**"، ترجمة وتحقيق الدكتور سهيل زكار، (دمشق، ١٩٨٤م)، جـ٢، ص ٥٢٣؛ رانسيمان: **المرجع السابق**، ص ٣٢٥.

(٢٤) وليم الصوري: **المصدر السابق**، ص ٢٩١؛ رانسيمان: **المرجع السابق**، ص ٣٢٥؛

Grousset: OP. Cit., Tom.2, P. 250; Perry: OP. Cit., P. 506.

(٢٥) الرهاوي المجهول: **المصدر السابق**، ص ٥٢٣؛
Grousset : OP. Cit., P. 250.

(٢٦) رانسيمان: **المرجع السابق**، ص ٣٢٥.

(٢٧) **الحروب الصليبية**، ص ٢٩١.

(٢٨) أودو أوف دويل: **المصدر** السابق، ص ٣٧٦-٣٧٩، ٣٨١؛ وليم الصوري: **المصدر السابق**، ص ٢٨٤-٢٨٦؛
Grousset: Op. Cit., Tom. 2, P242.

(٢٩) أودو أوف دويل: **المصدر السابق**، ٣٨٢-٣٨٥؛ وليم الصوري: **المصدر السابق**، ص ٢٨٦-٢٨٧؛
Perry: "The Second Crusade", P. 500; Michaud: Histoiree des Croisade, Tom.1, PP. 392-393.

(٣٠) خليج السويدية: هو عبارة عن امتداد جزء من البحر في اليابسة، يقع بين جبل الأقرع من الجنوب وجبل اللوكام من الشمال، في جنوب غرب أنطاكية بين رأس البسيط من الجنوب ورأس الخنزير من الشمال، يصب به نهر العاصي .

انظر :

عبد السلام (عادل): **جغرافية سورية العامة**، (دمشق، ١٩٩٠م)، ص ٢٠.

(٣١) وليم الصوري: **المصدر السابق**، ص ٢٨٨، رانسيمان: **المرجع السابق**، ص ٣٢٣؛ حبشي (حسن): **نور الدين والصليبيون**، (القاهرة، د.ت)، ص ٥١؛ الغامدي (علي): **أنطاكية في عصر الحروب الصليبية**، (مكة، ١٩٩٧)، ص ١٨؛
Otto of Freising : The Deeds of Frederick Barbarossa, P. 101; Brundage (J.A.): The crusades A Documentary survey, (The Marquette University press, 1976), P.109 ; Grousset : Histoire des croisades et du Royaume Franc de Jerusalem, tom.2, P. 245.

(٣٢) مونروند (مكسيموس): **تاريخ الحروب المقدسة**، ترجمة مكسيموس مظلوم،(القدس، ١٨٦٩م)، جـ٢، ص٥٧.

(٣٣) "The second crusade" , P.503

(٣٤) وليم الصوري: **المصدر السابق**، ص ٢٨٨ ؛ رانسيمان: **المرجع السـابق**، ص ٣٢٣؛

Grousset : OP. Cit . , tom .2 , P.245.

(٣٥) وليم الصوري: **المصدر السابق**، ص ٢٨٩-٢٩٠؛

Michaud: OP. Cit., Tom.1, PP. 397-398; Perry: OP. Cit., PP. 503-504; Grousset: OP. Cit., Tom.2,PP. 248-249.

(٣٦) Archer : The Crusade, P. 217.

المطوري (محمد): **الحروب الصليبية في المشرق والمغرب**، (تونس، ١٩٥٤م)، ص٤٨.

(٣٧) رانسيمان: **المرجع السابق**، ص ٣٢٥؛

Smail (R.C.): Crusade and Settlement, (Cardiff, 1985), P. 99.

(٣٨) Histoire des croisades, Tom.1, P. 399.

(٣٩) The crusades Adocumentary survey, P. 114.

(٤٠) وليم الصوري: **المصدر السابق**، ص ٢٩٣-٢٩٤.

(٤١) Grousset: OP. Cit., Tom.2, P. 254.

(٤٢) Smail: OP. Cit., P. 99.

(٤٣) Michaud : OP. Cit., Tom. 1, P. 399.

(٤٤) وليم الصوري: **المصدر السابق**، ص ٢٩٤؛

Grousset: OP. Cit., Tom. 2, P. 254.

(٤٥) عاشور: **المرجع السابق**، ص ٤٩٢؛ حبشي: **المرجـع الـسابق**، ص ٥٥؛ رانسيمان: **المرجع السابق**، ص ٣٢٦؛

Duggan: OP. Cit., P. 118; Mayer: OP. Cit., P. 106;Perry: OP. Cit., P. 506; Brundage: OP. Cit., P. 115.

(٤٦) الكند سطبل: لعلها تحريف لكلمة كونستابل Constable وهو لقـب يطلـق على أحد النبلاء أو أحد كبار الموظفين في قصر الملـك، أو حـاكم قلعـة، أو موظف مسؤول عن الأمن، ويطلق اليوم في إنكلترا على رجل الشرطة. انظر: الشهابي: **المرجع السابق**، ص ٢٥٢.

(٤٧) وليم الصوري: **المصدر السابق**، ص ٣٠٧.

(٤٨) **المصدر نفسه**، ص ٣٠٥-٣٠٧؛ رانسيمان: **المرجع السابق**، ص ٣٢٦؛
Mayer: OP. Cit., P. 106; Perry: OP. Cit., P. 506; Grousset: OP. Cit., Tom.2, P. 254.

() Michaud : OP. Cit., P. 399; Grousset: OP. Cit., Tom.2, P. 255; Duggan: OP. Cit., P. 118;
زابوروف (ميخائيل): **الصليبيون في الشرق**، ترجمة الياس شاهين، (موسكو، ١٩٨٦م)، ص ١٨٥.

(٤٩) عاشور: **المرجع السابق**، ص ٤٩٢؛ عمران: ال**مرجع** السابق، ص ١٦١-١٦٢.

(٥٠) وليم الصوري: **المصدر السابق**، ص ٣٠٧-٣٠٨؛ الحريري (سيد علي): **كتاب الأخبار السنية في الحروب الصليبية**، (القاهرة، ١٨٩٩م)، ص ٦٧؛ حبشي: **المرجع السابق**، ص ٥٥؛
Lammens (H.S.J.): Le Syrie Precis Historique , Tom.1, (Beyrouth, 1921), Tom.1, P. 222, Archer: The crusade, P. 217; Duggan: OP. Cit., P. 118.

(٥١) Perry : "The second Crusade", P. 507.

(٥٢) Histoire des croisades, Tom.1, P. 399.

(٥٣) Crusade and Settlement, P. 99

(٥٤) عاشور: **المرجع السابق**، ص ٤٩٣؛ رانسيمان: **المرجع السابق**، ص٣٢٧؛
Perry: OP. Cit., P. 507.

(٥٥) The Crusades, P. 106.

(٥٦) معين الدين أنر: هو معين الدين بن عبد الله الطغتكيني، كان أحد مماليك طغتكين في العهد السلجوقي، ثم أصبح مدبر حفيده محمود بن بوري بن طغتكين، هب لمقاومة حصار الصليبيين لدمشق عام ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م، ودافع عنها بالدهاء والقتال. وهو الذي أنشأ المدرسة المعينية الحنفية بحصن الثقفين غربي المسجد الأموي (في منطقة الحريقة اليوم) عام ٥٢٤هـ/ ١١٣٠م، وإليه

ينسب قصر معين ببلاد الغور من أعمال دمشق٠ تزوجت ابنته عصمت الـدين خاتون من نور الدين محمود وبعد وفاته من صلاح الدين الأيوبي ٠ توفى أنـر في ٢٣ربيع الآخر عام ٥٤٤هـ/ ليلة ٢٩ آب عام ١١٤٩م ودفن بإيوان الـدار التي كان يسكنها ثم نقل إلى المدرسة التي عمرها، ومنها إلى قبة بمقابر العونيـة شمالي دار البطيخ (أي بجوار المدرسة الشامية البرانية في حي سوق ساروجا). انظر:

ابن الجوزي (يوسف بن فذاوغلي ت. ٦٥٤هـ/١٢٥٦م): **مرآة الزمان في تاريخ الأعيان**، (حيدر آبار، ١٩٥١م)، جـ٨، ص ٢٠٣؛ الشهابي: **المرجع السابق**، ص ٢٤٩ ٠

(٥٧) نور الدين محمود: ولد نور الدين محمود بن عماد الدين بن قسيم الدولـة آق سنقر بن عبد الله بحلب في شوال سنة ٥١١هـ/ ١١١٧م، ونـشأ علـى الخيـر والصلاح وقراءة القرآن والعبادة، وقلة المخالطة للجند، وكان أبوه يقدمـه علـى بقية أولاده، ويرى فيه مخايل النجابة. استلم حكم حلب سنة ٥٤١هـ/ ١١٤٦م بعد قتل والده ثم ملك دمشق سنة ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م، وهو مؤسس الدولة النورية الأتابكية في الشام ومصر امتدت سلطته قبل وفاته إلى الموصـل وديـار بكـر والجزيرة وجانب من اليمن. توفي سنة ٥٦٩هـ/١١٧٤م ودفن بقلعة دمشق، ثم نقلت رفاته إلى المدرسة النورية الكبرى التي أنشأها عند باب الخواصين (سـوق الخياطين اليوم). انظر:

ابن الأثير (علي بن أحمد بن أبي الكرم ت. ٦٣٠هـ/١٢٣٨م): **التاريخ البـاهر في الدولة الأتابكية بالموصل**، تحقيق د. عبد القادر أحمد طليمات، (القـاهرة، ١٩٦٣م)، ص ١٦١-١٦٢؛ الشهابي: **المرجع السابق**، ص ٢٥٢.

(٥٨) مونروند: **المرجع السابق**، ص ٥٩؛ الحريـري (سـيد علـي): **الحـروب الصليبية**، تحقيق وتقديم د٠ عصام محمد شبارو، (بيروت، ١٩٨٨م)، ص٨٥.

(٥٩) Duggan : OP. Cit., P. 118; Brunadge: OP. Cit., P. 115.

(٦٠) رانسيمان: **المرجع السابق**، ص ٣٢٦؛ باركر (أرنست): **الحروب الصليبية**، ترجمة د. السيد الباز العريني، (بيروت، ١٩٦٧م)، ص ٧٦؛
Perry: OP. Cit., P. 507; Mayer: OP. Cit., P. 106; Duggan: OP. Cit., P. 118; Grousset: OP. Cit., Tom.2, P. 255.

(٦١) رانسيمان: **المرجع السابق**، ص ٣٢٦.

(٦٢) حبشي: **المرجع السابق**، ص ٥٥؛ رانسيمان: **المرجع السابق**، ص٣٢٦.

(٦٣) حبشي: **المرجع السابق**، ص ٥٥.

(٦٤) وليم الصوري: **المصدر السابق**، ص ٣٠٨.

(٦٥) ابن الجوزي: **المصدر السابق**، ص ١٩٧؛ ابن قاضي شهبة (محمد بن تقي ت. ٨٧٤هـ/١٤٦٩م): **الكواكب الدرية في السيرة النورية، ضمن الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية**، تأليف وتحقيق د٠سهيل زكار، (دمشق، ١٩٩٥م)، جـ٢٣، ص ٢٢٦.

بانياس: بلدة صغيرة تقع جنوب غرب دمشق عند رأس وادي الأردن وبها قلعة حصينة تعرف باسم الصبيبة. انظر:

أبو الفداء (إسماعيل بن علي بن محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب الملك المؤيد صاحب حماة ت. ٧٣٢هـ/١٣٣١م): **تقويم البلدان**، (بيروت، د.ت)، ص ٢٤٩؛ ابن جبير (محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي ت. ٦١٤هـ/١٢١٧م): **مشاهدات ابن جبير في بلاد الشام والجزيرة**، ضمن **الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية**، تأليف وتحقيق الدكتور سهيل زكار، (دمشق، ١٩٩٥م)، جـ١٤، ص ٥٩.

(٦٦) Stevenson: The crusaders in the East, P. 158.

(٦٧) طبرية: طبر بالعربية يعني قفز واختبئ، وتقع طبرية على طرف جبل يشرف على بحيرة طبرية، وهي في الإقليم الثالث، طولها من جهة الغرب ٥٧ درجة و٤٥ دقيقة وعرضها ٣٢ درجة. انظر:

الحموي: **المصدر السابق**، جـ١، ص ١٤٧، جـ٤، ص ١٧.

(٦٨) وليم الصوري: **المصدر السابق**، ص ٣٠٨؛ رانسيمان: **المرجع السابق**، ص ٣٢٧؛

Grousset: OP. Cit., Tom.2, P. 255; Perry: OP. Cit., P. 507; Stevenson: OP. Cit., P. 160.

(٦٩) ابن القلانسي: **المصدر السابق**، ص ٤٦٣؛ أبو شامة (عبد الرحمن بن إسماعيل بن عثمان ت. ٦٦٥هـ/١٢٦٨م): **الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية**، جزءان في مجلد واحد، (بيروت، د٠ت)، ص ٥١؛

Perry: OP. Cit., P. 507; Brehier: Les Croisades, (Paris, 1928), P. 107

وقال بعض المؤرخين : بلغ عدد المقاتلين الصليبيين "ستة آلاف فارس وستين ألف راجل وقيل كانوا مائة ألف راجل وعشرة آلاف فارس". انظر :

ابن الجوزي: **المصدر السابق**، ص ١٩٧؛ ابن قاضي شهبة: **المصدر السابق**، ص ٢٢٦.

(٧٠) مجير الدين أبق: هو ابن محمد بن بوري بن طغتكين، ولد ببعلبك، وقدم إلى دمشق مع أبيه، وتولى حكم دمشق بعد وفاة والده محمد في ٨ شعبان عام ٥٣٤هـ/ عام ١١٣٩م، وكان صغير السن لذلك سيطر عليه معين الدين أنر، وسيطر على زمام الأمور بعد وفاة معين الدين أنر، وظل يحكم دمشق حتى دخلها نور الدين محمود في ١٠ صفر عام ٥٤٩هـ/ عام ١١٥٤م، ثم انتقل إلى بالس – مدينة بناحية الفرات – ثم توجه إلى بغداد، وتوفي فيها عام ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م. انظر :

ابن عساكر: **المصدر السابق**، ص١٨٩؛ الشهابي: **المرجع السابق**، ص ٦٩.

(٧١) ابن الأثير: **المصدر السابق**، ص ٨٨؛ ابن الجوزي: **المصدر السابق**، ص١٩٧.

(٧٢) رانسيمان: **المرجع السابق**، ص ٣٢٧.

(٧٣) ابن الأثير: **المصدر السابق**، ص ٨٨.

(٧٤) ابن قاضي شهبة: **المصدر السابق**، ص ٢٢٧.

(٧٥) سيف الدين غازي: هو غازي بن عماد الدين، استلم حكم الموصل بعد قتل والده، تزوج ابنة عمه قطب الدين مودود وخلف ولداً واحداً، تُوفّيَ وهو في ريعان شبابه سنة ٥٤٤هـ/ ١١٤٩م بعد إصابته بحمى حادة، ودفن بالمدرسة التي أنشأها بالموصل. انظر:

ابن الأثير: **المصدر السابق**، ص ٩٢؛ ابن القلانسي: **المصدر السابق**، ص٤٧٦؛ أبو شامة: **المصدر السابق**، ص ٦٥.

(٧٦) ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، (بيروت، ١٩٧٩م)، جـ١١، ص ١٣٠.

(٧٧) داريا: قرية كبيرة مشهورة من قرى دمشق في الغوطة، وتبعد عن دمشق مسافة ٨ كم. أنظر:

الحموي: **المصدر السابق**، جـ٢، ص ٤٣١؛ الشهابي: **المرجع السابق**، ص ١٦١.

ذكر وليم الصوري أن الصليبيين هاجموا دمشق من داريا لقربها من دمشق وللحصول على الفاكهة والماء للعسكر، وهذا ما أكده ابن القلانسي عندما ذكر أن الصليبيين عندما نزلوا في منازل العسكر المكان القريب من داريا وجدوا الماء مقطوعاً لذلك توجهوا إلى المزة بسبب وفرة المياه فيها. أنظر:

الحروب الصليبية، ص ٣٠٩، ٣١١؛ ذيل تاريخ دمشق، ص ٤٦٣.

(٧٨) وليم الصوري: **المصدر السابق**، ص ٣٠٨-٣١٠؛

Michaud: OP. Cit., Tom.1, P. 400; Brundage: OP. Cit., PP. 115-116; Perry: OP. Cit., P. 507; Grousset: OP. Cit., Tom.2, PP. 255-256.

(٧٩) منازل العسكر: يُعتقد أن هذا الموضع يقع بالقرب من داريا جنوب دمشق على مسافة أربعة أو خمسة أميال. انظر:

الشهابي: **المرجع السابق**، ص ١٦١.

(٨٠) المزة: كانت إحدى قرى دمشق، بينها وبين دمشق نصف فرسخ (أما اليوم فهي إحدى المناطق الواقعة ضمن محيط مدينة دمشق من ناحية الغرب). انظر: الحموي: **المصدر السابق**، جـ٥، ص ١٢٢؛ ابن بطوطة (محمد بن إبراهيم اللواتي ت. ٧٧٩هـ/١٣٧٧م): **رحلة ابن بطوطة**، (بيروت، د.ت)، ص ١٠٣.

(٨١) ابن القلانسي: **المصدر السابق**، ص ٤٦٣؛ أبو شامة: **المصدر السابق**، ص٥٢.

(٨٢) وليم الصوري: **المصدر السابق**، ص ٣١١؛
Grousset: Histoire des croisades et du Royaume France de Jerusalem, Tom.2, P. 257; Perry: "The second Crusade", P. 508.

(٨٣) الشهابي: **المرجع السابق**، ص ٢٥٠.

(٨٤) وليم الصوري: **المصدر السابق**، ص ٣١١-٣١٢؛
Brudage: The crusades A Documentary Survey, PP. 116-117; Michaud: Histoire des Croisades, Tom.1, P. 401, Grousset: OP. Cit., Tom.2, P. 257.

(٨٥) وليم الصوري: **المصدر السابق**، ص ٣١٢؛
Grousset: OP. Cit., Tom.2, P. 257; Brundage: OP. Cit., P. 117

(٨٦) Grousset: OP. Cit., Tom. 2, P. 257.

(٨٧) ابن القلانسي: **المصدر السابق**، ص ٤٦٣؛ أبو شامة: **المصدر السابق**، ص٥٢.

(٨٨) لم يذكر وليم الصوري اسم النهر، كما لم تحدد المصادر العربية أي نهر هو. وذكر جروسيه أن النهر هو نهر بردى. وذكر قتيبة الشهابي أنه لابد أن يكون النهر هو نهر بردي أو بانياس أو الداراني، ويرجح أن يكون نهر بردي هو المقصود لأنه النهر الرئيسي والأغزر. ويميل الباحث إلى ذلك الرأي، لأنه يتضح من المصادر العربية أن يوسف الفندلاوي قتل عند النيرب قرب الربوة،

وبما أن النيرب والربوة شمال نهر بردى، لابد أن يكون النهر هو نهر بـــردى. انظر :

ابن القلانسي: **المصدر السابق**، ص ٤٦٤؛ ابن الأثير: **التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية**، ص ٨٩؛ **صمود دمشق أمام الحملات الصليبية**، ص ١٦٠؛
Histoire des Croisades et du Royaume France de Jérusalem, Tom.2, P. 258.

(٨٩) وليم الصوري: **المصدر السابق**، ص ٣١٢-٣١٣.

(٩٠) ابن القلانسي: **المصدر السابق**، ص ٤٦٣.

(٩١) وليم الصوري: **المصدر السابق**، ص ٣١٣.

(٩٢) ابن القلانسي: **المصدر السابق**، ص ٤٦٣؛ ابن الأثير: **التاريخ الباهر فـــي الدولة الأتابكية**، ص ٨٨؛ **الكامل في التاريخ**، ص ١٢٩؛ أبو شامة: **المــصدر السابق**، ص ٥٢؛
Grousset: OP. Cit., Tom. 2, P. 258.

(٩٣) ابن الجوزي: المصدر السابق، ص ١٩٧؛ ابن قاضـــي شـــهبة: **المــصدر السابق**، ص ٢٢٦.

(٩٤) ابن القلانسي: **المصدر الـــسابق**، ص ٤٦٣؛ ولـــيم الـــصوري: **المــصدر السابق**، ص ٣١٣-٣١٤.

(٩٥) ابن الجوزي: **المصدر السابق**، ص ١٩٧؛ ابن قاضـــي شـــهبة: **المــصدر السابق**، ص ٢٢٧؛ الحريري (أحمد بن علي): **الإعلام والتبـــين فـــي خـــروج الفرنج الملاعين على ديار المسلمين**، تحقيق وتعليق وتقديم د٠ ســـهيل زكـــار، (دمشق، ١٩٨١م)، ص ٧٦.

(٩٦) عبد الرحمن الحلحولي: هو عبد الرحمن بن عبـــد الله بـــن عبـــد الـــرحمن الحلحولي الجعدي، ولد بحلب ونشأ بها، وهو محدث زاهد، تجول في العديد من المناطق إلى أن استقر به المقام بمسجد في ظاهر دمشق، وقتل في المعركة التي

جرت بين المسلمين والصليبيين قرب الربوة في ٦ ربيع الأول ٥٤٣هـ/ يوم السبت ٢٤ تموز ١١٤٨م. انظر:

الحموي: **المصدر السابق**، جـ٢، ص ٢٩٠؛ ابن القلانسي: **المصدر السابق** ص ٤٦٤.

(٩٧) يوسف الفندلاوي: هو "يوسف بن دوناس بن عيسى، أبو الحجاج المغربي، الفقيه المالكي، قدم إلى الشام، وسكن بانياس مدة، وانتقل إلى دمشق، فاستوطنها، ودرس بها بمذهب مالك، وحدث بالموطأ وغيره، وكان شيخاً حسن المفاكهة، حلو المناظرة، شديد التعصب لأهل السنة، كريم النفس،... قوي القلب، صاحب كرامات". وذكر ابن الأثير أنه قتل في المعركة التي حدثت بين المسلمين والصليبيين عند النيرب في ٦ ربيع الأول ٥٤٣هـ/ يوم السبت ٢٤ تموز عام ١١٤٨م. انظر:

ابن الجوزي : **المصدر السابق**، ص ٢٠٠؛ **التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية**، ص ٨٩.

(٩٨) ابن القلانسي: **المصدر السابق**، ص ٤٦٤؛ ابن الأثير: **التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية**، ص ٨٩؛ **الكامل في التاريخ**، ص ١٣٠؛ أسامة بن منقذ (أبو المظفر بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر ت. ٥٨٤هـ/١١٨٨م): كتاب الاعتبار، حرره فيليب حتي، (القاهرة، د٠ت)، ص ٩٥.

النيرب: اسم قديم لمنتزه كان في موضع حيي أبو رمانة والمالكي الحاليين، بين الربوة ودمشق شمالي طريق بيروت. وذكر ياقوت الحموي: "قرية مشهورة بدمشق على نصف فرسخ في وسط البساتين". انظر:

معجم البلدان، جـ٥، ص ٣٣٠؛ الشهابي: **المرجع السابق**، ص ٢٥٠.

(٩٩) الميدان الأخضر: مكان معرض دمشق الدولي اليوم، بين التكية السليمانية (شرقه) وساحة الأمويين (غربه)، وبين نهري (بردي) شماله و(بانياس) جنوبه. انظر:

الشهابي: المرجع السابق، ص ٢٥٠.

(١٠٠) ابن الأثير: **التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية**، ص ٨٩؛ ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم ت. ٦٩٧هـ/١٢٩٨م): مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق د. جمال الدين الشيال، (القاهرة، ١٩٥٧م)، جـ١، ص ١١٢؛ النويري (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ت. ٧٣٣هـ/١٣٣٢م): **نهاية الأرب في فنون الأدب**، تحقيق د٠سعيد عاشور مراجعة د٠ محمد مصطفى زيادة – د٠فؤاد عبد المعطي الصياد (القاهرة، ١٩٨٥م)، جـ٢٧، ص ١٥٠؛ Grousset: OP. Cit., Tom.2, P. 259.

(١٠١) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص ٤٦٤؛ ابن قاضي شهبة: المصدر السابق، ص ٢٢٧.

(١٠٢) **مرآة الزمان في تاريخ الأعيان**، ص ١٩٧.

وقد جانب الصواب الدكتور صلاح ضبيع عندما أشار إلى أن ابن الجوزي انفرد في توزيع القوات الصليبية "حول مدينة دمشق"، فقد بدل كلمة الشرف الشمالي بـ "الناحية الشمالية"، والشرف القبلي بـ "الناحية الشرقية"، وذلك خطأ لأن الشرف الشمالي (الأعلى)، والشرف القبلي (الأدنى)، منطقتان، كانا غربي مدينة دمشق، يفصل بينهما نهري بردى وبانياس، والميادين، والشرف القبلي هو المنطقة الممتدة بين الجامعة والجمارك اليوم. أي أن توزيع القوات الصليبية كان غربي دمشق وليس حولها. انظر :

ابن القلانسي: **المصدر السابق**، "خريطة في أخر الكتاب"؛ الشهابي: **المرجع السابق**، ص ٢٥١-٢٥٢؛ ضبيع (صلاح): دور الألمان في الحروب الصليبية في بلاد

الشام ٥٤٠هـ/ ١١٤٥م إلى ٦٢٦هـ/١٢٢٩م، رسالة ماجستير لم تنشر، كلية الآداب، بجامعة أسيوط، ١٩٩٣م، ص ١٢٤.

(١٠٣) Histoire des Croisades et du Royaume France de Jérusalem, Tom.2, P. 259.

(١٠٤) الربوة: تعني المكان المرتفع من الأرض، وتقع غربي مدينة دمشق بنحو أربعة كيلو مترات في آخر جبل قاسيون. انظر:

الحموي: **المصدر السابق**، جـ٣، ص ٢٦؛ ابن بطوطة: **المصدر السابق**، ص ١٠٢؛ الشهابي: **المرجع السابق**؛ ص ٢٥٢.

(١٠٥) **تاريخ الحملات الصليبية**، ص ٣٢٧.

(١٠٦) ابن القلانسي: **المصدر السابق**، ص ٤٦٤؛ وليم الصوري: **المصدر السابق**، ص ٣١٤.

(١٠٧) ابن القلانسي: **المصدر السابق**، ص ٤٦٤.

(١٠٨) وليم الصوري: **المصدر السابق**، ص ٣١٤؛ رانسيمان : **المرجع السابق**، ص ٣٢٧؛

Michaud : OP. Cit., Tom.1, P. 403., Grousset: OP. Cit., Tom.2, P. 260.

(١٠٩) ابن الجوزي: المصدر السابق، ص ١٩٨؛

Perry: OP. Cit., P. 509; Michaud: OP. Cit., Tom. 1, P. 403.

(١١٠) ابن القلانسي: **المصدر السابق**، ص ٤٦٤؛

Michaud : Histoire des croisades, Tom.1, P. 403.

(١١١) ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، ص ١٣٠؛ ابن واصل: **المصدر السابق**، ص ١١٢؛ Grousset: OP. Cit., Tom.2, P. 260.

(١١٢) ابن قاضي شهبة: **المصدر السابق**، ص ٢٢٨.

(١١٣) ابن القلانسي: **المصدر السابق**، ص ٤٦٤؛ ابن قاضي شهبة: **المصدر السابق**، ص ٢٢٧؛ رانسيمان: **المرجع السابق**، ص ٣٢٧؛

Grousset: OP. Cit., Tom.2, PP. 260-261; Perry: OP. Cit., P. 509

(١١٤) الجرخ: سهام خاصة تطلق عن قسي بعيدة المدى، وغالباً ما كانت تحمل مواد ملتهبة. انظر:

الشهابي: **المرجع السابق**، ص ٢٥٢.

(١١٥) ابن القلانسي: **المصدر السابق**، ص ٤٦٤-٤٦٥؛
Grousset: OP. Cit., Tom.2, P. 261; Michaud: OP. Cit., Tom.1, P. 405.

(١١٦) ابن القلانسي: **المصدر السابق**، ص ٤٦٥؛ رانسيمان: **المرجع السابق**، ص٣٢٧-٣٢٨؛
Grousset: OP. Cit., Tom.2, P. 161.

(١١٧) ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، ص ١٣٠؛ **التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية**، ص٨٩؛ ابن الجوزي: **المصدر السابق**، ص ١٩٨؛ ابن واصل: **المصدر السابق**، ص ١١٢-١١٣؛ ابن قاضي شهبة: **المصدر السابق**، ص ٢٢٧.

(١١٨) عاشور: المرجع السابق، ص ٤٩٤؛
Perry: OP. Cit., P. 509; Grousset: OP. Cit., Tom.2, P. 265.

(١١٩) ابن الأثير: **التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية**، ص ٨٩؛ ابن الجوزي: **المصدر السالف**، ص١٩٨.

(١٢٠) ابن الأثير: **الكامل في التاريخ**، ص ١٣٠-١٣١؛ **التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية**، ص ٨٩؛ ابن واصل: **المصدر السابق**، ص ١١٣؛ ابن الجوزي: **المصدر السابق**، ص ١٩٨؛ ابن الوردي (أبو حفص عمر بن المظفر بن عمر ت. ٧٤٩هـ/١٣٤٩م): **تتمة المختصر في أخبار البشر**، (بيروت، ١٩٧٠م)، ص ٤٨؛ النويري: **المصدر السابق**، ص ١٥١؛
Grousset: OP. Cit., Tom.2, PP. 265-266; Perry: OP. Cit., P. 509.

(١٢١) **الحروب الصليبية**، ص ٣١٤-٣١٧.

(١٢٢) أرسل معين الدين أنر إلى ملك القدس (بلدوين الثالث) مائتي ألف دينار من النحاس المصري المطلي بالذهب، وأرسل إلى إلي ناند صاحب طبرية خمسين ألفاً من الذهب الزائف. انظر :
ميخائيل السوري الكبير: **المصدر السابق**، ص ١٨١؛ ابن العبري: **المصدر السابق**، ص ٣٦٦؛
Grousset: OP. Cit., Tom. 2, P. 263.

(١٢٣) في ليلة ٢٧ تموز عام ١١٤٨م، كونراد الثالث، ولويس السابع، وبلدوين الثالث، أمروا بنقل المعسكر إلى الجهة الجنوبية الشرقية من جانب باب كيساني وباب شرقي. انظر:
Grousset : OP. Cit., Tom.2 P. 263.

(١٢٤) ابن القلانسي: **المصدر السابق**، ص ٤٦٥-٤٦٦، رانسيمان: المرجع السابق، ص ٣٢٩، شحاته: **المرجع السابق**، ص٦١؛ الشهابي: **المرجع السابق**، ص١٨٧.

(١٢٥) وليم الصوري: **المصدر السابق**، ص ٣١٨-٣١٩؛ عاشور: **المرجع السابق**، ص ٤٩٤؛ حبشي: **المرجع السابق**، ص ٥٨؛
Brundage: OP. Cit ., P.119 , Michaud : OP. Cit., Tom.1 P.403-404; stevenson ; OP. Cit , P.161; Duggan: OP. Cit ., P.119.

(١٢٦) حبشي: **المرجع السابق**، ص ٥٨.

(١٢٧) **الحروب الصليبية**، ص ٣١٥.

(١٢٨) الشهابي: **المرجع السابق**، ص ٢٣٩-٢٤٠ .

(١٢٩) **الحروب الصليبية**، ص ٣١٩.

(١٣٠) **ذيل تاريخ دمشق**، ص ٤٦٥.

(١٣١) ابن الأثير: **التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية**، ص ٨٩؛ **الكامل في التاريخ**، ص ١٣٠-١٣١.

(١٣٢) وليم الصوري: **المصدر السابق**، ص ٣٢٠،
Michaud : Histoire des croisades, tom.1, P. 407.

(١٣٣) تسالونيكا: مدينة تقع على بحر إيجة شرقي إقليم تساليا Thessaly بالقرب من نهر الفاردار Vardar. انظر:
Webester New Geogrephical Dictionary, P. 1058; The Oxford Dictionary of Byzantium, Vol.3, P. 2071.

(١٣٤) Otto of Freising : The Deeds of Frederick Barbarossa , P. 103; Kinnamos: Deeds of John and Manuel comnenus, P. 72, Angold (M.): The Byzantine Empire, 1025-1204: Apolitical History, (London, 1984), P.167; Grousset : OP.Cit., Tom.2, P.268; Mayer ; OP.Cit., P.107; vasiliev (A.A.): Histoire de L'Empire Byzantine, (Paris, 1932), tom .2, P.62;
عاشور: **المرجع السابق**، ص٤٩٥؛ الشهابي: **المرجع السابق**، ص ١٨٩.

(١٣٥) رانسيمان: **المرجع السابق**، ٣٣٠؛ عبيد: **المرجع السابق**، ص ٢٣٨.
Grousset: Op. Cit., Tom.2, P. 269; Duggan: Op. Cit., P. 119.

(١٣٦) رانسيمان: **المرجع السابق**، ص ٣٣٠؛ عبيد: **المرجع السابق**، ص ٢٣٩.

(١٣٧) Otto of Freising : OP. Cit., P.103.

(١٣٨) Kinnamos : Deeds of John and manuel Comnenus, P.72.

(١٣٩) وليم الصوري: **المصدر السابق**، ص٣٢١؛ عاشور: **المرجع السابق**، ص٤٩٥؛
Brehier : les Croisades, P. 108; Archer: the crusade, P.219.

(١٤٠) Smail : Crusade and settlement, P.100.

(١٤١) البلوبونيز: شبه جزيرة تكون الجزء الجنوبي من اليونان حالياً. انظر: رانسيمان: **المرجع السابق**، ص ٣٣١ " في الهامش حاشية رقم: ١٤" .

(١٤٢) Kinnamos : OP.Cit., P.72; Grousset : OP. Cit., Tom.2, P.269; Perry: OP. Cit., P.511; Archer: OP. Cit., P.219.

رانسيمان: **المرجع السابق**، ص ٣٣٠-٣٣١؛ عبيد: **المرجع السابق**، ص ٢٣٩؛ عطا (زبيدة): **الشرق الإسلامي والدولة البيزنطينية زمن الأيوبيين**، (القاهرة، ١٩٩٤م)، ص ٥٥.

(١٤٣) Perry: "The second crusade", P.511; Duggan: OP. Cit., P.119.

(١٤٤) رانسيمان: **المرجع السابق**، ص ٣٣١؛ عمران (محمود): **تاريخ الحروب الصليبية ١٠٩٥-١٢٩١م**، (الإسكندرية، ٢٠٠٠م)، ص ١٠٠-١٠١؛ عطية (عزيز سوريال): **الحروب الصليبية وتأثيرها على العلاقات بين الشرق والغرب**، ترجمة د. فيليب صابر سيف، راجعه الأستاذ أحمد خاكي، (القاهرة، د.ت.)، ص ٦٠؛

Grousset : OP. Cit., Tom..2 , P.269; Perry : OP. Cit., PP. 511-512; Mayer: Op. Cit., PP. 107-108; Vasiliv : OP. Cit., Tom. 2, P.62

(١٤٥) مونروند: المرجع السابق، ص ٦٣.

(١٤٦) وليم الصوري: **المصدر السابق**، ص ٣٢١؛ زيتون (عادل): **تاريخ العصور الوسطى الأوربية**، (دمشق، ١٩٩١م)، ص ٣٠٢؛ كانتور (نورمان): **التاريخ الوسيط قصة الحضارة: البداية والنهاية**، ترجمة وتعليق د. قاسم عبده قاسم، الطبعة الثانية، (القاهرة، ١٩٨٦م)، ص ٤٠٦؛

Michaud : OP. Cit., Tom .1 , P.398, Archer : OP.Cit., P. 219.

وثائق ودفاتر ترابيع المساحة مصدراً لتاريخ المجتمع الريفي في مصر في القرن السادس عشر إقليم البهنساوية (بني سويف) نموذجاً

الدكتور محمد محمود خلف العناقرة

قسم العلوم الإنسانية للعلوم وتكنولوجيا المعلومات

كلية الأمير عبدالله بن غازي

جامعة البلقاء التطبيقية

الأردن

تمهيد:

الأرشيف هو مصدر المعلومات الصادق الذي يعكس صورة الماضي بكل ما فيه من التفاصيل، ولأن أهميته ترتبط بوجود المعلومات التي تحتويها الوثائق ومكوناتها حقائق لا يرقى إليها الشك، وأصبحت المعين والمرجع الرئيس الذي يستمد منه الباحث المعلومات الصائبة التي يرتكز عليها في دراساته وأبحاثه إلى جانب أنها تفتح له مجال النقد والتحليل الذي يقوده إلى الكشف عن حقيقة جديدة أو دحض فكرة شائعة،

أو التأكيد على نظرية قائمة أو تغير وجهات نظر، أو تثبيت حقائق، أو دعم حق من الحقوق، أو البرهنة على رأى أو الاستدلال على حالة من الحالات.

وقد حرص العديد من العلماء وطلبة العلم، على كتابة الوثائق والعقود ونسخها، وكان يتوخى في كُتّاب الوثائق والمخطوطات - بالإضافة إلى إتقان الكتابة والأهلية الشرعية - العديد من الصفات الكريمة والأخلاق النبيلة؛ كالإخلاص والأمانة والصدق والورع والزهد في متاع الدنيا. ولذا نجد أن أغلب من يقوم بهذه المهمة هم العلماء والكتّاب الثقات أهل المعرفة والخبرة والإتقان(١).

إذا فالوثائق تعد مصدراً لا مثيل له لدراسة تاريخ مصر، لاسيما في النواحي الاقتصادية والاجتماعية، كما تقدم الوثائق لنا تحليلاً دقيقاً لحياة الريف والمدينة، كل ذلك يؤكد المقولة السائدة بأنه لا تاريخ بلا وثائق.

ومن هذا المنطلق العلمي جاءت هذه الدراسة لدفاتر ترابيع المساحة كمصدر لتاريخ بني سويف في العصر العثماني باعتبار أن هذه الدفاتر هي أقدم الوحدات الأرشيفية بديوان الروزنامة.

وتهدف هذه الدراسة إلى تناول دفاتر الترابيع من محورين.

أولهما: الدراسة الوثائقية لهذه الدفاتر كبداية تدوينها وطريقة تدوينها والخط الذي دونت به وأسباب تدوينها.

ثانيهما: الدراسة التاريخية باعتبارها مصدراً مهماً لتاريخ المجتمع الريفي في العصر العثماني، حيث يبلغ عدد هذه الدفاتر خمسة دفاتر لمختلف أقاليم مصر وتختص بني سويف (البهسناوية) بدفترين منهما وهما الدفتران اللذين أتت بصددهما هذه الدراسة وهي كالتالي:

أولاً الدراسة الوثائقية:

تمثل وثائق وسجلات ودفاتر ديوان الروزنامة المتضمنة للإيرادات والمصروفات ومساحات الأراضي والأموال الأميرية المقررة معينا لا ينضب من المادة العلمية بالغة الأهمية، ولذا تعد مجموعة دفاتر ترابيع المساحة لسنة (٩٣٣هـ / ١٥٢٧م) (٩٣٤ هـ / ١٥٢٨م) من أهم المجموعات الوثائقية التابعة لديوان الروزنامة وأقدمها على الإطلاق، ويجب قبل وصف المجموعة كوحدة وثائقية أن نتحدث عن نشأة الديوان الذي صدرت منه هذه المجموعة وهي كالتالي:

نشأة ديوان الروزمانة:

يُعدُ ديوان الروزنامة[٢] من أهم الدواوين الإدارية والمالية في مصر منذ بداية الحكم العثماني، إذ تميزت النظم العثمانية بالدقة والتدوين اللذين نبعا من الاهتمام بالترتيبات الإدارية والمالية، وخاصة التنظيمات الإدارية المتعلقة بتحصيل الإيرادات، مما دفع العثمانيين إلى الاهتمام بالإدارة المالية التي كان من اختصاصاتها تحصيل الأموال من الأقاليم المصرية وتدوينها.

ومما يجدر الإشارة إليه أن ديوان الروزنامة يُعدُ من أهم أجهزة الإدارة المالية في استانبول، وفي انتقال التنظيمات الإدارية والمالية بين الإدارة المركزية في استانبول والإدارة العثمانية في مصر أثناء وجود السلطان سليم في مصر[٣] وبدؤوا في تنظيمه بعد صدور قانون نامة مصر الذي أصدره السلطان سليمان القانوني (٩٢٥هـ /١٥١٩م).

وكان من اختصاصات ديوان الروزمانة تسجيل وتدوين كل ما هو متعلق بالتبدلات والتغيرات المتعلقة بالإدارة المالية والتغيرات التي تطرأ على حيازة الأراضي الزراعية وتسجيل كل ما يجرى من مسح الأراضي الزراعية وما يربط عليها من

الأموال، ولذلك كان من المهام المنوط بديوان الروزنامة تحصيل الأموال الأميرية وصرفها في وجوهها المختلفة(٤).

ويلقب من يرأس هذا الديوان بالروزنامجى(٥) وكان من شروط تعيينه لرئاسة هذا الديوان أن يكون متمتعا بالخبرة الإدارية والمالية، لما كانت تتطلبه هذه الوظيفة من معرفة على مستوى عالٍ بالشؤون المالية، وكان يساعده في عمله مجموعة من الأفندية.

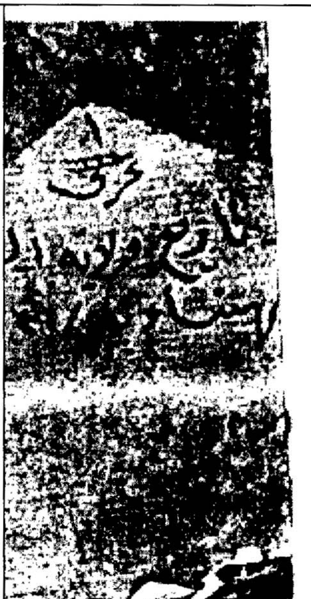
وقد انقسم هذا الديوان إلى أقسام عدة: منها ما هو مختص بجمع الإيرادات للخزينة، ومنها هو مختص بالمصروفات.

ومما يجدر الإشارة إليه أن من أهم ميزات هذا الديوان وأقلامه ومقاطعاته هي السرية التامة، بحيث كانت الدفاتر المالية الخاصة بالديوان لا يطلع عليها سوى أفندي الروزنامة والمباشرين(٦) والمقاطعجية وعقب الانتهاء منها كانت تحفظ ليتوفر لكل البيانات المدونة بها السرية التامة وقد ظهر ذلك جلياً من خلال طرق الكتابة وخطوطها التي دونت بها هذه الدفاتر سواء أكانت بخط السياقات أو القرمة وقد انقسمت أنواع هذه السجلات إلى دفاتر ترابيع المساحة والتي سنقوم بدراستها، ودفاتر الالتزام والرزق بنوعيها الإحباسية والجيشية.

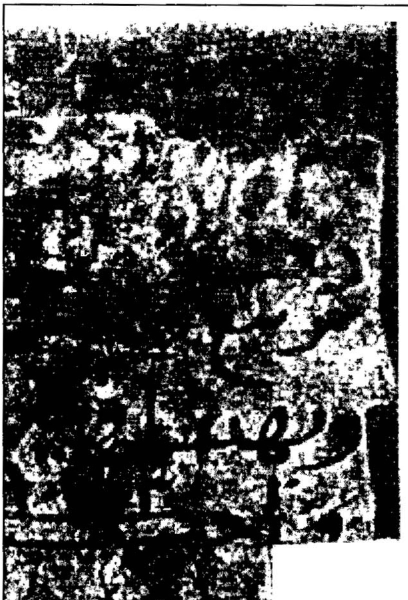
وتنبع أهمية دفاتر ترابيع المساحة لعامي (٩٣٣ هـ/١٥٢٦م - ٩٣٤هـ/١٥٢٧م) من كونها أهم وأثمن المصادر لتاريخ المجتمع الريفي، حيث تمدنا بياناتها الوافية بكل ما هو متعلق بالنواحي الاقتصادية والاجتماعية، كما أنها تعوض ندرة الوثائق الخاصة بالريف في بداية الحكم العثماني، وتشمل هذه المجموعة أربعة دفاتر وهي كالتالي:

- دفتر ترابيع البحيرة والغربية لسنة (٩٣٤هـ/ ١٥٢٧م) ويضم نواحى البحيرة والغربية.

- دفتر ترابيع مقاطعات شرقية لسنة (٩٣٤هـ / ١٥٢٧م) بعنوان دفتر تفتيش مقاطعات الشرقية وهو عبارة عن جزأين الجزء الثاني كامل ومجلد وجزء صغير غير مجلد ولايحمل رقماً ويضم الاثنان كل من أقاليم الشرقية والقليوبية والمنوفية والدقهلية وفارسكور.
- كما تختص كل من الفيوم والبهنساوية (بني سويف) من هذه الدفاتر بدفترين وهما:
- دفتر ترابيع فيوم وبهنساوية لسنة (٩٣٣هـ /١٥٢٦م) وتضم ولاية الفيوم وولاية البهنساوية وبعض نواحي الاطفيحية.
- دفتر ترابيع الفيوم لسنة (٩٣٤هـ/ ١٥٢٧م) ويحوى جميع نواحي ولاية الفيوم لسنة ٩٣٤هـ ونواحي البهنساوية وبعض نواحي ولاية الفيوم لسنة (٤٠٨هـ/ ١٠١٧م) ومن الجزء الأخير من الدفتر.



العنوان المكتوب على غلاف الدفتر[8] (تأريخ ولاية الفيوم وبهنساوية في ٩٣٣)



العنوان المكتوب على غلاف الدفتر(دفتر تربيع فيوم وبهنساوية واجب ٩٣٣ هـ)

دفاتر ترابيع المساحة ودفاتر ترابيع الحملة الفرنسية:

ومما يجدر الإشارة إليه أن هناك اختلافاً واضحاً بين دفاتر ترابيع المساحة لسنة (٩٣٣هـ/ ٩٣٤هـ - ١٥٢٦م/ ١٥٢٧م) وبين دفاتر ترابيع الحملة الفرنسية، فالأولى نقلها العثمانيون عن دفاتر للجراكسة بعد دخولهم مصر ودونت فيها أسماء النواحي ومساحة الأراضي والأموال المفروضة عليها وحدود الأقاليم والنواحي وأسماء الفلاحين والعربان وأنواع الأراضي، رزق، وقف، ميري وأسماء المساجد والزوايا الموقوفة عليها(٩).

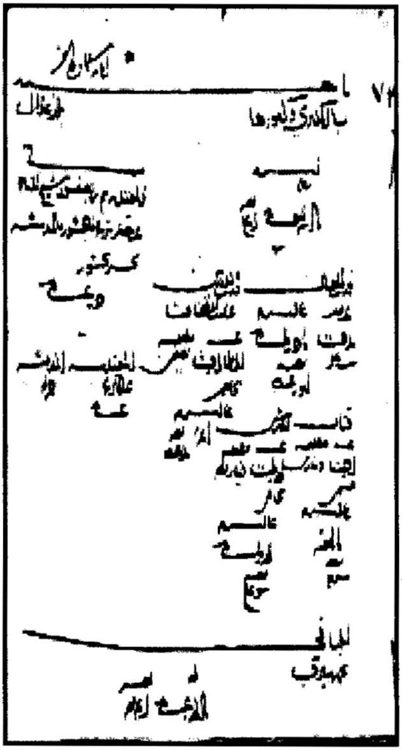
أما الثانية فهي دفاتر وضعها علماء الحملة الفرنسية سنة ١٢١٥هـ/ ١٨٠٠م لتقدير الضرائب على أقاليم مصر بعد أخذهم معلوماتها من دفاتر المعلمين الأقباط ولم يسجل بها سوى أسماء النواحي وما هو مفروض عليها من الضرائب(١٠).

طريقة وأسلوب تدوين وتحرير هذه الدفاتر:

يتضح من خلال دراسة هذه الدفاتر أنه قد تم تسجيلها بعد صدور قانون نامة واهتمام السلطان سليمان القانوني بعمل مسح للأراضي الزراعية عن طريق إرسال المفتشين الإداريين إلى الأقاليم حيث دونت البيانات الواردة بها بعد التفتيش على الأراضي بعد الاستدلال عليها من شهود النواحي والدلالين والأمناء وقد شمل هذا المسح قياس الأراضي الزراعية وتقرير ما هو مفروض عليها من الضرائب، وحدود كل ناحية من النواحي الأخرى، ومن ثم تميز أسلوب تحرير هذه الدفاتر بالدقة المتناهية حيث يبدأ تحرير الدفاتر بعمل فهرس لأسماء النواحي مرتبا ترتيباً أبجدياً تبعاً لبداية حروف نواحي الأقاليم كما تم في تحرير الدفاتر الخاصة بالدلتا أحياناً وأحياناً أخرى تم تسجيل أسماء النواحي بترتيب أبجدي مع ترقيم كل ناحية بطريقة مسلسلة رقمياً كما ورد في دفتر ترابيع الفيوم والبهنساوية لسنة (٩٣٣هـ/ ١٥٢٦م) حيث يبدأ الفهرس بعبارة (فهرس دفتر ترابيع ولاية فيوم وبهنساوية واجب ٩٣٣هـ/ ١٥٢٦م)(١١).



وكما نرى يتم تحرير الدفتر في أوله بتسجيل الفهرس بينما نجد أن تحرير وتسجيل كل تقرير لكل ناحية على حدة تبعاً للتسلسل الأبجدي والتسلسل الرقمي كما هو مبين بهذا الشكل(١٢).



أمانة سليمان كاسف

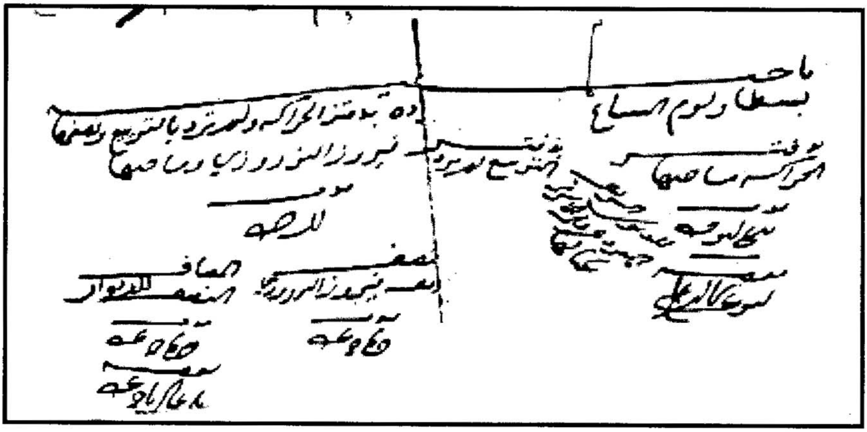
٧٤ ناحيــــــــة

ببا وكفورها		بلد غلال
نصف	أشرفي	منها
١١	٢٤٦	المعتد برسم تمور شيخ الناحية عن حفرته ترعة الجسور بالمدمسة
عن فدن العال	فدن الدون	
عليها أشرفي	عنها أنصاف	كسر كسور
٨٣ ١٣٥	١٣٨١	٢٥
٢٤ نصف		المعتد به المدمسة عن الترعة ١٥ ٢٠
كتان	الدميس	عليه أشرفي
عمله تطيعه	عنه تعطيه	١١ ٢٣ نصف
٥١ دينارين عالية أشرفي	٣٥ دينار عالية أشرفي	
١٤٠	"١,١٧	

الباحث

محمد ميري ١٢١ أشرفي، ١١١ نصف

ومن الملاحظ أن الكتبة اعتمدوا على دفاتر الجراكسة في تـسجيل بعـض البيانــات الواردة بها في دفاتر الترابيع لسنة ٩٣٤هـ/ ١٥٢٧م كما ورد في دفتر ترابيع فيــوم وبهنساوية لسنة ٩٣٣هـ/ ١٥٢٦م.[١٢]



ناحية بسطا وكوم السباع للديوان الشريف

دفتر الجراكسه مساحتها المفرد على الأشرفي

فدن ٩٨٤ فدان

دعمة ٦٢٤

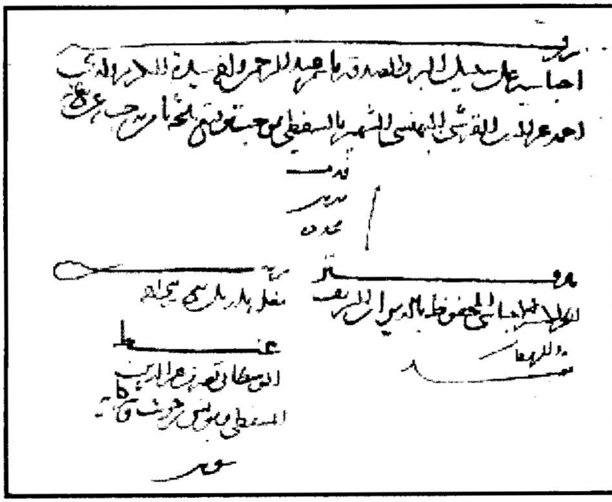
بدفتر التربيع لم ترد

وردت بدفتر الجراكسة ولم ترد بالتربيع ونصفها فيروز النورزي ومساحتها فدن ١٠٥

نصف وقف فيروز النورزي ٥٢٥ فدن

المضاف النصف للديوان ٥٢٥ فدن نصفها ١٢٥ فدن

وكما اعتمد الكتبة على دفاتر الجراكسة في تدوين وتسجيل بعض البيانات الواردة في دفاتر الترابيع لسنة ٩٣٣هـ/ ١٥٢٦م وذلك كما ورد بدفتر الرزق الإحباسية لولاية البهنساوية كما هو بالشكل(١٣).



بدفتر الجراكسة الأحباس المحفوظ بالديوان الشريف

رزقه أحباسية على سبيل البر والصدقة باسم عبدالرحمن وأخته سيدة المكرمة ولدى أحمد عز الدين القرشي البهنسي الشهير بالسفطي بموجب توقيع تاريخه ٢٨ رجب سنة ٩٢٠ هـ

فدن ٨

تربيع مدخل سنة ٩٣٣هـ/ ١٥٢٦م بمحيط الوسطا من تصرف عز الدين السفطي ويونس بن حريث وشركاه.

٧

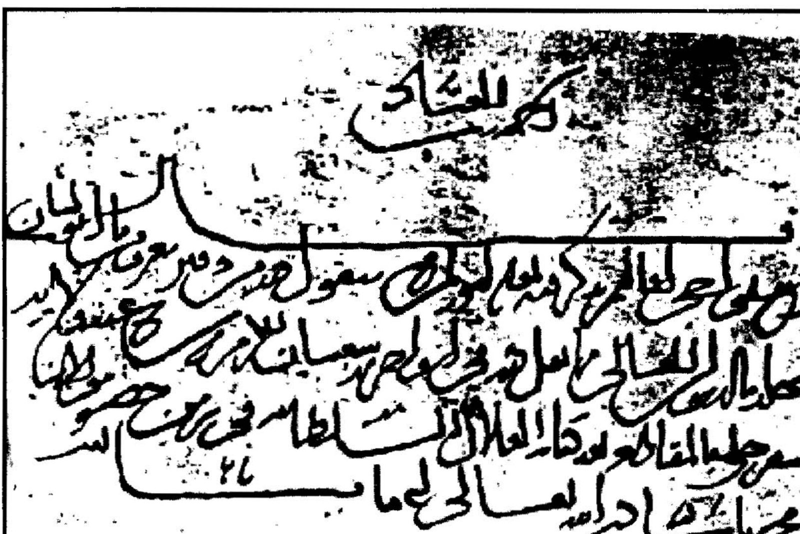
ويتضح من التقريرين الواردين بدفتر الرزق الاحباسية والترابيع بأن الكتبة قد اعتمدوا على دفاتر الجراكسة في تسجيل بعض البيانات النافعة تلك.

تاريخ تحرير وتدوين هذه الدفاتر:

في الواقع انه في الدراسة المتأنية للبيانات والتقارير التي تم تحريرها والواردة بدفاتر الترابيع يتبادر للذهن التساؤل حول: متى تم تحرير هذه الدفاتر؟ وهل تم نقلها من دفاتر أخرى؟ وإذا كان قد تم نقلها كما هي أو تم تحريرات مستجدة عليها؟ فمتى تم نسخها؟

بادئ ذي بدء وقبل الإجابة على هذه التساؤلات يجب الإشارة إلى الآراء التي ذكرت في شأن ذلك. إذ رأى أحد الباحثين وأدلى بدلوه بأن هذه الدفاتر ليست هي الأصلية وإنما هي نسخ جزئية منسوخة عن الأصول في فترة متأخرة ربما في القرن (١٨م)، كما ذكر بأنه من المحتمل استعمال دفاتر قايتباي في نسخ بياناتها[١٤]

وللإجابة على التساؤلات السابقة ومناقشة هذا الرأي نعرض لحجج إثبات للإتفاق مع هذا الرأي في جوانب منه والاختلاف في جوانب أخرى، حيث تثبت لنا البيانات والتقارير التي تمدنا بها هذه الدفاتر الاتفاق مع هذا الرأي في الجانب الخاص بأن هذه الدفاتر ليست هي الأصلية وإنما تم نقلها من دفاتر أخرى، إذا يمكننا الاستدلال بما ورد بافتتاحية دفتر ترابيع فيوم وبهنساوية لواجب سنة ٩٣٣هـ/١٥٢٦م بأنه بالفعل تم نقلها من دفاتر أصلية، بينما يثبت أيضاً الاختلاف مع الرأي السابق ذكره حول تاريخ نقلها ونسخها



الحمد لله رب العالمين

دفتر

تربيع نواحى أقاليم يذكر فيه لمغل سنة ٩٣٤هـ

منقول من دفتر يعرف بابو لسان مخلد بالديوان

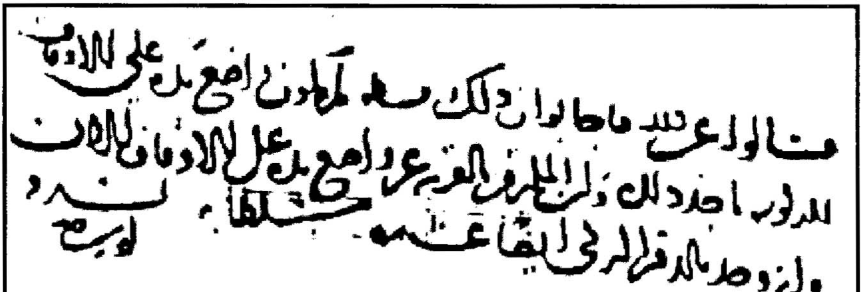
العالى منه نقل ذلك في اواخر شعبان المكرم سنة

٩٣٣ في ولاية سعيد جولبى بالمقاطعة أحد كتاب الغلال

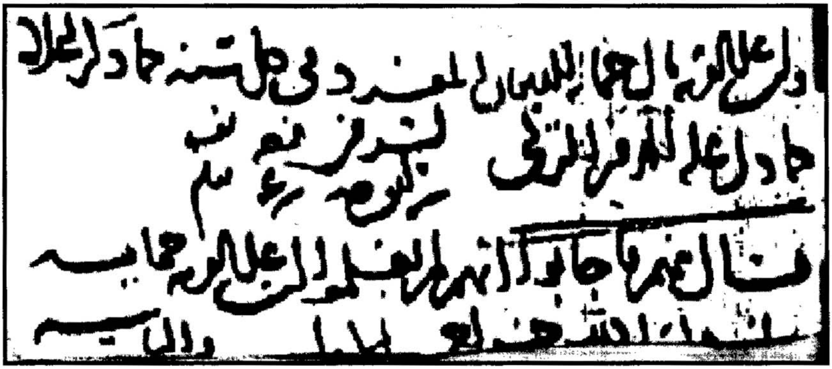
السلطانية في زمن حضرة مولانا محمد باشا اعزه الله تعالى إلى مايشاء الله(١٥)

فهذا النص الافتتاحي للدفتر يشير صراحة بأن دفاتر الترابيع لسنة (٩٣٣هـ/٩٣٤هـ – ١٥٢٦م/ ١٥٢٧م) قد نقلت فعلا من دفاتر أخرى وهذا يؤكد الاتفاق في الجانب الأول من الرأي سابق الذكر، بينما ينفي هذا النص ماذكره أنصار هذا الرأي بأنه تم نسخها في أواخر القرن الثامن عشر، حيث ذكر هذا النص(نقل ذلك في أواخر شعبان المكرم سنة ٩٣٤هـ/ ١٥٢٧م) وبالتالي يثبت ذلك بأن نسخ هذه الدفاتر تم سنة (٩٣٤هـ/ ١٥٢٧م).

كما يؤكد تقرير المساحة الواردة بدفتر مقاطعات الشرقية لواجب سنة (٩٣٤هـ/ ١٥٢٧م) بالبيانات الخاصة بإحدى نواحى القليوبية بنص



قالوا عن ذلك فأجابوا أن ذلك لم يكن واضعاً يده على الأوقاف المذكورة وان الملتـــزم بالقرية واضع يده على الأوقاف الآن وأنه وجد بالدفتر التركى أيضا عنه ٦١ دينــــاراً أشرفياً(١٦).



كما ورد بنفس التقرير أيضاً احد البيانات عن مال حماية الديوان

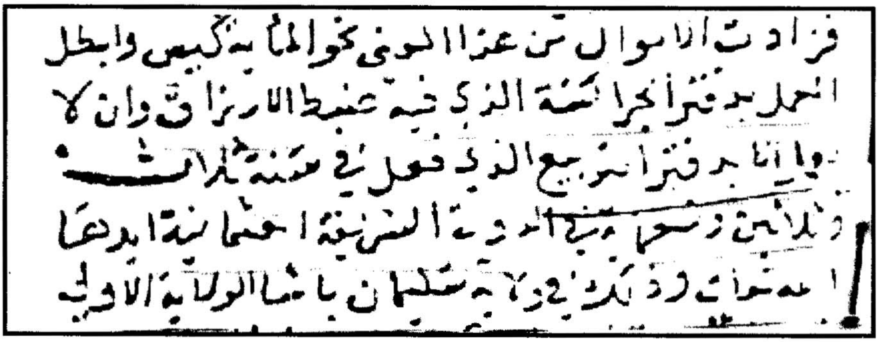
وإن على القرية مال الحماية للديوان المفروض كل سنة كما ذكر أعلاه كما دل عليه الدفتر التركي٤٦ ديناراً أشرفياً ١٦ نصف قال عنهم فأجابوا أنهم لم يعلموا أن على القرية مال حماية(١٧).

إذن يتضح من هذه الإشارات الواردة بهذا التقرير انه بالفعل تم نقل هذه الدفاتر من دفاتر أخرى ولكن هذا ينفي أيضا ما ذكره الرأي السابق بأنها نقلت من دفاتر قايتباي فلو نقلت فعلاً من دفاتر قايتباي إذن لماذا ذكر هذا التقرير نص الدفتر التركي والمقصود بالدفتر التركي هنا دفتر العثمانيين.؟

وفي تقديري إن المقصود بدفتر أبو لسان والدفتر التركي هنا هي الدفاتر التي دونت بها بيانات مسح الأراضي التي أمر بها السلطان سليم الأول أثناء إقامته في مصر وذلك استنادا إلى رواية ابن إياس بأن السلطان سليم أمر المباشرين بمسح بلاد الشرقية

والغربية قاطبة[١٨] كما تؤكد البيانات الواردة بدفتر ترابيع مقاطعات الشرقية والغربية ماذكره ابن إياس.

وهناك رواية أخرى تؤكد وجود هذه الدفاتر منذ مطلع العصر العثماني وفي فترة مبكرة ما أشار إليه صاحب المنح الرحمانية بأن محمد باشا قول قران "مبطل" الطلبة قد ألغى العمل بها حيث نص صاحب المنح الرحمانية بقوله:



(١٩)

فزادت الأموال من هذا السبعين نحو المأية كيس وأبطل العمل

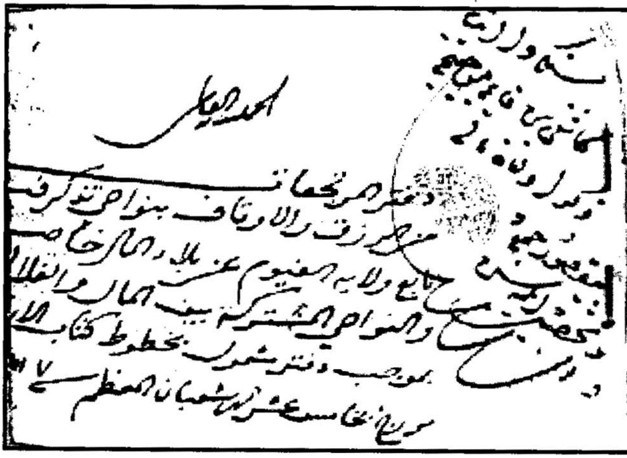
بدفتر الجراكسة الذي فيه ضبط الأرزاق وأن لايعمل

إلا بدفتر التربيع الذي فعل في سنة ثلاث وثلاثين وتسعماية

في الدولة الشريفة العثمانية أيدها الله تعالى وذلك في

زمن ولاية سليمان باشا الولاية الأولى

إذن يفسر صاحب المنح الرحمانية أن هذه الدفاتر قد تم نسخها ونقلها سنة (٩٣٣هـ/ ١٥٢٦م) كما يؤكد أن هذه الدفاتر استمر العمل بها إلى نهاية القرن الثامن عشر.



كما يؤكد ذلك أيضاً ماورد في آخر دفتر تربيع فيوم وبهنساوية الواجب (٩٣٣هـ/ ١٥٢٦م).

الحمد لله رب العالمين

دفتر المرتجعات

من الرزق والأوقاف بنواحى تذكر فيه تابع

ولاية الفيوم عن بلاد المال والغلال والنواحي

المشتركة بين المال والغلال بموجب دفتر مشمول

بخطوط كتاب الأرزاق مؤرخ بخامس عشر شعباز

المعظم سنة (١٠١٧هـ/ ١٦٠٨م)[٢٠].

يوضح هذا النص أنه قد تم تسجيل وتحرير بعض البيانات في فترة متأخرة في بداية القرن السابع وهذا يؤكد رواية صاحب المنح للرحمانية، ومن المرجح أن الرأي السابق قد اعتمد على هذا النص في القول بأن هذه الدفاتر نسخت في نهاية القرن الثامن عشر لكننا نرى أن تسجيلها في آخر الدفتر يدل على أنها بيانات تم تسجيلها بنفس الدفتر الذي حرر منه (٩٣٣هـ/ ١٥٢٦م)، حيث حررت هذه البيانات لضبط المتغيرات التي قام محمد باشا قول قراره سنة (١٠١٧هـ/ ١٦٠٨م)، كما يؤكد ذلك أيضا ان بعض الصفحات الأخيرة من هذا الدفتر مازالت فارغة وليس بها أي بيانات.

إذن مما سبق جميعه يتضح لنا أن هذه الدفاتر قد نقلت بالفعل من دفاتر أصلية ترجع لزمن السلطان سليم الأول وأن نسخها تم في سنة (٩٣٣هـ/ ١٥٢٦م) وأن العمل بها استمر حتى القرن السابع عشر الميلادي وربما استمر العمل بها إلى القرن الثامن عشر الميلادي وانه استجدت بها بعض التحريرات والمدونات في أوائل القرن السابع عشر.

الخط المدون به الدفاتر:

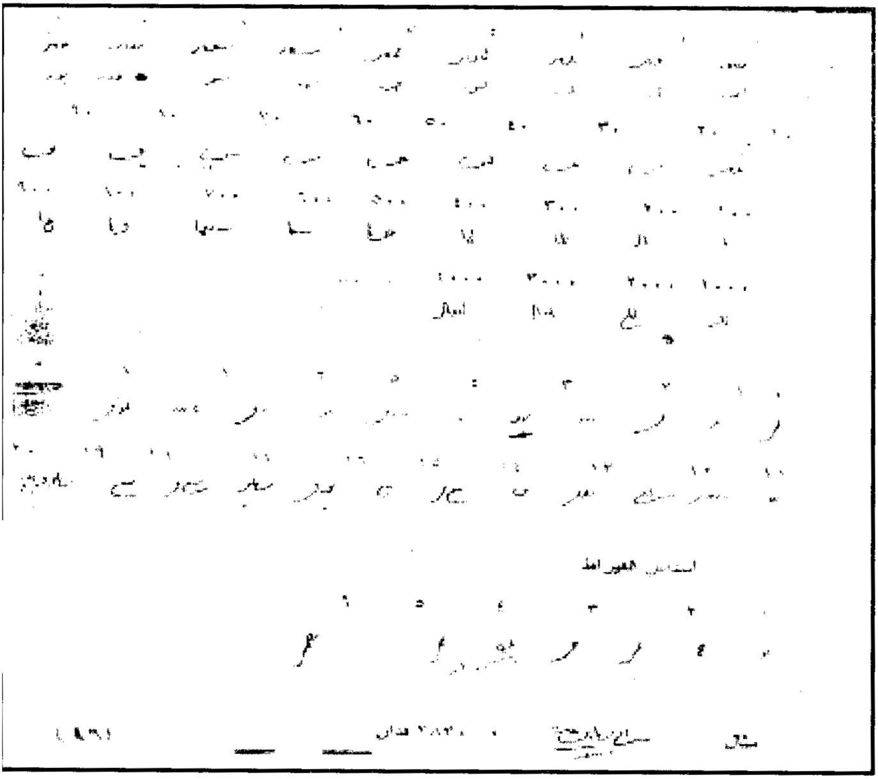
يلاحظ من البيانات المدونة بداخل هذه الدفاتر أنها كتبت بلغة إدارية غير واضحة المعالم ليتوفر لها السرية التامة بسبب تخوف العثمانيين من عناصر الجراكسة الذين استمروا في الإدارة العثمانية في بادئ الأمر.

كما أن السياسة الإستراتيجية للنظام الإداري والمالي العثماني المتعلق بالأراضي الزراعية وعوائدها من الضرائب قد اقتضى ذلك.

وقد جمعت هذه اللغة بين اللغة الفارسية والرموز العثمانية في كتابتها فيما سمي بخط السياقت أو سياقت نامة الذي تمكن صعوبته في فك رموزه إذ يجب على الباحث ترجمة هذه الرموز قبل دراسة هذه الدفاتر.

ومما تجدر الإشارة إليه إن خط السياقت يختلف عن خط القرمة، حيث يعتبر خط السياقت وبياناته بيانات رقمية فقط، بينما خط القرمة بيانات مكتوبة.

نموذج يوضح ترجمة لفك رموز خط السياقت بدفاتر ترابيع المساحة لسنة (٩٣٣ – ٩٤٣هـ/ ١٥٢٦ – ١٥٣٦م).



(٢١)

ثانياً: دفاتر ترابيع المساحة كمصدر لتاريخ بني سويف في العصر العثماني

يلاحظ أن دفاتر الترابيع قد جاءت بزاد ضخم من المعلومات والبيانات المدونة بها، والتي تجعلها في غاية الأهمية لدراسة الأقاليم المصرية في العصر العثماني. يضاف إلى ذلك أن هذه الدفاتر مصدراً لا غنى عنه لدراسة طبوغرافية الأقاليم وجغرافيتها التاريخية وفيما يلي كيفية استفادة الباحثين منها.

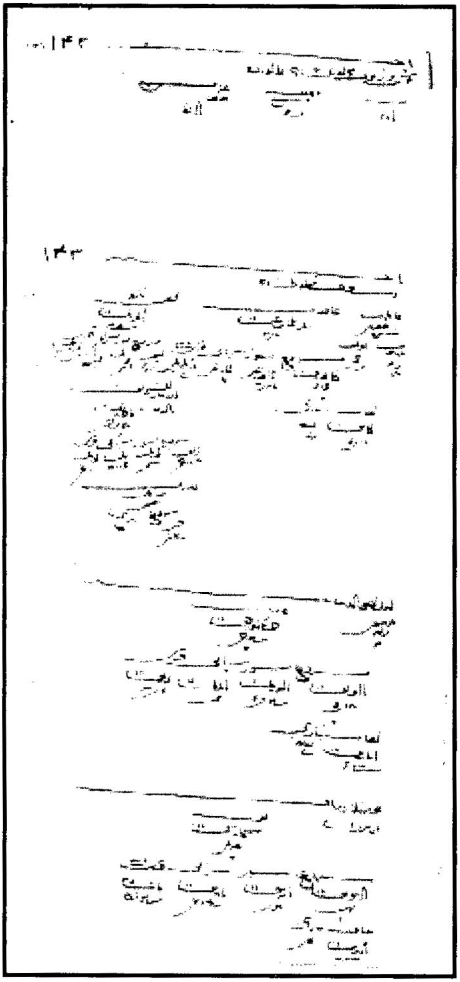
دراسة الأوضاع الاقتصادية في بني سويف:

يستطيع الباحث من خلال دراسة هذه الدفاتر الاستفادة منها في معرفة كافة الجوانب الاقتصادية في (البهنساوية) (بني سويف)، فعن طريقها يستطيع التعرف على أنواع الحيازات للأراضي الزراعية، حيث تم تدوين مساحة كل ناحية على حدة وعدد أفدنتها مع ذكر إذا كانت هذه الأراضي وقف أميري أو مصالح ناحية وبالتالي يخرج الباحث من خلالها بنتائج جيدة.

كما يستطيع من خلالها رصد إجمالي المال المقرر على الناحية مع تقرير هذا المال، سواء كان أميري أو وقف أو عادات مع تقرير العادات المفروضة على الناحية من قبل الإدارة.

وتمدنا أيضاً هذه الدفاتر ببيانات عن المحاصيل الزراعية التي كانت تزرع في بني سويف آنذاك سواء كانت شتوية أو صيفية.

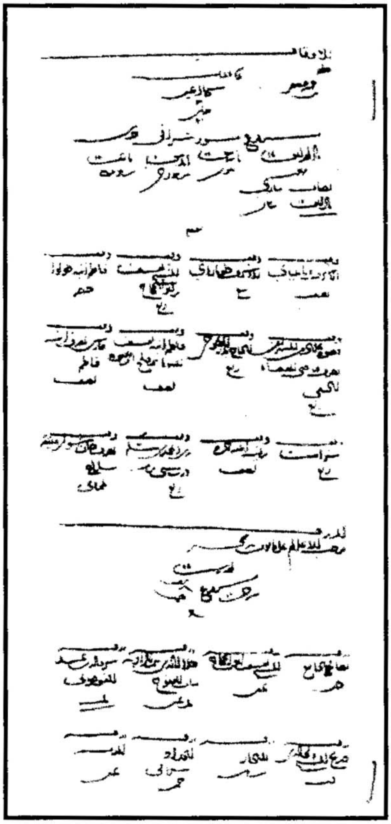
كما تمدنا ببيانات عن الجهاز الإداري في بني سويف مع ذكر بعض تقارير المساحة وسنسوق مثالين لناحيتين توضح كيفية الاستفادة من البيانات المدونة بتقرير كل ناحية



ناحية
بوش قرا بموجب مكلفة المساحة على
العادة
فدن ١٠٢ قطيعة ٣٠ خالص
عنه ٢٠٢
ناحية تزمنت بموجب مكلفة المساحة
كاملها ١٠ حصص
عنها فدن: ١٣٢٢ يخصص
الحصة: ١٣١
للديوان: ٤ للوقف: ٥
مزروع: ٤٩١ بور: ٣١١
شراقي/ خرس مانع: ٢١٣
مزروع: ٤٠ بور: ٣١ شراقي:
٣١ خرس: ٢١
أضاف: ٤٩٠ نباري: ٥
للديوان الشريف بالوقف: ١٢٥
مزروع: ٤١ بور: ٣١
شرقي: ٣٠ خرس: ٢١
للرزق: ٦
مزروع: ٥ شرقي: ١
للأراضي الديوانية
حصص أربعة عنها فدن
٥٥٤
مزروع بور شراقي
خرس
١٩٤ ١٣٤ ١٣٣
٩١
أصاف نباري
١٩٣ ١
لجهة الاقتصاف والرزق
فدن ٧٣٣
مزروع بور شراقي خرس
٢٧٩ ١٧٦ ١٧٢ ١٢٠
أصاف نباري
٢٩٧
(٢٣)

دراسة الأوضاع الاجتماعية:

يستطيع الباحث المهتم بدراسة النواحي الاجتماعية في البهنساوية (بني سويف) في العصر العثماني الاستفادة من هذه الدفاتر لما تحويه بياناتها من صور واضحة بعض النماذج الاجتماعية مثل دراسة أوضاع المرأة من خلال ما تحتويه هذه الدفاتر من بيانات خاصة بأوقاف النساء، كما تمد الباحث أيضا بأراضي أوقاف الرقيق المعتوق، كما يستطيع الباحث التعرف على أسماء المشايخ والقضاة والعلماء إذ يفيد ذلك المهتمين بدراسة تاريخ العائلات في بني سويف في العصر العثماني والشكل التالي يوضح ذلك



الأوقاف

جمة حصص — عنها فدن ٧١١

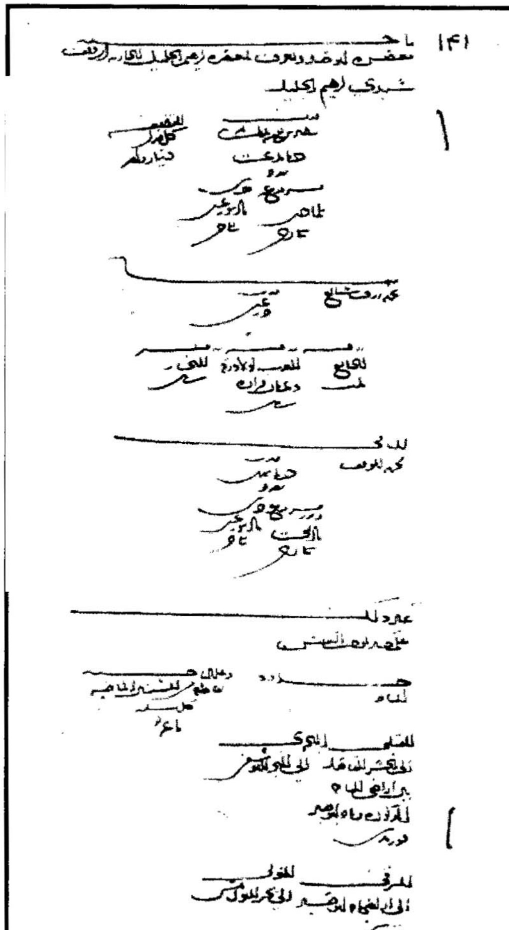
مزروع 241	بور 176	شراقي ١٧٣	خرس ١٢٠
أصاف٢٤٠	نباري		
وقف لأشرف قاتباي	وقف الأشرف طومانباي	وقف الشيخ يوسف أبو الحجاج	وقف فاطمة ابنة طولون حصة١
وقف قنصوة لديوان الشريف يصرف قاضي القضاة الحنفي	وقف الحاج بدر الطوخي	وقف فاطمة ابنة يوسف ينتقل باسم فليح بن قنصوه	وقف فارس يصرف لابنته فاطمة ٤/١
وقف شرامنت	وقف زينب بنت حمزة	وقف المجدي	وقف يصرف لخان شولر عتيقة ملاح بلباي

الرزق بموجب إعلام على ما هو محجر ٦١

مزروع٥٦	شراقي٥		
رزقة مصالح الجامع ٥	رزقة الشيخ يوسف أبو الحجاج١٠	رزقة جلال الدين برسم الزاوية بباب الفتوح١٣	رزقة شرف الدين.عبيد القوصوني ٣/١
رزقة طريح الكح جلال الدين٩	رزقة التجار ٦	رزقة الحداد شراقي٥	رزقة المدمسة ١٠[٢٣]

أهميتها كمصدر لدراسة الجغرافيا التاريخية:

كذلك لم تقتصر أهمية دفاتر الترابيع على الدراسات التاريخية فقط بل يستطيع الباحث المهتم بدراسة الجغرافيا التاريخية للأقاليم المصرية في العصر العثماني الاستفادة منها فتمده هذه الدفاتر ببيانات خاصة بحدود بني سويف مع الأقاليم المجاورة فعلى سبيل المثال حدودها مع الفيوم تظهر كما في الشكل



ناحية
معصرة أبو قير وتعرف بمعصرة إبراهيم الخليل الجارية في وقف سيدي إبراهيم الخليل

فدن	القطيعة
نظير تربيع	كل فدن
٩٣٣هـ	دينار واحد
٥٢٣	خرس ٢١٧
مزروع ٣٥٠	فدن١٥
منها محمد رزق	

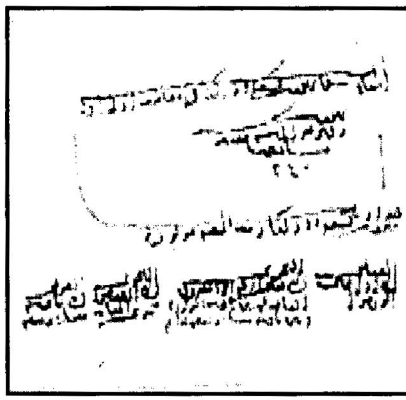
رزقة لجامع	رزقة	رزقة
٣٠	للعرب أولاد	التجار
	رقة	٦
	وعربان	
	خزارة ٦	
الباقي بجهة	فدن	خرس
الوقف	٥٠٧	٢١٧
	مزروع	
	وبور ٢٠٩٠	

غير ذلك علم خبرة بموجب التفتيش

حدود الناحية	وعلى الناحية
↓	مقاطعة بين السنين
القبلي إلى الجسر	الماضية كل سنة
الفاصل بين	١١٠ أشرفي
أراضي الناحية	البحري
المذكورة وناحية	إلى البحر اليوسفي
أو صير قوريدس	الغربي
الشرقي إلى	إلى بحر اليوسفي (٢٤)
اراضي أبو صير	
قورديس	

إذن فالشكل السابق يوضح حدود بني سويف من الشمال من ناحية أبو صير[٢٥]، حيث يعطينا بيانات عن أبو صير مع بحر يوسف من الجهة البحرية، وحدودها من الغرب مع أبو صير قويدس.

كما لم تقتصر بيانات هذه الدفاتر مع حدود بني سويف على الفيوم بل تعطينا بيانات عن حدود بني سويف مع الاطفحية كما هو مبين بالشكل



ناحيـــــة

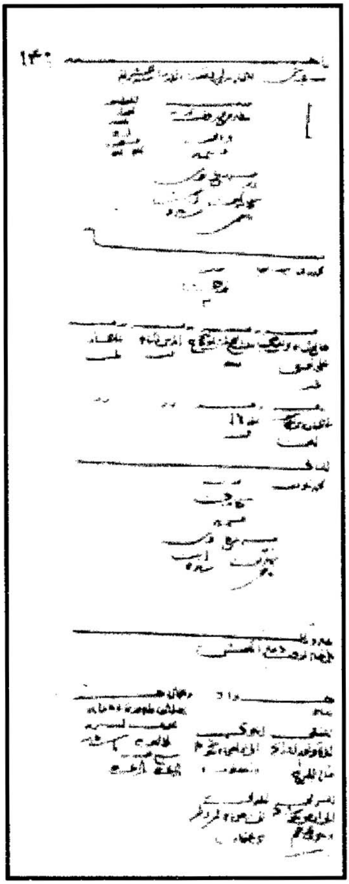
اطفيح بموجب كشف دركنا مقاطعة أرزاق، علم بموجب دفتر أصول تربيع مساحتها ٢٤٠ فدن

حدود الناحية

بموجب تفتيش دركناه ومقاطعة مزكورة

القبلي إلى أراضي	البحري	الشرقي	الغربي إلى
أبو صير ٢٣	إلى قبلي المعروفة الناحية المذكورة بناحية منشأة ربيعة	إلى الفيوم ناحية جسر المياه [٢٦]	ناحية منشأة ربيعة

فالشكل الموضح يبين حدود بني سويف مع اطفيح[٢٧] في الشمال الشرقى والفيوم من الشمال الغربى، ثم تعطينا بيانات هذه الدفاتر أيضا حدود كل ناحية وقرية في بني سويف مع القرى الأخرى المجاورة معها أو المتداخلة حدودها مع بعضها من الجهات الأربعة الشرقية والغربية والشمالية والجنوبية كما هو مبين بالشكل:



ناحية

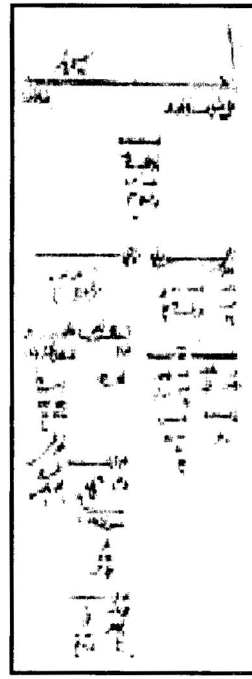
منية عياش الجارية من وقف الدتسيسه الشريفة

فدن		القطيعة	
بنظير تربيع ٩٣٣هـ		١٠ ديناراً	
٨٩٠		خرس	
مزروع وبور		٦١	
٧٤٦		فدن	
منها مجمد رزق		١٥٢ فدان	
رزقة جامع الناحية	رزقة الشيخ	رزقة	رزقة
للقاضي علي القمني	تقي الدين	المزين	النجار
٣	أبو الحجاج	بالناحية	٣
	١	١	
رزقة الخفارة	رزقة		
٤	الدلالة		
الباقي	١		
لجهة الوقف	فدن		
مزروع	٧٥٢		
٧٩٥	خرس		
	٦١		
غير ذلك		وعلى الناحية	
علم خبرة بموجب دفتر التفتيش	أصل المقاطعة قديماً عن كامل		
حدود الناحية		الناحية	
القبلي لناحية كوم	البحري إلى	علية	أشرفي
أدريجة	أراضي	٤٤٠	١٦٠
	ناحية	أشرفي	نصف
	الوسطي	٢١٠	فضة
	والمصلوب		٢١٠
قبالة البروج الشرقي إلى أراضي	الغربي إلى أراضي		
الواسطي والبحر الأعظم	ناحية متمن وكفر بني عثمان [٢٨]		

فالشكل الموضح يبين حدود قرية منية غباشى مع حدود ناحية كوم ادريجه[٢٩] من الجهة القبلية وناحية الواسطي والمصلوب من الجهة البحرية ومن الأراضي ناحية قمن وبنى عفان[٣٠] من الجهة الغربية.

كما تمدنا هذه الدفاتر بالجغرافيا التاريخية للقرى التي تحولت إلى مراكز ومدن حيث يذكر اسم القرية ويذكر مصطلح كفورها، ومن ثم نستطيع التعرف على تحول القرية

إلى مدينة فعلى سبيل المثال تمدنا أقدم وثيقة خاصة ببني سويف في العصر العثماني ما يشير إلى أن بني سويف كانت ناحية أو قرية. كما هو مبين بالشكل.



ناحية
بني سويف وكفورها
أشرفي
١٥٣
٢١ نصف

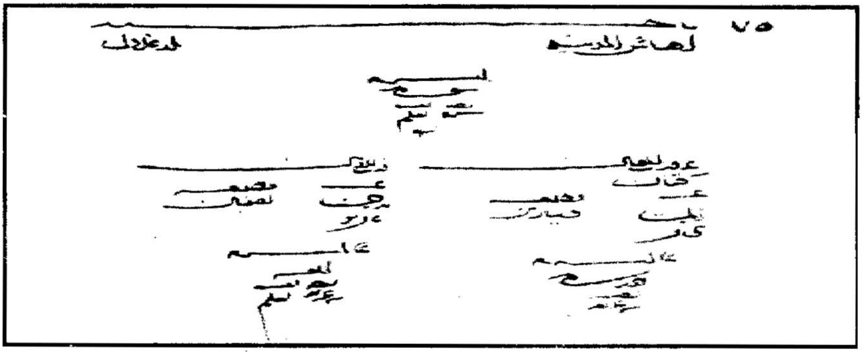
الخراج عن الفدن 90	عنها أشرفي ٢٥ دينار	مال الجهات ١٢٢	نصف ١٦

قصب ٦ عنه أشرفي ١٢ دينار (٣١)	قطيعة ٣ دينار عنه أشرفي ١	قلقاس ٦ عن الغيابة ٢٠ دينار	قط يعة دي نار ين	كشف الديوان ضيافة ٤٠	الخفر السلطا ن كبير أم دينار ٦١

المقدمة
عشرة

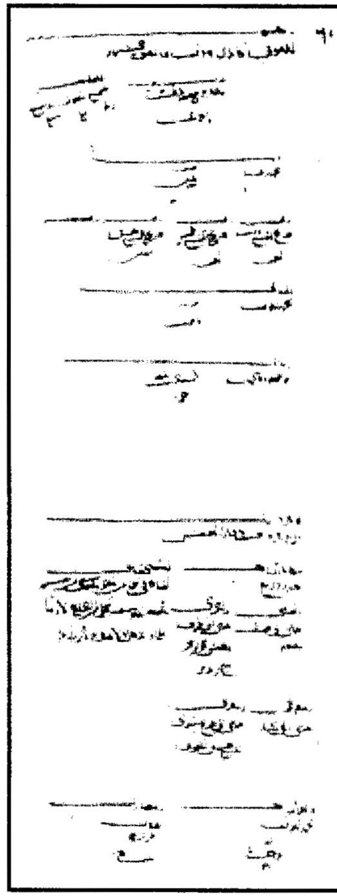
ضيافة ٢	كلفة ٢

فهذا الشكل يوضح لنا بأن بني سويف كانت ناحية وكانت عبارة عن أمانة على رأس جهاز إداري برأي الأمين، فكما تشير بيانات هذه الدفاتر بأن بني سويف كانت ناحية تشير أيضاً ببعض المدن التي أخذت مسمى المدينة مثلما يوضح هذا الشكل أهناس المدينة(٣٢).



أهميتها كمصدر لدراسة الآثار الإسلامية:

يلاحظ أن أهمية هذه الدفاتر لم تقف عند هذا الحد بل تزداد أهميتها في كونها مصدراً مهماً للباحثين ليس فقط للمهتمين بالتطور العمرانى للريف بل أيضاً للباحثين المهتمين بدراسة الآثار المصرية سواءً في المدن أو الأقاليم، إذ يستطيع الباحث من خلالها معرفة الأماكن الأثرية سواء كانت مساجد أو زوايا إذ دونت أراضى الأوقاف مع ذكر ما هي موقوفة عليه وسنسوق بعض الأمثلة التي توضح ذلك.(٣٣)



ناحيـــة

الغوني كامل الناحية وقف قانصوه خمسماية

فدن　　　　القطيعة

بنظير تربيع ٩٣٣ هـــ

١٢٥

القمح	الفول	الدخميس
١١	٣	٦

منها

مجمد رزق	رزقة ضريح	رزقة ضريح
رزقة ضريح	الشيخ عمر	الشيخ حسان
الشيخ دويب	٤	٢
الباقي لجهة	فدن	
الوقف	١٩٠	كشف التقدمة
المال من		٥
جمعية		
للجهات		

غير ذلك

علم خبرة بموجب دفرت التفنيش

لكامل الناحية حدود أربع

القبلي ينتهي إلى جبل الفيوم	البحري ينتهي إلى طرفا وهيش بجوار بحر بيج أندير الغربي	استحقاق للناحية بالبحر السوفي
الشرقي ينتهي إلى الجبل	ينتهي إلى ضريح سيدي الشيخ حسين الغوفي	
وعلى الناحية لجهة الوقف ٥٣	المصاريف عربان خزارة ٣٠	

يوضح هذا الشكل حدود الناحية مع ذكر الرزق والأوقاف وما هو موقوف عليها من أضرحة وزوايا.

خاتمـــة:

مما سبق يتضح لنا أهمية البيانات المدونة بها، والتي تقدم للباحث صورة حقيقية ومفصلة عن كل النواحي الاقتصادية والاجتماعية والجغرافية في بني سويف في

العصر العثماني، كما أنه من الواضح أن دراسة هذه الدفاتر وإمكانية الاستفادة منها ليست بالسهلة اليسيرة، نظراً لما تتطلبه من معرفة عميقة وخبرة واسعة لفك رموزها، حتى يستطيع الباحث الاستفادة منها، ولذلك يجب على الباحث مراعاة بعض الملاحظات التالية:

- على الباحث أن يتعلم ويتدرب على قراءة خط السياقت الرقمي يستطيع فك رموزه وترجمته، وإلاّ وقع في خطأ فاحش لا يعود في النهاية إلا بنتائج خاطئة.
- يجب على الباحث توخي الحذر عند نقله الإحصائيات والأرقام المدونة بها والحذر عند حساب هذه الأرقام، نظراً لأنها مدونة بطريقة تفصيلية قد توقعه في خطأ حسابي إذا لم يتوخى الحذر.

ملحق رقم (١)

فهرست نواحي ولاية منفلوط وبهنسا وبه واجب ٩٣٣ قسم

اقليم الفيـــــوم

- ١ ناحية بشنوير الرمان
- ٢ ناحية غرب دموشية
- ٣ ناحية منيع تنكو
- ٤ ناحية العنبرة وتوابعها
- ٥ ناحية روم الكابس
- ٦ ناحية قدمبل
- ٧ ناحية عتيفة
- ٨ ناحية ديليين
- ٩ ناحية ابو راسه
- ١٠ ناحية صنوفر
- ١١ ناحية ابو خصاص
- ١٢ ناحية الاكفاف
- ١٣ ناحية المصلوب
- ١٤ ناحية دمنهور لهوا
- ١٥ ناحية عدوة سيلة
- ١٦ ناحية شرشنت
- ١٧ ناحية منشأة الطواحين وطرف بني عبد الله
- ١٨ ناحية ابو كسا
- ١٩ ناحية ععنح
- ٢٠ ناحية مطول
- ٢١ ناحية طا
- ٢٢ ناحية سبارة
- ٢٣ ناحية هوارة عجلان
- ٢٤ ناحية جرد و
- ٢٥ ناحية سبا
- ٢٦ ناحية منشأة اولاد مهلهل
- ٢٧ ناحية اهريت
- //

نواحي بلاد المعروف بحلة ٢٨ سنة

- ناحية تطون
- ناحية نفران
- ناحية سدموة
- ناحية الغرق
- //

- ٢٩ ناحية دفنص
- ٣٠ ناحية عمر ابن مسى
- ٣١ ناحية منيا الاهون
- ٣٢ ناحية هوارة فرج
- ٣٣ ناحية الغامنية
- ٣٤ ناحية المزارعة
- ٣٥ ناحية مطرطارس
- ٣٦ ناحية سيلا
- ٣٧ ناحية دسنفين النصل
- ٣٨ ناحية ابو صير دقدوق
- ٣٩ ناحية معصرة دات الصف
- ٤٠ ناحية قلمن
- ٤١ ناحية سنورس
- ٤٢ ناحية بيهمو
- ٤٣ ناحية الزربي
- ٤٤ ناحية منيع فرج
- ٤٥ ناحية تقابة الكرنا
- ٤٦ ناحية الربيات
- ٤٧ ناحية منقطولة
- ٤٨ ناحية سيلا
- ٤٩ ناحية سباص
- ٥٠ ناحية الروضة
- ٥١ ناحية الاعلام
- ٥٢ ناحية كوم اسنباط
- ٥٣ ناحية الغاتين
- ٥٤ ناحية النغورة
- ٥٥ ناحية العدوبكية
- ٥٦ ناحية الملالية
- ٥٧ ناحية ابو اهون
- ٥٨ ناحية منى بخوت
- ٥٩ ناحية دار الرماد
- ٦٠ ناحية بحبلد
- ٦١ ناحية مدينة الفيوم
- ٦٢ ناحية منى نصير
- ٦٣ نصف ناحية ديوان الكشف
- ٦٤ ناحية ابهيت الحجر
- ٦٥ ناحية العوف

من اقليم المنفلوطيـــــة

- ٦٦ ناحية بوقا وبني زيد
- ٦٧ ناحية مصرح وما معها
- ٦٨ ناحية النقادي سكل

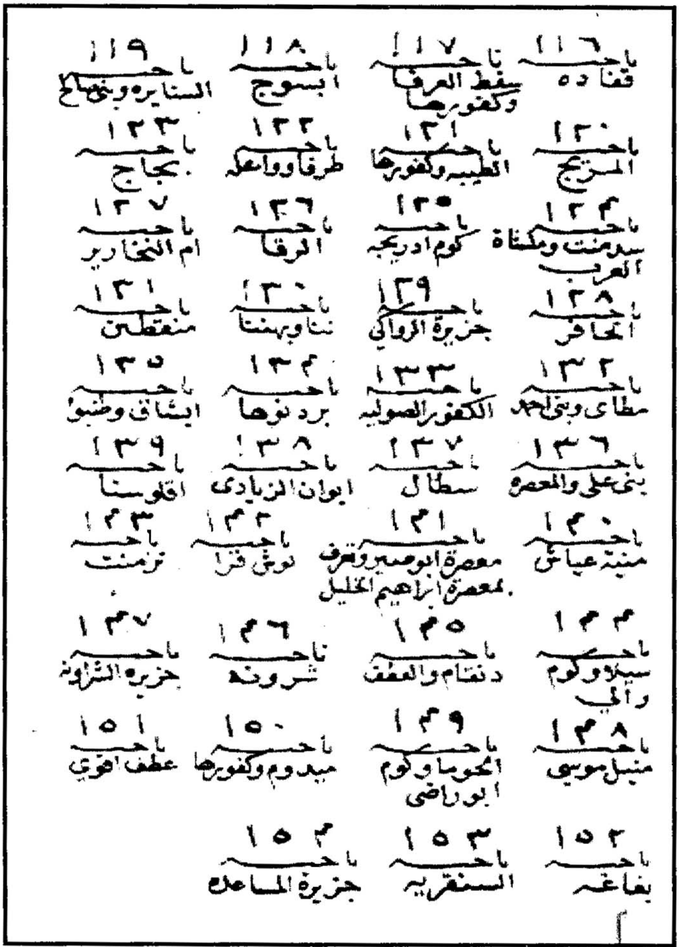
مصرح جحديم اولاد راعي

ضنا الجهاي منقباط

من البهنســـــــاوية

- ٦٨ ناحية ملغر اوكيلد
- ٦٩ ناحية البنت وتقولي
- ٧٠ الحيسورة الكوم وتوابعها بني ونس
- ٧١ ناحية ترمسنت
- ٧٢ ناحية الموزة
- ٧٣ ناحية ابو سيد هرنشت وباحسا كوم
- ٧٤ ناحية بيا الكبرى وكفورها
- ٧٥ ناحية مصالح
- ٧٦ ناحية بني سويف
- ٧٧ ناحية بمغتيم
- ٧٨ ناحية دموشية الى عمان
- ٧٩ ناحية قاي وتعنو الزرابية
- ٨٠ ناحية الفشن
- ٨١ ناحية تلت ريماق
- ٨٢ ناحية قمسطا وكفورها
- ٨٣ ناحية سفط رشين وكفورها
- ٨٤ ناحية اهوتنب
- ٨٥ ناحية بريط بقر
- ٨٦ ناحية العطف بن نفوس السفنودة
- ٨٧ ناحية باد سلقام
- ٨٨ ناحية منبال
- ٨٩ ناحية قمن بني هلال
- ٩٠ ناحية دهروط
- ٩١ ناحية باهما
- ٩٢ ناحية منيع مبلون وحرف سدا ابو هلال
- ٩٣ ناحية هناسيد الصغرا
- ٩٤ ناحية اويجنوس
- ٩٥ ناحية مشروبه
- ٩٦ ناحية سفط ابو جرجا
- ٩٧ ناحية المنيا وكفورها
- ٩٨ ناحية سلقوس
- ٩٩ ناحية قمبس وكفورها
- ١٠٠ ناحية دلهانس
- ١٠١ ناحية البرقي والاشاح
- ١٠٢ ناحية الشوبك
- ١٠٣ ناحية البراغنة
- ١٠٤ ناحية قمشو
- ١٠٥ ناحية هدنا بني مالو
- ١٠٦ ناحية كوم ابو خلاد
- ١٠٧ ناحية القايات وكفورها
- ١٠٨ ناحية الهواونة
- ١٠٩ ناحية اطواب
- ١١٠ ناحية نصف اسلهيم
- ١١١ ناحية منشأة قرباق
- ١١٢ ناحية منشأة حلفا
- ١١٣ حوض الكفر والعرباب مع البراج الحامي
- ١١٤ ناحية الجندي وهوط
- ١١٥ ناحية المني بقبتك

تابع ملحق رقم (١)



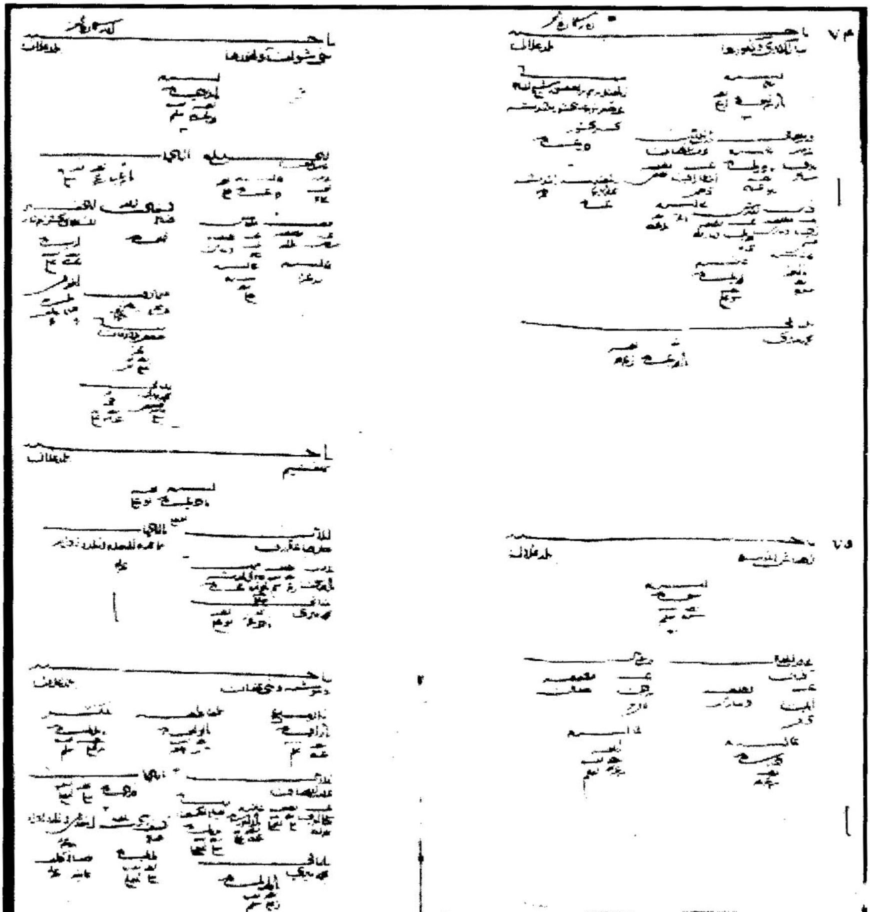
١١٦ ناحية قفادة	١١٧ ناحية سفط الرفا وكفورها	١١٨ ناحية ابسوج	١١٩ ناحية السنايرة وبني صالح
١٢٠ ناحية المزرج	١٢١ ناحية الطيبه وكفورها	١٢٢ ناحية طرفا وواعله	١٢٣ ناحية بجاج
١٢٤ ناحية سدمنت ومنشاة العرب	١٢٥ ناحية كوم ادريجه	١٢٦ ناحية الرقا	١٢٧ ناحية ام النخارير
١٢٨ ناحية الحافر	١٢٩ ناحية جزيرة الروائي	١٣٠ ناحية ننا وبهنيتا	١٣١ ناحية منقطين
١٣٢ ناحية سطاى وبني احمد	١٣٣ ناحية الكفور الصوليه	١٣٤ ناحية برد نوها	١٣٥ ناحية ابشاق وطنبو
١٣٦ ناحية بني علي والمعصره	١٣٧ ناحية سطال	١٣٨ ناحية ايوان الزيادي	١٣٩ ناحية اقلوسنا
١٤٠ ناحية منية عياش	١٤١ ناحية معصرة ابو صير وتعرف بمعصرة ابراهيم الخليل	١٤٢ ناحية نوش قرا	١٤٣ ناحية ترمنت
١٤٤ ناحية سيلا وكوم والي	١٤٥ ناحية دنمام والعطف	١٤٦ ناحية شرونه	١٤٧ ناحية جزيره الشرونه
١٤٨ ناحية منبال موسى	١٤٩ ناحية الحوما وكوم ابو راضي	١٥٠ ناحية ميدوم وكفورها	١٥١ ناحية عطف افوي
١٥٢ ناحية بغاغه	١٥٣ ناحية السنقريه	١٥٤ ناحية جزيرة المساعد	

مصدر الوثيقة: دار الوثائق القومية، دفاتر ترابيع المساحة، دفتر فيوم وبهنساوية واجب سنة ٩٣٣، رقم ٨.

ما يستفاد من الوثيقة:

توضح الوثيقة تدوين النواحي بالدفتر سواء عن طريق الترتيب الأبجدي أو التسلسل الرقمي، كما توضح الوثيقة التداخل الجغرافي والإداري لنواحي البهنساوية (بني سويف) والفيوم والإطفيحية والمنيا والمنفلوطية.

ملحق رقم (٢)



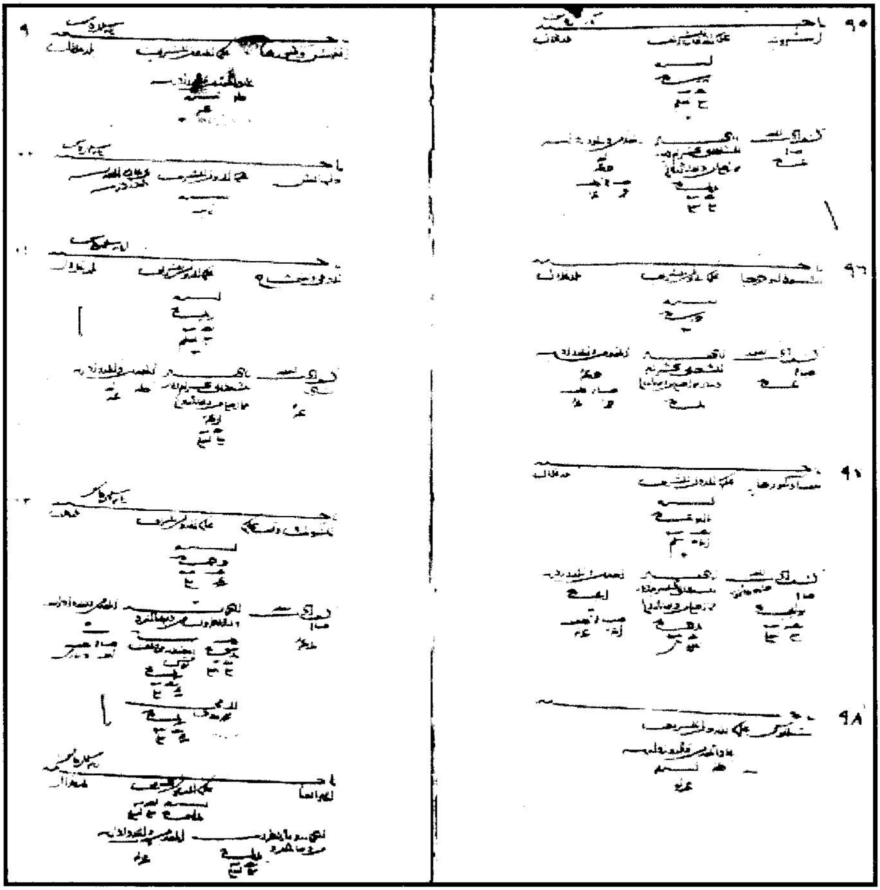
مصدر الوثيقة:

دار الوثائق، دفتر ترابيع فيوم وبهنساوية واجب سنة ٩٣٣، رقم ٦١/٣٨.

ما يستفاد من الوثيقة:

توضح الوثيقة التحول الجغرافي والتطور العمراني ببني سويف وتحولها من قرية إلى مدينة لتكون مركز الإقليم، كما توضح بعض النواحي التي تحولت إلى مراكز كبرى مثل أهناس المدينة، وببا الكبرى.

ملحق رقم (٣)



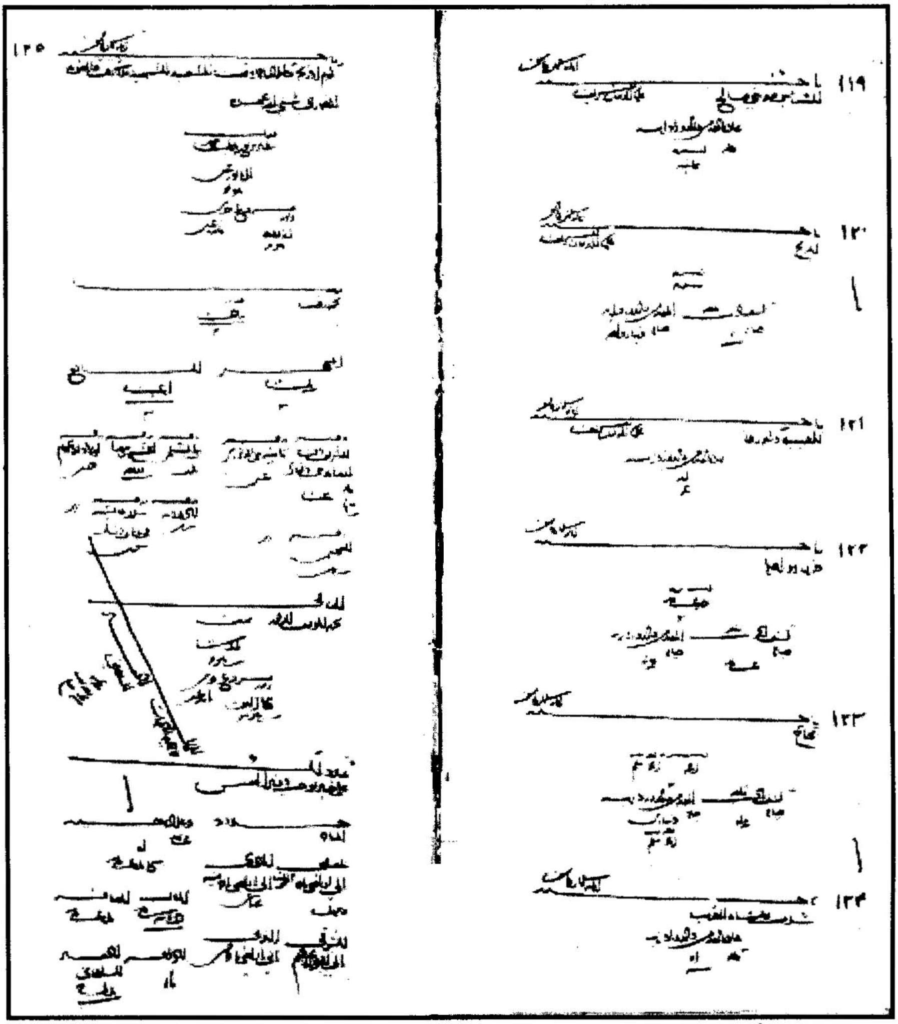
مصدر الوثيقة:

دار الوثائق، ، دفتر ترابيع الفيوم وبهنساوية الواجب ٩٣٣هـ، رقم ٧٠/٣٨.

ما يستفاد من الوثيقة:

توضح الوثيقة نواحي بني سويف والمال المفروض عليها.

ملحق رقم (٤)



مصدر الوثيقة:

دار الوثائق، دفتر ترابيع الفيوم وبهنساوية الواجب ٩٣٣هـ، رقم ٣٨/ص ٨٤.

ما يستفاد من الوثيقة:

توضح الوثيقة الحدود الجغرافيا للنواحي.

ملحق رقم (٥)



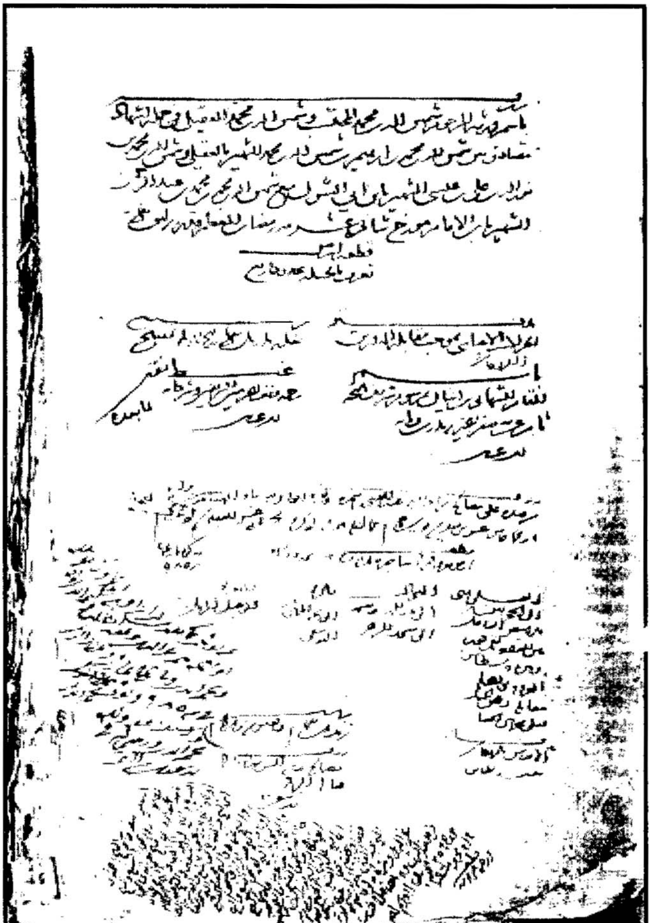
مصدر الوثيقة:

دار الوثائق، دفتر ترابيع الفيوم وبهنساوية الواجب ٩٣٤هـ، رقم ٤١، ص٤٠.

ما يستفاد من الوثيقة:

توضح الوثيقة إعادة توزيع نواحي بني سويف ورصد المال الأميري المفروض عليها لسنة ١٠٢٠هـ/١٦١١م.

ملحق رقم (٦)



مصدر الوثيقة:

دار الوثائق القومية، دفتر رزق احباس، رقم١،حــ١، ص٣٨.

ما يستفاد من الوثيقة:

توضح الوثيقة الاستعانة بدفاتر الترابيع في تسجيل بيانات دفاتر الرزق الإحباسية.

الهوامش

(١) حمد بن عبد الله العنقري، **مكتبات الدولة السعودية الأولى المخطوطة**، دارة الملك عبد العزيز، الرياض، السعودية، ٢٠٠٩م، ص٢٤.

(٢) الروزمانة: كلمة من أصل فارسى وتتكون من مقطعين هما روز بمعنى يوم، ونامة بمعنى كتاب، كتاب اليومية أو دفتر اليوم، انظر: مصطفي بركات الالقاب والوثائق من الفتح العثماني لمصر حتى إلغاء الخلافة العثمانية من خلال الآثار والوثائق والمخطوطات، دار غريب للطباعة والنشر القاهرة، ٢٠٠٠، ص١٢٤.

(٣) شفيق غبريال: **مصر عند مفترق الطرق ١٧٩٨ ١٨٠١**(المقالة الخامسة)، ترتيب الديار المصرية في عهد الحملة الفرنسية (مجلة كلية الآداب – الجامعة المصرية مايو ٣٦، ص١-٧٠،ص٢٣.

(٤) ليلى عبد اللطيف: **الإدارة في مصر العثمانية**، مطبعة جامعة عين شمس، القاهرة، ١٩٧٨، ص ٣٠٢، ٣٠٣ .

(٥) الروزنامجي: مرتب التقويم، مراقب، رئيس ديوان الروزنامة والمشرف على أفنديتها. وهو المسؤول عن سجلات الورادات والمصارف اليومية أو الأشياء العينية والتي تسجل في دفاتر تسمى دفاتر اليومية (روزنامه). ويطلق اسم روزنامه جى أيضاً على كاتب الوقائع، وبعد صدور التنظيمات العثمانية أطلق على هذا الموظف اسم "روزنامه جى" و "يومية كاتبى" و"محاسبة كتابى" وكان الروزنامه جى يتبع الدفتر دار. زين العابدين شمس الدين نجم، معجم الألفاظ والمصطلحات التاريخية، مصر، ط١، ٢٠٠٦م، ص٢٩٤.

(٦) المباشرون: مفردها مباشر، أطلق مصطلح مباشر على الموظف الذي يكلف بإدارة العمل والإشراف على تنفيذ وإجراء المبيعات والمشتروات المتعلقة به

واستخدام عماله، وأطلق على الموظفين بالدواوين اسم مباشرين، وكان يعين في الأوقاف مباشرون يعملون بمصالحها ويقيدون المتحصل من ريعها والمنصرف على مرافقها ويعملون سائر المحاسبات المتعلقة بها تحت إشراف نظارها. وقد عرفت هذه الوظيفة في الدولة المملوكية وفي عهد محمد علي واستمرت حتى عام ١٨٣١م حيث أصدر أمراً بإلغاء كلمة مباشر وتسمية المباشرين باسم آخر وعدم تدخلهم في أعمال الخزائن. زين العابدين شمس الدين نجم، معجم الألفاظ والمصطلحات التاريخية، ص٤٦٧؛ محمد أحمد دهمان، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، بيروت - دمشق، دار الفكر المعاصر - دار الفكر، ط١، ١٩٩٠م، ص١٣٤

(٧) دفتر **ترابيع فيوم ، بهنساوية** ، واجب ٩٣٣ هـ/ رقم ٣٨ غلاف الرمز

(٨) دفاتر **ترابيع المساحة لسنة ٩٣٤/٩٣٣**هـ رقم ٤٠/٣٨.

(٩) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم: **فصول من تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي في العصر العثماني** ، سلسلة تاريخ المصريين ، رقم ٣٨، ١٩٩٠ ، ص٢٠- ٢١.

(١٠) دفتر **ترابيع ولاية فيوم وبهنساوية** ، واجب سنة ٩٣٣ هـ ، رقم٣٨

(١١) دفتر **ترابيع الفيوم وبهنساوية** ، لواجب ٩٣٣ ، ص ٧٤

(١٢)دفتر **ترابيع الفيوم وبهنساوية** ، لواجب ٩٣٣ ، رقم ٣٨

(١٣) دفتر **أول رزق احباس بهنساوية** ، رقم ١ ، ص ١٣

(١٤) Nicola Michel :les RIZAQ IHBASIYYA, les Dafatir aL-Ahbas ottom dns , ANN Ales Islamologiques,IFAO,2002,To Me XXXVI

(١٥) دفتر **ترابيع فيوم وبهنساوية** ، واجب سنة ٩٣٣ هـ ، رقم ٣٨ ، ص ٤

(١٦) دفتر **ترابيع مقاطعات شرقية** لواجب سنة ٩٣٤ هـ ، رقم ٤٠ ، ص ١٢

(١٧) دفتر **ترابيع مقاطعات** شرقية رقم ٤٠ ، ص ١٢

(١٨) محمد احمد بن إياس: **بدائع الزهور في وقائع الدهور**، تحقيق محمد مصطفي زياد، ط٢، القاهرة ١٩٦١، ص ص٢٨٣ إلى ٢٨٥

(١٩) أبو سرور البكرى الصديقى : **المنح الرحمانية في الدولة العثمانية** ، دار الكتب، ميكروفيلم رقم ٨٢٩ ، ص ٦٨

(٢٠) دفتر **تربع مقاطعات فيوم وبهنساوية** لواجب ٩٣٣ هـ ، رقم ٣٨ ، ص ١١١

(٢١) لمزيد عن خط السياقت، انظر: نقولا ميشيل، دفاتر الرزق الحباسية، **حوليات إسلامية**، المعهد الفرنسي للتراث الشرقية في القاهرة، عدد٣٣، ١٩٩٩، ص٢١٢.

(٢٢) دفاتر **ترابيع المساحة فيوم وبهنساوية** واجب ٩٣٣ هـ ، رقم ٣٨ ، ص ١٠١

(٢٣) دفاتر **ترابيع المساحة فيوم وبهنساوية** واجب ٩٣٣ هـ ، رقم ٣٨ ، ص ٦١

(٢٤) دفاتر **ترابيع المساحة فيوم وبهنساوية** واجب ٩٣٣ هـ ، رقم ٣٨ ، ص ٧١

(٢٥) أبو صير: من القرى القديمة، وردت في معجم البلدان "بوصير السدر" وفي قوانين ابن مماتى "بوصير رجب" وهي بوصير السدر، وفي تحفة الإرشاد بوصير رجب، وفي تاريخ مصر للجبرتي ورد العجز محرفاً باسم أبو صير الصدر، والصواب أبو صير السدر، والظاهر أن هذه الناحية كان بها كثير من شجر السدر، فاشتهرت به. محمد رمزي، القاموس الجغرافي للبلاد المصرية من

عهد قدماء المصريين إلى سنة ١٩٤٥م، القسم الثاني، الجزء الثالث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤، ص٣.

(٢٦) دفاتر **ترابيع المساحة فيوم وبهنساوية** واجب ٩٣٣ هـ ، رقم ٣٨ ، ص ٦١.

(٢٧) اطفيح: من أقدم المدن المصرية، وقد ذكرها جوتييه في قاموسه قائلاً: إن اسمها المصري الديني Pnebtepah, Pertipaht ومعناها رأس البقرة واسمها المصري المدني Matnou ولها ثلاثة أسماء قبطية، ويقال لها: أطفيح الخمار وكانت قاعدة القسم الثاني والعشرين بالوجه القبلي ومن اسمها القبطي باتبيه، جاء اسمها العربي: أطفيح. محمد رمزي، القاموس الجغرافي للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى سنة ١٩٤٥، القسم الثاني، الجزء الثالث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤، ص٢٥.

(٢٨) دفاتر **ترابيع المساحة فيوم وبهنساوية** واجب ٩٣٣ هـ ، رقم ٣٨ ، ص ٨١

(٢٩) كوم إدريجه: إن قرية إدريجه وكوم إدريجه يجمعها سكن واحد، فإنه بسبب خراب إدريجه أقيم على أطلالها قرية أخرى عرفت بكوم إدريجه، ولا يزال جزء من سكن القرية الحالية يعرف عند الأهالي باسم كوم إدريجه الخراب. وفي تاريخ ١٢٣٠هـ/١٨١٤م قيد زمام إدريجه باسم كوم إدريجه لشهرتها بهذا الاسم من قديم. محمد رمزي، القاموس الجغرافي للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى سنة ١٩٤٥، القسم الثاني، الجزء الثالث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤، ص١٣٣.

(٣٠) بني عفَان: أصلها من توابع إهناسية الخضراء بالأعمال البهنساوية، ثم فصلت عنها في تربيع سنة ٩٢٣هـ/١٥١٧م، وردت في دفتر المقاطعات سنة ١٠٧١هـ/١٦٦٠م وفي تاريخ ١٢٣٠هـ/١٨١٤م. محمد رمزي، القاموس الجغرافي للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى سنة ١٩٤٥، القسم الثاني، الجزء الثالث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤، ص١٦٦.

(٣١) دفاتر **ترابيع المساحة فيوم وبهنساوية** واجب ٩٣٣ هـ ، رقم ٣٨ ، ص ٦١

(٣٢) دفاتر **ترابيع المساحة فيوم وبهنساوية** واجب ٩٣٣ هـ ، رقم ٣٨ ، ص ٦١

(٣٣) دفاتر **ترابيع المساحة فيوم وبهنساوية** واجب ٩٣٣ هـ ، رقم ٣٨ ، ص ٥٨

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر الوثائقية

١. دار الوثائق القومية المصرية بالقاهرة، دفاتر ترابيع المساحة، دفتر فيوم وبهنساوية واجب سنة ٩٣٣هـ، رقم ٨.

٢. دار الوثائق القومية المصرية بالقاهرة، دفاتر ترابيع المساحة، دفتر ترابيع فيوم وبهنساوية واجب سنة ٩٣٣هـ، رقم ٦١/٣٨.

٣. دار الوثائق القومية المصرية بالقاهرة، دفاتر ترابيع المساحة، دفتر ترابيع الفيوم وبهنساوية الواجب ٩٣٣هـ، رقم ٧٠/٣٨.

٤. دار الوثائق القومية المصرية بالقاهرة، دفاتر ترابيع المساحة، دفتر ترابيع الفيوم وبهنساوية الواجب ٩٣٤هـ/ رقم٤١.

٥. دار الوثائق القومية المصرية بالقاهرة، دفاتر ترابيع المساحة، دفتر ترابيع فيوم وبهنساوية ، واجب ٩٣٣ هـ/ رقم ٣٨ غلاف الرمز

٦. دار الوثائق القومية المصرية بالقاهرة، دفاتر ترابيع المساحة، دفاتر ترابيع المساحة لسنة ٩٣٤/٩٣٣هـ رقم ٤٠/٣٨.

٧. دار الوثائق القومية المصرية بالقاهرة، دفاتر ترابيع المساحة، دفتر ترابيع ولاية فيوم وبهنساوية ، واجب سنة ٩٣٣ هـ ، رقم٣٨

٨. دار الوثائق القومية المصرية بالقاهرة، دفاتر ترابيع المساحة، دفتر أول رزق احباس بهنساوية ، رقم ١.

٩. دار الوثائق القومية المصرية بالقاهرة، دفاتر ترابيع المساحة، دفتر ترابيع مقاطعات شرقية لواجب سنة ٩٣٤ هـ ، رقم ٤٠.

١٠.دار الوثائق القومية المصرية بالقاهرة، **دفاتر ترابيع المساحة**، دفتر ترابيع مقاطعات فيوم وبهنساوية لواجب ٩٣٣ هـ ، رقم ٣٨.

١١.دار الوثائق القومية المصرية بالقاهرة، **دفاتر ترابيع المساحة**، دفاتر ترابيع المساحة الفيوم وبهنساوية واجب ٩٣٣ هـ ، رقم ٣٨.

ثانياً: المصادر المخطوطة

١. أبو سرور البكرى الصديقى : **المنح الرحمانية في الدولة العثمانية** ، دار الكتب المصرية، القاهرة، ميكروفيلم رقم ٨٢٩.

ثالثاً: المصادر المطبوعة

١. محمد احمد بن اياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفي زياد، ط٢، القاهرة ١٩٦١.

رابعاً: المراجع العربية

١. حمد بن عبد الله العنقري، **مكتبات الدولة السعودية الأولى المخطوطة**، دارة الملك عبد العزيز، الرياض، السعودية، ٢٠٠٩م.

٢. زين العابدين شمس الدين نجم، **معجم الألفاظ والمصطلحات التاريخية**، مصر، ط١، ٢٠٠٦م.

٣. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم: **فصول من تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي في العصر العثماني** ، **سلسلة تاريخ المصريين** ، رقم ٣٨، ١٩٩٠.

٤. ليلى عبد اللطيف: **الإدارة في مصر العثمانية**، مطبعة جامعة عين شمس، القاهرة، ١٩٧٨.

٥. محمد أحمد دهمان، **معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي**، بيروت – دمشق، دار الفكر المعاصر – دار الفكر، ط١، ١٩٩٠م.

٦. محمد رمزي، **القاموس الجغرافي للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى سنة ١٩٤٥م**، القسم الثاني، الجزء الثالث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤.

٧. مصطفي بركات، **الألقاب والوثائق من الفتح العثماني لمصر حتى إلغاء الخلافة العثمانية من خلال الآثار والوثائق والمخطوطات**، دار غريب للطباعة والنشر القاهرة، ٢٠٠٠.

٨. نقولا ميشيل، دفاتر الرزق الحباسية، حوليات إسلامية، المعهد الفرنسي للتراث الشرقية في القاهرة، عدد٣٣، ١٩٩٩.

خامساً: الدوريات

١. شفيق غبريال: **مصر عند مفترق الطرق** ١٧٩٨-١٨٠١(المقالة الخامسة)، ترتيب الديار المصرية في عهد الحملة الفرنسية (مجلة كلية الآداب – الجامعة المصرية مايو ٣٦.

سادساً: المراجع الأجنبية

1. Nicola Michel :les RIZAQ IHBASIYYA, les Dafatir aL-Ahbas ottom dns , ANN Ales Islamologiques,IFAO,2002,To Me XXXVI

أوضاع جبل لبنان ما بين نظام القائمقامتين والمتصرفية ١٨٤١ – ١٨٦١ م

الدكتور محمد قنطار

قسم التاريخ

كلية الآداب

جامعة تشرين

تمهيد:

تمثل أحداث ١٨٤١ – ١٨٦١ في لبنان صراعاً مريراً، بسبب ازدياد التدخل الأجنبي المباشر وذلك عن طريق قيام كل دولة من الدول الاستعمارية بدعم طائفة معينة من طوائف لبنان، وبما أن لبنان يعتبر على مر التاريخ امتداداً طبيعياً لسورية، فمن البديهي أن تتأثر سورية بالأحداث التي شهدها لبنان، والعكس صحيح.

ولقد أثبت التاريخ الحديث صحة هذا الكلام، فلقد جاءت الدول الأوروبية، وتحقيقاً لمصالحها وغاياتها ومصلحتها في إثارة النعّرات والمشاكل، فلقد قامت فرنسا بدعم الدروز، كما تدخلت ألمانيا والنمسا وإيطاليا عن طريق البعثات العلمية والاقتصادية.

هذا ولم يقتصر صراع بعض الدول الأوربية على المجالات العسكرية والسياسية والاقتصادية فحسب بل تعدى الأمر إلى النواحي الاجتماعية والتعليمية والصحية، ولم

تعجز تلك الدول عن إيجاد الوسائل الناجعة لتنفيذ مآربها فموهت غاياتها بأعمال التبشير والاستشراق، واتخذت من المبشرين رسلاً بعثت بهم إلى البلاد الإسلامية وزودتهم بالأموال اللازمة والخطط الموصلة إلى أهدافها المنشودة، ولذلك كانت الحركة التبشيرية وسيلة وليست غاية، كما كانت جزءاً من عمل سياسي كبير انتهى إلى نتائج سلبية وأسهم في تجذير الانقسامات وتعدد الانتماءات والولاءات الثقافية والسياسية والاجتماعية للسكان، وهذا ما نراه الآن وللآسف في جبل لبنان والتدخلات الأجنبية الاستعمارية فيه وقبل نشوء نظام القائم مقامتين في لبنان كانت الإدارة الحكومية في يد الأمير بشير الشهابي طيلة المدة التي بدأ عهده بإقامة علاقات حسنة مع ممثلي الباب العالي فيما كان يناضل في سبيل استقلال لبنان، وحين احتل (إبراهيم باشا) فلسطين في العام ١٨٣١م، انضم إليه (بشير) وعمل على مساعدته في سقوط يافا وحيفا وعكا، بحيث انفتحت طريق سوريا للمصريين، فاحتل القائد إبراهيم باشا المصري يرافقه الأمير بشير مدن دمشق وحمص وحلب، ومن ثم تسلم (محمد علي باشا) من السلطان العثماني مقاليد الحكم في سوريا وكيليكيا، عندها بقي الأمير الشهابي ينعم بحكم خاص في لبنان بصفته حليفاً لمصر، وقد أدخل إبراهيم باشا في سوريا إصلاحاتٍ جذرية، وتطلب ذلك مالاً كثيراً فأزاد الضرائب على الأهالي الذين أرغموا على السخرة والتجنيد الإجباري، وتلبية مطالب جائرة فزادت النقمة على الحكم المصري وعلى حكم الأمير البشير حيث اتحد، والأتراك، والدروز في مقاومة مشتركة رفعوا فيها لواء الثورة في محاولة لمنع الجيوش المصرية من الدخول إلى الجبل.(١)

ثم كانت حوادث حوران التي حارب فيها الموارنة ضد الدروز، بداية عهد عداء بين الفريقين، فاستغل عملاء الإنكليز، والأتراك الحالة النفسية الثائرة في لبنان محاولين إشعال نار الفتنة في العاشر من تشرين الأول ١٨٤٠ م، وبعد أن اجتمع المسيحيون والدروز والشيعة والسنة في بلدة أنطلياس بالقرب من بيروت، تعاهدوا بالنضال معاً

في سبيل استقلالهم من الحكم المصري، وتسلموا أسلحة من الإنكليز والعثمانيين الذين رست جيوشهم في خليج جونية و احتلت بعدئذ جبيل والبترون وصيدا، فاضطر المير بشير الشهابي الثاني التنازل عن الحكم و اللجوء إلى جزيرة مالطا ثم على الأستانة حيث توفي فيها عام ١٨٥٠ م، وعين مكانه (بشير الثالث) وألحقت به المدن الساحلية (صور – صيدا – بيروت – طرابلس) مباشرة، وتم اختيار بيروت مركزاً لباشاوية عثمانية وذلك لمراقبة الجبل بطريقة فعالة، في تلك الأثناء كانت عوامل الانفجار تتكاثر في أنحاء لبنان حيث سعى الدروز إلى إعادة إقطاعاتهم وامتيازاتهم لكن الفلاحين الموارنة أبدوا مقاومة للدروز، وكان من دواعي نشوب الخلاف هو التدخل الغربي تحت شعار إنصاف المسيحيين والدفاع عنهم حيث قامت انكلترا بتسليح الموحدين ودفعهم للثورة ضد بشير الثالث، بينما ناصرت فرنسا الموارنة، بالإضافة إلى سوء تصرف الأمير بشير الثالث السياسية الذي أتاح الفرصة للتدخل في شؤون البلاد الداخلية، وفقد رصيده الشعبـــي لدى الدروز الذين كانوا يرغبون بخلعه بالقوة.(٢)

حيث قام زعماء الدروز من الجنبلاطيين، والنكديين، والمعاديين بالاشتراك جميعاً في مهاجمة المسيحيين في دير القمر وأحرقوا البلدة في ١٤ تشرين الأول ١٨٤١ م، ولم تلبث الفتنة أن امتدت وشملت بعض القرى في الشوف ومنطقة الغرب (جزين – عبيه – الشويفات – الحدث – بعبدا) ولولا تدخل الدولة العثمانية لامتدت الثورة أكثر من ذلك وقد اسفرت عن مقتل أكثر من ثلاثمائة رجل من الفريقين وخراب كبير للممتلكات، وأدت إلى فقدان الثقة بين الدروز والمسيحيين، وعلى أثر ذلك أقدم الباب العالي على عزل الأمير بشير الثالث أوائل كانون الثاني ١٨٤٢ م من ولايته ونقله إلى الآستانة.

نظام القائمقامتين:

هو نظام عثماني – أوربي – توافقت عليه السلطة العثمانية مع الدول الأوربية عندما طرحها الأمير مترنيخ تريث (صارم أفندي) بقبوله ثم ناور بمعارضته وعندما تمسكت به الدول الأوربية أعلن قبوله به.

وأرسل مذكرة للسفراء الأوربيين في أواخر سنة ١٨٤٢ م لاختبار شخصين من غير الشهابيين أحدهما درزي والآخر ماروني وتنصيبهما قائمقامين على كل من الدروز والنصارى.

باشر (أسعد باشا) والي تنفيذ عملية اختبار القائم مقامتين وقد اتجهت أنظاره نحو الأمراء اللمعيين لعدة أسباب:

سياسية واجتماعية كونهم يحتلون المرتبة الثانية بين الأسر المسيحية بعد الشهابيين كان أبرز الأمراء اللمعيين آنذاك الأمير (حيدر إسماعيل) فاستدعاه ليكون حاكماً على القائمقامية النصرانية – أما القائمقامية الدروز فالكولونيل البريطاني (روز)اقترح على أسعد باشا تعيين الشيخ سعيد جنبلاط قائمقاماً. لكن أسعد باشا تردد مبتعداً عن إعادة تجربة الأمير بشير قاسم ملحم (بشير الثالث) الذي أتى به الإنكليز حاكماً سنة ١٨٤٠. وكان الدروز ذا شقين جنبلاطيين، ويزبكيين، وإن تعين أحد الجنبلاطيين حاكماً سينتج عنه انقسام الدروز وسيدفع باليزبكيين للتقارب مع المسيحيين، فاقترح أسعد باشا أحد مشايخ آل علم الدين قائمقاماً على الدروز. لكن قناصل الدول الأوربية عارضوا مجيء حاكم لا ينتمي للأسر الكبرى خشية عدم خضوع الدروز له، فسرعان ما وقع اختيار أسعد باشا على الأمير (أحمد أرسلان) حاكماً على القائم مقامية الدرزية ثم استدعى قناصل الدول الأوربية، وابلغهم بواسطة عمر باشا قرار تعيين الأميرين حيدر أبي اللمع، وأحمد أرسلان قائمقامين.

استبدل أسعد باشا كلمة النصارى بالموارنة بسبب اعتراض الروم الأرثوذكس وطلبوا تعيين قائم مقام منهم مؤيدين من قنصل روسي.

وبموجبه كانت حدود قائمقامية النصارى تمتد من مشارف طرابلس حتى طريق الشام – بيروت أما قائمقامية الدروز فتمتد من طريق الشام حتى صيدا.

واستثنت دير القمر التي تسكنها غالبية مسيحية من القائم مقامتين لأنها محاطة بالقرى الدرزية وأن يكون لها استقلال ذاتي ويحكمها وكيلان ماروني ودرزي من سكانها يرجع كل منهما إلى قائمقامه (أيلول ١٨٤٣م)وفي ٤– آذار – ١٨٤٣م، احتج ممثلو الدول الأوربية لدى الباب العالي عندما أقدم أسعد باشا على سلخ قضاء جبيل الذي تسكنه عدة طوائف عن قائمقامية النصارى، وجعله تابعاً لوالي بيروت باعتباره غير تابع للأمير بشير إلا على سبيل التلزيم من أيالة طرابلس وبعد مفاوضات طويلة أعيد القضاء وملحقاته إلى القائمقامية النصرانية على أن الخلاف سرعان ما اشتد على مسألة ولاء وتبعية النصارى والدروز حيثما كانوا في جبل لبنان.

تتلخص نظرية قنصل فرنسا (بوجا) والأمير حيدر، والنصارى في أن جميع النصارى يجب أن يتبعوا سلطة القائم مقام النصراني حيثما وجدوا وبالمقابل يجب أن يكون كل درزي أنى وجد تابعاً لسلطة قائمقام الدروز، أما نظرية الكولونيل روز البريطاني والدروز فهي أن ينقسم الجبل إلى قسمين جغرافيين، يحكم القسم الجنوبي منهما مباشرة قائمقام درزي وبانتظار تعليمات الآستانة، وضع أسعد باشا تحت سلطته المباشرة جميع النصارى في قائمقامية الدروز، وجميع الدروز في قائمقامية النصارى، وهذه التسوية لم يكتب لها النجاح لأن الطائفتين كانتا مختلطتين في كثير من أنحاء الجبل.

رفض النصارى في المناطق المختلفة أن يخضعوا للنظام الجديد فالقائمقام المسيحي ما أنفك بضغط من البطريرك الماروني يوسف حبيش يطالب بخضوع النصارى في

المناطق المختلفة لسلطته، وأخفق خلال الاجتماع الذي عقد في كانون الأول سنة ١٨٤٤ بحضور أسعد باشا والمطران طوبيا عون والمندوبين النصارى في المناطق المختلفة في الحصول على وعد بإخراج النصارى في هذه المناطق من سلطة القائمقام الدرزي.

وأصرَّ أسعد باشا على وجوب خضوع المسيحيين في المناطق المختلطة لسلطة القائمقام الدرزي كما يخضع أيضاً الوكلاء المسيحيون المعينون للسهر على مصالح طوائفهم في القائمقامية الدرزية لسلطة القائمقامية النصرانية يخضعون لسلطة القائمقام المسيحي، وحددت مدة أربعة أيام لتعيين الوكلاء لكن المسيحيين رفضوا هذا الحل وهددوا بالهجرة على الخضوع للسلطة الدرزية.

وإزاء تأزم الوضع السياسي رأت الكنيسة المارونية حلين:

- توحيد القائمقامية في كيان موحد.
- إعادة الأمير بشير المنفي في الأستانة إلى الحكم وبتشجيع من فرنسا. لكن الكولونيل روز رفض العرض بحجة رفض العثمانيين له.

وكان رد الباب العالي أن أوفد إلى لبنان أحد كبار العسكريين وهو خليل باشا قائد الأسطول ثم أفهموا فرنسا والنمسا أنهم لن يمانعوا في إعادة الإمارة الشهابية لكن ما إن وصل خليل باشا بيروت في حزيران ١٨٤٤ حتى أعلن أنه لن ينظر في أية عرائض تؤيد الشهابين ووجد خليل باشا حلاً للمشكلة بأنه يعين في كل منطقة متعددة الطوائف وكيلان أحدهما مسيحي وآخر درزي تختاره طائفته بموافقة القائمقام ويكون كلٌّ منهما مسؤولاً أمام قائمقام طائفته فيمارس السلطة القضائية البدائية على أبنائها ويجبي الضرائب باسم مشايخ الإقطاع، ويشترك الوكلاء بالنظر في القضايا التي تمس الدروز والنصارى.

وتستثنى بلدة دير القمر من هذه التدابير ويكون لها وكيلان مسيحي ودرزي خاصان بها، ولا يحق لأحد القائمقامين أن يجعل مقره في البلدة أو يقيم له ممثلاً فيها، وقضى خليل باشا أن يدفع الدروز للنصارى ثلاثة آلاف وخمسمائة كيس من الدراهم تعويضاً عن خسائرهم في ١٨٤١ وكانت قضية جبيل قد سويت و الحقت بقائمقامية النصارى كما رأينا سابقاً، ووضع خليل باشا منطقة بعبدا تحت سلطة حيدر أبي اللمع إذ كانت آهلة كلها تقريباً بالنصارى وكانت من قبل جزء من قائمقام الدروز، ورأى الدروز ومن ورائهم الكولونيل روز أن تدابير خليل باشا إضعافاً لنفوذهم ذلك أن الوكيل انتزع لنفسه في المناطق المختلطة سلطة أهل الإقطاع كما شاركهم في جباية الضرائب. فأصر هؤلاء على إلغاء الأنظمة الجديدة والعودة إلى تنفيذ القرارات التي اتخذت في ٧ كانون الأول ١٨٤٢ ورفضوا دفع التعويض للنصارى.

دعا خليل باشا زعماء الدروز في ٢شباط ١٨٤٥الى اجتماع عام في المختارة قاعدة آل جنبلاط حضره مشايخ آل جنبلاط وممثلون عن كبار قادة الحزب اليزبكي، فتجمهر عدد كبير من النصارى في منطقة بعبدا على رأسهم الأمراء الشهابيون وجرى تنظيم قوات النصارى بقيادة الذين اشتركوا في اضطرابات ١٨٤٠ ــ ١٨٤١ أمثال أبو سمرا غانم يوسف الشنتيري وقلق القنصلان الفرنسي والنمساوي للاجتماع الدرزي في المختارة وما قد يسفر عنه من نتائج ثم أرسل خليل باشا حملة عسكرية لمنع وقوع صدام مسلح بين الفريقين وهرع أسعد باشا بنفسه إلى دير القمر لتطمين النصارى وتحذير الدروز وبدا للمراقبين أن مساعي أسعد باشا لم تلق صدى في الأستانة وعند الكولونيل روز بالنظر إلى انحيازه إلى النصارى، وسرعان ما استبدل أسعد باشا على ولاية صيدا، بوجيه باشا باشا وقبل وصول الأخير إلى بيروت ٩ نيسان وقعت أولى المناوشات بين النصارى والدروز وبدأت حوادث الاغتيال والثأر، واتضح لخليل باشا وهو يستعد للرحيل في ٢ أيار أن مهمته فشلت ولم يكن قد غادر لبنان حتى اندلعت الحرب الأهلية في البلاد.

كان النصارى هم البادئون وقد رفض الروم الأرثوذكس بتأثير كهنتهم والقنصل الروسي أن ينتظموا جبهة واحدة مع الموارنة ومالوا إلى مؤازرة الدروز، وكان مشايخ كسروان وشمال لبنان يغادرون من سلطة حيدر أبي اللمع، لذا رفضوا الانضمام له، وجعل (وجيه باشا) مقره على طريق بيروت، دمشق قريباً من بلدة عاليه. وراح يراقب القتال وكان يتحرك لعرقلة النصارى، وسمح للدروز أن يطوفوا بالبلاد بحرية، ورغم ذلك بدأ النصارى الهجوم على الشوف وكان أهالي جزين أول من تحرك، فزحفوا بقيادة (أبو سمرا غانم) على المختارة وأحرقوا في طريقهم ما يقرب أربع عشرة قرية درزية، ووصل نصارى جزين إلى المختارة. فلم يقاوم الدروز غير أن الزحف توقف بسبب نيران البنادق الذي أطلقته فرقة عسكرية عثمانية، وكاد نصارى الشحار وبعبدا بقيادة أمراء شهابيين ينهزمون في معركة (أعبية) واضطر الأمراء للاستسلام فاستلمهم الكولونيل روز وقادهم إلى بيروت، ودار قتال في أماكن مختلفة من المتن، وهب نصارى هذه المنطقة يؤازرهم إخوانهم في زحلة فأحرقوا عدداً من القرى الدرزية، وأجبروا الدروز أيضاً على التراجع إلى الوراء ولكن تمت مساعدته من قبل فرقة من الجنود العثمانيين أرسلها وجيه باشا ومرة أخرى وجد الدروز أنفسهم في موقف الدفاع. (١١)

حيث طرد النصارى قواتهم من المتن ولحقوا بهم لكن العثمانيين أطلقوا النار على النصارى وحالوا بينهم وبين الدروز، وفي نهاية شهر أيار تدخل الباشا وقلب ميزان القوى فاستطاع الدروز بمؤازرة الجنود العثمانيين أن يدحروا النصارى.

ودعا زعماء النصارى والدروز إلى الاجتماع في بيروت في ٢ حزيران، ووصل زعماء الدروز إلى بيروت. فاستقبلهم القنصلان البريطاني والروسي بترحاب وأصر الكولونيل روز على نفي كبار الأمراء الشهابيين. أما قنصل فرنسا فأشار على حيدر أبو اللمع أن يطيب خواطر خصومه مشايخ كسروان وشمال لبنان، بالتنازل لهم عن حق إدارة شؤون مناطقهم، وطالب الأستانة استدعاء وجيه باشا المتحيز للدروز وإعادة

أسعد باشا، وفيما كان زعماء النصارى والدروز في بيروت لا يزالون على خلاف[١]، بلغ أوربا خبر الحوادث في لبنان اجتمعت مجالسها النيابية بالأمراء وطرحت مسالة لبنان على البرلمان الفرنسي في جلسة ١٥ تموز عام ١٨٤٥ الذي طالب بإعادة إمارة لبنان إلى ما كانت عليه وإلغاء اتفاقية٧ كانون الأول سنة ١٨٤٤ (نظام القائمقاميتين) ولكنه لم يجد التأييد الكافي من سائر الدول، واستفاد الباب العالي من تفرق كلمة الأوربيين، فتبرأ مما حصل في لبنان ملقياً التبعية على المأمورين في سوريا ثم انتدب السلطان وزير خارجيته شكيب أفندي موفداً خاصاً لسوريا لإجراء النظام لتسكين الحال.[١٢]

وما كاد يصل شكيب أفندي إلى سوريا حتى تقدم إليه قنصل فرنسا المسيو بوجاد بمطالب دولته في قضية الأديرة الفرنسية في عبيه وصليما ومقتل الراهب شارل دي لوريث. أما غرض فرنسا من ذلك فهو المحافظة على هيبتها في الشرق، ولكن شكيب أفندي باشر فور وصوله بطرد جميع الأوربيين تجاراً ومرسلين وغيرهم من الجبل واستقدم إليه نامق باشا مشير الفيلق العربي مع ألف فارس و أظهر لامبالاة بالأوربيين ثم قبض على حمود النكدي المتهم بقتل الراهب الكبوشي في عبيه وحاكمه لكنه برئ كذلك، استدعى جميع زعماء الدروز والنصارى إلى دير القمر وأوعز إلى وجيه باشا أن يلقي بالأمير محمد أرسلان والأمير حيدر أبو اللمع في السجن وعند وصوله دير القمر أودع زعماء النصارى والدروز في السجن فحرم اللبنانيون من رؤسائهم الذين يقودونهم للحرب وباشر شكيب أفندي بجمع السلاح ثم فرق العسكر النظامي على الأعمال فأثقلوا على الآهلين ونهبوا بعض المنازل بحجة التفتيش عن السلاح وأهانوا الكهنة، ثم عزل شكيب أفندي وجيه باشا تنفيذاً لأوامر السلطان واستبدل الأمير أحمد أرسلان بأخيه الأمير على قائمقامية الدروز وأرسل حمود النكدي إلى الأستانة حيث لاقى جزاء أفعاله، ثم قسم البلاد بين القائمقاميتين جاعلاً طريق الشام فاصلاً بينهما كالسابق، وأعطى الأمير أمين نصف ساحل بيروت فلم يرضى الأمير حيدر والسكان،

وتدخل القناصل في ذلك فقسم الساحل بين القائمقاميتين وجعل طريق دير القمر فاصل بينهما، ثم وضع الوزير يده على قريتي الشياح ووادي شحرور واتبعهما بولاية بيروت ثم شرع في سن نظامه المعروف "بنظام شكيب أفندي" وكان قد شرع قبل سن النظام بانشاء مجلسين في كل قائمقامية مجلس فكتب في آخر تشرين الأول سنة ١٨٤٥ إلى القائمقامين الدرزي والماروني يقول "إنه أصدر" فرمان شاهاني" يؤذن بتأليف مجلس لدى كل قائمقام على مثال المجالس الموجودة في سائر أنحاء السلطنة لمعاونته على إجراء وظائفه وللنظر في دعاوي الآهلين الخاضعين للقائمقاميتين الخاصة والعامة وفقاً للعادات القديمة المكانية وللأصول المذهبية والحكم بها وفقاً لنيات جلالة سلطاننا الأعظم المؤسسة على العدالة والإنصاف.

"كل مجلس من المجلسين المشكلين في جبل لبنان هو تحت مراقبة قائمقامه الخاص وهو رئيسه الطبيعي ولما كانت مهام إدارة شؤون الضبط والربط في جبل لبنان كثيراً ما تقتضي غياب القائمقام فينبغي:

١ - أن يختار من بين معتبري الجبل الأكثر وجاهة شخص يعهد إليه مدة غيابه برئاسة المجلس ومناظرته ونسبته وقت وجود القائمقام في المجلس نسبة سائر الأعضاء.

٢ - لما كان أهالي جبل لبنان مقسومين إلى طوائف عديدة. يجب أن تتمتع جميعها بنعم الحضرة السلطانية فينتخب أعضاء المجلس من الأعيان الأكثر جدارة في كل طائفة، ولكل طائفة أن تختار عضواً خلا القضاة المنتقين من جميع الطوائف فيحضرون الجلسات مع سائر الأعضاء، وقد أوكل إليهم النظر في الدعاوى الخاصة بأبناء مذهبهم وفصلها وفقاً لعقيدتهم الدينية، وعليه يتألف كل مجلس من وكيل قائمقام وقاض ومستشار مسلمين، وقاض ومستشار درزيين، وقاضٍ ومستشار مارونيين، وقاض ومستشار أرثوذكسيين، وقاض ومستشار الروم الكاثوليك، ومستشار شيعي فقط لأن قاضي الإسلام يقضي في الطائفتين معاً.

وهؤلاء القضاة والمستشارين ينتخبون ويعينون بمعرفة مطارنة وعقال كلتا الطائفتين وبعد نهاية انتخابهم يجب عليهم أن يذهب كل منهم إلى رئيسه وهو يعين لهم مكان اجتماعهم، وإذا ثبت على أحد الأعضاء أنه سلك سلوكاً مخالفاً للمهمة الموكلة إليه وجب طرده من المجلس والمبادرة إلى تعيين عضو جديد بأن ينتقي من أهالي المحلات الداخلية في حكم قائمقام المجلس المراد انتخابه فيه

ويجب أن تتوفر الشروط الثلاثة الآتية:

١ - أن لا يكون قد استخدم عند المعتمدين الأجانب أو تظلل في الحماية الأجنبية وأن لا يكون من سكان القرى الخارجية عند دائرة الإدارة الجبلية وينتخب بواسطة الأساقفة والعقال بمناظرة قائمقامه ورأيه.

٢ - يجب أن تجتمع عليهم آراء الجميع.

٣ - بعد تمام الانتخاب يوقع القائمقام الأوراق ويرسلها إلى دولة صيدا فيدقق فيها ليتأكد أن الشخص المنتخب جامعاً للشروط المحررة أعلاه فيوافق على تعيينه نهائياً"

نظام شكيب أفندي:

البند الأول:

إن أهم وظيفة للمجلسين الاعتماد بتوزيع الجبل كل سنة بكمال العدد والحق، أما تحصيله فموكول إلى القائمقامين وأصحاب المقاطعات والوكلاء طبقاً للأصول المقررة قبلاً وبموجب النظام.

البند الثاني:

أما مأمورية المجلسين المذكورين في الدرجة الثانية فهي رؤية مجموعة الدعاوي والخلافات التي يجب فصلها والحكم بها وفقاً للمادة المكانية وطبقاً للعدالة والإنصاف لما كان يقتضى عادة أن يستقل قاضي كل طائفة ومستشارها برؤية دعاوي أبناء

مذهبها بيد أنه على قضاة سائر الطوائف ومستشاريها أن يحضروا المجلس وإن كانت الدعوى لا تتعلق بأبناء مذهبهم وينبغي أن يصغوا لسماع الدعاوى التي يراها وصفائهم ويفصلوها، ومن ثمة على كل مجلس أن يسير في الدعاوي التي من خصائصه وفقاً لما هو مشروع في البند الثالث.

البند الثالث:

١ - على القائمقام أن يطالع عريضة المدعي فور رفعها إليه منه أو من وكيله حتى إذا رأى وجوباً للمرافعة والمحاكمة يأمر بإحضار المدعى عليه وهو يحيل العريضة إلى قاضي المدعي ومستشاره.

٢- إذا كان المدعي والمدعى عليه من مذهب واحد، فتسوية الدعوى وفصلها من خصائص قاضي طائفتهما ومستشارها، أما إذا كان من طائفتين مختلفتين فعلى القائمقام أن يحيل تلك الدعوى إلى قضاة الفريقين ومستشاريهما.

٣ - إذا تباينت آراء قاضي الطائفتين في الدعوى فللقائمقام وبغيابه لوكيله المتوجب عليه ترؤس المجلس والاشتراك مع قضاة ومستشاري كل طائفة رؤية الدعاوي - أن يبذل جهده للتوفيق بينهما حتى إذا أحبطت مساعيه وأوجب الأمر إلى إضافة حاكم ثالث فللقاضيين المذكورين أن يتفقا على انتقاله من وصفائهما ويطلب إلى القائمقام تعيينه، وعلى فرض عدم اتفاقهما على اختيار الحكم الثالث فالقائمقام يستقبل بتعيينه بناء على طلبهما على شرط أن يكون من أعضاء المجلس.[١٦]

٤ - إذا رأى أحد الفريقين المتداعيين أنه مظلوم من الحكم الذي حكم به قاضيه أن يشكو أمره إلى قائمقامة وإذا خيل إليه أن الشاكي محق توجب عليه أن يأمر القضاة ذاتهم أن يعيدوا النظر ثانية في تلك الدعوى بحضوره وله أن يضيف إليهم واحداً أو اثنين أو ثلاثة من أعضاء المجلس حسب أهمية المسألة.

٥ - إذا طرأت مسائل خطيرة فعلى القائمقام أن يدعو جميع الأعضاء للاجتماع والتفاوض فيها و تسويتها بكمال الدقة والاعتناء.

٦ - على القائمقام أن يدعو جميع المجلس للمذاكرة كلما اقتضت ذلك مسألة لها علاقة بتوزيع مناطق الجبل أو استفتاء الضرائب، لأنه و إن كانت هذه المسائل ظاهرها محلي، فهي ذات علاقة بالمصالح بشمولها جميع أنحاء الجبل. لذلك لا يكون القرار عادلاً إلا إذا اشترك فيه جميع الأعضاء، بيد أنه متى اقتضى تسوية مسائل هامة لها علاقة بمصالح الأهلين العامة اذ كانت من المسائل المذكورة آنفاً وكان أعضاء المجلس قد انتدبوا جميعه فليس لقاضي كل طائفة أو مستشارها سوى صوت واحد في الاقتراع بحيث يتوجب عليها أن يكونا متفقين في إبداء رأيهما، وعليه فعدد الأصوات لا يكون بنسبة عدد الأشخاص الموجودين في المجلس بل بنسبة الطوائف الممثلة فيه.

٧ - للقاضي أن يستقل بالحكم في المسائل الحقوقية وليس للمستشار أن يفسخ مضبطته إذا خالفه في الرأي، أما في المسائل الإدارية فبعكس ذلك أي أن رأي المستشار يرجح على رأي القاضي وليس لأعضاء كل طائفة في المجلس سماع شكوى أحد من أبناء مذهبهم على أية صورة كانت لا منفردين ولا منضمين إلى غيرهم من تلقاء ذاتهم إلا إذا أحال إليهم القائمقام تلك الشكوى.(١٧) كما أن أعضاء المجلس لا يمكنهم رؤية دعوى إلا بناءً على أمر القائمقام، كذلك لا يستطيع هذا الأخير أن يستقل بإعطاء أوامر استبدادية في المسائل التي تطرح على أبحاث أعضاء المجلس أخذاً لرأيهم فيها. ولما كان الأشخاص المعهود إليهم ضبط الأمن هم قيد أوامر القائمقام مباشرة، فله وحده الحق بتنفيذ أحكام المجلس وما يستقر عليه رأياً على الوجه المبسوط آنفاً ولا يمكن تنفيذ أمر أو حكم غير موقع بخاتم القضاة الذين قضوا بهذا الحكم وخال من موافقة القائمقام.

٨ - إذا كان المتداعيان ليسا تابعين لقائمقامية واحدة يجري العمل وفقاً لما هو مذكور أدناه... متى رفع المدعي عريضة إلى القائمقام فهذا يحولها بالاتفاق مع قاضي مذهب المدعى عليه وبعد الحكم بالدعوى وفقاً للقواعد الجارية في مجلس القائمقام المذكور وموافقته عليه كما اشترط المضبطة إلى قائمقام المدعي حتى إذا لم يرضَ بالحكم حق له أن يرفع الأمر إلى القائمقام. و هذا يحق له أن يعيد رؤية الدعوى أمام مجلسه، فإذا أثبت الحكم الأول أصبح مرعي الإجراء وإذا ما نقضه أحيلت القضية إلى دولة مشير الإيالة حتى إذا اقتضى الأمر فكل قائمقام يرسل من قبله القاضي الذي سمع تلك الدعوى و الحكم الذي يقضي به دولته يكون نهائياً غير قابل للاستئناف.

٩ - يحققَ عن الدعاوي الجنائية أولاً في المجلس الذي وقعت الجناية ضمن دائرة اختصاصه و يحكم بها وفقاً للقاعدة الموضوعة، ولكن إذا كان تنفيذ الحكم هو فوق سلطة القائمقام فعليه أن يرسل جميع الأوراق إلى مشير الايالة فيعيد النظر فيها ثم بإجراء ما يراه مناسباً.(١٨)

١٠ - إن المضابط والقرارات التي يصير تنظيمها فيما يختص بالجبل يجب أن تكون موقعة من جميع الأعضاء ومصدق عليها من القائمقام وموقعة بختمه، لكن يقوم قاضيها بتوقيع هذه المضابط بحجة أنها مرتبطة بمصالح طائفتهما الموكول إليها النيابة عنها، فعلى القائمقام وسائر الأعضاء أن يجتهدوا بإقناعهما بالانضمام إلى رأيهم حتى إذا عجزوا تجاه المسألة أحيلت إلى مشير الولاية فيقطع فيها.

البند الرابع:

لا يحق للمجلس أن يخاطب باسمهما في شؤون وظيفتهما أياً كان القائمقام الخاص ومحظور عليهما أن يتدخلا في الدعاوي مهما كان بدون أمره، كما أنه لا يمكن تنفيذ قرار لَمْ يَوَافِقْ عليه القائمقام ويوقع بختمه. وله أن يستقل بإحضار الأشخاص الذين

يطلب إليه المجلس إحضارهم ويتوجب عليه أن يسرع باتخاذ التدابير وإذا كانت متفرعات الدعوى والقضايا العديدة التي كان كثيراً ما ترافق أدوارها تقضي بلزوم توجيه قاضٍ إلى محل الواقعة ليجري التحقيق والتحري. فعليه إذا ما كان النظر في تلك الدعوى من صلاحيته أن يستأذن القائمقام في الذهاب بذاته أو بإيفاد وكيل عنه، وإذا اقتضى الأمر أن يرافقه بعض الفرسان يطلب ذلك إليه، ولما كانت مصلحة المجلس أهمها واقع بتوزيع التكاليف بحسب اقتدار كل إنسان وفقاً لإرادة جلالة السلطان المعظم فستوزع و تستوفي على الوجه الآتي :

١ – ألا يحدث توزيعها أدنى شكوى محقة من قبل الأهالي.

٢ – أن تستوفي في وقتها على شرط ألا تكون داعية إلى ظلم المكلف والإضرار به وتحميله مصاريف باهظة.

٣ – ألا يأخذ الأشخاص الموكول إليهم التحصيل زيادة عن الويركو "الضريبة المقطوع، وبلوغاً إلى هذه الغاية يجب أن يعقد المجلس في كل سنة عند حلول أجل التحصيل جلسة يحضرها جميع أعضائه برئاسة القائمقام بعد مذاكرة عمومية يصير تنظيم دفتر واحد لمجموع ويركو كل مقاطعة وتفصيل مقدار الويركو المتوجب على كل قرية أو كل دير بمفرده، ويوقع أعضاء المجلس جميعه هذا الدفتر ويوافق عليه القائمقام ويختم وإذ ذاك يتخذ أساساً لوضع لوائح كل قرية بمفردها، وتوقع أيضاً من الأعضاء والقائمقام وترسل إلى مأموري التحصيل وأصحاب الإقطاعات الموكل إليهم استيفاء التكاليف إذ إنه من الجلي أن النظام الموضوع يفوض إلى أصحاب الإقطاعات القيام بهذه المأمورية الهامة منعاً لكل مظلمة وتعد الأهالي في استيفائها، وعليه لا يمكن استحصال الويركو واستيفائه أبرز هذه اللوائح الإفرادية.(١٩)

البند الخامس:

حيث إنه من العادة المرعية في البلاد إرسال معتمدين باسم "حوالية" إلى القرى لأجل تحصيل الويركو، وكان لجميع الطوائف الحق في أن تعامل باللطف واللين وتكون الحوالية المراد إرسالهم من أبناء مذهب أهالي القرية المرسلين إليهم أن يرسل مسلم للمسلمين وماروني للمارونية ورومي إلى الروم.

البند السادس:

لما كان من أعضاء المجلسين المذكورين إيقاف كل جهدهم على رؤية المسائل التي تحال إليهم و كانت إقامتهم المستمرة لدى قائمقامهم الخاص تضطرهم إلى ترك وسائل كسب معاشهم، فيخصص لكل منهم راتب شهري يحسب من يوم استلامه مقاليد العمل في المجلس و يدفع له فور وصول الأمر السلطاني أما هذه الرواتب فتوزع كما يلي: ٦٠٠ قرش مشاهرة لكل نائب قائمقام، ٥٠٠ قرش مشاهرة لكل عضو، ٤٥٠ قرش مشاهرة لكل من كتاب أسرار المجلس. و بناء عليه يحظر على أعضاء المجلس أن يأخذوا من أصحاب الدعاوى هدية أو غيرها مهما كانت.

وكان الذي فعله شكيب أفندي ثبت نظام القائمقامتين الذي ظل قائماً حتى عام ١٨٦٠ هدأت أحوال البلاد بعد الترتيبات التي وصفها شكيب أفندي ١٨٤٥، لكن رجال الدين الموارنة عملوا على إنشاء جمعيات قروية عرفت باسم الأخويات وذلك لإيجاد نوع من الحرس الشعبي.(٢٠)

فما أن عاد شكيب أفندي إلى الأستانة حتى لجا مشايخ النصارى والدروز إلى طرقهم القديمة ومقاومة كل تغيير إداري يهدد سلطتهم بالخطر بتشجيع من القنصليتين البريطانية والروسية في بيروت، و بدأت الانقسامات بين صفوف النصارى بعد وفاة البطريرك يوسف حبيش عام ١٨٤٥ فإن خلفه البطريرك (يوسف الخازن) لم يتمكن

من وضع حد لتزايد الانشقاق بين الفلاحين الموارنة ومشايخ الإقطاع، أضف إلى ذلك أن حيدر أبي اللمع كان ممسكاً بزمام الحالة في المناطق المارونية لكن البطريرك والقائمقام كليهما توفيا في ١٨٤٥ فخلف الأول بولس مسعد، الشديد التعصب لدينه ومبغض لرجال الإقطاع فبانتخابه انحاز الكهنوت الماروني إلى جانب الفلاحين ضد الإقطاع، أما خلافةُ حيدر أبي اللمع فنتجت عن انقسامات بينَ أنصار ابن أخيه بشير عساف أبي اللمع وأنصار بشير أحمد أبي اللمع (نسيبه) وتعيين بشير عساف قائمقام مؤقت عند وفاة عمه في ١١ أيار.

ثم اتفق وفيق باشا وقنصلا بريطانيا وفرنسا على استبداله ببشير أحمد وقد ولد درزياً فرفض أنصار بشير عساف الاعتراف به، وهكذا انقسم النصارى إلى عسافيين وأحمديين.

أما الدروز: فانشق الجنبلاطيون إلى فريقين الأول يوالي نعمان جنبلاط والآخر يوالي أخاه سعيداً، ثم وطد سعيد مكانته كأقوى زعيم درزي مما أقلق نجاحه هذا قادة الحزب اليزبكي فأخذوا يلتفون حول ناصيف أبو النكد. وَ لَمْ يَقِلْ قلق الباشا والقنصل الفرنسي في بيروت عن قلق اليزبكيين فأغريا نعمان جنبلاط على استعادة زعامة الأسرة من أخيه سعيد، فلجأ نعمان إلى القنصل الفرنسي ١٨٤٦ لتأييده بالعطف فتنازل نعمان عن دعواه تاركاً أخاه سعيداً أقوى مما مضى.

ورأى العثمانيون أن لا سبيل لهم إلى مقاومة الجنبلاطيين إلا بإثارة قائمقام الدروز على سعيد جنبلاط فرفض أمين أرسلان في ١٨٤٩ الاتفاق الذي أقره عدد من مشايخ الدروز في كانون الأول ١٨٤٢ الذي قضى بأن لا يقوم القائمقام بأي عمل خطير دون موافقتهم وهنا ثارت ثائرة سعيد جنبلاط، فكثرت أعمال العصيان في مناطقهم بين ١٨٤٩–١٨٥٢، في الوقت نفسه وحد موقف أمين أرسلان بين الجنبلاطيين واليزبكيين.[٢١]

وبلغ توتر العلاقات بين الدروز والعثمانيين ذروته في ١٨٥٢ دعا الباب العالي الدروز على الانخراط في سلك الجندية، فسارعوا إلى وادي التيم و حوران وأعلنوا العصيان، فسعى العثمانيون إلى تحريض نصارى لبنان ضدهم غير أن القنصل الفرنسي في بيروت تدخل داعياً النصارى لعدم التورط، وبعد ١٨٥٢ أجرى العثمانيون تعديلاً في سياستهم نحو الدروز وراحوا ينشدون صداقة الدروز محتفظين بأمين أرسلان قائمقاماً ومؤيدين قضية سعيد جنبلاط وظهرت أول دلائل الصداقة الدرزية العثمانية الجديدة في ١٨٥٣ حين تألفت فرقة عسكرية درزية من ثلاثة آلاف رجل للاشتراك في حرب القرم، وبعد أربع سنوات أي في ١٨٥٧ عمل تعيين خورشيد باشا في بيروت على زيادة التقارب بينهما.

حكومة خورشيد باشا:

بلغ الاضطراب في لبنان ذروته بين عامي ١٨٥٨ – ١٨٦٠ حيث بدأت ثورة الفلاحين الموارنة في كسروان ١٨٥٤ وقامت في ١٨٥٨ حين خلف بشير أحمد أبو اللمع نسيبه حيدر في قائمقامية النصارى، وأقلق رجال الدين عدم تعلقه بالكنيسة فرفض آل الخازن أسياد كسروان الاعتراف للمعيين بالتفوق. فالتفت القائمقام إلى الاكليروس الماروني بدعم القنصلين الفرنسي والنمساوي، فانقلبت عليه القنصلية البريطانية، وأيدت منافسة بشير عساف أبي اللمع، وكذلك تحالف عليه مشايخ آل الخازن وآل حبيش، وأجبر في ١٨٥٥ – ١٨٥٦ على اعتقال بعض المعارضين، ثم تمرد أهالي زحلة على القائمقام في ١٨٥٧ فانتخبوا شيخ شباب مجلس اختيارية من ستة أعضاء لإدارة شؤون البلدة، واضطر القائمقام أن يذهب بنفسه إلى زحلة ليتمكن من السيطرة، ثم بدأت حركات التمرد في غزير حيث أعلن الأهالي العصيان على المشايخ من آل حبيش وفي نهاية ١٨٥٧ تحالف مشايخ آل حبيش وآل الخازن مع بشير عساف وأنصاره ضد بشير أحمد، وفي آذار ١٨٥٨ أقام حزب الإقطاعيين تظاهرة في قرية (زوق الخراب) في كسروان وقدموا عرائض ضد القائمقام إلى

خورشيد باشا. ثم قامت تظاهرة ضد القائمقام في قرية المتن فهرب بشير احمد من برمانا ثم عاد إليها بأمر من خورشيد باشا وبحراسة الجنود العثمانيين في ربيع ١٨٥٨ عقد الفلاحون اجتماعاً في كسروان لم يدرك آل الخازن الهدف الحقيقي لهذا الاجتماع إلا حين هب الفلاحون للاحتجاج على أسيادهم وسعى آل الخازن إلى طلب التأييد من الأسر الإقطاعية المسيحية و آل جنبلاط و غيرهم وكان قائد الفلاحين صالح صغير قد استقال فاختار الفلاحون مكانه طانيوس شاهين واتخذت الثورة صفة جديدة ١٨٥٩ ولم يبذل خورشيد باشا أي جهد لإعادة النظام ومع مجيء الربيع كان آل الخازن جميعاً قد طردوا من كسروان.(٢٢)

لكن أواخر صيف ١٨٥٩ في أواخر شهر آب وقع شجار مسلح في المتن بين نصارى بيت مري ودروزها وقام الطرفان بتنظيم عصابات مسلحة ويقول الكولونيل تشارلز تشرشل وكان متيقناً من تأهب الدروز بتواطؤ مع خورشيد باشا، وأدى الصدام المسلح بين الطرفين إلى هروب النصارى إلى مواقع حصينة "دير القمر – زحلة – جزين" خوفاً من بطش الدروز.

في ٢٨ أيار كان خورشيد باشا قد غادر بيروت وتمركز في الحازمية على حدود بعبدا وما إن بلغت الفرقة المسلحة التي أرسلها طانيوس شاهين حتى ناشد خورشيد الأمراء الشهابيين أن يطلبوا انسحابها المفاجئ ووعدهم بالحماية غير أنه لم يفِ بوعده وما إن انسحب الكسروانيون حتى انقض الدروز على بعبدا. فصعد قناصل الدول الأوربية في ١ حزيران إلى الحازمية للاحتجاج لدى خورشيد باشا فطلب منهم منع الموازنة من إرسال المدد لإخوانهم و هو بدوره دعا الدروز إلى التوقف عن الاعتداء، لكن الدروز تابعوا اعتداءاتهم وكان النصارى أكثر عدداً وأقل تنظيماً وحل عامل الذعر بنصارى لبنان في ١٨٦٠ فأقعدهم عن المقاومة. سيطر الدروز على حاصبيا والشوف ووادي التيم والبقاع ودير القمر وبعبدا وأقيمت مذبحة في راشيا وبسقوط زحلة أصبح انتصار الدروز كاملاً. (٢٣)

لم يكن هناك أسباب مباشرة لنشوب فتنة ١٨٦٠ أو (مذابح الستين) التي بدأت من شهر نيسان حتى آخر شهر تموز بشجار صبيين ماروني ودرزي أدى إلى قتال دروز القرية والنصارى وكان الدروز يتصلون علناً بخورشيد باشا، ويقال أنهم تسلموا أسلحة بواسطته وانهالت عليهم مساعدات من حوران (٣ آلاف مقاتل بقيادة إسماعيل الأطرش) وبنشوب الثورة وجد النصارى القاطنين في القرى الدرزية أنهم بخطر فهربوا إلى بيروت ودمشق ولم يحاول الجيش التركي النظامي (باش بوزق) إيقاف القتال وكان قائد الحامية التركية في المدينة يعرض حمايته للنصارى مقابل تسليم الأسلحة ثم يقف يتفرج عليهم يذبحون فمصير دير القمر أن قتل فيها ٦٠٠ نسمة وفي جزين وجوارها ١,٥٠٠نسمة وفي حاصبيا قتل من الروم الأرثوذكس ألف نسمة وفي راشيا ٨٠٠ نسمة أما زحلة فهوجمت من قبل جماعات كبيرة من الحوارنة ومن بدو الصحراء ويقال أن الهجوم بتدبير من الكولونيل تشرشل. وأخيراً تحرك ضمير الدول العظمى فعقد مؤتمر دعت إليه فرنسا ضم بريطانيا والنمسا وبروسيا وروسيا وتركيا تقرر فيه التدخل لإيقاف المذابح، وقد أتفق على إيفاد قوة قوامها اثنا عشر ألفاً غير أن فرنسا وحدها نفذت القرار فأرسلت جيشاً قوامه سبعة آلاف محارب بقيادة الجنرال بوفور دوتبول.(٢٤)

ولكن فؤاد باشا وزير الخارجية كان قد سبقه إلى البلاد وعاقب الموظفين الأتراك الذين وقفوا على الحياد أو الذين تواطؤوا مع الثائرين في لبنان ودمشق، فعاد الهدوء إلى البلاد قبل وصول الفرنسيين، وشكل فؤاد باشا لجنة دولية مهمتها اكتشاف المسؤولية عن الفتنة وكان هو رئيس اللجنة وطالب اللورد دوفرن الانكليزي تخفيف الأحكام الصادرة بحق الدروز، وكان يماشيه ممثل النمسا وبروسيا، أما فرنسا فدافعت عن النصارى وروسيا وقفت إلى جانبها بتردد، وتسلمت اللجنة قائمة بأسماء ٤٦٠٠ متهم درزي فحكمت على ٤٨ بالإعدام و ١١ بالسجن المؤبد و١٣ بالحبس ٦ سنوات

و٣٤٩ بالحجر أو النفي المؤقت أما خورشيد باشا وبعض الموظفين أبعدوا إلى قبرص ومالطة أو إلى الأستانة.

واعترض فؤاد باشا على قرار اللجنة (أن يقوم الدروز دفع التعويضات للمتضررين والتي قدرت بـــــ ١,٢٥٠,٠٠٠ ليرة إنكليزية، وقد أعلن الباب العالي العفو العام باستثناء الذين هربوا إلى حوران)، ثم اقترحت فرنسا بإلغاء التقسيم إلى القائمقاميتين وإعادة البلاد إلى وحدتها يحكمها ماروني (يوسف بك كرم) غير أن الاقتراح لاقى مقاومة عنيفة من العثمانيين وفي التاسع من شهر حزيران ١٨٦١ وقع في استنبول على نظام جديد للحكم في لبنان يعرف بنظام ١٨٦١ الذي جرى تعديله بعد مضي ثلاث سنوات وظل معمولاً به حتى نشوب الحرب العالمية الأولى. ووقعت عليه كلاً من فرنسا وبريطانيا والنمسا وبروسيا وروسيا وتركيا. وبموجبه أعيد لبنان ولاية مستقلة (متصرفية) يحكمها متصرف مسيحي يعينه الباب العالي وتوافق عليه سائر الدول وفي شهر كانون الثاني من سنة ١٨٦١ أخذت بريطانيا تضغط على فرنسا لتسحب جيوشها من لبنان وقد قبلت أن تمدد الانسحاب إلى الرابع من حزيران ١٨٦١ وكان هذا النظام الجديد خاتمة عهد الفوضى والعنف وفاتحة عهد يعرف بعهد متصرفية جبل لبنان. (٢٥)

الإدارة والقضاء والنظام المالي الضرائبي في عهد القائمقاميتين:

آ ــ الإدارة:

مع قيام نظام القائمقاميتين جرت محاولة عقيمة لبناء الإدارة في كلا الشطرين وما أن بدأت الأوضاع العامة بالاستقرار في أعقاب الحرب الأهلية حتى بدأت عجلة التنظيمات الإدارية بالتحرك، وفي عام ١٨٤٥ أحدثت إصلاحات شكيب أفندي تبدلاً جذرياً في النظام الإداري السائد في الجبل. وكان من شأنها أن تضع حداً للسلطة المقاطعجية المطلقة التي كان يمارسها الأعيان داخل مقاطعاتهم. وشكلت خطوة على طريق إلغاء الامتيازات المقاطعجية. وتبوأ القائمقام في النظام الثاني رأس الهرم

السياسي والإداري. ولقد تحول الجبل في ظل نظام القائمقاميتين من إمارة إلى مجرد إدارة عثمانية محلية مجزأة يتولاها موظف يتمتع ببعض الصلاحيات ويتبع تسلسلياً لموظف أعلى منه يتولى الإدارة الإقليمية هو والي صيدا ويقوم بالرقابة على القائمقامتين وجاءت الوثبة الرسمية لنظام حكومة جبل لبنان الصادرة ١٨٥٣ لتحمل مجموعة التعليمات الإدارية التي اعتبرت أرقى ما توصلت إليه إدارة جبل لبنان بالرغم من الآراء القيمة الواردة في مضمون هذه الوثبة التاريخية سواء لجهة المشاركة في الرأي ودوام عمل الموظفين ودعوتهم للابتعاد عن الرشوة وتسريع إنجاز المعاملات فضلاً عن المهام المطلوبة من القائمقام باعتباره. (٢٩) رأس الهرم الإداري وصاحب السلطة التنفيذية الأولى في القائمقامية، تبقى هذه التعليمات بدائية وبسيطة وبالمقابل تشكل حجر الأساس في البناء الإداري والوثبة تعتبره بمنزلة الأسس الأولى لبناء الإدارة وكيفية تطورها وارتقائها تبعاً للتبدل السياسي.

في عهد المتصرفية تغير الشكل الإداري في جبل لبنان بحسب قانون الولايات ١٨٦٤ حيث ورد في المادة الأولى، إن إدارة لبنان يتولاها حاكم مسيحي ينصبه الباب العالي وله كل حقوق السلطة التنفيذية، وحفظ النظام والأمن العام في كل أنحاء الجبل، ويحصل الأموال الأميرية، وهو يولي القضاة وينفذ كل الأحكام التي تصدرها المحاكم. وفي المادة الثانية يكون لكل الجبل مجلس إدارة مركزي مؤلف من اثني عشرة عضواً مبعوثين من المديريات: من كسروان : ترسل عضواً مارونياً، من جزين: مارونياً ودرزياً ومسلماً، من المتن: مارونياً وروماً وأرثوذكساً ودرزياً ومتوالياً، من الشوف: درزياً، من الكورة : رومياً أرثوذكسياً، من زحلة : رومياً كاثوليكياً، ويكلف المجلس الإداري بتوزيع الأموال الأميرية وبمراقبة إدارة الداخل والخارج.

المادة الثالثة: يقسم الجبل إلى سبع مناطق إدارية يكون في كل من هذه المناطق مأموراً إدارياً يقيمه الحاكم ويختاره من الطائفة الغالبة في عدد سكانها أو أهمية أملاكها.

المادة الرابعة: تقسم المناطق الإدارية إلى مقاطعة يقيم مأمور يعينه الحاكم بناءً على اقتراح رئيس المنطقة. ويكون للقرية شيخ يختاره الأهالي يوليه الحاكم.

المادة الخامسة: الجميع متساوون أمام القانون وتلغى كل امتيازات الأعيان ولاسيما المقاطعجيين. [٣٠]

ب ـ القضاء:

مع قيام نظام القائمقامتين بدأت التنظيمات القضائية تشكل وجهاً من وجوه السلطات العامة القائمة في كل من القائمقاميتين. فقد قضت إصلاحات شكيب أفندي التي أدخلها على النظام الثناني الجديد بإنشاء مجلس لسماع الدعاوي مؤلف من اثني عشر عضواً يمثلون الطوائف الست الكبرى في جبل لبنان. وكان لكل طائفة عضوان، قاض ومستشار باستثناء الطائفة الشيعية التي مثلها في المجلس مستشار فقط، فكان قاضي الإسلام السنة يقضي في الطائفتين معاً.

وهؤلاء المستشارون ينتخبون ويعينون بمعرفة مطارنة وعقال الطوائف التي ينتسبون إليها وكان يرأس المجلس القائمقام، وعند غيابه وكيل القائمقام. وتألف كل مجلس في كل قائمقامية من: وكيل قائمقام، وقاض ومستشار مسلمين (سنيين) وقاض ومستشارين درزيين، وقاضٍ ومستشار مارونيين، وقاض ومستشار أرثوذكسيين، وقاض ومستشار من الروم الكاثوليك، ومستشار شيعي فقط.

وتمتع كل من المجلسين بصلاحيات إدارية وضرائبية وقضائية وكان القاضي ينظر في الدعاوي ويفصلها ويصدر حكمه فيها وفقاً للعادات القديمة المكانية، وللأصول المذهبية ويجب أن يعتمد القائمقام إلى مطالعة العريضة المقدمة إليه فإذا كان المدعي والمدعى عليه من مذهب واحد فعليه أن يحيل العريضة إلى قاضي تلك الطائفة ومستشارها ليستقلا برؤية دعاوي أبناء طائفتهما والحكم بها. أما إذا كانا مختلفي المذهب فعليه أن يحيلها إلى قاضيي الفريقين ومستشاريهما. وعند اختلاف قاضيي

الفريقين وعدم توصلهما إلى حل فعلى القائمقام أو نائبه الاشتراك مع مستشاري الطائفتين للتوفيق بينهما. (٢٦)

وفي حال رفض أحد الفريقين الحكم الصادر، فله أن يحتج عليه إلى القائمقام، وإذا قدر القائمقام صوابية الاحتجاج فله أن يأمر بإعادة المحاكمة وللقاضي أن يستقل بالمسألة الحقوقية بمعزل عن المستشار، أما في المسائل الإدارية والضريبية فإن الأمر يعمل برأي المستشار ولو خالفه القاضي. وفي القضايا الجنائية يحقق المجلس في الدعاوي التي هي ضمن دائرة اختصاصه ويحكم بها وفقاً للقاعدة الموضوعية،ولكن إذا كان تنفيذ الحكم من صلاحية سلطة فوق سلطة القائمقام فعليه أن يرسل الأوراق إلى مشير ولاية صيدا ليعيد النظر فيها، ثم يأمر بما يراه مناسباً بشأنها. وفي مسائل الأحوال الشخصية استمر رجال الدين من جميع الطوائف والمذاهب في الفصل في القضايا التي لها هذا الطابع وتختص بأبناء رعاياهم. أما الصلاحيات القضائية التي كان يتمتع بها رجال الإقطاع فقد سجلت تراجعاً في عهد القائمقاميتين وانحصرت سلطتهم بما

والموارنة والدروز والروم الأرثوذكس والروم الكاثوليك، وفي المادة السابعة يحكم مشايخ القرى الذين يقومون بوظيفة قضاة صلح، والقضايا المختلطة مباشرة أمام المحكمة الابتدائية ما لم يتفق المتداعون على القبول بصلاحيات قاضي صلح المدعي ويحكم في كل دعوى كل أعضاء المجلس.

وفي المادة الثامنة: الأمور الجنائية تكون المحاكمة على ثلاث درجات. المخالفات يحكم فيها شيوخ القرى. والجنح تحكم فيها المحاكم الابتدائية، والجنايات يحكم فيها مجلس المحاكمة الكبير.

وفي المادة العاشرة: القضاة ينصبهم الحاكم.

وفي المادة الحادية عشر: كل القضاة يكون لهم مرتبات.

وفي المادة الثانية عشر: جلسات كل المجالس القضائية تكون علانية ويضبطها كاتب معين لهذه الغاية.

وفي المادة الثالثة عشر: إن الأشخاص الوطنيين أو غير الوطنيين الذين يقترفون جنحة أو جناية في لبنان ويلجؤون إلى سنجق آخر تلقي القبض عليهم حكومة السنجق الذين يكونون فيه وتسلمهم إلى حكومة لبنان وقد استمر العمل بهذا النظام القضائي حتى نهاية عهد المتصرفية. (٢٨).

ج ــ النظام المالي والضرائبي:

شهدت السلطة العثمانية على صعيد الإدارة المالية والضريبية إضراباً وفوضى استمر حتى القرن التاسع عشر، وقد تفنن الولاة والأعيان المقاطعجيون في فرض أنواع من الضرائب والرسوم حتى بلغ عددها في بعض العهود الإقطاعية نحو مائة ضريبة ورسم وكونها مبتدعة فتذهب جلها إلى الأعيان والمتنفذين وأهم هذه الضرائب الرسمية كالميري، والفردة، والأعشار، والجزية ورسوم الجمارك وغيرها.

وتغيرت الأرقام الضريبية بانخفاض ملحوظ عما كانت عليه في السابق، فقد انخفض معدل الجباية العامة من ٢٥٠٠٠ ألف كيس زمن الأمير بشير إلى ٣٥٠٠كيس في عهد القائمقاميتين.

وجاء النظام الأساسي للمتصرفية في مادته الثانية يعطي مجلس الإدارة صلاحية إلزامية بتوزيع الضرائب وكذلك نصت المادة الخامس عشرة على حق الدولة العليا بتحصيل ويركو الجبل المعين بثلاثة آلاف وخمسمائة كيس أي (١/٧٥٠/٠٠٠ قرشاً) على يد المتصرف ويجوز رفع هذا القدر إلى سبعة آلاف كيس عند الإمكان، فإن زاد منه شيء ردت الزيادة على الخزينة وإن اقتضت الضرورة تحسين مجرى الإدارة مزيداً من التكاليف المعينة فيرجع إلى مصاريف الخزينة الجليلة، أما واردات البكاليك: أي حاصلات الأملاك الهمايونية "السلطانية" فليست بداخلة ضمن الويركو فينبغي ادخارها في صندوق الجبل لحساب الخزينة الجليلة على أن السلطة السنية لا تقوم بأداء مصاريف الإنشاءات العمومية وسائر النفقات غير العادية ما لم يتقدم قيد لها وتصديقها عليها. (٣١)

إن حركة التنظيمات العثمانية التي بدأت من عهد السلطان مصطفى الثالث (١٧٥٧ـ ١٧٧٤) حتى الحرب العالمية، قسمت إلى أربعة أدوار، هي محاولات الإصلاح والتجديد حتى إعلان خطة كلخانة ١٨٣٩، وخط التنظيمات الخيرية ١٨٥٦ (اللذين صدرا في عهد السلطان عبد المجيد وأهم ما جاء فيها : هو منح السلطان الرعية أمنية الروح والعرض، ووعد بإصلاح الإدارة والقضاء وانتزاعهما من الولاة وإجراء القرعة العسكرية الشرعية ومدة الاستخدام، تكون أربع أو خمس سنين، وجباية الأموال وتوزيعها بمقتضى أحكام الشرع).

وإعلان قانون الولايات العثماني ١٨٦٤ ونظام إدارة الولايات العمومية ١٨٧١ اللذين صدرا في عهد السلطان عبد العزيز وبموجبهما أنيطت أمور الولاية الملكية والدينية

والضابطة وإجراء الأحكام الحقوقية إلى الوالي وتم تعيين وظائف المأمورين الإجرائية ومجالس الإدارات والبلديات والنواحي. ومن ثم بدأ الدور الثالث من خلال التنظيمات في فترة ما بين المشروطيتين (١٨٧٦ ـ ١٩٠٨) ثم التنظيمات في العهد الدستوري (١٨٠٩ ـ ١٩١٤م). وبذكر هذه الأدوار يستدل على أثرها في تغيير الأنظمة السياسية والإدارية والقضائية والمالية والعسكرية على الجبل [٣٢].

الأوضاع الاجتماعية والصحية في ظل نظام القائمقامتين:

١ ـ طبقات المجتمع : يمكن التمييز بين طبقتين من السكان:

آ ـ طبقة الحكام : وتتدرج بين الأمير الحاكم وأسرته وسائر العائلات التي تحمل لقب الإمارة فالمقدمين والمشايخ.

ب ـ طبقة المحكومين : وتضم الفلاحين والعمال وسائر الأسر الشيعية، ولم يكن الغنى والفقر هو الحد الفاصل بينهما. إنما اندرج الناس في طبقتين من خلال انتسابهم إلى نظام اجتماعي سياسي عماده المقاطعجي القائم على ثنائية الانتماء السياسي ـ الاقتصادي، فقد ضمت فئة المقاطعجين حكام المقاطعات والنواحي ومجموعة الأعيان والمناصب. وتمتعت هذه الفئة بامتيازات نجمت عن مكانتها العسكرية أولاً، والاجتماعية ثانياً، وقد تدرجت في تسلسل تراتبي، فأحتل الأمراء المرتبة الأولى، وكان منهم آل شهاب، الذين خلفوا الأمراء المعنيين في حكم جبل الشوف أو جبل الدروز، وآل أبي اللمع وأمارتهم سابقة لموقعة عين دارا، وآل أرسلان المنحدرون من الأمراء اللخميين التنوخيين فضلاً عن الحراشفة أمراء البقاع، وأحتل المرتبة الثانية: في الهرم المقاطعجي أل الصواف الذين سبقوا اللمعيين في حكم المتن، وآل مزهر حكام بلدة حمانا وجوارها في المتن، وآل أبي اللمع قبل أن يصبحوا أمراء وكانوا يقيمون في بكفيا وصليما وبعض قرى المتن [٣٣].

أما المرتبة الثالثة: في السلم المقاطعجي طبقة المشايخ في مقدمتهم آل جنبلاط الذين ملكوا أكثر من سبع مقاطعات. وبنو عماد زعماء الحزب اليزبكي المناوئ لحزب جنبلاط في العرقوب الأعلى، وبنو نكد في المناصف والشحار وقرى إقليم الخروب، وبنو تلحوق زعماء الغرب الأعلى، وبنو عبد الملك حكام الجرد وبنو العيد في العرقوب الأعلى وبنو الخازن، وحبيش والدحداح في كسروان، وبنو العازار في الكورة وبنو الضاهر في الزاوية وبنو حمادة الشيعة في بلاد جبيل وآل حمادة الدروز في بعقلين وبعض قرى إقليم الخروب. وهناك طبقة أخرى من المشايخ تولت إقطاعات صغيرة أبرزهم بنو حمدان –بنو شمس– بنو أبي هرموش بنو أبي حمزة، بنو حص الدين في بلاد الشوف، بنو النيف وبنو عطا الله وبنو العقيلي وبنو أبي علوان في العرقوب وبنو القاضي في المناصف، وبنو الخوري في الجرد وبنو زينية في المتن وبنو أمان الدين في الشحار وبنو أبي مصلح في الغرب. وكانت أهمية الأسرة المقاطعجية تتوقف على إمكانية نجاحها في جباية الأموال الأميرية والضريبية من السكان، وفرض الأمن والنظام داخل حدود العهدة. وكانت كل طبقة تعيش عاداتها وتقاليدها الخاصة بها منغلقة داخل مجتمعها الضيق.

فالأمراء لا يصاهرون إلا الأمراء والمشايخ لا يتزوجون إلا من المستوى نفسه.

وإن المناطق التي تألفت منها الأمارة الشهابية في مطلع القرن التاسع عشر تكونت من ثلاث مناطق متمايزة جغرافياً وسكنياً.

الأولى: في أقصى الشمال (مناطق بشري وزغرتا) وهي جبل لبنان القديم وسكانه من النصارى وخصوصاً الموارنة.

والثانية: هي المنطقة الوسطى وتسمى بلاد كسروان أو العاصية، وسكانها مزيج من النصارى والشيعة.

والثالثة: جبل الدروز أو جبل الشوف أو جبل ابن معن وسكانه من الدروز وقد نتج عن حملات المماليك إلى بلاد كسروان إلى استئصال الرافضة وأكثرهم من الشيعة وبعض الدروز والنصارى بفعل (فتوى الإمام أحمد بن تيمية) على المستوى السكاني وملأ مكانهم الموارنة وتواصلت حركة الهجرة باتجاه الجبل الدرزي ويبدو أن الوافدين حملوا معهم اسم الجبل الذي وفدوا منه [٣٤].

ولعملية الإحصاء أهمية كبيرة ولكن السلطنة العثمانية لم تعط هذا الشأن أهمية تستحقها. ولم يألف الشرق القيام بإحصاءات دقيقة، بل كانوا يهتمون بعدد البيوت والذكور الذين يدفعون الضريبة ويرتبط الإحصاء بدوافع تقدير وإرادة الجباية والضرائب المفروضة على السكان وبعد عام ١٨٤٠م بدأت الدوافع نحو الإحصاء تتجه نحو السياسية بسبب الحروب الأهلية بين الدروز والنصارى وأصبح الاهتمام بالعدد ليس مسعى الكتاب والباحثين بل العاملين بالشأن السياسي العام أيضاً مثل: (هنري غيز، بروسير بوريه، ريتشارد إدوارد، الكولونيل تشارلز تشرشل، إدوار لوكروا) وغيرهم، وظهرت الدوافع السياسية ومصالح بعض الدول فبالغوا في أرقام بعض الطوائف. (جدول الإحصاء والسكان).

وبقي تعداد السكان محكوماً بثلاثة مؤثرات:

أولها: ارتفاع معدل الوفيات وانخفاض متوسط الأعمار.

وثانياً: الأمراض المسببة للضعف والوهن وعدم قدرة الطب على معالجة تلك الأوبئة

وفي ظل الوقاية والمعالجة الصحية كانت بلاد الشام عرضة لانتشار الأمراض والأوبئة كالطاعون والجدري والهواء الأصفر والبرداء والتيفية والخناق والسل والتيفوس وغيرها.

الأوضاع الصحية:

ظلت الأوضاع الصحية والطبية تتخبط في أجواء من الفوضى والتقلبات حتى أواخر الثلث الأول من القرن التاسع عشر، وبعض الأطباء الذين لم يكن لهم شهادة قانونية

قد حظوا بشهرة واسعة بسبب تمرسهم بالعمل الطبي مثل جبور الجعدي وعبد الله اليازجي (أبو ناصيف)..الخ. [٣٥]

وقام الأطباء الأوربيون بدورهم في تطبيق الأعيان وعامة الناس، منهم لويس برتران ثم تم إرسال بعثة مؤلفة من خمسة طلاب إلى مصر لدراسة الطب.

وظلت مصر هدف الطامحين في دراسة العلوم الطبية حتى عام ١٨٦٥ عندما حولت الكليتان الأمريكية واليسوعية إلى كليتين طبيتين. وأصبحت بيروت مركزاً طبياً وقد نتج عن قيام الكلية الطبية الأمريكية إنشاء مستشفى الأمريكان. وأقام اليسوعيون مستشفى القديس جاورجيوس. وكذلك هناك المستشفى الذي تم إنشاؤه في عام ١٨٥٧م الأخوان مخايل وجبور طوبيا من مالهما الخاص في بلدة الجبيل.

ولكن لا يوجد معلومات عنه. أما بدء الجراحة والتخدير لم يعرفه جبل لبنان إلا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر على يد الدكتور (جورج يوسف) عندما أعطى المخدر إلى الكلب. وأجرى عملية في عبية سنة ١٨٦٥. هذه الأوضاع الصحية التي كانت بدائية في أوائل القرن إلا أنها بدت في منتصفه على شيء من التقدم والتطور. إلا أن انطلاقة العلوم الطبية وتمايز الوضع الصحي في جبل لبنان وبيروت لم يبدأ إلا مع التنافس التبشيري من خلال قيام الجامعة الأمريكية (الكلية السورية الإنجيلية) سنة ١٨٦٦ م، و الجامعة اليسوعية (مستشفى القديس وادرجيوس) سنة ١٨٧٤ م. [٣٦]

نظام المتصرفية:

استبدال السلطة الإقطاعية بالطائفية:

تبنى الممثلون الدبلوماسيون للدول الأوربية الخمس، و الباب العالي في حزيران ١٨٦١ صيغة الإدارة الجديدة للبنان. ووفقاً لهذا النظام الذي عرف باسم (النظام العضوي) اعتبر لبنان إقليماً عثمانياً متمتعاً بالحكم الذاتي بموجب ضمانة الدول الست

الموقعة، تالف دستور البلاد الجديد: من ثماني عشرة مادة فقط. منح لبنان الحكم الذاتي في ظل حاكم مسيحي عثماني (هو المتصرف) يعينه الباب العالي بموافقة الدول الأوربية وتكون مدة حكمه خمسة أعوام، ويكون مسؤولاً مباشراً أمام الباب العالي. ومنح سلطات تنفيذية واسعة بحكم مسؤوليته في المحافظة على النظام والأمن وجبي الضرائب وتعيين وكلاء إداريين وقضاة ودعوة المجلس الإداري المركزي إلى الانعقاد وترؤسه وتنفيذ أحكام المحاكم، وكان للمجلس اثنا عشر عضواً منتخباً يمثلون الطوائف الدينية والمناطق الإدارية التالية:

١ ــ البترون: ماروني

٢ ــ جزين: ماروني ودرزي وسني

٣ ــ المتن: ماروني وروم أرثوذكس ودرزي وشيعي

٤ ــ الشوف: درزي

٥ ــ الكورة: روم أرثوذكس

٦ ــ زحلة: روم كاثوليك

كما عهد إلى المجلس مسؤولية تخمين الضرائب، والإشراف على الدخول والنفقات وتقديم الاستشارات حول جميع المسائل التي يقدمها المتصرف إليه، وكان المتصرف يعين قائمقام في كل قضاء من الطائفة الأكبر عدداً، أو التي لديها حجم أكبر من الممتلكات، ويعين بناء على توصيات القائمقام إداريي النواحي، وكانت كل قرية تختار شيخاً يشارك بدوره مع باقي الشيوخ في انتخاب أعضاء المجلس الإداري. [٣٧]

وفيما يتعلق بالشؤون القضائية: تم تأسيس ثلاث محاكم ابتدائية كان المتصرف يعين رؤساء القضاة ونوابهم ويعين أيضاً محكمة استئناف مؤلفة من ستة قضاة، قاض واحد من كل طائفة من الطوائف الرئيسة، وكان يحضر المحاكم الابتدائية، ومحكمة

الاستئناف وكلاء يختار كل منهم من إحدى الطوائف وعلى الصعيد المحلي: كان الشيوخ المنتخبون يقومون بمهمة حكام الصلح ولهم سلطة النظر في الدعاوي التي لا تنطوي على أكثر من ٢٠٠ قرش والتي كانت تنطوي على أكثر من ذلك تخضع للسلطان القضائي وكانت الدعاوي المختلطة تحول أمام المحاكم الابتدائية إلا إذا اتفق الأشخاص المعينون بوضوح على الخضوع لقرارات محاكم الصلح في ما يتعلق بالدعاوي الجنائية : كان حاكم الصلح ينظر في انتهاكات القوانين، والمحاكم الابتدائية تنظر في الجنح، ومحكمة الاستئناف: تنظر في الجنايات، أما الدعاوي التجارية: فوضعت تحت السلطان القضائي لمحكمة بيروت التجارية. وكذلك جميع الدعاوى المدنية أو الجنائية أو التجارية المتعلقة بأحد سكان المتصرفية وأحد رعايا الدول الأوربية. ووضعت الدعاوي المتعلقة بأعضاء الاكليروس وحدهم تحت السلطان القضائي للمحاكم الاكليريكية واشترط النظام قوة شرطة محلية ومنع دخول القوات العثمانية الجبل إلا بطلب من الحاكم تحدد العبء الضريبي للجبل بثلاثة آلاف وخمسمائة كيس (نحو ٧٥,٠٠٠ دولار) مع إمكانية زيادته إلى ٧٠٠٠ كيس لتغطية النفقات الإدارية وحالات العجز من قبل الباب العالي وأقر النظام إلغاء جميع الامتيازات الإقطاعية والجميع متساوون أمام القانون.

لقد جاء نظام المتصرفية لمصلحة الطائفة المارونية. فقد ألغى الامتيازات الإقطاعية، ووحد الجبل وحصر مركز الحاكم في مسيحي وزاد قوة الاكليروس، وأعطى الكنيسة المارونية سلطة واسعة على رعاياها، وكان مطلوب من الدروز الخضوع لسلطة حاكم مسيحي، وبالتالي الاعتقال، لذا فقدوا الأمل في استعادة فعاليتهم ثانية.

أما بالنسبة لطائفتي الروم الأرثوذكس والروم الكاثوليك كان عداؤهم أقل حدة لكنه لم يكن أقل وضوحاً، وقد استاعت الطائفتان من تعيين "داوود باشا" متصرفاً نظراً إلى أصله الأرمني. وكان استياء الروم الأرثوذكس أشد لأنه كاثوليكي. وهما اللذان تكبدا

خسائر فادحة في حوادث ١٨٦٠ في دمشق، ووادي التيم وزحلة ودير القمر وأحبط النظام هدف الموارنة في تأسيس إمارة مارونية.(٣٨)

وقد شاء داوود باشا تخفيف احتمال الاحتكاك في المناطق المختلفة، ولذلك منع الدروز من دخول بلدة دير القمر وأمر سكانها الدروز بمغادرتها، بدل أن يرغم السكان على القبول بسلطة مدير قضاء الشوف الدرزي، وولى عليهم إدارياً خاصاً وجعله مسؤلاً أمامه مباشرة وعين في قضاء جزين الذي سكنته أكثرية مسيحية والذي امتلك المقاطعجيون الدروز فيه معظم الأراضي إدارياً مارونياً، وكذلك أصدر قرار بعدم دعوة القوات العثمانية إلى دخول الجبل وأصر على المساواة في توزيع الضرائب وإدارة العدل.

وتجلت حكمة داوود باشا في فهمه العميق للمجتمع اللبناني، براعته في فن الحكم، من خلال تعامله مع الطبقة الارستقراطية.والطوائف المختلفة، فخلال أعوام حكمه السبعة تم تعيين أكثر من ستة عشر أميراً وشيخاً وإقطاعياً لمناصب الحكم الرئيسة، ومنح بعضهم رتباً عالية في المؤسسة الاجتماعية العسكرية التي جرى تنظيمها حديثاً وأمر بإعادة ممتلكات آل الخازن المصادرة إلى أصحابها. (٣٩)

لكن واجهت سلطته التحدي في المنطقة الشمالية ذات الأغلبية المارونية والتي لم تقاس بلايا الحرب الأهلية الطائفية من خلال عصيان (يوسف كرم) الزعيم الماروني الشمالي الذي يعد أخطر تهديد واجهه داوود باشا كما هدد وجود المتصرفية، واستمر هذا الخطر إلى أن تم قمع ثورة كرم في عام ١٨٦٧. (انتمى يوسف كرم إلى إحدى العائلات في قرية إهدن ونجح من سن الثانية والثلاثين الحلول مكان أخيه وتولى السلطة الإقطاعية في إهدن. وبدأ نشاطه بعد الفتنة الطائفية عام ١٨٦٠وكان قد تلقى استغاثات سكان زحلة التي حاصرها الدروز فزحف إلى المتن ولكنه أوقف الزحف نزولاً عند نصيحة القنصل الفرنسي، أو لعدم إثارة استياء المسؤولين العثمانيين الذين

كان يأمل أن يعينوه في منصب قائمقام المسيحيين. وعينه فؤاد باشا القائمقام المسيحي بالوكالة بعد بشير أحمد أبو اللمع، ثم استقال قبيل إعلان المتصرفية على أمل تعيينه حاكماً للجبل. لذا راح يشجع الفلاحين على الاحتجاج على إدارة الأمير مجيد شهاب قائمقام كسروان الذي كان يمكن أن يكون منافساً خطيراً له.

طلب داوود باشا المساعدة من القناصل الأوربيين وفؤاد باشا وقد نجح هذا الأخير في القبض على كرم في بيروت ورافقه بموافقة القناصل إلى استنبول ثم سافر إلى مصر لينتظر انتهاء مدة المتصرف في الحكم أملاً في العودة واستلام المتصرفية. (٤٠)

لم تختلف حالة السخط العام من المنطقة الشمالية بإبعاد كرم من لبنان وأدرك داوود باشا تمام الإدراك أن نظام المتصرفية كسب شعبية الموارنة لذا زار داوود باشا المنطقة بقصد الحصول على تأييد بطريرك الموارنة لكنه فشل في ذلك إلا أن سياسته المقترنة بعدم دعوة القوات العثمانية أكسبته تأييداً بين السكان وأدت إلى نمو (حزب الحكومة) وسهل تشجيع القناصل الأوربيين له مهمته وبحلول عام ١٨٦٤ م كان الباب العالي والدول الأوربية على أهبة إعادة النظر في أحكام النظام و تعيين حاكم جديد وكانت قد أعيدت الحياة الطبيعية كلياً إلى المناطق المختلطة واستؤنفت السيطرة الاقتصادية المسيحية بسرعة، أدخل نظام عام ١٨٦٤ بعض التعديلات التي تهدف إلى تخفيف القبضة الخانقة للمؤسسة الإلكيريكية من جهة وإرضاء الطائفة المارونية من جهة ثانية، وكانت المادة ١١ من نظام عام ١٨٦٤ قد اشترطت اختيار جميع أعضاء المجلس القضائي والإداري وحكام الصلح من قبل رؤساء طوائفهم المختلفة، وبناء على توصية داوود باشا، سحبت هذه السلطات من الاكليروس ومنحت للمتصرف (المواد ١، ٦، ١٠) كما تم إلغاء المجالس الإدارية الطائفية المحلية ومجلس وكلاء الطوائف كذلك منع نظام ١٨٦٤ المؤسسات الدينية رسمياً من إيواء أي شخص مطلوب للقانون، سواء من الاكليروس أو العلمانيين (المادة ١٨) إلا أن نظام عام ١٨٦٤في محاولة لاسترضاء الموارنة سمح بانتخاب شيوخ قرى من أكبر طائفة

دينية، كما أوقف إعادة قصر سلطة هؤلاء على أبناء طوائفهم. وأعيد تشكيل المجلس الإداري المركزي ليعكس في تأليفه القوة العددية لكل طائفة، وبدل أن تتمثل كل من الطوائف الدينية الرئيسة الست بعضوين خصص المجلس الجديد أربعة مقاعد للموارنة، وثلاثة مقاعد للدروز، ومقعدين للروم الأرثوذكس، ومقعد واحد لكل من السنة والشيعة والروم الكاثوليك، كما أعيد تقسيم قضاء كسروان ليزداد عدد القائمقامين الموارنة، ولم يعد مطلوباً رفع الدعاوي القضائية المتعلقة بخلاف بين سكان الجبل وأي من الأشخاص المشمولين بحماية دولة أجنبية المحكمة التجارية في بيروت في القضايا التي يرضى منها المتقايضون بالتحكيم، واحتفظت المتصرفية بموجب النظام الجديد بإيرادات الدولة من ممتلكاتها الواقعة في الجبل، أعادت الدول الأوربية والباب العالي تعيين داوود باشا لفترة خمسة أعوام في التاسع من حزيران ١٨٦٤ وأبدت فرنسا استمرار التجربة. لذا توقفت عن التحريض في إعادة الحكم إلى السكان الأصليين وسرعان ما واجهت فرنسا المشكلة حين عاد يوسف كرم متخفياً إلى لبنان في ١٨ تشرين الثاني ١٨٦٤ لهذا اتصل أوتري القنصل الفرنسي في بيروت بسفير حكومته في اسطنبول طالباً التعليمات ورد عليه وزير الشؤون الخارجية الفرنسي دروان دوليز في ٢٥تشرين الثاني ١٨٦٤:

((ليس علينا في الوضع الذي اتخذه يوسف كرم أن نقدم له أية مساعدة وإذا أثار وجود كرم اضطراباً خطيراً في لبنان وأدى إلى التدخل التركي العسكري فسيكون وقوفنا في وجه ذلك بغاية الصعوبة)). (٤١)

وكانت فرنسا مصممة على دعم نظام داوود باشا وفشلت محاولات داوود باشا العديدة لكسب البطريرك والحصول على موافقته في ملء المناصب الحكومية الشاغرة بمرشحيه، ولفترة من الوقت اقتنع المتصرف بأن السبيل الوحيد الباقي أمامه هو استخدام القوات العثمانية، وخوفاً من هذه الخطوة أن تجعله فريسة لمكائد الباب العالي، بعث باستقالته سراً إلى استنبول في ١٨كانون الثاني ١٨٦٥، غير أن الباب العالي

رفض الاستقالة وأمر بالاجتماع مع البطريرك والمطارنة والموارنة وإعلامهم إذ هم لم يجبروا كرم على الخضوع فإن الجيش الخامس سيكون مستعداً لتسوية الأمور بالقوة ولدى إبلاغ الزعماء الاكليريكيين بهذه التطورات سارعوا إلى الموافقة على الاجتماع مع المتصرف وتعهدوا في دير طاميش بتأييده وأرسل كتاب بهذا المعنى إلى كرم الذي رفض الإذعان وطلب الحماية من القناصل الأوربيين في بيروت (وفي هذه الأثناء جرى استبدال القنصل الفرنسي أوتري بآخر) عقد اجتماعاً مع البطريرك والمبعوثين، وقال لهم: (إن فرنسا غير راضية عن الاكليروس الماروني وأن على الموارنة أن يظهروا خضوعهم لفرنسا عن طريق تأمين خضوع كرم) وأدى ذلك إلى اجتماع البطريرك بالمتصرف ووافق على تسوية القضية. وفي فترة قصيرة رفع يوسف كرم كتاباً يعلن فيه خضوعه لداوود باشا، ووافق أهالي المناطق المارونية على دفع الضرائب ومع أن المرحلة اللاحقة شهدت عصيان كرم ومحاولة تحريض الفلاحين وإلقاء القبض عليه وإبعاده عن البلاد، فإن مصير كرم قد تقرر سلفاً عندما قرر الاكليروس سحب تأييدهم لحركته وبرحيله عن لبنان نجح داوود باشا في توطيد الأمن والاستقرار حيث سمح داوود باسا لأنصار كرم بالعودة إلى منازلهم وأطلق سراح المسجونين منهم وفي ٦ شباط أذاع على سكان لبنان بياناً يتضمن النصح بالابتعاد عن الفتن. ولكن سيطر على الناس في الشمال الماروني خوف من انفجار الموقف من جديد. ورغم قوة داوود باشا في تنظيم البلاد وبعد مضي سبع سنوات من ولايته لم يستطع أن يجد ميلاً حقيقياً لدى الموارنة نحوه وأضعف هذه المعارضة الصامتة معنويات داوود باشا، فاستقال من منصبه في صيف ١٨٦٨ وعاد إلى الأستانة. (٤٢)

عينت الدولة العثمانية فرانكو باشا (١٨٦٨ ــ ١٨٧٣) خلفاً لداوود باشا وكان فرانكو ابن أسرة حلبية تنتمي إلى بيت الكوسا، وأتقن ست لغات ورحب الموارنة في كسروان والشمال بتعيينه. أما في المناطق المختلطة والجنوبية فلم يكن لنبأ تعيينه صدى. اتبع

فرانكو نفس سياسة سلفه داوود بطلب نصائح القنصل الفرنسي عند الحاجة لكي يضمن نجاح مهمته في لبنان. وكانت أول مشكل اعترضت حكمه هي مسألة عودة يوسف كرم وقال: "إن عودته للجبل ستكون إما قانونية أو غير قانونية". في الحالة الأولى لا يمكن أن تتم إلا بموافقة الحكومة العثمانية ورضى فرنسا ولن أعترض عليه وفي الحالة الثانية: سأحدد له مدة أقصاها ثمانية أيام ليغادر البلاد، وإذا لم ينفذ إنذاري سأستخدم القوة لإرغامه على الخروج. وكان لموقف الاكليروس الودي من فرانكو أثر كبير في هدوء الجبل حيث صرح البطريرك والمطارنة أنهم لن يستقبلوا كرما إذا رجع إلى لبنان لأنهم لا يرغبون في التضحية بفرنسا. وبذلك رفع يوسف باشا الأمر إلى الباب العالي الذي طلب من المتصرف رأيه في الموضوع. فرد فرانكو تكون عودته مشروطة بذهابه إلى الأستانة والخضوع للباب العالي وإدارة الجبل الحالية. ورغم ذلك لم تنفع محاولات يوسف كرم بالعودة في فترة حكم فرانكو باشا.

عهد رستم باشا: (١٨٧٣ ــ ١٨٨٣) تعقدت المتصرفية ولم تكن فرنسا راضية عن تعيين رستم باشا لما له من صلة مع السير هنري اليوت السفير الإنكليزي في الأستانة. وأصله الإيطالي وبالتالي ميله لإيطاليا. وعندما علم يوسف كرم بوفاة فرانكو أرسل ابن أخيه إلى الأستانة لمقابلة رستم بخصوص حل مشكلته ولكن رستم أرجأ الموضوع حتى يصل إلى لبنان ورفض رستم عودة يوسف كرم إلى لبنان فتوجه كرم إلى روما واتصل بأنصاره لتوقيع عرائض الشكوى ضد المتصرف لكن الصمت خيم حول اسم كرم واختفى من المسرح السياسي منذ عام ١٨٧٨. [٤٣]

الخاتمة:

أن لجبل لبنان أهمية اقتصادية وإستراتيجية، جعله محط أنظار الدول الاستعمارية. فسيطرت عليه الدولة العثمانية منذ أن احتلت بلاد الشام، وأقامت فيه نظاماً موالياً لها، وعينت عليه أمراء محليين يحكمون باسم الدولة العثمانية ويتبعون للمركز استنبول،

وقامت عدة حركات ضد الحكم العثماني، فاستطاعت القضاء على تلك الحركات عندما كانت قوية.

وفي عصر ضعف الدولة العثمانية، قامت بمنح امتيازات للدول الكبرى، مثل بريطانيا وفرنسة وروسيا وغيرها.

مما أدى إلى تدخل الدول الاستعمارية بشؤون الدولة في كافة المجالات، وقد اتخذت الامتيازات كوسيلة لفرض الهيمنة وتمزيق جسد الدولة وجعلها وريثة للاستعمار، وعلى الرغم من إعطاء الدولة العثمانية امتيازات في عهد القوة، لكنها لم تؤثر عليها.

قامت الدول الاستعمارية بإثارة النزاعات الداخلية، وإشعال الفتن بين رعايا الدولة العثمانية من أجل تفتيت البنية الاجتماعية وإزهاق الأرواح وإضعاف الرابطة بين العرب والعثمانيين.

ومنذ عصر ضعف الدولة العثمانية، بدأ التنافس الاستعماري على الدول التابعة للعثمانيين، وكان من بينها جبل لبنان، فقام المستعمرون بإثارة الفتن بين الفلاحين والإقطاع، وبين الطوائف مثل الدروز والسنة والشيعة والكاثوليك والأرثوذكس وغيرها.

وأخذت كل دولة استعمارية تحمي طائفة وتدعمها بالسلاح وتثير الفتنة ضد الطوائف الأخرى.

فقامت حروب أهلية في جبل لبنان دمرت الاقتصاد، وأزهقت أرواح الأبرياء وشتت الأنظمة، وأقامت الحكم العثماني خاصة في فترة حكم الشهابيين للجبل ودخول إبراهيم باشا إليه.

وهذه الحروب فتحت الباب على مصراعيه لتدخل المستعمرين بشؤون لبنان بحجة حماية رعاياهم.

وفي فترة نظام القائمقاميتين مرت على لبنان أحداث كثيرة أجبرت العثمانيين على تغيير نظام القائمقاميتين إلى النظام متصرفي في عام (١٨٦٠ م).

وإن الوحدة الوطنية ضرورية لكل البلدان، ولها أكبر أثر من الطائفة الدينية، لأن الدين لله والوطن للجميع وإثارة الطائفة أسلوب استعماري محض يقضي إلى تدخل الأجانب بالبلاد من أجل نهب خيراته، واستنزاف ثرواته وإضعاف البلد المحتل.

ولبنان مزيج من الطوائف اعتمدت عليها الدول الاستعمارية، واستطاعت من خلالها أن تتدخل بشؤون لبنان وتثير حروب أهلية لم تنقطع حتى الآن.

ومازال لبنان بطوائفه متأثراً بتلك الحروب التي أفقدته وحدته الوطنية، ولأن لبنان مسرح للأحداث التي تغذيها الدول الغربية. لكي تستفيد إسرائيل وتستمر كعنصر توتر في المنطقة العربية.

الهوامش والحواشي

(١) أحمد طربين: **أزمة الحكم في لبنان منذ سقوط الأسر الشهابية حتى ابتداء عهد المتصرفية** ١٨٤٢ ـ ١٨٦١ م طـ ١، ١٩٦٦. ص ١٠٨.

(٢) أحمد طربين: **لبنان في عهد المتصرفية إلى بداية الانتداب** ١٨٦١ ـ ١٩٢٠م، القاهرة، ١٩٦٨م. **ص ١٩٩.**

(٣) جوبلان: **القضية اللبنانية**، بيروت ١٩٩٥ م. ص ٦٣.

(٤) رياض غنام: **المقاطعات اللبنانية في ظل حكم الأمير بشير الشهابي الثاني ونظام القائد نايتيين**، ١٧٨٨ ـ١٨٦١، الجامعة اللبنانية. ص ٧٣-٧٤.

(٥) رياض غنام: **مقاطعات، جبل لبنان في القرن التاسع عشر** طـ ١، بيسان للنشر، بيروت ٢٠٠٠م ، ص ١٨

(٦) زاهية قدورة : **تاريخ العرب الحديث**، دار النهضة للطباعة والنشر، بيروت ١٩٨٥م ، ص ٦٢

(٧) زاهية قدورة : المرجع السابق، ص ٦٦.

(٨) سعيد أحمد برجاوي: **الإمبراطورية العثمانية تاريخها السياسي والعسكري**، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت ١٩٩٣ م. ص ١٥٣.

(٩) عبد العزيز عمر: **تاريخ لبنان الحديث ١٥٢٦ ـ ١٩١٥** ط ١، دار النهضة العربية بيروت ٢٠٠٤، ص ٢٢.

(١٠)حتي فيليب: **تاريخ لبنان منذ أقدم العصور التاريخية إلى عصرنا الحاضر**، ت: أنيس فريحة ط ٣ دار الثقافة بيروت ١٩٧٨م. ص ٢١٧

(١١)كمال سليمان صليبي: **تاريخ لبنان الحديث** ط٤ دار النهار للنشر بيروت ١٩٧٨م ، ١١-١٢.

(١٢)لحد خاطر: **عهد المتصرفين في لبنان** ١٨٦١ ــ ١٩١٨ ط ٢ منشورات دار لحد خاطر بيروت ١٩٨٢ م ، ص ٢٠٨.

(١٣)رفيق بك محمد، محمد بهجت بك: **ولاية سورية القسم الجنوبي، ألوية بيروت وعكا ونابلس** ط٣ دار لحد خاطر للطباعة والنشر بيروت ١٩٨٧م، ص ١١١.

(١٤)فارس هاني : **النزاعات الطائفية في تاريخ لبنان** الدار الأهلية بيروت ١٩٨٠.ص١٣٠.

(١٥) هاني المرجع السابق، ص ١٣٣.

(١٦)يوسف مزهر: **تاريخ لبنان العام** (د.ت) ج٢، ص ٢٥-٢٦.

(١٧)يوسف خطار أبو شقرا: **الحركات في لبنان إلى عهد المتصرفية**، تحقيق عارف أبو شقرا، دار بيروت، ١٩٥٢م، ص ٩٩.

(١٨) عباس أبو صالح: **تاريخ السياسي للإمارة الشهابية في جبل لبنان** ١٦٩٧-١٨٤٣م، بيروت، ١٩٥٢م، ص ١٥٨.

(١٩)اسكندر إيكاريوس: **نوادر الزمان في وقائع جبل لبنان**، تحقيق عبد الكريم إبراهيم السمك، دار الرياض نجيب الريس، لندن، ١٩٨٧م، ص ٧٨.

(٢٠)اسكندر: المرجع السابق، ص ٧٦.

(٢١)تشرشل تشارلز: **بين الدروز والموارنة في ظل الحكم التركي** ١٨٤٠ ــ ١٩٦١ ترجمة بالإنكليزية فندي الشعار بيروت دار المروج ١٩٨٤. ص ٢٠٣.

(٢٢) سليمان تقي الدين: **المسألة الطائفية في لبنان، الجذور والتطور التاريخي** دار ابن خلدون بيروت د. ت. ص ١٩.

(٢٣) لحد خاطر: **لبنان والفاتكان، العلاقات المتبادلة بينهما من صدر النصرانية حتى اليوم** دار لحد بيروت ط٢ ١٩٨٩م. ص ١٠٠.

(٢٤) الدبس يوسف: **الجامع المفصل في تاريخ الموارنة المؤصل** قدم له الأب ميشيل الحايك دار لحد بيروت ط ٣ ١٩٨٢ م. ص ٤١.

(٢٥)رعد مارون: **لبنان من الإمارة إلى المتصرفية** ١٨٤٠ ــ ١٨٦١ عهد القائمقاميتين دار نظير عبود بيروت ١٩٩٣ م. ص ٦٨.

(٢٦) مارون، المرجع السابق، ص ٧٠.

(٢٧) عبدالله سعيد: **تطور الملكية في جبل لبنان في عهد المتصرفية** دار المدى بيروت ١٩٨٦، ص ١٧.

(٢٨) ابن علوان مرتضى: **نزهة الزمان في حوادث جبل لبنان** المكتبة الوطنية في باريس ط١ د. ت ، ص ١٥٧.

(٢٩) سليم حسن هشي: **سجل محررات القائمقامية النصرانية في جبل لبنان**، مطبعة نمنم، ١٩٧٤م، ص ٩٦.

(٣٠)عبد العزيز نور: **وثائق أساسية في تاريخ لبنان الحديث** ١٥١٧-١٥٢٠ جامعة بيروت العربية طبع في دار الأحد البحيري أخوان بيروت ١٩٧٤م، ص ١٢٧.

(٣١) بولص نجيم: **القضية اللبنانية**، بيروت، ١٩٩٥، ص ٥٥.

(٣٢)بولص: المرجع السابق، ص ٥٦.

(٣٣)إبراهيم بك الأسود: **تنوير الأذهان في تاريخ لبنان**، المجلد الأول، مطبعة القديس جاورجيوس، بيروت، ١٩٢٥م، ص ٤٣.

(٣٤)ضاهر مسعود: **الجذور التاريخية للمسألة الطائفية اللبنانية**، معهد الإنماء العربي ط٣ بيروت ١٩٨٦. ص ١٠٩.

(٣٥) وجيه كثرواني: **الاتجاهات الاجتماعية – السياسية في جبل لبنان والمشرق العربي**، معهد الإنماء العربي، بيروت، ١٩٨٢م، ص ١١٦.

(٣٦)تشارلز: مرجع سابق، ص ٢٠٧.

(٣٧)سليمان: مرجع سابق، ص ٢٣.

المصادر والمراجع

١ ــ أحمد برجاوي، سعيد: **الإمبراطورية العثمانية تاريخها السياسي والعسكري**، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت ١٩٩٣ م.

٢ ــ أبو شقرا ــ يوسف خطار: **الحركات في لبنان إلى عهد المتصرفية**، تحقيق عارف أبو شقرا، دار بيروت ١٩٥٢ م.

٣ ــ أبو صالح عباس: **التاريخ السياسي للإمارة الشهابية في جبل لبنان** ١٦٩٧ ــ ١٨٤٣ بيروت ١٩٥٢.

٤ ــ إكاريوس إسكندر: **نوادر الزمان في وقائع جبل لبنان**، تحقيق عبد الكريم إبراهيم السمك دار رياض نجيب الريس لندن ١٩٨٧.

٥ ــ الدبس يوسف: **الجامع المفصل في تاريخ الموارنة المؤصل** قدم له الأب ميشيل الحايك دار لحد بيروت ط ٣ ١٩٨٢ م.

٦ ــ تشرشل تشارلز: **بين الدروز والموارنة في ظل الحكم التركي** ١٨٤٠ ــ ١٩٦١ ترجمة بالإنكليزية فندي الشعار بيروت دار المروج ١٩٨٤.

٧ ــ تقي الدين سليمان: **المسألة الطائفية في لبنان، الجذور والتطور التاريخي** دار ابن خلدون بيروت د. ت.

٨ ــ جوبلان: **القضية اللبنانية**، بيروت ١٩٩٥ م.

٩ ــ حتي فيليب: **تاريخ لبنان منذ أقدم العصور التاريخية إلى عصرنا الحاضر**، ت: أنيس فريحة ط ٣ دار الثقافة بيروت ١٩٧٨م.

١٠ــ خاطر لحد: **عهد المتصرفين في لبنان** ١٨٦١ ــ ١٩١٨ ط ٢ منشورات دار لحد خاطر بيروت ١٩٨٢ م

١١ـ خاطر لحد: **لبنان والفاتكان، العلاقات المتبادلة بينهما من صدر النصرانية حتى اليوم** دار لحد بيروت ط٢ ١٩٨٩م.

١٢ ـ رفيق بك محمد، محمد بهجت بك: **ولاية سورية القسم الجنوبي، ألوية بيروت وعكا ونابلس** ط٣ دار لحد خاطر للطباعة والنشر بيروت ١٩٨٧م

١٣ ـ رعد مارون: **لبنان من الإمارة إلى المتصرفية** ١٨٤٠ ـ ١٨٦١ عهد القائمقاميتين دار نظير عبود بيروت ١٩٩٣ م.

١٤ ـ سليمان صليبي، كمال: **تاريخ لبنان الحديث** ط٤ دار النهار للنشر بيروت ١٩٧٨م

١٥ ـ سعيد عبدالله : تطور الملكية في جبل لبنان في عهد المتصرفية دار المدى بيروت ١٩٨٦

١٦ ـ ضاهر مسعود: **الجذور التاريخية للمسألة الطائفية اللبنانية**، معهد الإنماء العربي ط٣ بيروت ١٩٨٦.

١٧ ـ طربين، أحمد: **أزمة الحكم في لبنان منذ سقوط الأسر الشهابية حتى ابتداء عهد المتصرفية** ١٨٤٢ ـ ١٨٦١ م طـ ١، ١٩٦٦.

١٨ ـ طربين، أحمد: **لبنان في عهد المتصرفية إلى بداية الانتداب** ١٨٦١ ـ ١٩٢٠ م، القاهرة، ١٩٦٨م.

١٩ـ عبد العزيز عمر: **تاريخ لبنان الحديث ١٥٢٦ ـ ١٩١٥** ط ١، دار النهضة العربية بيروت ٢٠٠٤

٢٠ ـ غنام، رياض : **المقاطعات اللبنانية في ظل حكم الأمير بشير الشهابي الثاني ونظام القائد نايتيين**، ١٧٨٨ ـ١٨٦١، الجامعة اللبنانية.

٢١ ــ غنام، رياض : **مقاطعات، جبل لبنان في القرن التاسع عشر** طــ ١، بيسان للنشر، بيروت ٢٠٠٠م

٢٢ــ زاهية قدورة: **تاريخ العرب الحديث**، دار النهضة للطباعة والنشر، بيروت ١٩٨٥م

٢٣ــ فارس هاني: **النزاعات الطائفية في تاريخ لبنان** الدار الأهلية بيروت ١٩٨٠.

٢٤ــ مرتضى ابن علوان : **نزهة الزمان في حوادث جبل لبنان** المكتبة الوطنية في باريس ط١ د. ت

٢٥ ــ نور، عبد العزيز : **وثائق أساسية في تاريخ لبنان الحديث** ١٥١٧ــ ١٥٢٠ جامعة بيروت العربية طبع في دار الأحد البحيري أخوان بيروت ١٩٧٤ م

الشورى والديمقراطية التحول الديمقراطي في الوعي العربي

الدكتور كريم أبو حلاوة

كلية العلوم السياسية

جامعة دمشق

المقدمة:

تواصل التغيرات النوعية المتسارعة التي يشهدها العالم في مطلع القرن الحادي والعشرين، إفراز تأثيراتها التي طالت كافة شعوب وأمم الأرض، في الشمال والجنوب بنسب ودرجات متفاوتة. فمع العولمة "Globalization" بوصفها واقعة العصر الأساسية لم يعد بمقدور أي شعب أن ينأى بنفسه عن التفاعل مع الأحداث والتحولات، سواء من موقع المشارك والفاعل، أو من موقع المتلقي السلبي والمنفعل بما يجري. ولم تقتصر التأثيرات على الجوانب السياسية والاقتصادية، بل تعدتها لتشمل الحياة الفكرية والثقافية بما تحتويه من طرق للعيش وأنماط للتفكير ومحاولات لإعادة النظر بالأفكار والتجارب والنظريات والعقائد وإخضاعها للنقد والمراجعة وذلك في سياق محاولة دؤوبة لاستخلاص العبر والدروس والتلاؤم مع المستجدات.

ومع أن الخطاب السياسي والثقافي العربي المهتم بقضايا الحكم والتحول الديمقراطي، يعود بمرجعياته الفكرية الأساسية إلى التراث والخبرة العربية الإسلامية التي تتمحور حول مفهوم الشورى من طرف ، كما ويستقي العديد من المفاهيم التي أنتجتها تجربة الحداثة الأوروبية عموماً ومبادئ الثورة الفرنسية وعصر الأنوار بصورة خاصة، من طرف آخر، إلا أن هذه المرجعيات قد خضعت لتفحص نقدي مدقق غيّر من دلالاتها الأصلية عند أغلبية التيارات الفكرية والسياسية، وذلك على ضوء التجارب التي عكست خصوصيات الثقافة والمجتمع العربيين.

إشكالية البحث:

سيركز التحليل على التيارات الأساسية في الثقافة العربية بغية رصد وتجاوز الثنائيات المتضادة التي انشغل بها الوعي العربي طويلاً دونما جدوى، صوب اكتشاف مزايا المشاركة وخصائصها بوصفها الصيغة التي يتمكن الفاعلون الاجتماعيون من خلالها الانخراط في الشأن العام والمساهمة في قضاياه على قاعدة المواطنة. فهل يمكن إيجاد قواسم مشتركة بين الشورى والديمقراطية؟ ثم كيف عبّر الوعي العربي عن اهتمامه بمسألة المشاركة على اختلاف مسمياتها؟.

لعل ما يجمع ويفرق بين الديمقراطية والشورى، هو أنهما معنيتان بنظام الحكم، وأنهما تنتسبان إلى مرجعيتين وعصرين تاريخيين مختلفين في آن معاً.

وحيث أن القضية في الأساس هي قضية طريقة الحكم وحيازة الشرعية فيه، فإن الكلام لا يستقيم دون تقرير مقومات وأسس الأسلوب الديمقراطي من طرف، والوقوف على مقومات الشورى التي ابتكرها الإسلام الأول ومدى إلزامها للحاكم ومآلاتها التاريخية اللاحقة من طرف آخر.

وكي لا يكون القول بالشورى كبديل عن الديمقراطية مجرد استبدال دفاعي ورفض سلبي للفكر الغربي الحديث، على شاكلة الثنائيات العقيمة التي ما برحت تقصي البحث

وتغييب إمكانيات المعالجة (أصالة – معاصرة – ديمقراطية – شورى – مجتمع مدني-مجتمع أهلي) لابد من التعرض لدواعي المقارنة ومغالطاتها. فإذا كانت الشورى آلية سياسية تحيل على مرحلة مبكرة من تاريخ الفكر والحكم في الإسلام، تعتمد أساساً على استمزاج آراء أهل الحل والعقد في المسائل المطروحة دون أن تكون نتائجها ملزمة للحاكم، فإن الديمقراطية كما عرفتها العديد من المجتمعات. في العصر الحديث، هي حصيلة مراكمة خبرات وتجارب العديد من الشعوب عبر مئات السنين وفي مناطق شتى من العالم.

كان من نتائج الالتقاء العربي الأول مع الغرب في العصر الحديث انقسام الفكر العربي على نفسه إزاء كيفية التعامل مع الوافد الجديد، وبالتالي حول أفضل السبل لمواجهته. فمع وجود تيار يدعو إلى التركيز على الخصوصية والهوية، ويرى في الدين أحد أبرز عناصر الأخيرة، ما يدفعه إلى رفض كل ما هو غربي مستجلب، بدعوى عدم مطابقته مع حاجاتنا ومتطلباتنا الفعلية، يصعب الحديث عن عالمية الفكر وإنسانية المعرفة هذا الحديث الذي لا يتنكر للخصوصيات ولا يغيب ثقافات الشعوب والأمم أو يطمس هويتها.

وفي المقابل لا يتورع تيار آخر في الفكر العربي عن الدعوة إلى تبني وتقليد كل ما هو غربي بدعوى اشتراك الإنسانية في تاريخ عام يجعل من المتقدم أسوة لغيره ومثالاً يحتذى. وهو ما يدفع بدوره في إسار الاستغراب والمحاكاة للغرب بتياراته ومدارسه ومراحل التطور التي قطعها، عدا عن كونه يقطع سبل التواصل مع الأغلبية في الداخل والتي لم تر في الغرب سوى الغازي والمعتدي والمهدد لثقافات ومعتقدات وأخلاقيات الشعوب الأخرى.

إزاء هذا الانقسام المزمن بين الرؤيتين المتضادتين السابقتين وبهدف تجاوزهما كان لابد من بروز تيار نقدي لا يقطع مع الآخر ولا يغرق في الماضي،منفتح على

منجزات الفكر العالمي ومتبصر بمثالبه في آن. يطلق البعض على هذا الاتجاه تيار التثاقف النقدي الذي تجاوز مرحلة الانبهار بالغرب التي أعقبت صدمة الالتقاء به من طرف، كما وعى ضرورة عدم الاستغراق في التراث والبحث فيه نقدياً، بل وإحداث قطيعة معه بمعنى تجاوز إشكالياته بما يمكن الباحث من الإبقاء على مسافة تفصله عن موضوعه بهدف امتلاكه بدلا من الضياع فيه من طرف آخر.يعاني تيار التثاقف النقدي من قلة عدد المفكرين والمثقفين العرب المنخرطين في إنجاز رؤيا مغايرة، كما ويعاني من الموقف الأيديولوجي العدائي المسبق من قبل التيارين السابقين، تيار الرفض وتيار التغريب،كما أن فاعليته النوعية والمؤثرة مازالت ضعيفة على الساحة الثقافية العربية في المرحلة المعاصرة، ويبدو لي أن مهامه ستكون صعبة أكثر فأكثر وذلك بمقدار مواجهته وفضحه لوكلاء الغرب والناطقين باسمه، كما وبمقدار نقده وتعريته لمن يقدمون أنفسهم على أنهم حراس التراث وسدنة الحقيقية ومالكوها.

هذا إلى جانب نقد دعوات متفرقة هنا وهناك تنتسب إلى مرحلة ما قبل الوعي الديمقراطي، وهي دعوات تبريرية أساساً تتمحور حول فكرة شديدة المحافظة والخطورة مفادها أن المجتمع العربي في معظم البلدان العربية بعد غير مؤهل لتقبل الممارسات وأنظمة الحكم الديمقراطية تحت ذرائع ومبررات شتى، لكن المفارقة هنا والمتمثلة بأن أقل التيارات الفكرية العربية انتشارا وأضعفها تأثيراً هي التي تحمل الأمل في تجاوز الوضعية المأزقية . فقد بات جلياً أن مواجهة الغرب غير ممكنة دون التملك الفعلي والنقدي لمنهجياته ومعارفه وتقنياته المتنامية، وإن هذا التملك هو شرط لبناء علاقة مختلفة معه لا تقوم على التماهي معه، والذوبان فيه .

الشورى بين الأصول النظرية ووقائع التاريخ:

حيث أن العدل هو المبدأ والأصل النظري الأساس الذي يقوم به الحكم وتتأسس عليه الشرعية، فإن التصور الإسلامي للعدل بوصفه ميزان الله في الأرض يرتكز على

مبدأين عمليين هما "الطاعة" و"الشورى" . ومن البين أن مسوغ الطاعة لأولي الأمر، هو الحفاظ على الدولة قوية وعلى الجماعة موحدة، لكن الخلاف سرعان ما نشب بين المسلمين بين من اختار الإتباع والانقياد لأولي الأمر العادل منهم والمستبد ، وساوت بين طاعتهم وطاعة الله ورسوله، وفئة أخرى اختارت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وغلبت على علاقتها بالسلطان سمة الصراع التي تراوحت بين الوعظ والنقد وبين الثورة الصريحة والتمرد باعتبار أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، إضافة إلى فئة رأت أن وجود السلطان نفسه أو الدولة ليس أمراً واجباً أو ضرورياً إذا ما توافقت الجماعة على العدل لأنه أصل السلطة نفسها.

نتج عن إقرار الطاعة خشية الفتنة – علاوة على عوامل أخرى – تفرد العديد من الحكام والملوك بآرائهم، حتى أصبح ذلك، أحد سمات الملك والملوك وآلت السلطة السياسية إلى سلطة فردية مستبدة في العديد من مراحل الدولة العربية الإسلامية. ورغم أن النصوص الدينية الإسلامية لم تنشغل كثيراً بمسألة نظام الحكم ، وأن أكثر ما أكدت عليه هو إقرار مبدأ العدل ، إلا أنها كانت صريحة في تأكيد المبادئ التي تكفل العدل وفي أهمها مبدأ الشورى، فقد نصت آيات قرآنية على "وأمرهم شورى بينهم"، وأمرت آية أخرى النبي" وشاورهم في الأمر".وهذا ينسحب بداهة على أولي الأمر والحكام.فما المقصود بالشورى ، وكيف تساعد على إقامة العدل الذي هو أساس الملك؟.

تعني الشورى طلب رأي أهل الحل والعقد من الفقهاء وأكابر ورؤساء القبائل وأَصحاب المهن وقادة الجيوش، وقد كان ابن تيمية واضحاً عندما صرح في أنه لا غنى لولي الأمر عن المشاورة[١] ، بل زاد على ذلك في صدد شرحه لشرط الولاية العامة، الإمامة والخلافة، ورأى أن المعول عليه في اختيار من ينهض بالرئاسة العليا للدولة، هو الاختيار المستند إلى اتفاق السواد الأعظم من الأمة. وأقر الماوردي مبدأ الأغلبية حيث ربط صحة الاختيار بقبول الأكثرية من أهل المسجد[٢].

أما أعمق ما قيل في المسألة فقد جاء به ابن خلدون عندما ربط بين مفهومي أهل الحل والعقد والشورى، عبر ما أولاه أهمية خاصة وأطلق عليه مفهوم "العصبية" . يرى ابن خلدون أن حقيقة الحل والعقد إنما هي لأهل القدرة عليه، فمن لا قدرة له عليه فلا حل ولا عقد لديه وربما يظن بعض الناس أن الحق فيما وراء ذلك، وإن فعل الملوك فيما فعلوه من إخراج الفقهاء والقضاة عن الشورى مرجوح، وقد قال صلى الله علية وسلم: "العلماء ورثة الأنبياء.. لأن الشورى والحل والعقد إنما تكون لصاحب عصبية يقتدر بها على حل أو عقد أو فعل أو ترك. وأما من لا عصبية له ولا يملك من أمر نفسه شيئاً ولا من حمايتها إنما هو عالة على غيره، فأي مدخل له في الشورى؟ أو أي معنى يدعو إلى اعتباره فيها؟ اللهم إلا شوراه فيما يعلمه من الأحكام الشرعية فموجودة في الاستقامة خاصة. وإما شوراه في السياسة فهو بعيد عنها لفقدانه العصبية والقيام على معرفة أحوالها وأحكامها [٣].

ومحاولة نقل آراء ابن خلدون إلى الخطاب المعاصر، تسفر عن القول إن العدل هو المبدأ المركزي الذي تدور عليه فكرة السياسة الشرعية وصلاحيات الدولة. ويقتضي تحقق العدل وتعاون أفراد الأمة وتضامنهم لتنفيذ توجهات الدولة بما يساعد على الاستقرار والرخاء، بما في ذلك طاعة أولي الأمر والالتفاف حولهم. وكي يحوز الحكام على الشرعية ورضى الناس ينبغي أن يتم اختيارهم بشكل حر من أهل الشورى الذين هم أهل الحل والعقد كما يعتقد بعض الفقهاء والعلماء، أو أن يختارهم السواد الأعظم من المؤمنين كما يرى فريق آخر منهم.

وليس صعباً إيجاد صلة تربط بشكل جوهري وشديد الدلالة بين من يرى من الفقهاء والعلماء بضرورة اختيار الحاكم من قبل السواد الأعظم من المؤمنين ، وبين ما يعرف في الأدبيات السياسية الحديثة بإدارة الأمة وسيادتها. فمن هذه السيادة التي تمتلكها الأمة أو الشعب أساساً وتفوض بها ممثلين عنها، يحوز الحاكم شرعيته ويستمد صلاحياته التي تخوله ممارسة سلطته المحددة دستورياً كما يحدث في فضاء

الديمقراطيات المعاصرة. هذا ما يتصل بالجانب النظري والأصول الدينية والفقهية للشورى، فماذا عن ممارسة الشورى علمياً وكيف جرت الأمور على مستوى وقائع التاريخ الفعلي؟.

تبين العودة إلى تجربة الإسلام الأول كما ظهرت في عهد الرسول الكريم في مكة والمدينة بدءاً، وجود أمرين أًصبحا من ثوابت الحياة في المجتمع العربي الإسلامي ، الأول هوة الاتفاق ضمنا وصراحة حول ضرورة السلطة السياسية في المجتمع ، أما الثاني فهو التشديد على دور الناس/ المؤمنين في اختيار من يتولى هذه السلطة.

وبوفاة الرسول (ص) أثيرت مباشرة مسألة من يتولى الأمر بعده، إذ يوضح استحضار ما دار في سقيفة بني ساعدة من نقاشات وجدل، إن الخلاف لم يتمحور حول ضرورة السلطة وأهميتها في المجتمع، بل تمحور حول من يتولى السلطة وكيف؟ أي أن المجتمعون إنما كانوا يتحدثون عن سلطة زمنية، وينظرون إليها بوصفها شأناً دنيوياً، وبهذا أعطوا أنفسهم الحق في نقاشها [٤].

وباعتبار أن الإشارة الصريحة لمسألة الحكم والتي وردت في القرآن الكريم وأمرهم شورى بينهم لم تتضمن إيضاحات حول كيفية الشورى وشروطها وآلياتها، فإن تفسير ذلك قد وقع على كاهل الأئمة والفقهاء، وهناك من يرى أن عدم وضع قواعد للشورى كان مقصوداً، وذلك كي تتمكن الأمة من وضع القواعد والأسس التي تناسبها، حسب تغير الظروف والأحوال والأزمان[٥]، بدليل أن قواعد الشورى ومفاهيمها لم تكن واضحة في أذهان الذين عاصروا الرسول وشاركوا في اجتماع السقيفة، وما رافقه من انقسام المجتمعين حول من يخلف الرسول: الأنصار، أم المهاجرين، أم أهل بيته؟

وبالعودة إلى الفترة الراشدية التي احتضنت مجتمع المسلمين الأوائل وكيفية تولي كل منهم الخلافة يتبين بوضوح، إن هذه الكيفية قد اختلفت بعدد هؤلاء الخلفاء. فقد تولى أبو بكر الخلافة (١٠-١٣ هـ) في ما وصفه عمر بن الخطاب بأنه ببيعة فلتة لكن الله

وقى شرها[٦]. وتولاها عمر (١٣-٢٣ هـ) بعهد من أبي بكر أني استعملت عمر ابن الخطاب[٧]. ثم تولاها عثمان بن عفان (٢٣-٣٥ هـ) بعد أن عهد عمر إلى الستة، علي وعثمان وعبد الرحمن وسعد والزبير وطلحة أن يختاروا أحدهم للخلافة، وأخيراً تولاها علي بن أبي طالب (٣٥-٤٠ هـ) عن طريق البيعة العامة في المسجد، حيث قال في ذلك: إن بيعتي لا تكون خفية ولا تكون إلاّ في المسجد[٨]. وهذا يعني أن الدولة الإسلامية الأولى كانت تفتقد إلى نسق دستوري وعملي متفق عليه وموحد في قضية انتقال السلطة وتوليها. أما المراحل اللاحقة التي تحول فيها نظام الخلافة إلى ملك عضوض، فإن الحديث فيها عن الشورى أو الشرعية أصبح ضرب من ضروب التمني، رغم حرص بعض الخلفاء اللاحقين في العصرين الأموي والعباسي ومن ثم الفاطمي على إبقاء مجالس الشورى التي تم تعيينها مباشرة من قبل الحاكم، علاوة على أن قراراتها - إن وجدت - لا تكون ملزمة له، بل هي من باب النصح والاستئناس بالرأي، أي أن لها صفة استشارية غير ملزمة، غالباً ما تم تجاوزها في اللحظات التي تعارضت فيها مع إرادة الحاكم أو رؤيته، سوى أن ذلك لا يعني أنه لم يتواجد مع بطانة الحكام نخب منتقاة من كافة صنوف المعارف الموسوعية الطابع. وكما يعلل ابن خلدون فإنه في فترات الرخاء سرعان ما يعلو نجم أهل القلم وترتفع مكانتهم، ويصبحون الأقرب إلى الخليفة أو الأمير أو الوالي، وخصوصاً مع الخلفاء والحكام المتنورين كالرشيد والمأمون وعمر بن عبد العزيز والحاكم بأمر الله وغيرهم. أما في فترات الاضطراب ولحظات تهديد النظام، كحالات الحروب والتمرد أو تفاقم الخطر الخارجي فسرعان ما تتزايد مكانة أهل السيف، ويصبح القادة والعسكريون هم الأكثر نفوذاً والأقرب إلى الحاكم. وقد لاحظ ابن خلدون، برؤيته النافذة، وعدته المفاهيمية المستنبطة من خبرات الشعوب وتجارب الأقوام والأمم التي عاصرها أو ورثها عن سابقيه، لاحظ أن المشورة والنصيحة لا تكونا نافذتين ومؤثرتين إلاّ بصدورها عن أناس ذوو عصبية وشوكة، أي من أناس يملكون نفوذاً يقوم على

تضامنهم أو مرجعياتهم الدينية أو الاجتماعية وفي أوقات أخرى عسكرية أو عصبوية(٩).

هكذا يتبين من التفحص النقدي لوقائع الإسلام التاريخي، أي الإسلام كما تجسد في حياة العرب والمسلمين ونظام حكمهم، أن هناك إلى جوار فترات الرخاء والاستقرار التي شهدتها الدولة، وشجعت خلالها العلم والعلماء وأعلت مكانتهم، وكان لحضورهم إلى جانب أهل الحل والعقد، بوصفهم ضمير الأمة والمدافعون عن الصالح العام، تأثيراً مباشراً على فاعلية مجالس الشورى وحضورها المؤثر، إلى جوار فترات الاستقرار تلك، تواجدت فترات أخرى مديدة ازداد فيها بطش الدولة وشهدت تعنت الحكام والولاة وتفردهم بآرائهم، وما ولد مراحل الاستبداد والطغيان، التي تم فيها اختزال إرادة الأمة بإرادة الحاكم وانقطعت فيها قنوات التواصل بين الدولة والمجتمع، وبكل أسف شكلت تلك المراحل جل تاريخنا الوسيط والحديث، وهذا ما يفسر تواجد شروط الحكم ومواصفات الحاكم في أدبيات النهضة العربية الأولى، خصوصاً عند ممثلي تيار الإصلاح الديني، وما رافق ذلك من طرح لمسألة المستبد العادل كأحد أشكال الخلاص من الوضع الذي لم يعد قابلاً للبقاء.

غير أن الخطوة الحاسمة التي لم يطرحها تيار الإصلاح الديني الحديث (الأفغاني، عبده، التونسي، الكواكبي) بشكل جذري، هي كيفية الفصل بين شخص الحاكم وصفته الاعتبارية وبالتالي صلاحياته. هذا الفصل الذي لا يتم إلاّ بإقرار دائم يتضمن نصوصاً قانونية صريحة ومعروفة للجميع وملزمة في الوقت نفسه تحدد صلاحيات الحاكم وسبل انتقائه ومواصفاته ومدة تواجده، وتحدد بالتالي القواعد التي تحكم العلاقة بين أطراف الحكم من تشريع وقضاء وسلطة تنفيذية، وحدود كل منها بما يضمن استقلاليتها وديمومتها، أي أن الهاجس الأساسي هنا إنما يتمثل في التساؤل التالي: كيف يمكن أن نتجنب ربط مصير الأمة والمجتمع بشخصية حاكم فرد، حتى لو كان عادلاً وحازماً وذا نوايا طيبة، فما بالنا إن كان جائراً أو جاهلاً أو أنانياً أو مغروراً؟

المسألة الأساس في هذا المستوى من التحليل تتصل بقدرة المجتمع على المشاركة في إدارة وتسيير شؤونه عبر المشاركة الدائمة والفعالة لأوسع فئاته وطبقاته وفاعلية السياسيين بما يكفل عدم التفرد بالسلطة أو احتكارها من قبل أقلية أكانت دينية أو عشائرية أو إثنية أو عسكرية أو اقتصادية، أي بما يقطع الطريق على الأقليات الأولويغارشية والطغم تحت أية مسميات.

الديمقراطية: تعدد المرجعيات وتنوع التجارب

لعل أبرز التحديات التي تواجه المجتمع العربي راهناً، وترسم إلى حد بعيد ملامح تطوره المستقبلية، هو التحدي الديمقراطي، فالديمقراطية ليست مجرد نظام سياسي أو صيغة للحكم، بقدر ما هو أسلوب في الحياة تزداد نجاعته بقدر مطاولته كافة مجالات المجتمع في المؤسسات والمدارس والنوادي والمصانع والنقابات والجامعات وأشكال التنشئة والتنظيم والإدارة.

ولا يحتاج الخطاب الثقافي العربي إلى تأكيد أهمية الديمقراطية وبيان ضروراتها حيث تشكل تلك الأهمية القاسم المشترك لمعظم التيارات الفكرية والسياسية على الساحة العربية-مع بعض الاستثناءات(١٠) وإن اختلفت وجهات النظر في مقومات هذه الديمقراطية ومرجعياتها وسبل تحقيقها. بحيث أضحى الوعي المتزايد بأهمية الشرط الديمقراطي ، ودعوات تأجيل بنائه، تحت أية ذريعة أو شعار تضعف وتفقد مصداقيتها تدريجياً، بعد أن ثبت بالعديد من الأدلة والمؤشرات أن تأجيل المطلب الديمقراطي ووضعه في آخر قائمة الأولويات كان السبب وراء فشل معظم المحاولات العربية الجادة باتجاه النهضة أو التنوير أو بناء الدولة -الأمة، وهو بهذا المعنى قد ساهم في إدراكه وتفسيره.

وإذا كانت الديمقراطية في أحد أهم وجوهها هي الدور الذي يقوم به الناس لاختيار نموذج الدولة التي تحدد الحقوق والواجبات لكل المواطنين طبقاً للتشريعات والقوانين

(الدستور) فإن وجود الديمقراطية وتعميقها متوقف إلى حد كبير على القيام بهذا الدور[١١].

ولكي يتمكن الناس من ممارسة حقوقهم وصون حرياتهم، يجدر بنا التحذير من الفهم الشائع الذي يرجع الديمقراطية إلى مجرد انتخابات، ومن ثم وفي خطوة لاحقة يتم التشكيك في نزاهة الانتخابات ومدى تمثيلها للواقع الاجتماعي، وأكثر من ذلك ليست الديمقراطية من وجهة نظر نقادها سوى تعبير عن المساواة الشكلية والمجردة، أي المساواة القانونية بين المواطنين، بما يكفل حرية الأقوياء والمالكين، ويبقي على الطابع التناحري للفئات والطبقات الاجتماعية، مانحاً في الوقت نفسه الصفة القانونية للاستغلال الذي يمارس داخل المجتمع الديمقراطي[١٢].

يضيف مناوئو الديمقراطية ونقادها العرب إلى لائحة الانتقادات والطعون السابقة طعناً جديداً مفاده أن الديمقراطية نمط غربي ظهر في أثينا وتطور في أوروبا بالتعبير عن ضرورات تاريخية مرتبطة بظروف خاصة مرت بها أوروبا أثناء انتقالها من العصور الوسطى إلى العصر الحديث، وإن اعتناق الأفكار الديمقراطية ومتعلقاتها: العقلانية والعلمانية والمجتمع المدني، في المجتمعات غير الأوروبية، إنما يعني محاكاة ببغائية تنم عن انعدام الشخصية والوقوع في إسار الاستغراب والتبعية ومن ثم التفريط بالخصوصيات الاجتماعية والثقافية للشعوب الأخرى[١٣].

ليس من الحكمة تجاهل الانتقادات السابقة، رغم أن بعضها يأتي ضمن إطار الحق الذي يراد به باطل، كما أن ذلك التجاهل إن حدث فإنه يشكل بالاعتبار المعرفي، تنكراً للإرث الديمقراطي الذي يقول أساساً بالرأي الآخر المختلف والمغاير وهذا ما يحملنا على التساؤل عن جدية تلك الانتقادات ومدى مصداقيتها، وهل تطال مكونات التنظيم في المجتمع الليبرالي، أم تقتصر على جوانب تطبيقية يمكن تجاوزها؟ ثم هل تعنى الانتقادات بواقع وآفاق النظام الليبرالي، أم ترتكز على مشكلات واقتراحات آنية

واقعية، وبصيغة أخرى هل نحن بصدد نقد موجه للبنية الليبرالية أم للتاريخ والفقه الليبرالي، وبالتالي للمنظومة الديمقراطية ومدى نجاعتها تاريخياً ومستقبلاً؟

يصعب الحديث عن الديمقراطية، بالمعنى النظري على الأقل، دون العودة للأسس التي قامت عليها وتطورت مع تجارب وخبرات الشعوب التي غادرت إرث العصور الوسطى وشكلت قطيعة مع النظام الاجتماعي القديم الذي كان سائداً في أوروبا آنذاك. فمن الناحية السياسية كان النظام القديم مرتكزاً على الحق الإلهي للملوك ومدعماً بالسلطة المطلقة بالمعنيين الديني والسياسي، أما من الناحية الاقتصادية فقد كان الإنتاج الزراعي القائم على نمط إنتاج إقطاعي تراتبي هو النمط السائد والذي قننت بموجبه الملكية وخصوصاً ملكية الأرض المرتبطة أساساً بالإقطاعيين والنبلاء من طرف، وبمجموع صغار المالكين والأقنان من طرف آخر. في حين يستمد النظام الاجتماعي القديم مشروعيته الأيديولوجية من تصور يربط السلطة بالمقدس من جهة، وينظر إليها بوصفها تجمع دينيٌ وسياسيٌ من جهة أخرى، هذا التصور الديني الذي عمل على صياغته ونشره كل من رجال الكهنوت وفقهاء القانون المقدس ومنظري الحق الإلهي للملوك.

ضمن هذا السياق التاريخي يمكن فهم جملة التغيرات والحركات الاجتماعية-الإصلاحية والثورية-التي شهدتها أوروبا وساهمت في تكريس قطيعة متعددة الوجوه مع عالم العصور الوسطى. كما يمكن تحديد مكونات المنظومة الديمقراطية التي قامت أساساً على الفلسفة الليبرالية بمفرداتها الأساسية:العقد الاجتماعي مقابل نظرية الحق الإلهي للملوك، التعددية السياسية بديلاً للحكم المطلق، إقرار الحريات العامة في الحياة والملكية والعمل والرأي والمعتقد، بعد أن كانت هذه الحريات مقتصرة على الملك والنبلاء، أي على أقلية أرستقراطية تملك حق التصرف في شؤون الدنيا والآخرة، والانتقال بالتالي إلى مبدأ سيادة الأمة/الشعب المبني على حق المواطنة الذي مثل تجاوزاً للانتماءات السابقة في صيغها الدينية والمذهبية والإثنية، وقد جاء مبدأ فصل

السلطات واستقلالية الأجهزة القضائية والتشريعية عن السلطة التنفيذية ليحد من تمركز السلطة ويعيق إمكانية التحكم غير الشرعي في شؤون الدولة والمجتمع(١٤).

على أن الأسس والمبادئ والتحولات السابقة والتي تدلل على تاريخية النظام الديمقراطي وقابليته للتكيف مع المستجدات، ليست سوى نتائج مباشرة ومجردة لواقع اجتماعي شديد التعقيد والتباين عاشته أوروبا طيلة ما يربو على ستة قرون، مليئة بالانفجارات والصراعات، ولكنها حافلة أيضاً بالإنجازات والتحولات التي أصبحت إرثاً إنسانياً يصعب الاستغناء عنه أو تجاهله. غير أن الديمقراطية، وفق المعنى السابق، ليست وصفة جاهزة يمكن استيراد نموذجها الغربي مثلاً أو غيره من النماذج، رغم أهمية الاستفادة منه، من خلال تمييز المشترك والعام في الديمقراطية عن الخاص فيها، والعام في الديمقراطية هو أنها ذلك النظام السياسي الأكثر تعبيراً عن مقاومة الشعوب للظلم والقهر والتمييز، والأكثر تجسيداً لتطلعاتها للحرية والعدل والمساواة. وبهذا المعنى يكون العام في الديمقراطية عنصراً مشتركاً يتواجد في ثقافات الأمم والشعوب بدرجات ونسب متفاوتة(١٥). والديمقراطية في إحدى أهم وجوهها تأكيد على حق الشعوب في تقرير مصيرها وصنع حياتها وفقاً لرؤيتها، هذا الوجه الذي غالباً ما يتم السكوت عنه والتقليل من أهميته عند الحديث عن الديمقراطية الغربية التي تصدّر إلينا مصطبغة بمصالح صانعيها وأطماعهم.

ونحن هنا لا نقلل من أهمية الديمقراطية الغربية، بقدر ما نشير إلى الطابع المزدوج لحداثة الغرب، فحرية الرأي والمعتقد والاحتكام إلى الشعب بالإضافة إلى المساواة السياسية والقانونية للمواطنين وصولاً إلى التداول السلمي للسلطة استناداً إلى مبدأ الاقتراع التمثيلي، تشكل في معظمها إسهامات لتجربة الحداثة الغربية، وهي بقدر ما تطمح لأن تكون أنموذجاً كونياً يحتذى به بقدر ما تقوم تجاربها وعلاقاتها مع بلدان العالم الأخرى التي مرت بأطوار عديدة أولها الغزو العسكري وآخرها محاولات

الهيمنة الشاملة على مقدراتها ومواردها، تقدم أنموذجاً سلبياً يخلق الرفض ويلاقي الاستهجان والمقاومة عند أبناء جنوب العالم.

وباعتبار أن نظام الحكم الديمقراطي يحيل على جملة من التطورات والأحداث التاريخية التي عايشتها المجتمعات الديمقراطية، فإن السؤال سرعان ما يفرض نفسه:هل من الضروري أن تقطع المجتمعات والدول الأخرى نفس المراحل وتعيش نفس التجارب التي شكلت الغرب الديمقراطي كي تبني نظم حكم ديمقراطية، أم أن هناك إمكانية للاستفادة من تلك التجارب وبما يتناسب مع خصوصية أوضاع كل مجتمع وبما يستجيب لحاجاته؟

قدم التاريخ المعاصر للعديد من المجتمعات في أمريكا اللاتينية وآسيا الدليل الملموس على إمكانية بناء نظم ديمقراطية مغايرة لديمقراطيات الغرب الأوروبي – الأمريكي، استطاعت أن تستجيب لخصوصيات مجتمعاتها وأن تحتفظ في آن بالقواعد والأسس العامة التي تبني عليها الديمقراطية وتتميز بها عن بقية أشكال الحكم المعروفة في العالم ، كما أن بعضها،كاليابان مثلاً، استطاع أن يجمع بين الديمقراطية للحكم سياسياً وبين درجة عالية من النمو اقتصاديا وبين الحفاظ على خصوصيات البنى والمؤسسات والقيم المحلية اجتماعياً. وأعني أن عدة بلدان في جنوب وجنوب شرق آسيا استطاعت أن تجد طريقها الذي حفظت من خلاله التوازن الصعب بين خصوصياتها الثقافية والاجتماعية وبين انخراطها الفاعل في العصر عبر الإنتاج والمشاركة في أهم قواه الديناميكية، أي العلم والتكنولوجيا ومتعلقاتهما.

ويبدو بالفعل أن تأمل التجارب الآسيوية ودراستها هام ومفيد على أكثر من صعيد ، فهي تقدم البرهان على أن التجربة الأوروبية في الحداثة والديمقراطية ليست الوحيدة في العالم، كما أن لها دلالات حاسمة على مستوى التفكير والممارسة في العالم العربي، فقيامها في مجتمعات وثقافات غير أوروبية دليل على البعد الإنساني للتجارب

الديمقراطية وحجة على مدعي الخصوصية والأصالة ، الذين يحاربون كل فكر وافد تحت ذريعة المحافظة على الذات الحضارية والهوية المهددة، كما أن نجاحها – النسبي طبعاً – حجة على دعاة تقليد الغرب وتبني التجارب دون النظر إلى حيثيات وظروف المجتمعات الأخرى. والدرس الآسيوي واضح جداً لمن أراد التعلم، وهو يتكثف في القول: إن بإمكاننا كعرب أن نكون معاصرين ومشاركين بفعالية في إنتاج المعرفة والقوة والثروة بوصفها رموز العصر وشواهد البقاء الفاعل، ونحافظ في نفس الوقت على خصوصياتنا الثقافية والحضارية أي شئتم على أصالتنا وهويتنا.

كي لا نبقى حقل الاختلافات لابد من تحديد الملامح العامة والأسس الأولية التي تمكننا من ولوج وتملك مقومات نظام الحكم الذي يحقق العدالة ويحافظ على الحرية ونعلّق ولو مؤقتاً تسمية (نظام ديمقراطي – شوري...الخ) حتى لا تبدو خلافاتنا كلامية في مبدئها ومنتهاها. فكيف نبدأ؟ وما هي الشروط الكافية كما يقول المناطقة لتأسيس نظام كهذا؟.

لعل أول هذه الشروط يتمثل في الطابع الدستوري للدولة الوطنية / القومية، أو في سيادة دولة القانون، وينظر الحقوقيون إلى الدولة الليبرالية التي ولدت في بلدان الغرب، بوصفها نموذجاً لدولة الحق والقانون، وهي نتاج مركب من نظريات القانون الطبيعي (غروثيوس، بوفندورف) ومن ثم نظريات العقد الاجتماعي عند (لوك – روسو) وصولاً إلى مبادئ القانون الوضعي في القرن الثامن عشر.

ومع دولة الحق والقانون انتقل الرعايا ليصبحوا مواطنين، وتحولت الأعراف إلى قوانين مكتوبة ومعروفة تحدد الحقوق والواجبات لأناس متساويين مهما كانت أعراقهم وأديانهم ومذاهبهم وانتماءاتهم، هذا بالإضافة إلى تحول آخر لا يقل أهمية عن سابقه وهو الانتقال من المؤسسات باعتبارها الأطر التنظيمية والقانونية للحياة في المجتمعات الحديثة إلى المؤسساتية بوصفها جملة العلاقات التي تحدد علاقة الفرد بالمجتمع ومن

ثم علاقة المجتمع بالدولة وكيفية انقسامه على نفسه لإدارة وتنظيم شؤونه عبر هيئات ومنظمات منتخبة ديمقراطيا ومعبرة عن موازين القوى الاجتماعية في كل مرحلة من مراحل تطور المجتمع.

ولا يكتمل الطابع الدستوري للدولة الحديثة دون التأكيد على قضاء مستقل عن السلطة التنفيذية –التشريعية – القضائية. كما أكد عليها الإعلان الفرنسي لحقوق الإنسان والمواطن عام ١٧٨٩ بقوله: أي مجتمع... لايحدد فيه فصل السلطات لايملك دستوراً[١٦]. وبهذا الدستور يمثل القانون الأسمى في تنظيم المجتمع، وهو ما توافقت عليه لاحقا معظم الشرائع الدولية وفي طليعتها الإعلان العالمي لحقوق الإنسان.

وقد لاحظ طه حسين في كتابه مستقبل الثقافة في مصر أن الحديث الجاد في الديمقراطية لا ينفصل عن آليات التعليم والتثقيف في المدرسة والجامعة والإعلام ، التي يفترض فيها أن تكون الحوامل الفعلية لإنجازات الحداثة وفي مقدمتها: التوجه العقلاني ، بناء مفهوم المواطنة، صون حريات التعبير والانتماء بما يكفل بناء الإنسان الذي يمثل بحق الوسيلة والغاية لأي تنظيم اجتماعي.

يحيل طه حسين في كتابه السابق وبشكل مباشر على دور الثقافة وأهميتها في إعداد الإنسان ، ويشير إلى ضرورة بنائه وفق آليات التربية المدنية التي تتكامل مع تفعيل المؤسسات والتنظيمات الحرة المدافعة عن مصالح الأفراد والجماعات في إطار القانون.

أما النقد الذي يصعب تجاهله والموجه أساسا إلى دولة الحق والقانون، فهو النقد الذي يثير الشك والتساؤل حول فائدة القانون وأهميته، طالما أن الذين يضعون القوانين ويسنون التشريعات، إنما يفصلونها بما يتطابق مع مصالحهم ورؤاهم . بالرغم من وجاهة هذا القول وصحته إلى حد بعيد، غير أنه قول منقوص؛ بمعنى أنه وبعد أن توضع القوانين، فسرعان ما تتحول إلى مكسب اجتماعي يصعب التراجع عنه أو

النكوص عليه، علاوة على كونه تعبيراً عن تأثير وثقل الفئات والطبقات الاجتماعية التي وضعته ودلالة على مشاركتها الفعالة في الحياة العامة . زد على ذلك ، وهذا هو الأهم، أن التطور الاجتماعي الذي لا يفتأ يكشف عن نواقص هذا القانون أو ذاك ويفصح عن عدم القدرة على مواكبة وتغطية المستجدات، يوجب صياغة قوانين جديدة أو تعديل تلك القديمة بما يتوافق مع ما يطرح، معبراً في المآل البعيد عن التغيرات التي تشهدها موازين القوى الاجتماعية. وهذا يعني أن إمكانية تجديد القوانين القديمة واستحداث الجديدة ، هذه الإمكانية المكفولة قانونياً، هي الضمانة الفعلية لاستمرار الديمقراطية، والمؤشر الدال على قدرة المجتمع الديمقراطي ودولته، اعني دولة الحق والقانون، على التطور والمواكبة من خلال ترك باب التشريع والاجتهاد مفتوحاً، لاشتراع ما يلزم من النصوص والقوانين التي تستجيب لحاجات الحاضر المتوالدة باستمرار.

وهذا ما عبرت عنه الدعوات المعاصرة لتجديد الديمقراطية الاجتماعية، أو ما بات يعرف باسم " الطريق الثالث". فمنذ نهاية الحرب العالمية الثانية أعلن الديمقراطيون الاجتماعيون بوضوح أنهم اكتشفوا طريقاً متميزاً عن رأسمالية السوق الأمريكية وعن الشيوعية السوفيتية. وقد استخدم مصطلح الطريق الثالث في الدول الاسكندنافية وخصوصاً في السويد بوصفه للإشارة برنامجا نوعيا للتجديد. وفي أحدث ما نشر في الموضوع يستخدم (أنتوني جيدنز) أهم تعبير إلى الإطار المرجعي للتفكير وصياغة السياسات التي تهدف إلى مواءمة الديمقراطية الاجتماعية مع عالم تعرض لتغيرات جذرية خلال العقدين أو الثلاثة عقود الماضية ... إنه محاولة لتجاوز كل من الديمقراطية الاجتماعية الكلاسيكية والليبرالية الجديدة[١٧]. وبالرغم من أن نقاد حركة الطريق الثالث يثيرون أسئلة جدية وإشكالية حول فلسفة الطريق الثالث مثل: هل يمكن الأخذ باقتصاد السوق ورفض النتائج الاجتماعية المرتبطة به (مجتمع السوق)؟.

وهل يشكل الطريق الثالث خياراً جديداً بين الرأسمالية والاشتراكية، أم أنه محاولة لإضفاء صبغة إنسانية على النظام الرأسمالي؟. إن الأسس التي يرتكز عليها منظروا الأحزاب الديمقراطية الاجتماعية لتطوير الأداء الديمقراطي عبر الاقتصاد المختلط ودولة الاستثمار والرفاه الاجتماعي وتنشيط فاعلية المجتمعات المدنية والاهتمام بالجماعات المحرومة وقضايا البيئة والتنمية، تشير مجتمعة إلى شكل وعي مغاير بالتحديات والمشكلات التي تطرحها المستجدات الإقليمية والكونية ومحاولة للإسهام في الإجابة عن أسئلتها.

وبالعودة.إلى الإشكالية الأساسية التي انقسم حولها المفكرون والمثقفون العرب، ومن حولهم فئات واسعة، حول الشكل الأنسب والأكثر نجاعة للحكم، ومدى قربه من الشورى عند طرف ومن الديمقراطية عند آخر،؛ يتبين أن الموقف من هذه الإشكالية مازال يتأرجح بين رؤيتين: تحرص أولاهما على التشديد على التعارض واختلاف المرجعيات الاجتماعية والتاريخية لكل من الشورى والديمقراطية . بمعنى أن الفضاء المفاهيمي للمبادئ والأفكار الديمقراطية ينتسب إلى منظومة سياسية تاريخية كانت نتاجا للتطورات والصراعات التي خاضتها الشعوب عبر تاريخها الطويل، ووجدت تعبيراتها الواقعية من انتصار البرجوازية الأوروبية بثورتها الصناعية وعقلانيتها ومكتسباتها المعرفية. في حين تنتمي الشورى إلى سياق تاريخي مختلف رأينا أهم محطاته الواقعية فيما سبق من هذا العرض. يستنتج أصحاب هذه الرؤية من الطرفين أنه لابد من اختيار الشورى أو الديمقراطية وليس هناك من حل آخر.

في حين يعتقد أصحاب الرؤية الثانية أن الخلاف حول الشورى أو الديمقراطية إنما هو خلاف شكلاني ولا ينطوي على مضامين فعلية. إذ ما الفرق من حيث المضمون بين أن نقول أن الحاكمية لله، لأن الناس هم الذين يفسرون ما تعنيه آلية تلك الحاكمية، أو نقول أن الناس هم الذي يحددون طبيعة الحكم ويشرعون القوانين الناظمة له[١٨]. يقول راشد الغنوشي عندما أعلن أن الحكم لله معناه أنه لاحق للملوك أن يستبدوا

بالسلطة وصناعة القانون، ولاحق لرجال الدين أن يحتكروا تفسيره والنطق باسم الله. ولذلك فإن الحكم لله ثورة معناها أن الحاكم سلطة تنفيذية وليس سلطة تشريعية. وعندما نقول إن الحكم لله لا نقصد أن الله يتجسد ويأتي ويحكمنا مباشرة. وإنما معناه حكم القانون وليس الحكم للملوك ولا النخب المعزولة؟. وهنا نجد أن معنى حكم الله يرتد في النهاية إلى حكم الشعب مباشرة، وخلال ممثليه. وأن الاجتهاد الذي يسبق هو الذي يحظى بإجماع وبغالبية الشعب. إذ أن الشعوب هي التي تختار القانون وتختار مدخلها للإسلام[١٩]. وبمقارنة هذا النص مع خطابات العلمانيين يستنتج الدكتور حامد خليل أن الصدام يدور في كثير من المسائل ويحتدم حول الشكل ولا ينسحب على المضمون، ويعتقد أن التركيز على المضمون، وهو هنا طريقة الحكم، يتيح إمكانيات جديدة للحوار المجدي حول معظم المسائل المطروحة [٢٠]. وهذا ما دفع بعض المفكرين العرب إلى نحت مصطلح تركيبي هو "الشورقراطية" في محاولة لتجاوز التعارض المشار إليه سابقاً.

هل نستخلص مما سبق أن الخلاف بين أنصار الشورى وأنصار الديمقراطية هو خلاف شكلي لا ينم عن مضامين حقيقية؟ وهل تكمن المشكلة في صراعات المثقفين وانقسامهم إلى مؤيد ومعارض للشورى تارة وللديمقراطية تارة أخرى، أم أن هذا الصراع-وبعد شحنه أيديولوجيا حتى الحد الأقصى-هو ترميز موحى ودال على اختلاف المرجعيات التاريخية والمعرفية لكل من الديمقراطية والشورى؟ يسهل التدليل على جوانب الخلاف-معرفياً وتاريخياً-بين الشورى والديمقراطية، كما تسهل نسبة كل منهما إلى حضارة وتاريخ مختلفين، والتدليل بالتالي أن الشورى أقرب للمخزون الثقافي والخيال الاجتماعي للعرب والمسلمين، ومن هنا فإن الخيار العاطفي، ولنقل الوجداني، لا يتردد في ترجيح الشورى على الديمقراطية، لكن الأهم على صعيد الاختيار العقلاني والضرورات الواقعية للعصر الذي نعيش هو التقاط الجوهري والمشترك في كلتيهما. فما يشكل قاسماً مشتركاً بين الشورى والديمقراطية بالإضافة

إلى كونهما معنيتين بنظام الحكم، إنما يكمن في مفهوم المشاركة بأوسع معانيه، فلا أحد ينكر أن المقصود من الشورى في التأويل النهائي هو مشاركة الناس في اختيار حكامهم بوصفهم أدرى بشؤون دنياهم، كما يعتبر عنصر المشاركة الأساس الذي يقوم عليه النظام الديمقراطي عبر إشراك الفاعلين الاجتماعيين في اختيار وإدارة وتنظيم شؤونهم، وبما يتناسب مع مستواهم المعرفي والإنتاجي، وبالتالي، مع درجة تطور مجتمعهم.

استخلاصات ختامية:

أميل إلى الاعتقاد، بأن مزايا المشاركة "Paraticipation" وما تنطوي عليه من فوائد اجتماعية، إنما تهم الدول والمجتمعات المجزأة أو المهددة، أو تلك التي لا تزال تعاني من ضعف وتيرة التطور، وذلك لما تقدمه لها من إمكانيات واسعة لامتصاص الصدمات الناتجة عن الحراك الاجتماعي، بوصفها صمام الأمان الذي يدرأ خطر الصراع الأهلي والحروب الداخلية، وذلك بالنظر إلى الاعتبارات التالية:

أولاً: المشاركة قاعدة الشرعية، بمعنى أن المشروعية تترسخ بمقدار ما يستطيع أي نظام للحكم إشراك أكبر قاعدة اجتماعية في إدارة وتنظيم شؤون المجتمع، وذلك من خلال فعاليات بنى ومؤسسات المجتمع المدني بتمثيلها الواسع واستقلالها النسبي عن الدولة.

ثانياً: تعني المشاركة المسؤولية الجماعية عن السياسات والخطط والأهداف، كما تعني تحمل مسؤولية نجاحها أو فشلها. أي أن الخيارات الأساسية للمجتمع تأتي نتيجة مداولات واسعة يشارك فيها المعنيون بالشأن العام على اختلاف انتماءاتهم على قاعدة المواطنة.

ثالثاً: من مزايا المشاركة أنها تقطع الطريق على الاحتقان، وتمنع تراكم القهر الناتج عن الإقصاء والاستبعاد. هذا الاحتقان الذي يشكل البؤرة لتوالد العنف والنزوع التدميري ويهدد السلم الأهلي.

رابعاً: تسمح المشاركة، بما تعنيه من حريات رأي وعقيدة وصحافة حرة وتعدد المنابر، تسمح بتقليل الأخطاء والممارسات اللامسؤولة مثل الأمراض البيروقراطية والمحسوبيات والرشوة من خلال إطلاق مبدأ المحاسبة والإعلاء من شأن الشفافية التي تعني إمكانية تنشيط الهيئات الرقابية الحكومية والشعبية التي تعنى بالصالح العام.

خامساً:تساهم المشاركة الواسعة للمواطنين في قضايا مجتمعهم، في إيلاء أهمية خاصة للرأي العام، الذي يصبح بدوره قوة مؤثرة في الأحداث والتحالفات الاجتماعية المتغيرة، وتعتبر من أهم المؤشرات على ترسخ مفهوم دولة الحق والقانون.

سادساً: المشاركة هي رهان التنمية البشرية المستدامة ومؤشرات انخراط تنظيمات وهيئات المجتمع المدني في التفاعل مع الإجراءات والأهداف التنموية وعلى الصعد الاقتصادية والثقافية والاجتماعية وصولاً للمستوى السياسي، فقد برهنت التجارب التنموية أن العائق الأساسي الذي كمن وراء تعثر التجارب التنموية في معظم الدول النامية هو ضعف مشاركة المواطنين وانخفاض مساهماتهم في رسم وتنفيذ السياسات التنموية سواء على صعيد المجتمعات المحلية أو على الصعيد الوطني العام.

سابعاً: يشكّل الحوار الاجتماعي بوصفه سلوكاً اجتماعياً وثقافياً موغلاً في القدم، القاسم المشترك بين مختلف اتجاهات وتيارات وقوى المجتمع. ويستند إلى مرجعية عقلية ودينية صريحة يمكن من خلالها السيطرة على النزاعات والمواقف المتباينة والوصول إلى حلول مشتركة تأخذ مصالح كافة الأطراف بعين الاعتبار مما يسهل إدارة الأزمات بمختلف صيغها وأشكالها، ويضعف من ثقافة العنف والتناحر والاحتقان، علاوة على أنه يقلل من ازدواجية التعبير بين ما يظهره الناس وما يبطنون وذلك من خلال تأكيد الحوار على الحق في حرية

القول والعقيدة، واعتماد الحجة والبرهان في المداولات والنقاشات التي تفترض احترام التنوع السياسي والثقافي على أرضية المواطنة التي تفسح المجال للجميع بغض النظر عن العرق أو اللون أو الدين أو المذهب للإسهام في الحياة العامة.

ثامناً: ولا يقل أهمية عما سبق تعزيز الوعي الديمقراطي والمدني من خلال التربية والتعليم في الأسرة كما في المدرسة والجامعة ومؤسسات العمل. فمن المؤكد أن البشر الذي يحسنون إدارة وتنظيم شؤون حياتهم في هذه المجالات المختلفة سيكونون أكفأ من غيرهم عندما يتصل الأمر بالمجال السياسي أي أن الممارسة الديمقراطية على مستوى الأفراد والأسرة وجماعات المصالح والمنظمات الأهلية والأحزاب ضمن فضاء المجتمع المدني تشكل عملية متواصلة قابلة للصقل والتطوير عبر آليات التربية والتعليم بالمعنى الحصري وعبر فاعلية الثقافة بأشكالها المكتوبة والمقروءة والمرئية بالمعنى الأوسع.

المسألة إذاً في أكثر أبعادها جوهرية، هي مسألة المشاركة، ولا ضير بعد ذلك في تسميتها شورى أو ديمقراطية أو سواها. أما المماحكات الكلامية والاستبدالات اللفظية بين الشورى والديمقراطية، أو بين المجتمع الأهلي والمجتمع المدني، أو بين المجتمع والجماعة، فما هي في معظمها، إلا معارك أولئك المثقفين الذين تطربهم(الجعجعة) وينسون الطحين!.

المراجع والهوامش

(١) ابن تيمية، **السياسة الشرعية**، كما ورد في كتاب فهمي جدعان، **الطريق إلى المستقبل**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر،عمان، ١٩٩٦،ص٢٨٦.

(٢) فهمي جدعان، **الطريق إلى المستقبل**، ص ٢٨٧.

(٣) ابن خلدون أبو زيد عبد الرحمن بن محمد، **المقدمة**، تحقيق عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر، القاهرة، ص٢٧٨-٢٧٩.

(٤) محمد عبد الجبار، **وعي السلطة والعلاقة بين الدين والدولة في مجتمع الخلفاء الراشدين**، الحياة، العدد١٢٧٢٩، ٧كانون الثاني ١٩٩٨.

(٥) محمد رشيد رضا، **المنار**، دار المعرفة، بيروت، ط٢،ج٤،ص٢٠١.

(٦) **صحيح البخاري**، دار القلم، بيروت، ص٥٨٧.

(٧) ابن قتيبة، **عيون الأخبار**، منشورات الشريف الرضي، القاهرة، ١٩٢٥، ج١، ص١٤.

(٨) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج٣، ص٩٨.

(٩) ابن خلدون، **المقدمة**، مفهوم العصبية.

(١٠) ثمة أصوات أخرى، قليلة على أية حال ومن بينها أصوات لأحزاب، كحزب التحرير الإسلامي، تصرخ بقوة النظام السياسي الإسلامي هو نظام الشورى، وأن نقيضه المطلق، الديمقراطية، كفر صراح، انظر فهمي جدعان، **الطريق إلى المستقبل، مرجع سابق**، ص٣٠٣.

(١١) Agnes Heller,On Formal Demoracy in:John Keane:Civil Sociaety and the State,verso, New York,1988, p.129.

(١٢) تبين العودة إلى كتابات ماركس في هذا الشأن أن النقد الأعمق للتصور الليبرالي قد وجهه ماركس في إطار نقده للأفكار الهيغيلية، الأيديولوجيا الألمانية ، ترجمة محمد مرعي، دمشق ،١٩٨٤.

(١٣) انظر كمثال على هذا الاتجاه: مجدي حماد، مناقشة لبحث وجيه كوثراني، **المجتمع المدني والدولة في التاريخ العربي**، ندوة بيروت عن المجتمع المدني، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت،١٩٩٢، ص١٤٦.

(١٤) لمزيد من التوسع انظر: كريم أبو حلاوة، **إشكالية مفهوم المجتمع المدني**، دار الأهالي، ١٩٩٨.

(١٥) فواز طرابلس، **هل الديمقراطية مطلب افتراضي**، ملحق النهار الثقافي، بيروت، ١٠-٢-١٩٩٦.

(١٦) ميشال مياي، **دولة القانون**، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٨٨، ص٨.

كذلك انظر غرايم جيل، **ديناميات السيرورة الديمقراطية والمجتمع المدني**، ترجمة شوكت يوسف، وزارة الثقافة،دمشق، ٢٠٠٥.

(١٧) أنتوني جيدنز، **الطريق الثالث، تجديد الديمقراطية الاجتماعية**، ترجمة أحمد زايد ومحمد محي الدين، مراجعة وتقديم محمد الجوهري، المجلس الأعلى للثقافة والنشر، القاهرة، ١٩٩٩،ص٦٠.

(١٨) حامد خليل، **قضايا الحوار والصدام فى الثقافة العربية**، ،منشورات دار المدى، دمشق، ٢٠٠١.

(١٩) المرجع نفسه.

(٢٠) حامد خليل ، **المرجع السابق**، ص٢٠.